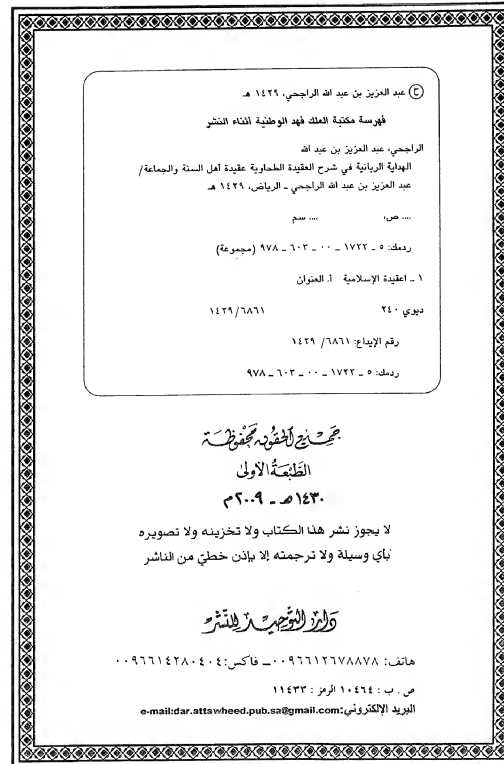
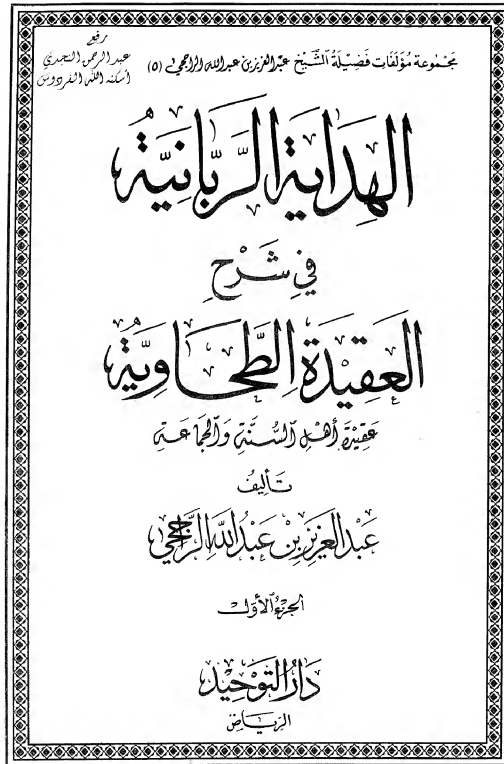


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الهداية إلى
في شرح
العتبة الطاهرة
عبد الرحمن النجدي

١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فهذا الكتاب (الهجاء الزائنة في شرح العقيدة الطحاوية) وهو شرح لرسالة الإمام الطحاوي رحمه الله المسماة: (العقيدة الطحاوية)، وهذه الرسالة في عقيدة السلف الصالح والتي تلقنها الأمة بالقبول.

وهي بيان لعقيدة أهل السنة والجماعة، وإن كان هناك بعض الملحوظات اليسيرة على رسالة الإمام الطحاوي؛ سيأتي بيانها - إن شاء الله - في موضعها.

وقد شُرحت في مجالس علمية، وتم تفرغها فخرجت في هذه النسخة المطبوعة. أسأل الله عز وجل أن ينفع بها كل من قرأها أو اطلع عليها.

وأسأل الله تعالى أن يرزق الجميع الإخلاص في القول والعمل، وأن يبارك في الجهود وينفع بالأسباب إنه سميع مجيب.

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

كتبه

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا شرح العقيدة الطحاوية شرحته شرحاً متوسّلاً، أسأل الله أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعل هذا العمل نافعاً لعباد الله، وأسأله ﷺ أن يجعله من العمل الذي لا ينقطع إنه جواد كريم.

التعريف بهذا العلم:

هذا العلم: هو علم العقائد.

التعريف بمتن الطحاوية

متن العقيدة الطحاوية يتعلق بعلم الأصول؛ أي: أصول الدين؛ وهو المسمّى بـ(العقائد).

التعريف بعلم أصول الدين:

علم أصول الدين: هو علم العقائد؛ فهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله^(١).

(١) ويعرفه بعض المتكلمين بأنه: «علم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية، بإيراد الحجج لها، ودفع الشبه عنها» انظر: «أبجد العلوم» (٦٧/٢)، وهذا التعريف فيه لَوْنٌ كلامية؛ فقد عرّفه بهذا صاحب «المواقف» (٣١/١)، وذكر في «شرح المقاصد» (٧/١) أنَّ مُدَوِّلَه عن قوله: «يُقْتَدَرُ به» إلى قوله: «يُقْتَدَرُ معه»: =

فضل هذا العلم:

وعلم أصول الدين بالنسبة إلى غيره: هو أشرف العلوم؛ لأن شرف العلم إنما يكون بشرف المعلوم، والمعلوم هو الله ﷻ، فعلم أصول الدين يتعلق بالعلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا هو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع؛ ولهذا لما كتب الإمام أبو حنيفة النعمان ﷺ أوراها جمعها في أصول الدين؛ سَمَّاها: الفقه الأكبر^(١)؛ وأما فقه فروع الدين فهو الفقه الأصغر، فيكون العلم - على ذلك - عِلْمَيْن: علم أصول الدين - وهذا هو الفقه الأكبر -، وعلم فروع الدين - وهذا هو الفقه الأصغر -.

وإن كان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله عليه - له كلام في تقسيم

= مبالغة في نفي الأسباب؛ واستناد الكل إلى خلق الله تعالى؛ ابتداء؛ على ما هو المذهب!! ثم إن العقائد عند هؤلاء مكتسبة من النظر في الأدلة التي يسمونها عقلية، وهي في مرتبة اليقين، بخلاف الكتاب والسنة؛ فإن دالتهما عندهم ظنية، وهؤلاء أيضاً ظنوا أنَّ الأدلة السمعية؛ لفظية فقط، وهذا غلط؛ لأنها نوعان: نوع خبري فقط، ونوع خبري عقلي؛ يدلّ العقول وينبها على الأدلة العقلية، وهو أكثر النوعين في القرآن، وهو يرشد إلى طريقة الاستدلال البرهانية الصحيحة. والله أعلم.

(١) يروى هذا الكتاب عن أبي حنيفة بروايات أشهرها رواية أبي مطيع البلخي وهو متن صغير اعتنى الأحناف بشرحه فشرحه منهم البيهقي وأبو الليث السمرقندي، أما الشرح المتداول لعلي القاري فهو شرح لرواية حماد بن أبي حنيفة وهي أوسع وأكثر مسائل من رواية أبي مطيع، وقد نقل عنه شيخ الإسلام في «الفناوى» (٥/ ٤٦-٤٨)، و «دره المعارض» (٦/ ٢٦٣-٢٦٤). وانظر: «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (٣/ ٢٣٧-٤٢٠). وانظر للكلام على هذا الكتاب سنداً ومتمناً؛ كتاب «براءة الأئمة الأربعة من مسائل المتكلمين المُبتدعة» (ص ٤٦ وما بعدها)، للدكتور: عبدالعزيز بن أحمد الحميدي.

الدين إلى أصول وفروع^(٢).

مدى الحاجة لهذا العلم:

حاجة العباد إلى هذا العلم فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، وحاجتهم إليه أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب، بل أشد من حاجتهم إلى النَّفْس الذي يتردد بين جنبي الإنسان؛ لأن الإنسان إذا فقد الطعام والشراب وفقد النَّفْس؛ مات الجسد، والموت لا بد منه، ولا يضر موت الجسد إذا صلح القلب، أما إذا فَقَدَ العلم بالله وأسمائه وصفاته والعلم بشرعه ودينه؛ مات قلبه وروحه^(٣).

وبهذا يتبين حاجة العباد إلى علم أصول الدين؛ وذلك لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة ولا سعادة إلا بأن تعرف ربها وخالقها، وفاطرها، ومعبودها، بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك أحبَّ إليها من كل شيء، ويكون مع ذلك سعيها وعملها فيما يقربها إليه ﷻ.

الحكمة من إرسال الرسل، وبيان أن العقل لا يستطيع أن يستقل بمعرفة هذا الأمر:

ولما كانت عقول البشر لا تستقل بمعرفة هذا الأمر - أعني: العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله - على التفصيل، اقتضت حكمة الله ورحمته بعباده أن أرسل الرسل؛ يعرفون بالله، ويَدْعُون إلى الله، ويبشرون من أجابهم، وينذرون من عصاهم وخالفهم، وجعل ﷻ مفتاح دعوة الرسل

(١) انظر للتوسع في هذه القضية وتحريها «التفريق بين الأصول والفروع» للشيخ سعد الشري.

(٢) انظر هذا المعنى بتمامه في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٧).

وزبدة رسالتهم؛ معرفة المعبود بأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلى هذه المعرفة تُبنى مطالب هذه الرسالة كلها من أولها إلى آخرها؛ هذا هو الأصل العظيم؛ أصل الدين، ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان:

الأصل الأول: معرفة الطريق الموصل إلى الله، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه سبحانه.

الأصل الثاني: معرفة حال السالكين والسائرين إلى الله وما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم؛ ويتبع ذلك معرفة ما يكون في أمور البرزخ من سؤال منكر ونكير، ومن عذاب القبر ونيعمه، ومعرفة العلم بأحكام البعث والنشور، والوقوف بين يدي الله عز وجل، وتطهير الصحف، ووزن الأعمال والأشخاص، والوُجود على الحوض، والمرور على الصراط، ثم الاستقرار في الجنة أو في النار^(١).

هذه هي أقسام العلم النافع الثلاثة، وليس هناك قسم رابع؛ كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «الكافية الشافية»^(٢):

وَالْعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلَاثٌ مَا لَهَا مِنْ رَابِعٍ وَالْحَقُّ ذُو تَبْيَانٍ
عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الْإِلَهِ وَفَعْلُهُ وَكَذَلِكَ الْأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ
وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ الْمَعَادِ الشَّانِي

فَأَعْرِفُ النَّاسَ بِاللَّهِ أَتَبِعُهُمُ لِلطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِ؛ الَّذِي يُمَثِّلُ الْأَوَامِرَ،
وَيَجْتَنِبُ النَّوَاهِي، وَيَعْمَلُ بِشَرَحِ اللَّهِ وَدِينِهِ، وَأَتَبِعُهُمُ، أَتَبِعُ النَّاسَ لِلصَّرَاطِ
الْمُسْتَقِيمِ؛ وَلِهَذَا سَمَى اللَّهُ ﷻ كِتَابَهُ الْمَنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ - وَهُوَ الْقُرْآنُ
الْعَظِيمُ - «وَحَا» لِتَوَقُّفِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ عَلَيْهِ، وَسَمَاهُ «نُورًا» لِتَوَقُّفِ الْهَدَايَةِ

(١) انظر هذا المعنى بتمامه في «الصواعق المرسلّة» (١/١٥١).

(٢) انظر: «الكافية الشافية» (٢/٤٨).

عليه؛ قال سبحانه: ﴿يَتْلُو آيَاتِهِ مِنْ آتُونٍ عَلَى مَنْ يَنْكَرُهُ﴾ [غافر: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِنْدِىُّ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِلَيْكَ تُهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [فصل: ١٠٣] صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿١٠٣﴾

[التدوير: ٥٢-٥٣].

وسماه الله شفاء؛ قال سبحانه: ﴿يَنَاقِبُ الْأُنَاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَشِيرَةٌ لِمَنْ فِي الْأَشْهُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

والله ﷻ أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وقد بلغ النبي ﷺ البلاغ المبين، وأوضح الحجة للمستبصرين، ومضى على طريقه ﷺ السلف الصالح: الصحابة والتابعون والأئمة من بعدهم، فاهتدوا بهديه ﷻ، وترسموا خطاه، وآمنوا بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وامتنلوا أوامر الله، واجتنبوا نواهيه، واستناروا بنور الله؛ فكانوا على الهدى المستقيم.

فهم أهل السنة والجماعة والصحابة والتابعون وتابعوهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ هم أهل الحق، وهم الطائفة المنصورة، ثم لما بَعُدَ الْعَهْدُ خَلَفَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ غَيْرُوا وَبَدَلُوا، وَتَفَرَّقُوا فِي دِينِهِمْ شَيْعًا وَأَحْزَابًا، وَلَكِنْ اللَّهُ ﷻ حَفِظَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَصُولَ دِينِهَا؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ»^(١)، وفي لفظ آخر: «لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٧٩)، بهذا السياق، وكذا الترمذي (٢٢٢٩)، عن ثوبان رضي الله عنه، لكنه عند مسلم (١٩٢٠)، عن ثوبان أيضاً، لكن بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين الحق؛ لا يضرهم من خذلهم...».

خَلَقَهُمْ، وَلَا مَنْ خَلَقَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

فتصدى العلماء والأئمة لإيضاح أصول الدين وفروعه، والرد على يدع أهل البدع، وإيضاح الحق، فنصر الله بهم الحق، وألفوا المؤلفات في عقيدة السلف الصالح، ومن هؤلاء الأئمة: الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي - نسبة إلى قرية «طحا» من صعيد مصر - المولود سنة تسع وثلاثين ومائتين، والمتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، فقد ألف هذه الرسالة في العقيدة، وهي التي عُرفت بـ «العقيدة الطحاوية»، وقد تلقاها العلماء بالقبول سلفاً وخلفاً، وفيها بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، إلا أنه قد يلاحظ على هذه الرسالة ملحوظات يسيرة منها:

- أنها قد تتماشى مع معتقد المرجئة^(٢)، وسيأتي التنبيه عليه - إن شاء الله - في موضعه.

- أن بها أيضاً عبارات مشبهة وفيها إيهام، لكن القاعدة في هذا أن

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٧) كلاهما من حديث معاوية بن وهب.

وقال الحافظ ابن حجر في «التهذيب الحبير» (١٤١/٣): «... وفي الباب عن سعد وثوبان في مسلم، وعن قُرّة بن إياس في الترمذي، وابن ماجه، وعن أبي هريرة في ابن ماجه، وعن عمران في أبي داود، وعن زيد بن أرقم عند أحمد...». وفيه أيضاً عن المغيرة بن شعبة عند مسلم.

(٢) سموا بذلك لقولهم بالإرجاء، وأصل الإرجاء التأخير، وذلك لأنهم أخروا الأعمال عن مسمى الإيمان.

والمرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة. انظر: «الملل والنحل» (١٨٦/١)، والفصل في «الملل والنحل» (١١٣/٢)، و «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (١٠٧، ١٠٨).

العبارات المشبهة تُفسّر بالعبارات الواضحة؛ لأن القاعدة عند أهل العلم أن النصوص المشبهة من كتاب الله - عز وجل - تُفسّر بالنصوص الواضحة المحكمة وتُرَدُّ إليها؛ هذه هي طريقة أهل العلم الراشخين؛ يردون المشابه إلى المحكم، ويفسرون النصوص المشابهة بالنصوص المحكمة فيتضح الأمر، وكذلك أيضاً النصوص المشابهة في سنة رسول الله ﷺ تُفسّر بالنصوص الواضحة المحكمة؛ فيزول الاشتباه، وكذلك أيضاً النصوص المشبهة في كلام أهل العلم تفسر بالنصوص الواضحة من كلامهم؛ ولا يتعلق بالنصوص المشابهة وتترك النصوص المحكمة الواضحة إلا أهل الزيغ والضلال؛ كما قال الله ﷻ في كتابه العظيم: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ وَالَّذِينَ يُتَوَبَّعُونَ مِنْكُمْ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالْغَايِبُونَ فِي الْغُيُوبِ يَقُولُونَ مَعَنَا يَوْمَ كُلِّ يَوْمٍ عِيدٍ رَبَّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧).

وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الذين سعى الله فاحذروهم»^(١).

فأهل الزيغ يتعلقون بمشابهه ويتركون المحكم، فمثلاً إذا تعلق النصراني بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ الرَّحْمَنُ الْكَافِرُ﴾ وَإِنَّا لَكُمُ لَحِيطُونَ (٢) (النجم: ٩)، وقال: «نحن» ضمير الجمع؛ وهذا يدل على أن الآلهة ثلاثة، فيقول أهل الحق له: أنت من أهل الزيغ، وهذه من النصوص المشبهة،

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٥) عن عائشة وهذا لفظه، وأخرجه من حديث عائشة أيضاً البخاري (٤٥٤٧) لكن بلفظ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه...» والباقي مثله.

والواجب عليك أن تردّها إلى النصوص الواضحة المُحْكَمَة؛ كقول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وكفوله أيضاً: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّبِعْنِي﴾ [طه: ١٧٤].

ف(نحن) في لغة العرب يقولها الواحد المُعْظَمُ لنفسه، فليكن أن تُرجع هذا النصّ المشبه إلى النصّ المُحْكَم.

ومثال ذلك أيضاً من السنة النبوية: أنه قد يتعلق بعض دعاة السفور - سفور النساء - ببعض النصوص المشبهة ويقولون: إن حديث الخنعمية في حجة الوداع: «جاءت إلى النبي ﷺ تَسْأَلُهُ، وَكَانَ زَيْفَةُ الْفَضْلِ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَضْرِبُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الْكَرْبِ الْآخَرِ»^(١).

قالوا: هذا يدل على أن تلك المرأة كانت سافرة؛ كاشفة الوجه، ويدل أيضاً على أن المرأة يجوز لها كشف وجهها، وأن ستر الوجه ليس بواجب.

ويستدلون أيضاً بحديث أسماء: أنها جاءت إلى النبي ﷺ وعليها ثياب رفاق، فأعرض النبي ﷺ عنها بوجهه، وقال: «يَا أَسْمَاءُ؛ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتْ الْمَحِيضَ لَا يَضِلُّ عَنْ بَرِّهَا إِلَّا هَذَا وَهَذَا، وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفَّيْهِ»^(٢).

(١) فالمقصود هنا دعاة السفور وليس من كان عالماً مجتهداً كالشيخ الألباني رحمه الله.

وأخرجه البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما. (٢) أخرجه أبو داود (٤١٠٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨٦/٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال أبو داود: «هذا مرسل، خالد بن دريك لم يدرك عائشة»، وقال ابن القطان في كتابه «الوهم والإيهام» (٢٦/٣): «وخالد بن دريك فإنه مجهول الحال»، هكذا قال مع أن ابن دريك قال عنه أبو حاتم كما في «الجرح والتعديل» (٣٢٨/٣): «لا بأس به»، وقال الذهبي في «الميزان» (٤١٠/٢): «=

قالوا: هذا يدل على جواز كشف الوجه، نقول لهم: أنتم من أهل الزيغ؛ لأنكم تعلقتُم بالنصوص المتشابهة، وتركتم النصوص المحكَّمة الواضحة؛ كقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَجْهِ جَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقَوْلِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، والحجاب ما يحجب المرأة عن الرجل، والحجاب يكون جداراً، أو يكون باباً، أو يكون غطاءً على الوجه. ومن النصوص المُحْكَمَة التي أعرضتم عنها كذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِزَوْجِكَ وَبَنَاتِكَ وَمَنْ أَلْفَظِينَ يَدِيكَ عَاتِرِينَ مِنْ بَنَاتِكُنَّ ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَ يُوْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ومن الأدلة كذلك؛ ما ثبت في «صحيح البخاري» في قصة الإفك لما سار الجيش، وترك عائشة رضي الله عنها: «فَجَلَسَتْ فِي مَكَانٍ الْجَنِيِّ لَمَّا لَمْ يَفْقِدُونَهَا ثُمَّ يَرْجِعُونَ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعْظَلِ السُّلَمِيُّ قَدْ جَاءَ مُتَأَخِّرًا فَلَمَّا رَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَيْتِي، وَكَانَ رَأَيْتِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَقْفَظْتُ بِأَسْبِزْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي»^(١)، فقولها: «فَخَمَرْتُ

= «وقته ابن معين والنسائي...».

وقول ابن القطان هذا، ذكره في «خلاصة البدر المنير» (٨٦/٢) ثم تعقبه بقوله: «حاشاء؛ فقد وثقه النسائي وغير واحد». وقال المنفري: وفيه أيضاً سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصري نزول دمشق مولى بني نصر، تكلم فيه غير واحد، وقال ابن عدي في «الكامل» (٣٧٣/٣): «ولا أعلم رواء عن قتادة غير سعيد بن بشير، وقال فيه مرة: عن خالد بن دريك، عن أم سلمة بدل عائشة»، وانظر «إرواء الغليل» (٢٠٣/٦). (١) أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظ البخاري «فعرفتني حين رأيته»، وكان رأيته قبل الحجاب، ولفظ مسلم مثله، إلا أنه قال في روايته: «... وكان يراني قبل أن يُشْرَبَ الحجاب عليّ...».

وَجْهِي بِجَلْبَابِي» صريح في تغطية الوجه، وقولها: «وَكَانَ رَأْيِي قَبْلَ الْحِجَابِ» دليل على أن النساء قبل الحجاب كن يكشفن الوجوه، وأما بعد الحجاب فكان يسترن الوجوه.

وفي «سنن أبي داود» عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كَانَ الرُّكْبَانُ يَمُرُّونَ بِنَا، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُخْرِمَاتٌ، فَإِذَا حَادُّوا بِنَا سَدَلَتْ إِحْدَانَا جَلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا، فَإِذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهَا»^(١) نقول لهم: كيف تتعلقون بحديث أسماء وحديث الخثعمية وتركون هذه النصوص المحكمة؟ عليكم أن تفسروا حديث الخثعمية بما يتناسب مع هذه النصوص، ثم حديث أسماء هذا ضعيف، وفيه علل كثيرة؛ فهو منقطع؛ لأنه من رواية خالد بن دريك عن عائشة، وخالد بن دريك لم يسمع من عائشة، ثم هو منكر المتن؛ لا يمكن أن تكون أسماء بنت أبي بكر وهي أخت عائشة وامرأة الزبير، وامرأة عاقلة ذكية تدخل على النبي ﷺ في ثياب رقاق!! فيه علل متعددة كثيرة؛ ثم هو كذلك من رواية سعيد بن بشير وهو ضعيف، ولو صح الحديث - جدلاً - لكان محمولاً على ما قبل الحجاب.

فالمقصود من هذا: أن أهل الزيغ يتعلقون بالنصوص المتشابهة، ويتركون النصوص المحكمة؛ وأما الراسخون في العلم فإنهم يأخذون

(١) أخرجه أبو داود (١٨٣٣)، واللفظ له، وابن ماجه (٢٩٣٥)، وأحمد (٣٠/٦)، والدارقطني (٢٩٤/٢)، وفي نسخة في «الصحیح» (٢٦٩١)، وابن الجارود في «المنتقى» (٤١٨) - غوث المكنود، والبيهقي (٤٨/٥)، وفي سننه يزيد بن أبي زياد. قال الإمام ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٠٣/٤): «وفي القلب منه» وضعفه النووي في «المجموع» (٢٢٦/٧). وكذا أعله بيزيد، الحافظ ابن حجر في «الدراية» (٣٢/٢). أما الألباني فقد حسنه، كما في كتابه «جلباب المرأة المسلمة» (ص ١٠٧ - طبعة: المكتبة الإسلامية).

بالنصوص المحكمة، ويُرجعون النصوص المتشابهة إليها.

ومن ذلك أيضاً في القرآن الكريم - لأهمية هذا المثال - أن نصوص العلو محكمة، فيأتي أهل الزيغ، ويتعلقون بنصوص المعية كقوله تعالى: ﴿وَمَعَكُمْ أَثَرٌ مِمَّا كُنْتُمْ﴾ [الحج: ٢٤]، وكقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمُّ وَدَّكُ﴾ [طه: ٤٦].

فيأتي أهل البدع وأهل الزيغ ونفاة الصفات فيقولون: هذا دليل على أن الله مختلط بالمخلوقات، وأن الله معهم، نقول لهم: أنتم من أهل الزيغ فلماذا تركتم نصوص العلو والمعية المحكمة كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] في سبعة مواضع^(١)، وكقوله أيضاً: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ أَكْبَرُ خَلَقَ الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وكقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الْحَبِطُ﴾ [فاطر: ١٠]، وكقوله: ﴿كُلُّ رُفْعَةٍ إِلَهُ إِلَيْهِ﴾ [التيت: ٢٥٨]، وكقوله: ﴿تَنْجُ السَّيِّئَةَ وَالْبُشْرَ إِلَيْهِ﴾ [المتارج: ٤٤]، وكقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوَيْهِمْ﴾ [القل: ٥٠].

حتى إن نصوص العلو تزيد على ثلاثة آلاف دليل كلها صريحة في أن الله فوق السماوات، مستو على عرشه، بائن من خلقه.

ثم إن المعية لا تفيد الاختلاط في لغة العرب؛ فلا تزال العرب تقول: ما زلنا نسير والقمر معنا، في حين أن القمر فوقك، وتقول: فلان معه كذا، وقد يكون فوق رأسه.

(١) في سورة الأعراف (٥٤)، ويونس (٣)، والرعد (٢)، والفرقان (٥٩)، والسجدة (٤)، والحديد (٤)، وفي سورة طه (٥)، لكن فيها بلفظ: ﴿أَرْجُو عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [ط: ٥].

فالمقصود أن طريقة أهل الزيغ تعلقهم بالنصوص المتشابهة، وتركهم النصوص المحكمة^(١)؛ أما طريقة الراسخين في العلم فإنهم يأخذون بالنصوص المحكمة ويُرجعون إليها النصوص المتشابهة ويفسرونها بها؛ فيزول الإشكال، وهكذا كلام أهل العلم، فإذا رأيت كلامًا لعالم اشتبه عليك، فارجع إلى كلامه الواضح لتفسره به؛ كما سيأتي في بعض كلام أبي جعفر الطحاوي^(٢).

وهذه «العقيدة الطحاوية» قد تلقاها العلماء بالقبول، وُشِّرت بشروح متعددة، لكن هذه الشروح لا تتمشى مع معتقد أهل السنة والجماعة.

وأحسن شرح لها: هو الشرح المنتشر المطبوع الذي ألَّفه علي بن علي ابن أبي العز الحنفي، المولود سنة سبع مائة وواحد وثلاثين، والمتوفى سنة سبع مائة واثنين وتسعين، وقد ذكر تَلكَ في مقدمتها: أن «العقيدة الطحاوية»

(١) انظر تفصيل طريقة أهل البدع هذه ونقضها في: «موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة» (ص ٣٦٥-٤٠١).

(٢) جاء في «مجموع فتاوى سماحة الشيخ ابن باز، فتاوى العقيدة» (١/٧١-٧٢ ط: دار الوطن): «قوله -أي قول الطحاوي-: تعالى عن الحدود والغايات، والأركان، والأعضاء، والأدوات، والجهات الست، كسائر المبتدعات»: هذا الكلام فيه إجمال، قد يستغله أهل التأويل والإلحاد في أسماء الله وصفاته، وليس لهم بذلك حجة؛ لأن مراده تَلكَ: تنزيه الباري سبحانه عن مشابهة المخلوقات، لكنه أتى بعبارة مجملة، تحتاج إلى تفصيل، حتى يزول الاشتباه...»، ثم فضل مراده بكل شيء من ذلك، إلى أن قال: «وأهل البدع يطلقون مثل هذه الألفاظ، لينفوا بها الصفات، بغير الألفاظ التي تكلم بها، وأثبتها لنفسه، حتى لا يفتضحوا، وحتى لا يشنع عليهم أهل الحق، والمؤلف الطحاوي تَلكَ لم يقصد هذا المقصد، لكونه من أهل السنة المثبتين لصفات الله، وكلامه في هذه العقيدة يفسر بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، ويُفسر مشبهه بمحكمه». ١ هـ.

شرحت شروحاً متعددة إلا أنها لا تتمشى مع معتقد أهل السنة والجماعة؛ فأراد أن يشرحها شرحاً يتمشى مع معتقد أهل السنة والجماعة.



♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ الْعَلَمَةُ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ - بِمَضَرَّ - رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا ذِكْرُ بَيَانِ عَقِيدَةِ أَهْلِ الْبُسْتِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى مَذْهَبِ فُقَهَاءِ الْمِلَّةِ: أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانَ بْنِ ثَابِتٍ الْكُوفِيِّ، وَأَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْأَنْصَارِيِّ^(١)، وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ^(٢) -

(١) هو الإمام المجتهد العلامة المحدث كبير القضاة أبو يوسف يعقوب الأنصاري الكوفي، الإمام الثاني للحنفية، صاحب أبا حنيفة سبع عشرة سنة، وتفقه به، وهو أنبل تلامذته وأعلمهم، وكان من أئمة أهل الرأي ولكن يميل لأصحاب الحديث، ووجهه شيخ الإسلام على محمد بن الحسن، وكان سبباً في رجوع أبي حنيفة عن القول بخلق القرآن.

وتفقه جمع من الأئمة وضعفه كثير من الجهابذة، توفي سنة ١٨٢هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥٣٩-٥٣٥/٨)، و«تاريخ ابن معين» (٦٨٠/٢) و (٤٧٤/٤)، و«التاريخ الكبير» للبخاري (٣٩٧/٨)، و«مجموع الفتاوى» (٤٧/٤)، و«ضعفاء العقيلي» (٤٣٨/٤-٤٤٤).

(٢) أبو عبد الله الكوفي فقيه العراق، الإمام الثالث لأهل الرأي والحنفية. قرأ على مالك موطأ، وروى عنه، وتأثر به بعض الشيء فخالف إمامه أبا حنيفة في كثير من المسائل القياسية، ووافق مذهب أهل الحديث من الحجازيين مالك وغيره، وله كلام شديد في الرد على الجهمية.

أثنى عليه جم غفير من الأئمة، وضعفه النقاد والجهابذة النحارير. انظر: «تاريخ ابن معين» (٥١١/٢)، و«ضعفاء العقيلي» (٥٥٠-٥٢/٤)، و«اللسان» لابن حجر (٥/١٢١، ١٢٢).

رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَمَا يَمْتَقِدُونَ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، وَيَذَبُّونَ بِوَرَبِّ الْعَالَمِينَ):

الشرح

بَيَّنَّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَبَيِّنَ عَقِيدَةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ عَلَى مَا يَعْتَقِدُهُ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَصَاحِبُهُ الْكَبِيرُ: أَبُو يُوسُفَ: يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَنْصَارِيِّ، وَالصَّاحِبُ الثَّانِي: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ، قَالَ: (وَمَا يَمْتَقِدُونَ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، وَيَذَبُّونَ بِوَرَبِّ الْعَالَمِينَ)؛ فَبَيَّنَ بِذَلِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ تَتِمُّشُ مَعَ مَعْتَقَدِ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وخص هؤلاء الثلاثة؛ لأن أبا حنيفة إمام أئمة المذهب الحنفي، والطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ذَكَرَهُمْ، كُلٌّ مِنْهُمْ: أَحَنَافٌ فِي الْمَذْهَبِ؛ يَتِمُّذَهَبُونَ بِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ فِي أَصُولِ الدِّينِ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِالْأَحَنَافِ. بَلْ هِيَ عَامَةٌ لِلْأَحَنَافِ، وَالْمَالِكِيَّةِ، وَالشَّافِعِيَّةِ، وَالْحَنَابِلَةِ، وَالتَّمَذُّبِ إِنَّمَا هُوَ فِي فُرُوعِ الدِّينِ كَأَحْكَامِ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، أَمَّا الْعَقِيدَةُ وَالتَّوْحِيدُ؛ فَوَاحِدَةٌ لَيْسَ فِيهَا اخْتِلَافٌ.

و«العقيدة» مأخوذة من «العَقْدُ» وهو الرُّبْطُ، وَالْعَقْدُ: نَقِيضُ الْخَلِّ، وَاسْمُتْ عَقِيدَةً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجْزُمُ وَيَعْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ، وَيُقَالُ: اعْتَقَدَ فُلَانٌ الْأَمْرَ؛ ضَدَّقَهُ وَعَقَدَ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، وَضَمِيرُهُ. وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ عَقْدِ الْبَيْعِ وَنَحْوِهِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَتْ فِي التَّصْمِيمِ وَالْإِعْتِقَادِ الْجَازِمِ^(١)، وَتُطْلَقُ الْعَقِيدَةُ عَلَى

(١) المصباح المنير للمقري الفيومي (٤٢١/٢)، و«لسان العرب» لابن منظور (٣/٢٩٦، ٢٩٨) مادة (عقد). ط: دار صادر، بيروت.

ما يدين به الإنسان ربه، ويعتقده من أمور الدين، فإن كان ما يعتقدُه الإنسان مطابقاً للواقع؛ فهي عقيدة صحيحة، وإن كان مخالفاً للواقع؛ فهي عقيدة فاسدة.

فمثلاً الجهمية^(١)، والمعتزلة^(٢)، والشيعة^(٣)،

(١) سمو بذلك نسبة إلى جهم بن صفوان، وقد قتله سلم بن أحوز سنة ١٢٧هـ، وهم من القائلين بنفي الأسماء والصفات عن الله -تعالى-، وأن الجنة والنار نبيدان وتفتيان، وأن الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل بالله فقط، وأن الفاعل هو الله وحده، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم مجازاً، ومن أصولهم تقديم العقل على النقل، كما قالوا بخلق القرآن، وقيل: إن الجهمية لا تعتبر فرقة قائمة بذاتها كالمعتزلة، ولذا لم تذكر كفرقة عند كثير ممن كتب في الملل والنحل، وإنما تذكر ضمن فرق المعتزلة أو المرجئة. انظر: «مقالات الإسلاميين» (١/٣٣٨)، و«الفصل في الملل والنحل» (٤/٢٠٤).

(٢) سمو بذلك لاعتزالهم أقوال المسلمين في مركب الكبيرة حيث قالوا: إنه في منزلة بين المنزلتين، فلا هو مؤمن ولا هو كافر، وقيل: لاعتزال زعيمهم وأصل بن عطاء مجلس الحسن البصري. ومذهبهم يقوم على نفي الصفات عن الله -تعالى-، ونفي القدر في معاصي العباد، وإضافة خلقها إلى فاعليها، وأن القرآن مخلوق، ونفوا شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر، وهم فرق كثيرة: منها الجبائية، والضرائرية، والنظامية، والجاحظية، وغيرها. انظر: «البرهان في عقائد أهل الأديان» (٢٦، ٢٧)، و«مقالات الإسلاميين» (١/٣٣٥) وما بعدها، و«الملل والنحل» (١/٥٤).

(٣) هم الذين شايعوا علياً ﷺ على الخصوص وغلوأ فيه، وقالوا بإمامته نصاً ووصية، إما جلياً أو خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فيظلم بكون من غيره، أو بتقية من عنده، وليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة، ويتنصب الإمام بنصيبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين لا يجوز للرسول ﷺ إغفاله، وأهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، ويجمع الشيعة القول بوجود التمييز والتنصيب، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر. =

= والصغار، والقول بالتولي والتبري قولاً وفعلًا وعقداً لا في حال التقية، وبخالفهم بعض الزيدية في ذلك.

وهم يُسَمُّونَ بالشيعة؛ لأنهم شايعوا علياً ﷺ ويقدمونه على سائر الصحابة، ويُسمُّونَ بالرافضة: لرفضهم أبا بكر وعمر، وقيل: لرفضهم زيد بن علي، لما تولى أبا بكر وعمر وقال بإمامتهما، وبعضهم غلوا في علي -وهم الغالية- فقالوا بإلهيته، وبعضهم قال بنبوته، وقد قتل علي ﷺ بعضهم في زمانه، وهم فرق وطوائف كثيرة، والكلام عنهم مشعب.

قال شيخ الإسلام في «التبيين»: «الشيعة هم: ثلاثة درجات، شرها الغالية الذين يجعلون لعلي شيئاً من الإلهية، أو يصفونه بالنبوة، وكُفِّرَ هؤلاء بَيِّن لكل مسلم يعرف الإسلام، وكفرهم من جنس كفر النصارى من هذا الوجه، وهم يشبهون اليهود من وجوه أخرى.

والدرجة الثانية: وهم الرافضة المعروفون كالإمامية وغيرهم الذين يعتقدون أن علياً هو الإمام الحق بعد النبي ﷺ بنص جلي أو خفي، وأنه ظلم ومنع حقه، ويخصون أبا بكر وعمر ويشتمونهما، وهذا هو عند الأئمة سيما الرافضة.

والدرجة الثالثة: المفضلة من الزيدية وغيرهم الذين يفضلون علياً على أبي بكر وعمر، ولكن يعتقدون إمامتهما وعدالتهما ويتولونهما، فهذه الدرجة -وإن كانت باطللة- فقد تُسَيِّبُ إليها طوائف من أهل الفقه والعبادة، وليس أهلها قريباً ممن قبلهم، بل هي إلى أهل السنة أقرب منهم إلى الرافضة؛ لأنهم ينازعون الرافضة في إمامة الشيخين، وعدلهما، وموالاتهما، وينازعون أهل السنة في فضلهما على علي، والتزاع الأول أعظم، ولكن هم المرقاة التي تصعد منه الرافضة، فهم لهم باب».

[وانظر: «مقالات الإسلاميين» (١/ ٦٥ فما بعدها)، و«الإبانة» (٥٢، ٢١٩)، و«الفصل» (٤/١٣٧)، و«الملل والنحل» (١/ ١٤٤ فما بعدها)، و«الفرق بين الفرق» (٢١)، و«التبصير في الدين» (ص٣٢ فما بعدها)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركيين» (٥٢-٦٣)، و«البرهان» (ص٦٥)، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية خاصة «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والنفرية»].

والرافضة^(١) كلهم لهم عقيدة، ويجزمون بها، لكنها عقائد فاسدة باطلة؛ لمخالفتها للحق، وأهل السنة والجماعة عقيدتهم موافقة للحق؛ فهي عقيدة صحيحة، والعقيدة هي الأساس؛ وهي أساس بناء المجتمعات، فإن كان المجتمع عقيدة أفرادها سليمة؛ صار مجتمعاً قوياً متماسكاً، وإن كانت عقيدة أفرادها منحرفة؛ صار مجتمعاً متفككاً منهزماً.

وقد دلت التجارب أن صلاح سلوك المجتمع يتناسب مع مدى صلاح عقيدة أفرادها، وأن انحراف سلوك الإنسان يتناسب مع مدى تضال عقيدته وانحرافه، والعقيدة السليمة الصحيحة تعصم الدم والمال، وتصحح جميع الأعمال، والعقيدة الفاسدة تهدر الدم والمال وتفسد جميع الأعمال، قال الله تعالى: ﴿إِن أَتَرَكْتَ كَيْفَظَنِّ عَمَلِكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَتْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال - عليه الصلاة والسلام - : «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَافْتَنُوهُ»^(٢)، وقال - عليه الصلاة والسلام - : «لَا يَجِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِخْدَى ثَلَاثٍ: الْبَيْبُ الرِّزَانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِإِيْبِهِ الْمُقَارِفُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٣).

(١) سمو بذلك لرفضهم زيد بن علي حينما قالوا له: تَبَرَّأْ من الشيخين حتي تكون معك، فقال: لا بل أتولاهما وأتبرأ ممن تبرأ منهما، فقالوا: إذا نرفضك. وهم يثبتون الإمامة عقلاً، وأن إمامة علي وتقديمه ثابت نصاً، وأن الأئمة معصومون، وأن الأمة ارتدت بتركها إمامة علي عليه السلام. انظر: «البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان» للسكسكي (ص ٣٦)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركيين» للفخر الرازي (٧٧، ٧٨)، و«رسالة في الرد على الرافضة» لأبي حامد المقدسي (٦٥-٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث عبدالله بن عباس عليه السلام.

(٣) أخرجه بهذا السياق أبو داود الطيالسي في «المسنَد» (٢٨٩) من حديث عبدالله بن مسعود عليه السلام، وأخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، عن ابن مسعود أيضاً، وفيه زيادة في متنها.

فدل هذا على أن العقيدة السليمة تعصم الدم والمال، لا يحل دمه ولا ماله ما دام اعتقاده صحيحاً إلا إذا ارتكب واحدة من ثلاث: الزاني بعد الإحصان، والقاتل عمداً، و المرتد الذي فارق دينه.

فلو صحت العقيدة؛ صحت الأعمال كلها، فإذا كانت العقيدة سليمة صحت الصلاة، وصح الصوم، وصحت الزكاة، وصح الحج، وهكذا جميع العبادات.

أما إذا فسدت العقيدة؛ فسدت جميع الأعمال، فإذا دعا الإنسان غير الله، أو ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، أو طاف بغير بيت الله؛ تقرئاً لذلك الغير، أو فعل ناقصاً من نواقض الإسلام؛ أو اعتقد عدم وجوب الصلاة، أو عدم وجوب الزكاة، أو عدم وجوب الحج، أو اعتقد حل الزنا، أو حل الخمر، أو حل الربا، أو حل عقوق الوالدين؛ فسدت العقيدة، وبطلت الأعمال كلها؛ فلا تصح الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج، ولا غيرها من العبادات؛ فكلها تكون باطلة.

ومن ثم اتجهت جهود الأنبياء والمصلحين إلى إصلاح عقائد المجتمعات قبل كل شيء، وكل نبي أرسله الله دعاً قومه إلى إصلاح العقيدة فقال: ﴿يَقْوِي أَعْبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ غَيْرٌ﴾ [الاعراف: ٥٩]، كما أخبر الله عن نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم، ونبينا محمد ﷺ مكث في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى إصلاح العقيدة، ويقول لقومه: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا»^(١)، ولم يفعل شيئاً من التشريعات سوى

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٥٩)، وابن حبان (٦٥٦٢)، من حديث طارق بن عبدالله المحاربي، وكذا أخرجه من هذا الوجه الحاكم (٦١٨/٢) - تحقيق: مصطفى عبدالقادر، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧٦/١)، و (٢٠/٦)، والدارقطني =

الصلاة؛ لعظم شأنها، فإنها فرضت قبل الهجرة بسنة أو بسنتين أو بثلاث، كل هذه المدة يدعو قومه إلى إصلاح العقيدة^(١).

ثم لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وثبتت العقيدة؛ نزلت بقية التشريعات؛ فشرع الأذان، وشرعت صلاة الجماعة، وفرضت الزكاة، وفرض الصوم، وفرض الحج، وفرض الجهاد، وشرع الله إقامة الحدود؛ كحد الزنا، وحد السرقة، وحد شرب الخمر، وهكذا.

وتبين بهذا: أن العقيدة هي الأساس الذي تبنى عليه الأعمال، وهي التي تعصم الدم والمال، فالعقيدة الصحيحة تصحح جميع الأعمال.

= في «السنن» (٤٤/٣)، وابن أبي شبة في «المصنف» (٣٦٥٦٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٧٥)، وصححه في «البدل المنير» (٦٨٠/١)، وكذا صححه الحاكم في «المستدرک» (٦٦٨/٢) - تحقيق: مصطفى عبدالقادر. لكن أخرجه أحمد (٤٩٢/٣)، والطبراني في «الكبير» (٤٥٨٢)، واللالكائي في «السنن» (١٤١٤)، (١٤١٥)، وغيرهم من حديث ربيعة بن عباد رضي الله عنه، وفي الباب عن ثيب بن مذكور بن منيب الأزدي، عن أبيه، عن جده عند الطبراني في «الكبير» (٨٠٥)، وعن غيره أيضاً.

(١) انظر: «عيون الأثر» لابن سيد الناس (١٩٦/١).

التَّوْحِيدُ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرَّسُلِ أَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ وَمَعَارِيهِ

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رحمته الله:

(تَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا شَيْءٌ مِثْلُهُ):

الشَّيْءُ

• قوله: (تَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ):

التوحيد لغةً: مصدر وحَّد يوحد توحيداً، وهو الإفراد^(١)؛ واصطلاحاً: هو إفراد الله بالعبادة؛ أي: جَعَلَ اللهُ واحداً لا شريك له^(٢).

• قوله: (مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ):

أي: عن عقيدة وعن شيء نجزم به، ونتيقن به، ولكن بتوفيق الله ليس بحول منا ولا قوة، ولكن الله هو الذي وفقنا لهذا الاعتقاد السليم.

فلا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً، ولا أن يعتقد شيئاً، ولا أن يقول شيئاً؛ إلا بتوفيق الله وإعانتة، ولهذا قال المصنف رحمته الله: (تَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ) أي: واحد لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في ألوهيته وعبادته.

(١) انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٩٠/٦)، و«العين» للفراهيدي (٢٨٠/٣)، (٢٨١).

(٢) انظر: «فتح المجيد» (ص ١٣).

أقسام التوحيد:

وتوحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام؛ هي المعروفة عند أهل العلم:

* توحيد الربوبية.

* توحيد الألوهية.

* توحيد الأسماء والصفات^(١).

وهذا التقسيم ليس مأخوذاً من الرأي والعقل، فلم يأخذه العلماء من عند أنفسهم، وإنما دليلهم على ذلك الاستقراء والتتبع للنصوص^(٢).

وكل قسم منها عليه دليل، وإذا كان كل قسم عليه دليل عُلمَ بذلك أنهم لم يكونوا مبتدعين كما يزعم بعض الناس، حتى إن بعضهم^(٣) قال: إن هذا التقسيم للتوحيد مثل تقسيم التثنية عند النصارى - نسأل الله السلامة والعافية - .

فهذه الأقسام إذا مأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما سيأتي، وأيضاً فحال الناس الموحدين لله لا تنحاز من هذه الأمور الثلاثة، فقد يكون الإنسان موحداً في ربوبية الله، وقد يكون موحداً في أسمائه وصفاته، وقد يكون موحداً في ألوهيته وعبادته، وقد يكون موحداً لله في ربوبيته

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢٤/١)، و«رفع الشبهة والغرر» للكريمي (٦٧/١).

(٢) انظر: «أضواء البيان» ٤٨٨/٣ - تفسير الآية التاسعة من سورة الإسراء - وهو نفيس جداً.

(٣) وهو الضال حسن السقاف في كتابه «التنديد بمن عدّد التوحيد وإبطال محاولة التلطيح في التوحيد والعقيدة الإسلامية»، وقد رد عليه ردّاً شافياً الشيخ عبد الرزاق البدر في كتابه: «القول الشديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد».

وأسمائه وصفاته وألوهيته، وقد يكون موحداً لله في ربوبيته وإن لم يكن موحداً لله في ألوهيته، فأحوال الناس تختلف.

القسم الأول: توحيد الربوبية:

وهو إثبات حقيقة ذات الرب وأفعاله، بأن تعتقد: أن الله ﷻ واجب الوجود لذاته، وأنه هو القائم بنفسه، المقيم لغيره، وأنه هو الرب؛ مربي عباده، وأنه هو الخالق، وأنه هو المالك، وأنه هو المدبر، فلا بد في توحيد الله في ربوبيته من هذه الأمور:

الأمر الأول: إثبات حقيقة ذات الرب؛ بأن تعتقد أن الله واجب الوجود لذاته، لم يسبقه عدم، ولا يلحقه عدم ﷻ، بخلاف المخلوق فإن وجوده ليس واجباً ولا ممتنعاً؛ لأنه لو كان واجباً لما سبقه عدم، فكون عدم سبق وجود المخلوق؛ دليل على أن وجوده ليس واجباً بل جائز، وليس ممتنعاً؛ لأن الله خلقه وأوجده، فالممتنع لا يوجد؛ فدل على أن وجود المخلوق وجود جائز، سبقه عدم، ويلحقه عدم، ويلحق حياته الضعف والنقص، أما وجود الله فهو وجود واجب لذاته لم يسبقه عدم ﷻ، ولا يلحقه عدم ولا يلحق حياته نقص ولا ضعف، ولا تغير ولا فساد ولا بئس ولا نوم، ولم يتفرع من شيء، ولا يتفرع منه شيء؛ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإعلاص: ١-٤].

الأمر الثاني: الإيمان بربوبية الله واعتقاد أن الله هو الرب، وغيره مربوب، كما قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [التاج: ٢]، فهو رب العالمين، وكل ما سوى الله عالم، والله تعالى رب هذا العالم، وغيره مربوب .

الأمر الثالث: إثبات أن الله هو الخالق وغيره مخلوق، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦١]، وقال أيضاً: ﴿وَمَخْلُوقٌ كُلُّ شَيْءٍ فَقَدْ رُفِعَ لَدُنْكَ﴾ [الشورى: ٢٢].

الأمر الرابع: اعتقاد أو إثبات أن الله هو المالك وغيره مملوك، فهو مالك كل شيء.

الأمر الخامس: اعتقاد وإثبات أن الله هو المدبّر وغيره مدبّر، فهو مدبر الخلق وهو المحيي، وهو المميت، وهو الرزاق، وهو منزل المطر، ومسبب الأسباب، يحيي ويميت، ويعز وذل، ويخفض ويرفع، ويقبض ويبسط.

بهذا يكون الإنسان قد وُحِدَ الله في ربوبيته؛ حيث أثبت وجود الله واعتقد أن الله واجب الوجود لذاته، وأثبت ربوبية الله؛ واعتقد أنه هو الرب وغيره مربوب، وأثبت أن الله هو الخالق وغيره المخلوق، وأثبت أن الله هو المالك وغيره المملوك، وأثبت أن الله هو المدبّر وغيره المدبّر، ومع ذلك لا يكفي هذا التوحيد في الإيمان والنجاة من النار، ولا يكون الإنسان مسلماً بهذا التوحيد وحده إلا إذا حُصِمَ إليه غيره من أنواع التوحيد، كما سيأتي.

وهذا النوع من التوحيد أقرّ به الكفار من مشركي قريش، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [النسكوت: ١٦١]، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ لَيْتَ الْإِنْسَانُ يَعْلَمُ مَا فِيهِمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ١٥٨]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سبأ: ١٥٩]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سبأ: ١٥٩].

[المؤمنون: ٨٦-٨٧]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَبْيُحُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَقُو يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ١٥٩]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَتَنْتَ لِلشَّيْءِ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [النور: ٣١].

فهذا النوع من التوحيد أقرّ به كفار قريش، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام، بل قاتلهم رسول الله ﷺ، واستحل دماءهم وأموالهم؛ لأنهم لم يأتوا بلازمه، وهو: توحيد الألوهية والعبادة^(١).

القسم الثاني: توحيد الأسماء والصفات:

وهو الإيمان والإقرار بأسماء الله الحسنى وصفاته الجلّ التي ثبتت بالكتاب والسنة. وإثباتها على ما يليق بجلاله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

والأسماء والصفات توقيفية؛ ليس لأحد أن يخترع لله أسماء وصفات من عند نفسه، فما ثبت بالكتاب والسنة أنه اسم لله أو وصف: أثبتناه له، وما لم يثبت بالكتاب والسنة: نتوقف ولا ننبت، فلا بد من الإيمان والإقرار والعلم بما لله من الأسماء والصفات، على الوجه اللائق بالله - عز وجل -، من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل.

وهذا النوع أيضاً من التوحيد: أقرّ به كفار قريش؛ ولم يوجد عندهم إنكار لشيء من الأسماء والصفات إلا في اسم الرحمن خاصة، فأنزل

(١) انظر: «دره تعارض العقل والنقل» لابن تيمية: (١/٢٢٥-٢٢٨)، و«الدرر السنية» لعبد الرحمن ابن محمد بن قاسم: (٣/٣٣، ٣٤).

الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

ولما أمر النبي ﷺ أن يكتب الكتاب في صلح الحديبية وقال للكاتب: «اكتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ سَهْلٌ - الَّذِي صَالَحَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُشْرِكِينَ - : اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَإِنَّا لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ»^(١).

قال الحافظ ابن كثير^(٢) رحمه الله: والظاهر أن إنكارهم لاسم الرحمن إنما هو من باب التعنت والعناد، وإلا فقد وجد في أشعار الجاهلية ما يشبه اسم الرحمن لله - عز وجل - كما قال الشاعر:

وَمَا يَسْأَلُ الرَّحْمَنُ يَنْعِقِدُ وَيُطْلِقُ

ولم يُعَرَفْ عنهم إنكار شيء من الأسماء إلا في اسم «الرحمن» خاصة، وهذا النوع من التوحيد-وهو توحيد الأسماء والصفات- لا يكفي بالإيمان والإسلام، ولا يدخل الإنسان في الإسلام حتى يقر ببلازمه، وهو توحيد الألوهية والعبادة.

القسم الثالث: توحيد الألوهية والعبادة:

وهو توحيد الله بأفعال العبادة، وهذا النوع يكون بأفعالك أنت أيها الإنسان من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وبر للوالدين، وصلة للرحم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكف نفسك عن المحرمات؛ تتقرب بها إلى الله، وتوحد الله بها؛ بأن تخلصها لله، وتريد بها وجه الله والدار الآخرة. هذا هو توحيد العبادة.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٤) من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم رضي الله عنهما، ومسلم (١٧٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه، واللفظ أقرب إلى سياق مسلم.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٢/١).

وتوحيد العبادة: هو أول دعوة الرسل وآخرها، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله، كما أخبر الله تعالى عن الأنبياء:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوُّوا عُذُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيْكُمُ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقال: ﴿وَلَيْكُمُ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، وقال: ﴿وَلَيْكُمُ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذا التوحيد هو آخر ما يخرج به العبد من الدنيا؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

وهذا التوحيد هو الذي لأجله خلق الله الخليقة، وأرسل الله الرسل، وأنزل الله الكتب، وقام سوق الجهاد، وحققت الحاقة، ووقعت الواقعة،

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، والحاكم (١٢٩٩)، والبيهقي (١٨٤٢) - تحقيق: مصطفى عبد القادر، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢١)، والزياري في «مسند» (٢٦٢٦)، والشاشي في «مسند» (١٣٧٢)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١٨٠/٢)، وغيرهم من طريق صالح بن أبي غريب، عن كثير بن مرة، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقد أخرجه الإمام أحمد (٢٣٣/٥) بنحوه.
والحديث صححه الحاكم عقب إخرجه له، وأعله ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٧٠٩/٥) بجهالة صالح بن أبي غريب. قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (١٠٣/٢): «وَتَعَبَّ بِأَنَّهُ رَوَى عَنْهُ جَمَاعَةٌ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَانَ فِي الثَّقَاتِ». ثم أورد أحاديث بنحوه عن عدد من الصحابة.

(١) انظر: «الرسالة التدمرية» (ص ٥)، و«إقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية: (١/ ٤٦٥)، و«أراج المالكيين» (٣/ ٤٤٩)، (١/ ٢٤٩-٢٥٠).

وكذلك أيضًا ما تضمنته سورة «يونس» قال تعالى: ﴿أَكَاذِبُ الْإِنْسَانِ عَجَبًا

اللَّهُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]

أَنْ أَحْسَبَ إِلَى نَجْوَى بَنِيهِمْ أَنْ لَيْدِي النَّاسُ وَكَثِيرَ الْبَرِّ يَأْتُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا لَسَجْرٌ فِيهِ ﴿١٠﴾ إِنْ رَزَقَكَ اللَّهُ الْغَنَى حَتَّى تَتَوَكَّلَ عَلَى الْغَنَى وَالْأَرْضُ فِي سِتْرَةِ آبَائِهِمْ ثُمَّ اسْتَوْكَيْ عَلَى الْمَرْصِقِ يَدْرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ يَدِيهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ كَاعْبُدُوهُ فَقَلَّ تَذَكُّرُكُمْ ﴿١١﴾ [يونس: ٢-١٣].

وفي آخرها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَكَّلُكُمْ وَلَيُبَرِّئَ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَأَنْ أَقِرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيمًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣﴾﴾ [يونس: ١٠٤-١١٠].

كذلك جملة سورة «الأنعام» أنكر الله تعالى على المشركين شركهم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ حِجَابًا قَصِيحًا قَالُوا هَذَا إِلَهُ رَبِّنَا وَمَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أُمَّةَ اللَّهِ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِمَا عَلَّمْتُكُمْ إِنَّ اللَّهَ يُخَوِّفُ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُفْقَهُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ثم قال بعد ذلك: ﴿فَتَنبِيْهُ أَقْرَبَكَ أَنْ يَتَّبِعَ الْأَنْبِيَاءَ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِمَا عَلَّمْتُكُمْ إِنَّ اللَّهَ يُخَوِّفُ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُفْقَهُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ثم قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرْسُلَ نَارَ الْفِئَةِ عَلَى الْوُجُوهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ شَدَّتِهَا عَلَاقًا خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل سورة في القرآن متضمنة لهذين النوعين؛ فإن القرآن إما خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله - وهذا هو التوحيد العلمي الخبري -، وإما دعوة إلى توحيده، ونهي عن الشرك، وعبادة غيره - وهذا هو التوحيد الإرادي الطلبي -، وإما أمر ونهي والزام بطاعته - وذلك من حقوق التوحيد ومكملاته -، وإما خبر عن أهل التوحيد، وما حصل لهم في الدنيا من النصر والعز، وما يكرمهم به في الآخرة من الثواب؛ فهذا جزء من حقق التوحيد، وإما خبر عن أهل

الشرك وما أصابهم في الدنيا من النكسة والهزيمة، وما يكون في الآخرة وما تكون عاقبتهم وما يحصل لهم في الآخرة من العذاب والنكال؛ وهذا جزء من خرج عن التوحيد.

يتبين من هذا أن القرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وأهله، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم.

وسورة «الفاتحة» مثلاً متضمنة التوحيد؛ ف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: ٢] توحيد، و﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ١] توحيد، و﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة: ٤] توحيد، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْذُ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٥] توحيد، و﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾﴾ صِرَاطَ الْبَرِّ أَعَمَّتْ عَلَيْهِمْ [الفاتحة: ٦-٧] توحيد متضمن للهداية لطريق المنعم عليهم، وهم أهل التوحيد، و﴿غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٧] هم الذين فارقوا التوحيد.

فالقرآن كله من أوله إلى آخره على هذا النمط؛ بهذا التفصيل كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وأهله، وفي شأن الشرك وأهله وجزائه.

ونقاء الصفات أدخلوا في توحيد الربوبية نفي الصفات؛ فكل المعطلة بأنواعهم ومدارسهم قالوا: إن معنى التوحيد نفي الصفات، وقالوا: إن إثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب، و«الواجب» عندهم هو الله، كما أنهم يسمون المخلوق «الممكن».

ففراراً من ذلك قالوا بنفي الصفات حتى لا يكون «واجب» إلا واحداً، فأئنه بزعمهم لو: كان له سمع وبصر وعلم وقدرة؛ لصار الواجب متعدداً، وهذا من أبطل الباطل، وهو من الفساد بِمَحَلِّ ظَاهِرٍ؛ فَإِنَّ إثبات ذات

مجردة عن جميع الصفات والأسماء؛ لا تُوجد في الخارج؛ فلا يُوجد شيء في الخارج إلا له اسم وصفة، فإذا نفيت الأسماء والصفات عن شخص، فلا يمكن أن يوجد بخال؛ فإذا قلت: هناك شيء موجود لكن ليس له طول، ولا عرض، ولا عمق، وليس فوق، ولا تحت، ولا خلف، ولا يمين، ولا شمال؛ فهذا الشيء بهذا الوصف؛ لا وجود له إلا في الذهن، وهؤلاء الثُّفَاة سلبوا الأسماء والصفات عن الرب، ومعنى هذا: أنهم لم يثبتوا ربًّا ولا خالقًا في الحقيقة، إنما كل ذلك في الذهن، والعباد بالله.

وقد أفضى هذا التوحيد - بزعمهم - ببعضهم إلى أن وصلوا إلى الحلول والاتحاد - نعوذ بالله - حتى قالوا: إن الوجود واحد، ووقعوا في شر من مذهب النصاري؛ فإن النصاري خَصُّوا حلول الرب بالمسيح عيسى ابن مريم؛ وهؤلاء الجهمية الغلاة قالوا: إن الله حالٌّ في كل مكان - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - .

فلما وصلوا إلى القول بالحلول والاتحاد، وقالوا: إن الوجود واحد؛ نفى عن هذا التوحيد - الذي يسمونه توحيدًا - وهو من أعظم أنواع الشرك - القول بأن الوجود واحد، وقالوا: بأن فرعون على صواب، وأنه مصيب حينما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾ (الشعراء: ٢٤)، وقالوا: إِنَّ عِبَادَ الْأَصْنَامِ عَلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وأنهم إنما عبدوا الله ولم يعبدوا غيره، وقالوا: لا فرق في التحريم بين الأم والأخت والأجنبية، ولا بين الماء والخمر، ولا بين الزنا والكاح.

وقالوا: الكلُّ مِنْ عَيْنٍ واحد، بل هو العين الواحد، ومن فروع مذهب

الاتحادية^(١) قولهم: إن الأنبياء صَيِّقُوا على الناس، ويَعُدُّوا عليهم المقصود، والأمر وراء ذلك كله؛ فهذا - والعباد بالله - سببه أن هؤلاء أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله، وتركوا كتاب الله وراءهم ظهريًّا؛ فتولتهم الشياطين، فقالوا هذه المقالات التي سَوَّدوا بها الأوراق، وأضلوا بها الناس، وتكلموا بالكفر الصراح - نسأل الله السلامة والعافية - .

(١) هم القائلون باتحاد الخالق بالمخلوق، كقول النصاري في عيسى: اتحد اللاهوت بالناسوت، وتقول الصوفية في بعض أقباطهم. ويسمى بالاتحاد الجزئي، ومنهم من يقول: باتحاد الخالق بجميع المخلوقات، وهذا ما يسمى بالاتحاد الكلي. وهو قرين وحدة الوجود، والفرق بينه وبين وحدة الوجود أن الاتحاد يكون بين شيئين. أما الوحدة فهي قولهم: إن الوجود كله هو الله الإله المعبود، فليس هناك إلا شيء واحد، فلا خالق ولا مخلوق. انظر: «المعجم الفلسفي» لمجمع اللغة العربية القاهرة (٢، ٢٠٩)، و«الموسوعة الميسرة» بإشراف محمد شفيق غريبال (٤٥)، و«ديوان ابن الفارض» (٢٨، ٢٩).

معنى قوله تعالى: (ليس كمثله شيء)

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَا شَيْءٌ مِثْلُهُ):

الشرح

• قوله: (وَلَا شَيْءٌ مِثْلُهُ).

أي: أن الله ﷻ لا يماثله شيء من المخلوقات لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ فليس له مثيل - سبحانه وتعالى-؛ كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الفرقان: ٢١)، فمن اعتقد أن الله مثيلاً في ذاته، أو مثيلاً في صفاته، أو مثيلاً في أفعاله: فقد كفر؛ لأنه تنقُصُ للرب ﷻ؛ ولأنه لم يثبت واجب الوجود لذاته.

ومن اعتقد الله مثيلاً فهو في الحقيقة لم يعبد الله، وإنما يعبد وثناً صوره في خياله، ونحته له فكره، وهو من عباد الأوثان لا من عباد الرحمن، وهو مشابه للنصارى في كفرهم؛ ولهذا قال العلامة ابن القيم^(١):

لَسْنَا نُشَبِّهُ وَضَعَهُ بِصِفَاتِنَا إِنْ الْمَشْبَهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ
وقال^(٢):

من شبه الله العظيم بخلقه فهو النسب بمشرك نصراني
فمن شبه الله بخلقه فقد شابه النصارى؛ لأن النصارى شبهوا المسيح بالله، وقالوا: هو ابن الله - تعالى الله عما يقولون -، ومن مُثِّلَ الله بخلقه؛ فهو في الحقيقة ما عبد الله، وإنما عبد وثناً؛ كما أن من نفى صفات الله

(١) انظر: «الكافية الشافية» (١٣/٢).

(٢) انظر: «الكافية الشافية» (١٣/٢).

وأسماء فهو في الحقيقة لم يثبت شيئاً، وإنما عبد عدماً لا وجود له .

ولهذا يقول العلماء: المشبه الممثل يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً^(١)، والموحد يعبد إلهاً واحداً فرداً صمدًا، فالممثل المشبه اعتقد أن الله مثيلاً في صفاته، أو في أفعاله؛ فهذا قد عبد وثناً، والذي نفى الأسماء والصفات قال: ليس لله سمع، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة، ولا إرادة، وليس فوق السماوات ولا تحتها، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا مابين له، ولا محايد له، ولا متصل به، ولا منفصل عنه؛ فبذلك عبد عدماً؛ لأنك لو قلت: صِفَ المعدوم بأكثر من هذا ما استطعت؛ بل إن هذا - والعباد بالله - أشد من العدم؛ ولهذا فإن المعطل في الحقيقة ما أفاد شيئاً؛ لأنه لا يوجد شيء مسلوب الأسماء والصفات، فكل موجود لا بد له من صفات، حتى الجماد.

ولذلك يكون مذهب أهل السنة والجماعة مذهباً خالصاً صافياً من بين فرث ودم، من بين فرث التعطيل، ودم التشبيه والتمثيل.

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم (١٤٨/١)

كمال قدرة الله وانتفاء العجز عنه

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ: ﷻ: (وَلَا شَيْءٌ يُعْجِزُهُ):

الشرح

بعد أن ذكر الطحاوي ﷻ عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الله، وأنهم يعتقدون أن الله واحد لا شريك له، ولا يماثله شيء من مخلوقاته، قال: (وَلَا شَيْءٌ يُعْجِزُهُ): فأهل السنة والجماعة وأهل الحق يعتقدون أن الله لا يعجزه شيء؛ لكمال قدرته ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ يُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وهذا النفي يستلزم إثبات ضده من الكمال؛ وهكذا كل نفي ورد في الكتاب والسنة في حق الرب -عز وجل-، فإنما هو لإثبات ضده من الكمال؛ ليس نفيًا صرفًا ولا محضًا، بل يستلزم إثبات ضده من الكمال؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ يُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [التيسر: ١١]، فهذا النفي ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ يُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [فاطر: ٤٤]؛ لكمال علمه وقدرته، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَيْكَ أَشَيْئًا﴾ [الكهف: ٤٩]؛ فنفي الظلم هنا لإثبات كمال ضده، وقوله: ﴿وَلَا يُعْزِي عَنْهُ مَبْعَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سجدة: ٣]؛ لكمال علمه، وقوله: ﴿وَلَا يَزِيدُهُ جُفَاءً شَيْئًا﴾ [التيسر: ٢٥٥]؛ لكمال قوته واقتداره، وقوله: ﴿وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [النجم: ١٠٣]؛ لكمال عظمته وجلاله وكبريائه.

وهكذا كل نفي يأتي في الكتاب والسنة؛ فإنما هو لإثبات ضده من الكمال؛ لأن النفي المحض الصرف ليس فيه كمال؛ ولهذا يوصف المعدم بالنفي الصرف المحض، ومن ذلك النفي الصرف المحض قول الشاعر العربي^(١):

قُبِيلَةٌ لَا يَخْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ
فَنَفَى عَنْهُمْ الْغَدْرَ، وَنَفَى عَنْهُمْ الظُّلْمَ، لَكِنْ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ مَقْتَدِرُونَ؛ بل المراد بيان ضعفهم؛ وعجزهم؛ بدليل ما قبل البيت وما بعده، وبدليل أنه صغرهم بقوله: (قُبِيلَةٌ)، وهذا التصغير للتحقير؛ فهم لا يقدرون بذمة، ولا يظلمون الناس؛ لضعفهم وعجزهم؛ ونفي الغدر والظلم إنما يكون كمالًا إذا كان مع القدرة؛ أما إذا كان مع العجز فلا يكون كمالًا، كما في قول الشاعر^(٢):

لَكِنْ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفَرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا
فهو ينفي عن قومه الشر قائلًا: ليسوا من الشر في شيء وإن هانا، ومع ذلك يجزون عن ظلم أهل الظلم مغفرة؛ فإذا ظلمهم أحد غفروا له، وإذا أساء إليهم أحد أحسنوا إليه، فهذا يكون كمالًا لو كانوا قادرين، لكنهم إن فعلوا ذلك بسبب عجزهم وضعفهم، لم يكن كمالًا في حقهم، وهذا النوع من النفي لا يرد في أسماء الله وصفاته، ولا يرد في كتاب الله والسنة؛ لأنه نفي صرف، إنما الذي يرد كما تقدم النفي الذي يستلزم إثبات

(١) هذا البيت للنجاحي من بني الحارث. انظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة الدينوري (١٨٧-١٩٠) و«جوهرة الأمثال» (٨١/١).

(٢) هذان البيتان لتريظ بن أبي أنف من بني العنبر. انظر: «ديوان الحماسة» (٥-٣).

ضده من الكمال؛ ومضت أمثلة على هذا، كقوله تعالى: ﴿لَا يَخْزِي عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]؛ وذلك لكمال علمه، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ وذلك لكمال حياته وقيامته وهكذا.

والنصوص في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ جاءت في باب الأسماء والصفات بالإثبات المفصل وبالنفي المجمل، فنفي النقص والعيوب عن الله يأتي مجملًا؛ كقوله سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ﴾ [زمر: ٢٥]، وكقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وكقوله: ﴿فَلَا تَقْرُبُوا لِلَّهِ أَثْقَالَ﴾ [التحريم: ١٧٤]، وكقوله: ﴿فَلَا تَمْلِكُوا لِلَّهِ أَنْتَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

أما الإثبات فإنه يأتي مفصلًا؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوٌّ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وكقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الحديد: ٣]، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤَيَّدُ الْمُهَيَّبُ الْمَرْبُّ الْعَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ شَبَّحَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الحديد: ٣]، ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

أما أهل الكلام وأهل البدع فعكسوا، حيث أنوا بإثبات مجمل ونفي مفصل؛ فإذا أرادوا أن ينفوا النقص عن الله يأتون بالتفصيل، فيقولون: ليس يذي جنة، وليس يذي أعضاء، وليس بلون، ولا رائحة، ولا طعم، ولا كذا، ولا كذا، ولا لحم، ولا دم، ولا عرق، إلى آخره. فهم يفضلون في نفي النقص والعيوب.

أما الإثبات فإنهم يأتون فيه بإثبات مُجْمَل؛ فعكسوا بهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، وهذا النفي المفصل مع كونه مخالفًا للكتاب والسنة ففيه

إساءة أدب مع الله - عز وجل -؛ فإن الأدب والكمال أن تنفي النقص إجمالًا ولا تعددها؛ فمثلًا - والله المثل الأعلى - لو أراد إنسان أن يمدح أميرًا، أو ملكًا، أو رئيسًا فيقول له: أنت لست بخياط، ولست بحجام، ولست بأعور، ولست بكذا؛ فهذا المادح يؤدّب ويعزّر وإن كان صادقًا؛ لأنه أساء المديح، فبدلًا من أن يمدح صار يذم وهو لا يشعر، وإن كان في ذلك كله صادقًا.

وإنما الكمال أن تأتي بالنفي المجمل؛ فتقول: أنت لست مثل أحد من رعبتك، بل أنت أعلى وأجل وأكمل، فهذا يكون مدحًا؛ وإذا كان هذا في حق المخلوق؛ فهو في حق الخالق أولى.

وقد يأتي النفي مفصلًا للرد على أهل البدع^(١)، كقوله ﷺ: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ يُؤَكِّدُ﴾ [الإخلاص: ٣]؛ للرد على الكفرة الذين نسبوا الولد إلى الله، فينبغي للمسلم أن يعلم ما دل عليه الكتاب والسنة، وأن يحذو حذوهم، وأن يحذر طريقة أهل البدع.

(١) انظر لتقرير هذه القاعدة الجلية «مجموع الفتاوى» (٢/٤٧٨-٤٧٩)، و (٦/٣٧، ٦٦، ٥١٥)، و (١١/٤٨٠)، و (٢٠/١١١، ١٢٦)، و «منهاج السنة» (٢/١٥٦-١٥٧، ١٨٥، ٥٦٢)، و «درء التعارض» (٥/١٦٣)، و (٦/٣٤٨)، و «الصفدية» (١/١١٦)، و «الصواعق المرسلة» (٣/١٠٠٩).

كلمة التوحيد لا إله إلا الله

قَالَ الْمُؤَلَّفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ):

الشرح

هذه هي كلمة التوحيد التي بعث الله بها المرسلين، وأنزل الله من أجلها الكتب، ولأجلها خلق الخلق، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢٦-٢٧]؛ فقوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ٢٦] هذا هو النفي، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢٧] هذا هو الإثبات.

فإثبات التوحيد إنما هو بالنفي والإثبات المقتضي للحصر.

ولهذا لما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَاللَّهُ كَرِهُهُ ﴿١﴾ وَكَرِهَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، قال بعدها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَرْتَمِنُ الرَّحِيمَ ﴿١﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ لأن الإثبات وحده يتطرق إليه الاحتمال؛ فقد يخطر خاطر شيطاني فيقول قائل: إذا كان إلها الله، فهل لنا إله غيره؟

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ كَرِهُهُ ﴿١﴾ وَكَرِهَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثم قال بعدها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَرْتَمِنُ الرَّحِيمَ ﴿١﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

فليس هناك توحيد إلا بنفي وثبات؛ وذلك التوحيد لا يكون إلا بكفر وإيمان، يعني: كفرًا بالطاغوت، وإيمانًا بالله عز وجل؛ فلا (إله)؛ هذا كفرٌ بالطاغوت، و(إلا الله)؛ هذا إيمانٌ بالله؛ ولذلك نقول: التخلية ثم التحلية.

و(لَا إِلَهَ إِلَّا الله): (لا) نافية للجنس، و(إله) اسمها، والخبر محذوف، والتقدير: (لا إله حق إلا الله)، و(إله) معناه: المعبود، أي: لا معبود بحق إلا الله.

وهذه الكلمة كلمة التوحيد لا تنفع صاحبها إلا بتحقيق شروطها التي دلت عليها النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ ومنها:

العلم المنافي للجهل:

قال سبحانه: ﴿قَاتِلْهُ ﴿١﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَعِزْ ﴿٢﴾ بِذَلِكَ ﴿٣﴾﴾ [مائدة: ١٩] فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

ولهذا قال البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «صحيحه»: (باب: العلم قبل القول والعمل)، ثم استشهد بهذه الآية. ﴿قَاتِلْهُ ﴿١﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿٢﴾﴾ [مائدة: ١٩]، وقال - سبحانه - : ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شِئَ ﴿١﴾ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٨٦].

فلا بد من أن تعرف الشيء الذي تنفيه، والشيء الذي تثبته، فلا إله إلا الله تنفي الألوهية عن غير الله وتثبتها لله؛ فهي تنفي جميع أنواع العبادة لغير الله وتثبتها لله - عز وجل -، والعبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي كل ما أمر به الشرع ونهى عنه الشرع.

فكل ما أمر به أمرٌ إيجاب أو استحباب؛ لا بد أن يُمتثل، وكل ما نهى عنه نهْيٌ تحريم أو تنزيه؛ لا بد أن يُترك، هذه هي العبادة؛ طاعة الله، وإخلاص له.

فلا بد أن يقولها عن يقين منافٍ للشك والريب، فإن قالها وعنده شك وتردد في أن الإله المعبود بحق هو الله ﷻ فلن تنفعه هذه الكلمة.

فَلَا بُدَّ لِقَائِهِمْ مِنْ الصَّدَقِ الْمَنَافِي لِلنَّفَاقِ؛ فَإِنَّ الْمَنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا بِالسُّنَنِ، وَقُلُوبُهُمْ مَكْدُوبَةٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَهُوَ يَكْفُرُ خِلَافَ مَا نَدَّيْنَاهُ﴾ [البقرة: ٨]، أَيْ: يَقُولُونَ ذَلِكَ بِالسُّنَنِ، وَتَوَاضَعُ رُءُوسُهُمْ لِلْأَعْيُنِ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذَا جَاءَهُ الْمُنْذَرُونَ قَالَ تُخَفُّونَهُ هَذَا وَقَوْلُ الْكَافِرِ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَا كَسُوءِ الْفِتْنَةِ كَمَا قَالَ الْغَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧].

فَلَا بُدَّ لِقَائِهَا مِنَ الْإِخْلَاصِ الْمُنَاقِي لِلشُّرْكِ. فَإِذَا قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لَمْ يَخْلُصْ أَعْمَالُهُ؛ بَطُلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ وَانْتَقَضَتْ؛ فَالشُّرْكَ يَنْقُضُهَا وَيَحْطِطُ جَمِيعَ الْأَعْمَانِ. قَالَ سُبْحَانَهُ: «لَيْنَ أَنْتَ كَرِهْتَ لِيَبْتَغِيَ عَلَيْكَ وَتَكُونُوا مِنْ الْغَافِقِينَ» (البقرة: ٢٥٥) وَقَالَ سُبْحَانَهُ: «وَكُنْ أَنْتَ كَرِهْتَ لِيَبْتَغِيَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (البقرة: ٢٥٨) وَقَالَ سُبْحَانَهُ: «وَقَرَّبْنَا إِلَى مَا يُعْلَمُونَ مِنْ عِلْمِ جَمَلَتُهُ حِجَابًا مُنْتَوِيًا» (البقرة: ٢٥٩).

٤٧

فلا بُدَّ له من المحبة لهذه الكلمة ولأهلها، والسرور بذلك.

فلا بُدَّ له من الانقياد لحقوقها؛ بفعل الواجبات، وترك المحرمات.

ولا بد له أيضاً من القبول المنافي للترك؛ فقد يقولها بعض الناس، لكن لا يقبلها مِمَّنْ يَذَّوْنُ إليها؛ تعصباً وتكبُّراً، فهذا لا تنفعه هذه الكلمة. فإذا وُجِدَت هذه الشروط؛ فإن هذه الكلمة تكون صحيحة، وقد قالها قائلنا عن تحقيق، أما مَنْ قالها مع فقدان هذه الشروط؛ فإنها لا تنفعه.

كذلك: لا بد أن يوحد الله في ربوبيته، وفي أسمائه وصفاته، وفي ألوهيته وعبادته كما سبق، فإن أنواع التوحيد الثلاثة متلازمة، وكلها مطلوبة، فمن لم يأت بنوع من هذه الأنواع؛ فلا يصح التوحيد منه؛ ومن لم يوحد الله في ربوبيته فهو كافر وزعم أنه عابد، ولا يمكن أن يعبد الله وهو لا يوحد في ربوبيته؛ كذلك: من زعم أن الله يوحد الله في أسمائه وصفاته، ولكنه لم يوحد الله في عبادته؛ لم يكن موحدًا، وهكذا.

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ أي: أَنَّ مَنْ عَدَّ اللهَ، وأخلص التعلق بالله - عز وجل -؛ فلا بد أن يكون قد وُحِّدَ الله في ربوبيته؛ لأنه إنما عَدَّ الله؛ لاعتقاده أن الله هو الخالق، الرازق، المدير، المحيي، المميت، الذي بيده النفع والضر .

أما توحيد الربوبية فإنه مستلزم لتوحيد الألوهية؛ أي: أَنَّ مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ

في ربوبيته، واعتقد أن الله هو الخالق، الرازق، المدبر، المحيي، المميت، فإن هذا الاعتقاد وهذا التوحيد، يوجب له أن يوحد الله في ألوهيته.

لكن ليس كل فرد يلتزم بما لزمه؛ فإن الدلالات عند العلماء من أهل الأصول لها ثلاثة أنواع^(١):

- ١- دلالة التضمن: وهي دلالة الشيء على جزء معناه أو على بعض معناه.
 - ٢- دلالة الالتزام: وهي دلالة الشيء على خارج معناه.
 - ٣- ودلالة المطابقة: دلالة الشيء على جميع معناه.
- فمثلاً مَنْ عَبدَ الله؛ فإنه يُحد الله في ربوبيته، ووحد الله في ألوهيته، فتكون دلالة توحيد العبادة دلالة مطابقة، لأنه دل على جميع معناه؛ لأن توحيد العبادة يشمل أمرين: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية.
- ودلالة توحيد العبادة على توحيد الربوبية دلالة تضمن؛ لأنه يدل على جزء معناه، فتوحيد الربوبية جزء من معنى توحيد الألوهية.

أما دلالة توحيد الربوبية على توحيد الألوهية فهي دلالة التزام؛ لأنه خارج عن معناه؛ مثل دلالة التوبة على التائب؛ فالتوبة غير التائب، ودلالة الوالد على الولد؛ فالولد غير الوالد لأنه شيء خارج عنه؛ فتوحيد الربوبية غير توحيد الألوهية.

وبعض أهل الكلام كالأشاعرة وغيرهم أخطؤوا في تقدير الخبر المحذوف من كلمة التوحيد، فقالوا: «لا إله موجود إلا الله»، وفسروا الإله

(١) انظر: «الإحكام» للأمندي (٣٦/١، ٣٧)، وآداب البحث والمناظرة» (ص ١٣).

بالخالق، وهذا خطأ، لأنه لو كان المعنى: لا خالق إلا الله؛ لما حصل نزاع بين النبي ﷺ وكفار قريش، ولما حصل نزاع بين الرسل وأممهم، لأن الأمم يُؤثرون بأنه لا خالق إلا الله.

فلا يتبين عظمة هذه الكلمة إلا بتفسير (الإله) بالمعبود، فتقدير الخبر المحذوف «بحق»؛ هو الصحيح، فيكون المعنى: لا معبود بحق إلا الله؛ وبهذا يتبين عظمة هذه الكلمة؛ لأن الآلهة موجودة، ولكنها آلهة باطلة، وإن عُدَّتْ؛ فتبطل، قال سبحانه: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَرِّ لَمَّا جَاءَهُمْ رَبُّكَ﴾ (مائدة: ١٠١)، فهم لهم آلهة، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَلَا أَشْرَ عِبِيدُ﴾ ﴿مَا أَعْبُدُ إِلَّا عَالِيَهُمْ مَا عَبَدْتُمْ﴾ ﴿وَلَا أَشْرَ عِبِيدُ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (التكوير: ١-٦).

فاليهود لهم معبود؛ وهو العُزَيْرُ، والنصارى لهم معبود؛ وهو المسيح، والكافرون يعبدون الأصنام والأوثان؛ وجميع الكفرة لهم معبودات لكنها باطلة، لكن المعبود بحق هو الله، وما سواه فهو باطل، قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا تَكْفُرُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (النسخ: ٦٢).

فالكفار لهم دين، لكنه دين باطل؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (التكوير: ٦)، وحكى الله عن أهل الكتاب أنهم قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ وَتَكْفُرُ﴾ (آل عمران: ٧٣)، فلهم دين لكنه دين باطل، والدين الحق هو دين الإسلام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَىٰ بِكَ الْعِزَّةُ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ (آل عمران: ٤٩).

فتفسير الإله بالخالق؛ تفسير باطل؛ لأنه لو كان الإله هو الخالق؛ لما حصل خلاف وقال بين الأنبياء وبين أممهم.

صفنا القدم والبقاء

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ):

الشرح

(قديم): قوله: كلمة «القديم» لم ترد في أسماء الله، وإنما أحدثها أهل الكلام، إنما الذي ورد «الأول» و «الآخر»، وهما اسمان لأزلية الله وأبدية، فلما رأى الطحاوي هذا؛ قيده فقال: (قديمٌ بلا ابتداء، دائمٌ بلا انتهاء): ف«قديم بلا ابتداء» تساوي اسمه «الأول»، و «دائم بلا انتهاء» تساوي اسمه «الآخر».

وأهل السنة والجماعة لا يسمون الله بأنه «القديم»؛ لأن الأسماء والصفات توقفية؛ أي: أننا نقف على ما ورد في الكتاب والسنة فنثبتة لله، وما ورد في الكتاب والسنة نفياً عن الله؛ فلأننا ننفية عن الله.

وما لم يرد في الكتاب والسنة نفياً ولا إثباتاً فننتوقف في إطلاقه: مثل الجسم، والحيز والعرض^(١).

(١) قال شيخ الإسلام: «الألفاظ التي تنازع فيها من ابتدعها من المتأخرين، مثل لفظ «الجسم» و«الجوهر» و«المتحيز» و«الجهة» ونحو ذلك، فلا تُطلق نفياً ولا إثباتاً، حتى ينظر في مقصود قائلها، فإن كان قد أراد بالنفي والإثبات معنى صحيحاً موافقاً لما أخبر به الرسول، صُوب المعنى الذي قصده بلفظه، ولكن ينبغي أن يعبر عنه بالألفاظ النصوص، لا يُعدل إلى هذه الألفاظ المبتدعة المجعلة إلا عند الحاجة، مع فرائض تبين المراد بها، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، وأما إن أريد بها معنى باطل، نفى ذلك المعنى، وإن جُمع بين حق وباطل، أثبت الحق وأبطل الباطل». «منهاج السنة» (٢/٥٥٤)، وانظر (٢/٦١١). وانظر «الدرة» (١/٢٢٣)، و(٢٢٩، ٢٤٢)، و«الفتاوى» (٥/٢٢٩)، و(٦/٣٦، ١٦/٤٢٦، ١٧/٣٠٤).

قول الطحاوي: «قديم، ودائم»، فهذا ليس من الأسماء^(١).

وليس لنا حاجة بها، وإنما نكتفي بما ورد في الكتاب والسنة، فنقول: الله الأول والآخر؛ كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣)، وثبت في «صحيح مسلم» الدعاء المشهور أن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، قَائِلَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ، وَضَرَّاعَ الثَّوَرِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»^(٢).

هذا الحديث فيه: إثبات أربعة أسماء لله - عز وجل -: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهذه الأسماء الأربعة؛ كل اسمين منها

(١) قال الشيخ ابن باز في تعليقه على الطحاوية: «هذا اللفظ لم يرد في أسماء الله الحسنى، كما تبه عليه الشارح رحمه وغيره، وإنما ذكره كثير من علماء الكلام، ليشبها به وجوده قبل كل شيء، وأسماء الله توقفية لا يجوز إثبات شيء منها إلا بالنص من الكتاب العزيز أو السنة الصحيحة، ولا يجوز إثبات شيء منها بالرأي، كما نص على ذلك أئمة السلف الصالح ولفظ القديم لا يدل على المعنى الذي أراده أصحاب الكلام؛ لأنه يفصده به في اللغة العربية: المتقدم على غيره، وإن كان مسبوقة بالعدم، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ سَاعَةَ كَلَامِهِ الْقَدِيمِ﴾ (نور: ٢٣٩)، وإنما يدل على المعنى الحق بالزيادة التي ذكرها المؤلف وهو قوله: (قديمٌ بلا ابتداء)، ولكن لا ينبغي عدّه في أسماء الله الحسنى؛ لعدم ثبوته من جهة النقل، ويعني عنه اسمه سبحانه الأول، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ (الحديد: ٣) الآية. والله ولي التوفيق».

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

متقابلان؛ فالأول والآخر؛ متقابلان، والظاهر والباطن؛ متقابلان .

فالأول والآخر: اسمان لأزليته وأبديته؛ ولهذا فسرها النبي ﷺ في هذا الحديث فقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»^(١).

والظاهر والباطن: اسمان لعلوه وفوقيته، فلا يحجبه شيء من المخلوقات؛ ولهذا قال: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»، فهو الظاهر؛ لأنه ﷻ فوق السموات، وفوق العرش مستو على عرشه بائن من خلقه.

وهو الباطن الذي لا يحجبه شيء من المخلوقات، يرى كل شيء، ويبصر كل شيء ﷻ، ولا يخفى عليه شيء من خلقه؛ من أعمالهم وسكناتهم وحركاتهم. ووصف الله بالأول والآخر معلوم مستقر في الفطر؛ فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل؛ فإننا نشاهد حدوث الحوادث من النبات والحيوان والمعادن، وحوادث التحول وغيرها.

وهذه المخلوقات ليست ممتعة؛ لأن الممتنع لا يمكن أن يوجد؛ وهي قد وجدت، وليست واجبة الوجود لذاتها؛ لأنها كانت معدومة ثم وجدت فدل على أن وجودها جائز ليس ممتنعاً؛ لأنها وجدت، والممتنع لا يوجد.

وهذا المخلوق الذي يوجد بعد أن كان معدوماً لا بد له من موجد يوجده، وإلا بقي معدوماً؛ كما قال سبحانه: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ

(١) هو قطعة من الحديث السابق

أَخْلَقُونُ» [المطهر: ٢٣٥]، أي: حدثوا من غير شيء أم هم أحدثوا أنفسهم؟

وأما اسم «القديم» فمع أنه لم يرد في الكتاب والسنة إلا أنه لا يفيد التقدم على كل شيء، وإنما يفيد التقدم تقدماً نسبياً؛ كما قال ﷻ: «وَخَلَقَ عَادَ كَانُوجِينَ الْقَدِيرِينَ» [يس: ٢٩]، فالعرجون القديم لا يسمى قديماً إلا إذا وجد العرجون الجديد، لكنه ليس متقدماً على كل شيء .

وقال ﷻ: «قَالَ أَقْرَبُ شَيْءٍ مَا كُنْتُ تَعْبُدُ» [الشعرا: ٧٥-٧٦]، و«الْقَدِيمُ» مبالغة في القديم؛ وقال سبحانه: «فَتَسْتَلِئُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ بِقَدِيرٍ» [الحجرات: ١١]، ومنه سُمِّيَتْ قَدَمُ الْإِنْسَانِ قَدَمًا؛ لأنها تتقدم بدن الإنسان؛ والفعل يأتي متعدباً ولازماً؛ يقال: أخذني ما قدم وما حدث، ويقال: قَدُمَ هذا يَقْدُمُهُ يعني يتقدمه، وقال سبحانه في فرعون: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْيَوْمِ» [مزد: ٩٨]؛ أي: يتقدمهم في النار.

ومنه: قول «القديم والجديد في الشافعي»؛ فالقول القديم: ما أخذ به في العراق؛ والقول الجديد: ما أخذ به في مصر، فسمي القديم بالنسبة للقول الجديد.

فالمقصود: أن كلمة القديم لا يراد بها التقدم على كل شيء، وإنما تفيد التقدم النسبي، بخلاف الأول كما تقدم .

ولا يرد على هذا: كون الجنة والنار باقيتين، وكون الناس إذا بُعِثُوا يبقون؛ لأن وجودهم إنما بإيجاد الله لهم؛ ولأن بقاءهم بإبقاء الله لهم.

الإقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ):

الشرح

قوله: (لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ)

أي: الله ﷻ؛ وهذا تأكيد لقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٢٣]، وتأكيد لقول المؤلف: «قَدِيمٌ بَلَا أَيْدَاءَ، دَائِمٌ بَلَا أَنْتَهَاءَ».

فالله سبحانه وتعالى لا يفنى ولا يبيد؛ فهو ﷻ الباقي؛ أي: الذي لم يزل ﷻ ولا يزال ولا يتطرق إليه الفناء، ولا التغير، ولا البلاء؛ لأن حياته كاملة ﷻ فهو الحي القيوم.

والفناء واليَبْد متقاربان؛ فهذا تأكيد لكونه ﷻ هو الأول، وهو الآخر، وهو الحي القيوم الذي لا يتطرق إليه ضعف، ولا نوم، ولا سِنَّة؛ لأنه كامل - سبحانه وتعالى - بخلاف المخلوق فإنه يفنى، ويبيد، ويزول، ويضعف، ويمرض، ويتفرق، ويموت، أما الله ﷻ فهو الموصوف بصفات الكمال الذي لا يتطرق إليه نقص في وجه من الوجوه.

كل ما يحدث في الكون فهو بإرادته سبحانه

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ):

الشرح

هذا فيه إثبات الإرادة، وكل ما يكون في هذا الكون فإله أراد؛ لأنه لا يقع في ملك الله إلا ما يريد؛ لأن الله هو المالك، المدبّر، المسير، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد من الدوات والصفات والأفعال.

وأراد الطحاوي ﷻ أن يرد على القَدَرِيَّة^(١) من المعتزلة الذين يقولون: إنه يقع في ملك الله شيء لا يريد الله، وإن الله تعالى أراد الإيمان من الناس كلهم، ولكن الكافر والعاصي أراد الكفر والمعصية، فوقع الكفر، والله لا يريد الكفر، ووقعت المعاصي، والله لا يريد المعاصي.

فألزّمهم أهل السنة والجماعة بأنه إن يقع في ملك الله ما لا يريد؛ فهذا يلزم منه تنقُص الرب عز وجل، وأهل السنة والجماعة يقولون: إن الله تعالى وإن كان أراد وقوع الكُفْر والمعاصي كَوْنًا وَقَدَرًا، لكنه لا يريد لها دينًا وشرعًا، ولا يحبها، ولا يرضاها، ولا يأمر بها، بل ينهى عنها، ويخضعها، ويسخطها، ويكرهها.

(١) سموا بذلك؛ لقولهم في القدر، وهم يزعمون أن العبد هو الذي يخلق فعله استقلالًا فائتوا خالفًا مع الله، ولذا سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس قالوا بإثبات خالقين: النور والظلمة، وهم يزعمون أن الله ﷻ قدر على مقدورات غيره، وهذا هو مذهب المعتزلة في القدر. انظر: «الملل ر حل» (١/ ٥٤)، و«البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان» (٢٦، ٢٧)، و«عون المعبود» للعظيم أبيادي مع شرح ابن القيم (١٢/ ٤٥٢، ٤٥٣).

الثاني: إرادة دينية شرعية أمرية .

والإرادة الثانية: متضمنة للمحبة والإرادة، ولكل نوع من النوعين أدلة من الكتاب العزيز ومن السنة^(١).

ومن الأدلة: قول الله تعالى عن نوح -عليه الصلاة والسلام- أنه قال لقومه: ﴿لَا تَتَّبِعُوا نَصِيحِي إِنْ أَدْرُتُمْ أَنِّي أَخْصَحُ لَكُمْ مِنْ كَافَّةِ اللَّهِ يُرِيدُ أَنْ يُثَوِّبَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (مئود: ٣٤)، فهذا إرادة كونية؛ فقوله: ﴿إِنْ كَانِ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُثَوِّبَكُمْ﴾ (مئود: ٣٤) يعني: كوناً وقدرًا.

أما أدلة الإرادة الدينية والشرعية فمنها: قول الله تعالى: ﴿رُبِّدُ اللَّهُ

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٣/١٨٠-١٨٣)، و(٥/٣٦٠، ٤١٤، ٤١٣)، و(٧/٧٢، ٧٣)، و«مدارج السالكين» (١/٢٦٤-٢٦٨)، و«شفاء العليل» (٢/٧٦٧).

وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ الصَّافِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

فالإرادة الكونية القَدَرية هي المذكورة في قول المسلمين: (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن).

أما المعتزلة والقَدَرية فما عندهم إلا إرادة واحدة، وهي الإرادة الدينية الشرعية، فهذه هي التي أثبتوها، لكنهم عَمُوا عن الإرادة الكونية فضَلُّوا سواء السبيل.

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٣/١٨٠-١٨٣)، و(٥/٣٦٠، ٤١٤، ٤١٣)، و(٧/٧٢، ٧٣)، و«مدارج السالكين» (١/٢٦٤-٢٦٨)، و«شفاء العليل» (٢/٧٦٧).

والجبرية^(١) ليس عندهم إلا إرادة واحدة، وهي الإرادة الكونية؛ وأنكروا الإرادة الدينية الشرعية فضلوا أيضاً .

وأهل السنة والجماعة: أخذوا أدلة القدرية والمعتزلة التي يثبتون فيها الإرادة الدينية الشرعية وقالوا: هذه حق، وأخذوا الأدلة التي أثبتتها الجبرية في الإرادة الكونية وقالوا: هذه حق، وقالوا: كل شيء في هذا الوجود أَراده الله كوناً وقُدراً؛ الكفر والمعاصي وغيرها، ولكن له الحكمة البالغة في ذلك، لكنه لا يريد الكفر والمعاصي ديناً وشرعاً، ولا يحبها بل يبغضها وينهى عنها، ومن جُكِّه وأسراره من إيجاد الكفر والمعاصي: ظهور قدرة الله على إيجاد المتقابلات والمتضادات، فالكفر يقابل الإيمان، والمعصية تقابل الطاعة؛ كما أن الليل يقابل النهار.

ومنها: ظهور العبوديات المتنوعة كعبودية الجهاد في سبيل الله، وعبودية الولاء والبراء، وعبودية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ فلو لم يكن هناك كفر ولا كفار ولا عصاة، فكيف تكون هناك عبودية الجهاد في سبيل الله؟ وعبودية الولاء والبراء؟ وعبودية الحب في الله والبغض في الله؟ وهكذا؟

ومنها: انقسام الناس إلى شقي وسعيد، وإلى مؤمن وكافر؛ ولأن الله

(١) سمو بذلك نسبة إلى الجبر، فهم يقولون: إن العبد مجبور على فعله فهو كالريشة في مهب الريح ليس له إرادة ولا قدرة على الفعل، وممن قال بهذا الجهم بن صفوان. وهم أصناف: الجبرية الخالصة وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً، ولا قدرة على الفعل أصلاً. والجبرية المتوسطة: وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة. انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (١٠٣)، و«الملل والنحل» (١٠٨/١)، و«رسالة في الرد على الرافضة» (١٦٩، ١٧٠).

تعالى خلق للجنة أهلها ووعدهم بها، وخلق للنار أهلها ووعدهم بها.

وفي الحديث أن الله قال للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَعَذَّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَلُوكًا...»^(١).

فهذه جُكِّم وأسرار قُدِّرها الله تعالى لا لذاتها؛ بل لما يترتب عليها من الحكيم، وكون الكفر والمعاصي يسببان ضرراً على الأشخاص الذين قدر عليهم، فهذا ضرر نسبي لا يضاف إلى الله، والذي يضاف إلى الله إنما هو الخلق، والإيجاد، والتقدير.

وهذا الخلق والإيجاد مبني على الحكمة؛ فلا يسمى شراً بالنسبة إلى الله، ولكن يسمى شراً بالنسبة إلى العبد الذي أضربه وأساء إليه، أما بالنسبة إلى الله فلا يضاف إليه إلا الخلق والإيجاد والتقدير، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(٢).

فالمقصود: أن قول المصنف ﷺ: (وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ) يبين معتقدات أهل السنة والجماعة في إثبات الإرادة الكونية الشاملة والرُّد على المعتزلة الذين أنكروا الإرادة الكونية القدرية، وأنهم ضلوا بذلك؛ كما أن

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي ﷺ، وورد هذا الحرف أيضاً من حديث حذيفة ﷺ، عند النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٩٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٨٠٠)، والبيهقي في «مسنده» (٢٩٢٦)، والطبراني في «معجمه» (٤١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٧٨/١)، واللالكائي في «السنة» (٢٠٨٦)، وابن منده في «الإيمان» (٨٧٢/٢)، وصححه، والحاكم (٣٩٥/٢) - تحقيق: مصطفى عبدالقادر. وصححه الحاكم، والحافظ ابن حجر كما في «فتح الباري» (٣٩٩/٨).

الجبرية أنكروا الإرادة الشرعية، وضلوا في عدم إثباتهم الإرادة الدينية الشرعية .

وهدى الله أهل السنة والجماعة: فثبتوا الإرادة بنوعيتها، وعملوا بالنصوص من الجانبين ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] . أسأل الله أن يجعلني ولياكم منهم.

معرفة البشر ربهم بأسمائه وصفاته
وعجزهم عن الإحاطة بكنهه وحقيقته

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (لَا تَبْلُغُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تُدْرِكُ الْأَفْهَامُ):

الشرح

الأوهام: جمع وهم وهو الظن، والأفهام: جمع فهم وهو العلم، ولهذا يقول أهل اللغة: توهمت الشيء: ظننته، وفهمت الشيء: علمته. والمعنى: أن الله ﷻ لا يبلغه الزم، ولا يحيط به علم؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [٢١١٠] أي: لا يعلمون كنهه وحقيقته، وإنما يعلمونه بأسمائه وصفاته، لا كما يرونه يوم القيامة، وهذا يدل على كماله وعظمته ﷻ.

تنزيه الله عن مشابهة مخلوقاته

♦ قَالَ الْوَلَدُ ﷺ: (وَلَا يُشَبِّهُ الْأَنَامُ):

الشرح

الله ﷻ لا يشبهه أحد من الأنام، والآنم: هم الناس، وهذا المعنى هو الأقرب والأفضل، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَسَّعَهَا يُذَكِّرُوا﴾ [الرَّحْمَنُ: ١٠]، وقيل: المراد بهم الثقلان الجن والإنس، وقيل: المراد بهم كل ذي روح، والمعنى: لا يشبه أحدًا من خلقه.

وأراد المصنف: الرد على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، ويغلون في الإثبات؛ فيقول أحدهم: علم الله كعلم المخلوقين، وقدرته كقدرتهم، وسمعه كسمعهم، واستواؤه كاستوائهم.

وهذا هو مذهب المشبهة، والغالب أن المشبهة من غلاة الشيعة، وأول من قال إن الله جسم: هشام بن الحكم الوراق^(١)، وبيان بن سميان التميمي^(٢) الذي تنسب إليه البيانية من غالية الشيعة؛ وكان يقول: إن الله

(١) هو هشام بن الحكم البغدادي الكندي هشام بن الحكم الشيباني بالولاء، الكوفي، أبو محمد. ولد بالكوفة، ونشأ بواسط، وسكن بغداد. متكلم مناظر، كان شيخ الإمامية في وقته، وهو من الشيعة الإمامية الذين غالوا في التجسيم والتشبيه، وإليه تنسب فرقة الهشامية. توفي بعد نكبة البرامكة ١٨٧هـ بمدة يسيرة، وقيل: بل في خلافة المأمون ١٩٨هـ - ٢١٨هـ. انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ١٦٤-١٦٦)، و«الفرق بين الفرق» لعبد القاهر البغدادي (١٩، ٣٤، ٤١، ٤٢، ٦٧، ١٣٩)، و«الأعلام» للزركلي (٨٥/ ٨).

(٢) بيان بن سميان النهدي التميمي، ظهر بالعراق بعد المائة. وزعم أن معبوده إنسان من نور على صورة الإنسان في أعضائه، وأنه يقنى كله إلا وجهه، وهو من الغلاة =

على صورة الإنسان.

ومِن المشبهة هشام بن سالم الجواليقي^(١)، وداود الجَوَارِي^(٢)؛ ومذهبهم الغلو في الإثبات حتى أدخلوا في ذلك ما نفاه الله ورسوله.

حتى أثبتوا أن الله يُرى في الدنيا بالابصار، وأنه يُصافح ويعانق، ويحاضر ويسامر، وينزل عشية عرفة على جمل، وقال بعضهم: إنه يندم ويحزن ويكيي-تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - شابهوا اليهود في هذا، وهؤلاء ما قدرُوا الله حق قدره، قال ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قِصَصُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزُّمَر: ٢٧].

وثبت في الحديث الصحيح: «أَنَّ اللَّهَ يَضِعُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالْثَرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ خَلْقِهِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهْزُهُنَّ بِيَدِهِ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكِ الْأَرْضِ؟»^(٣).

= القائلين بالهية أمير المؤمنين علي ﷺ، وتنسب إليه فرقة البيانية. قتله خالد بن عبد الله القسري. انظر عنه وعن فرقته «المقاتلات» للأشعري (٩٥/١)، و«الملل والنحل» (١/ ١٣٦)، و«الفرق بين الفرق» (٢٧، ١٣٨، ١٤٥، ١٤٦، ١٦٣).

(١) هشام بن سالم الجواليقي الجعفي الملاف، من الإمامية المشبهة.
(٢) قال ابن حجر في «لسان الميزان» (٤٢٧/٢): «رأس في الروافض والتجسيم من مرامي جهنم قال أبو بكر بن أبي عوف: سمعت يزيد بن هارون يقول: الجوابي والمرسي كافران»، وقال السمعاني في «الأنساب» (٦٤٣/٥) بعدما ذكر هشام الجواليقي: «وعنه أخذ داود الجوابي قوله: إن معبوده له جميع أعضاء الإنسان إلا الفرج واللحية». انظر: «الملل والنحل» (١٦٧/١)، و«الفرق بين الفرق» (١٤٠)، و«تليس ليليس» لابن الجوزي (٨٧).

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٧٥١٣)، وسائر المواضع في البخاري لم يرد فيه قوله: «يهزهن» إلا في الموضع هذا المحال إليه، وأخرجه بنحوه أيضاً: مسلم (٢٧٨٦)؛ =

وفي الحديث: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَخَزْكَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»^(١)، ومعلوم: أن الإنسان إذا كان في يده خردلة؛ فهو مسيطر عليها؛ مستو عليها، إن شاء قبضها، وإن شاء جعلها تحته، فكيف يقول هؤلاء الكفرة: إن الله ينزل عرشه عرفة على جمل، وتكون السماء فوقه والأرض تحته؟ -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - .

والتشبيه مذهب باطل قد جاءت التصوص بنفيه وإبطاله، قال الله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» [الأنعام: ١٠١]، وقال سبحانه: «هَلْ تَمَثَّلَ لَكُمْ سَوِيًّا» [نجم: ٢٥]، وقال سبحانه: «فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَشْأَالَ» [الأنعام: ١٧٤]، وقال سبحانه: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» [البقرة: ٢٢]، ومن شبه الله بخلقه -واعتقد أن الله يشبه المخلوقات- فهو في الحقيقة لم يعبد الله على الحقيقة، وإنما يعبد وثناً صوّره خياله، ونحته له فكره؛ فهم من عباد الأوثان، لا من عباد الرحمن. ومن شبه الله بخلقه فقد شابه النصارى؛ وكما أن الله لا يشبه أحداً من خلقه، فهو لا يشبه أحد من خلقه، ومذهب المشبهة عكس مذهب النصارى؛ فالمشبهة شبهوا الله بخلقه وقالوا: إن صفة الله كصفة المخلوق؛ والنصارى شبهوا المخلوق بالخالق، فقالوا: إن عيسى ابن الله؛ فالنسبة بين المشبهة والنصارى عكسية، وكل منهما مشبهة.

قال نعيم بن حماد شيخ البخاري رحمه الله: «من شبه الله بخلقه فقد كفر،

= كلاهما من حديث ابن مسعود، رحمه الله، إلى قوله: «أنا الملك»، أما باقي لفظه فهو من حديث أبي هريرة في حديث أخرجه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧).
(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٢٤/٢١)، من طريق أبي الجوزاء، عن ابن عباس، موقفاً.

ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه، ولا رسوله؛ تشبيهاً»^(١).

قال إسحاق بن راهويه الإمام المشهور: «من شبه الله بخلقه فقال: إن الله يشبه أحداً من خلقه في صفاته فهو كافر بالله العظيم، أو كما ورد عنه ﷻ»^(٢).

وبهذا يتبين: أن المشبهة كفار، وأن غالبهم من غلاة الشيعة - نسأل الله السلامة والعافية -.

(١) أخرجه الذهبي في «العلو» رقم (٤٦٤)، وفي «السير» (٦١٠/١٠)، وقال في «السير» (٢٩٩/١٣): «وما أحسن قول نعيم بن حماد الذي سمعناه بأصح إسناد... ثم ذكره غير أنه لم يُسنَدُ. وهو في «شرح السنة» للالكاني رقم (٩٣٦).
(٢) انظر: «شرح السنة» للالكاني رقم (٩٣٧)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ص ١١٧).

حي لا يموت قيوم لا ينام

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ):

الشرح

• قوله: (حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ):

فيه إثبات هذين الاسمين للرب ﷻ؛ فالحي: اسم من أسماء الله عز وجل، والقيوم: اسم آخر.

والحي: متضمن لصفة الحياة، والقيوم: متضمن لصفة القيومية؛ لأن أسماء الله ﷻ مشتقة ليست جامدة، وكل اسم من أسماء الله يدل على الصفة؛ فالرحمن: تدل على صفة الرحمة، والقادر: يدل على صفة القدرة، والعليم: يدل على صفة العلم، وهكذا؛ لأن أسماء الله تعالى مشتملة على المعاني.

والحي والقيوم: اسمان عظيمان من أسماء الرب ﷻ قد جمع الله ﷻ بينهما في ثلاث آيات من كتابه عز وجل؛ الآية الأولى: قول الله تعالى في آية «الكروسي»: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والثانية: قوله تعالى في أول سورة آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢-٣]، والثالثة في سورة طه قوله سبحانه: ﴿وَعَسَى الْأُخْرَىٰ لِلَّهِ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَلَكْنَا مِنْ حَمَلٍ مُّطْلَأًا﴾ [طه: ١١١]؛ فالله تعالى جمع بينهما في هذه الآيات الثلاث، واسم الحي جاء في آيات أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَنُكَسِّلُ عَلَىٰ آلِكَ الْأَيَّ لَا يَمُوتُ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]. وهذان الاسمان عظيمان من أعظم أسماء الله الحسنی، حتى قال بعض

أهل العلم: إنهما اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وجاء هذا في حديث أسماء بنت يزيد: أن النبي ﷺ قال: «فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ: ﴿وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٣]، والحديث فيه ضعف ولكنه شاهد.

ولهذا قال بعض أهل العلم: إنهما اسم الله الأعظم، وما ذاك إلا لأن مدار الأسماء الحسنی كلها تعود إلى هذين الاسمين، وإليهما ترجع معانيها.

فصفة الحياة: ترجع إليها جميع صفات الأفعال، ولا يتخلف عنها إلا لضعف الحياة، والله تعالى له الحياة الكاملة، فجميع صفات الكمال ترجع إليها.

والقيوم الذي لا ينام: يدل على كمال غناه ﷻ الذي لا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، وهو أكمل من القديم؛ لأنه يدل على كمال الرب، وكمال قوته واقتداره، ودوام ذلك واستمراره أزلاً وأبداً، فهو القائم بنفسه المقيم لغيره ﷻ.

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥) من طريق عبيد الله بن أبي زياد القُداح، عن شهر بن حوشب، عن أسماء، وشهر متكلم فيه، والحديث قال فيه الترمذي: «حسن صحيح»، وتعليقه الحافظ فقال في «الفتح» (٢٢٤/١١): «وفيه نظره؛ لأنه من رواية شهر بن حوشب»، لكن له شاهد من حديث أبي أمامة عند ابن ماجه (٣٨٥٦)، والحاكم (٦٨٤/١) -تحقيق: مصطفى عبد القادر، وغيرهما. والحديث الأول حسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٢٣)، وحسن الثاني أيضاً في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٧٤٦).

ويدل على أنه واجب بنفسه، وهو واجب الوجود؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِلَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ فنفى السَّنة والنوم يدل على كمال الحياة والقيومية؛ ولهذا كانت هذه الآية - آية الكرسي - أعظم آية في القرآن الكريم؛ كما ثبت ذلك في «الصحيح»^(١)، وأن مَنْ قَرَأَهَا في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح^(٢).

وكان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو ويتوسل إلى الله بهذين الاسمين؛ فهما اسمان عظيمان ثابتان لله عز وجل، متضمنان لصفة الحياة، والقيومية، ولذلك يعبد بهما فيقال: عبدالحى، وعبدالقيوم.

(١) أخرجه مسلم (٨١٠) من حديث أبي بن كعب ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري (٢٣١١) من حديث أبي هريرة.

صفنا الخلق والرزق

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷻ: (خَالِقٌ بِلَا حَاجَةٍ، رَازِقٌ بِلَا مُؤَوَّنَةٍ):

الشَّرح

وهذان أيضًا اسمان من أسماء الرب، فمن أسمائه الخالق، ومن أسمائه الرازق، فهو خالق بلا حاجة إلى أحد، لأنه كامل ﷻ.

وهو الغني عن كل ما سواه، وهو رازق بلا مؤونة؛ أي: بلا ثقل وكلفة ومشقة، والأدلة على ذلك كثيرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [١] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ ذَنْبٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُبْعَثُوا [٢] إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَبَّيُّنُ [٣] [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [٤] إِنْ يَشَأْ يُدْخِلْكُمْ فِيهِمْ وَلَئِنْ يَشَأْ يُخْرِجْكُمْ مِنْهُمْ وَمَا إِلَهُهُ بِمُزِيلِ [٥] ذُرِّيَّتِهِمْ مِنَ الْعَرْشِ وَمَنْ يُنْفِقْ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَذَرْهُمْ لَا يَحْمِلْهُمْ يَتْلُو ذَلِكَ هُوَ يَمُزِّجُ [٦] وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ [٧] إِنَّكُمْ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُونَ [٨]﴾ [الأنعام: ١٥-١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَتَرَكُ لِنَفْسِهِ [٩] وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ [١٠]﴾ [فاطر: ١٥-١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ [١١] وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ [١٢]﴾ [مجاد: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِكَ قَاطِرَ [١٣] أَسْتَوَاتٍ وَالْآخَرِينَ هُوَ يَغْنُمُ وَلَا يُلْهَى [١٤]﴾ [الأنعام: ١٤].

وثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي ذرٍّ ﷺ أن النبي ﷺ قال في الحديث الطويل: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَأَجْرَتُكُمْ وَإِنْسُكُمْ وَجَنَّتُكُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ مِنْكُمْ مَا رَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَأَجْرَتُكُمْ وَإِنْسُكُمْ وَجَنَّتُكُمْ كَانُوا عَلَى أَعْيُنِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَأَجْرَتُكُمْ وَإِنْسُكُمْ

وَجَعَلَكُمْ قَامُوا فِي صَبِيحٍ وَاجِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا أُدْجِلَ الْبَيْخَرُ^(١)، أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وهو حديث قدسي من كلام الله عز وجل، لفظاً ومعنى.

من صفات الله الفعلية أنه يحيي ويميت

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (مُيِّتٌ بِلا مَخَافَةٍ، بَاعِثٌ بِلا مَشَقَّةٍ):

الشرح

يبين المؤلف أن الله ﷻ يحيي ويميت، وأنهما صفتان من صفاته الفعلية.

فهو يميت من يشاء، إمانة بلا مخافة من أحد؛ لأنه ليس فوقه أحد يخافه؛ كما قال ﷻ حينما أهلك ثمود قوم صالح: ﴿فَدَمَدْنَا عَلَيْهِمْ رَيْهًا يَوْمَئِذٍ فَسَوَّيْنَاهَا سَوَاءً وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [النمل: ١٤-١٥]، فهو لا يخاف من أحد ﷻ، وهو الحكيم العليم، وهو الباعث: يبعث عباده؛ يحييهم ويعيد إليهم أرواحهم، ويبعث أجسادهم بعد إمامتهم؛ حينما يؤمر إسرافيل فينفخ في الصور؛ فتعود الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس لرب العالمين؛ كما سيأتي في مبحث البعث .

والموت صفة وجودية؛ خلافاً للفلاسفة^(١) ومن وافقهم؛ فإنهم يقولون: هو صفة عَدَمِيَّة، والصواب: أن الموت صفة وجودية، والدليل على أنه صفة وجودية قول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلْتُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤/١]،

(١) كلمة فلسفة تتكون من مقطعين: هما (فيلو) و(سوفيا). ومعنى (فيلو) في اليونانية: محب، و(سوفيا): الحكمة، فالفيلسوف هو محب الحكمة، ومذهبهم: أن العالم قديم، وعلمه مؤثرة بالإيجاب، وليست فاعلة بالاختيار، وأكثرهم يتكبرون علم الله - تعالى-، ويتكبرون حشر الأجساد، ومن أشهرهم أرسطاليس. انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (١٤٥، ١٤٦)، و«الفصل في الملل والنحل» (٩٤/١)، و«الملل والنحل» (١٥٥/٢)، و«المعجم الفلسفي» (١٣٨-١٤٠).

أَسْأَلُ عَمَلًا [المسند: ٢٢]، والمعدوم لا يوصف بكونه مخلوقًا؛ وثبت في «الصحيجين» أن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ، يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرِعُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فيقولون: نَعَمْ هذا الموت، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرِعُونَ، وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فيقولون: نَعَمْ؛ هذا الموت، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، فَيَذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ...»^(١).

وهذا بعد إخراج عصاة الموحدين من النار. والموت وإن كان عَرَضًا إلا أن الله يخلقه عينا؛ لأن الله على كل شيء قدير، والذي يُذْبَح هو الموت لا المَلَك -كما يتوهمه بعض الناس- لكن الموت صفة وجودية جعلها الله بيد المَلَك، ومَلَك الموت موكل به، والله على كل شيء قدير.

كما أن العمل الصالح يأتي الإنسان في قبره على صورة شاب حسن، والعمل القبيح يأتي على أقبح صورة، فالله تعالى يجعل عمله عينا^(٢)، وكما

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر ما أخرجه أحمد (٢٨٧/٤)، (٢٩٥) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، في حديث طويل، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن حديث البراء كما في «مجموع الفتاوى» (٢٩١/٤): «... وهو في المسند وغيره بطوله، وهو حديث حسن؛ ثابت... وقال ابن منده في «الإيمان» (٩٦٥/٢): «هذا إسناد متصل مشهور، رواه جماعة عن البراء...» وأورده الإمام ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٥٧-٥٨) من رواية الإمام أحمد، ثم قال: «... وهو صحيح صححه جماعة من الحفاظ، وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢١٩/٣).

يأتي القرآن في صورة الرجل الشاحب اللون^(١).

وكما أن الأعمال توزن يوم القيامة في الميزان يجعلها الله أعيانًا، وكما أن سورة البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة يظللان صاحبهما كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو صنفان من هذه الأصناف^(٢)، وكما أن الأعمال الصالحة تصعد إلى الله؛ كما ثبت في القرآن الكريم: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وكما ثبت في الحديث الصحيح.

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٨١)، والدارمي (٥٤٣/٢)، وأحمد (٣٤٨/٥)، (٣٥٢)، (٣٦١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٠٤٥)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٥٣/٤)، والقبلي في «الضعفاء» (١٤٣/١)، وابن عدي في «الكامل» (٢١/٢)، والبيهقي في «الشعب» (٣٤٤/٢)، والحاكم في «المستدرک» (٥٥٦/١)، (٥٦٠)، (٥٦٧) -طبع الهند)، وأبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (ص ٣٦-٣٧)، وغيرهم، من حديث عبدالله بن بُريدة عن أبيه، وبعضهم يرويه مطولاً، وبعضهم يختصره، والحديث حسنه الإمام ابن كثير في «التفسير» (٣٤٠-٣٥٠) وساق له شواهد عن عدد من الصحابة. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٩/٧) -بعد أن عزاه لابن ماجه وأحمد-: «ورجاله رجال الصحيح» وقال البوصيري في «مصابيح الزجاجة» (١٢٦/٤): «هذا إسناد رجاله ثقات...».

(٢) رواه مسلم (٨٠٤)، والحاكم في «المستدرک» (٧٥٢/١) -تحقيق: مصطفى عبدالقادر)، وأبو عوانة في «المسنَد» (٤٨٥/٢)، وابن حبان في «الصحيح» (١١٦٦)، والبيهقي في «السنن الكبير» (٣٩٥/٢)، والدارمي في «السنن» (٢/٢) (٥٤٣)، وعبدالرزاق في «المصنف» (٥٩٩١)، والطبراني في «الأوسط» (٤٦٨) -تحقيق: طارق عوض الله)، وفي «الكبير» (٧٥٤٢، ٧٥٤٣، ٧٥٤٤، ٨١١٨)، وأحمد في «المسنَد» (٢٤٩/٥)، (٢٥١)، (٢٥٤)، (٢٥٧) وغيرهم من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وفي الباب عن غيره من الصحابة.

انصاف الرب تعالى بصفات الكمال أزلاً وأبداً

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (مَا زَالَ بِصَفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ، لَمْ يَزِدْ يَكُونُهُمْ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُمْ مِنْ صِفَتِهِ، وَكَمَا كَانَ بِصَفَاتِهِ أَرْثًا كَذَلِكَ لَا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدًا):

الشرح

المعنى أن الله ۞ لم يزل متصفاً بصفات الكمال -صفات الذات وصفات الفعل-، ولم يكن فاقداً لشيء منها في وقت من الأوقات، فهو متصف بصفات الكمال قبل خلقه وبعد خلقه.

والصفات تنقسم إلى قسمين:

* صفات الذات.

* وصفات الأفعال.

وصفات الذات ضابطها: ألا تنفك عن الباري؛ كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر.

وصفات الأفعال ضابطها: أن تتعلق بالمشيئة والاختيار، كالنزول، والاستواء، والإحياء، والإماتة، والقبض، والبسط، والرضا، والغضب، والكراهة، والسخط، إلى غير ذلك من صفات الأفعال.

وصفات الأفعال عند أهل العلم، وعند أهل الحكمة حق، ويقولون: إنها قديمة النوع حادثة الأحاد؛ أي: نوعها قديم وإن كانت حادثة، فمثلاً الكلام قديم النوع، لكن أفعاله حادثة، فالله تعالى يكلم رسله ويكلم أنبياءه ويكلم الناس يوم القيامة، ويكلم آدم، ويكلم أهل الجنة.

والرب ۞ لم يزل متصفاً بصفاته، ولم تحدث له صفة من الصفات بعد خلقه؛ بل كان متصفاً بصفة الكمال أزلاً وأبداً؛ لأن هذه الصفات صفات كمال، ولا يمكن أن يكون فاقداً لهذا الكمال في وقت من الأوقات، ولأن فقدانها نقص، ولا يمكن أن يتصف الرب بالنقص في أي وقت من الأوقات.

ولا يرد على هذا صفات الأفعال والصفات الاختيارية ونحوها مثل الكلام، والاستواء، والتصوير، والطّي، والقبض، والبسط، والنزول، إلى غير ذلك؛ لأنها قديمة النوع حادثة الأحاد، وأراد المصنف ۞ الرد على أهل الكلام مثل الجهمية والمعتزلة، ومن وافقهم من الشيعة الذين يقولون: إن صفات الأفعال كانت ممتنعة عن الرب ۞؛ أي أن الرب كان لا يتكلم ولا يفعل، وأن هناك فترةً خلا فيها عن الكلام والفعل؛ بل إن الكلام والفعل ممتنع عن الرب، ثم انقلب فجأةً فصار الكلام والفعل ممكنًا، والإمكان معناه: القدرة على الشيء، والامتناع معناه: عدم إمكان وجود الكلام والفعل.

وكلامهم هذا من أطل الباطل، ووافقهم عبدالله بن سعيد بن كلاب^(١) والأشعري^(٢) في أن صفات الأفعال كذلك كانت ممتنعة، ثم صارت ممكنة

(١) هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب القطان المتوفى بعد سنة ٢٤٠هـ بقليل. عنه الأشعري من متكلمي أهل السنة، وقال عنه ابن حزم: إنه شيخ قديم للأشعرية. انظر: «طبقات الشافعية» (٢٩٩/٢)، و«اللسان الميزان» (٢٩٠/٣)، (٢٩١)، و«الملل والنحل» (١٤٨/١)، و«مقالات الأشعري» (٢٩٨/١)، (٢٩٩)، (٥٢/٢)، (٥٤)، (١١٢)، (٢٠٢)، (٢٠٣)، (٢٣١)، و«الفصل لابن حزم» (٢٨٩/٢)، (٧٧/٥).

(٢) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل أبي موسى الأشعري، =

إلا الكلام.

والكلام عنده قديم متعلق بذات الرب لا يتعلق بقدره ومشية، وهذا كلام باطل.

فما تقدمت حكايته هو مذهب أهل الكلام وأهل البدع وأهل الباطل.

أما أهل السنة والجماعة فيقولون: إن الرب ﷻ لم يزل متكلماً، ولم يزل فاعلاً إلى ما لا نهاية؛ لأن الرب فَعَالٌ، قال ﷻ: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٤٠] ، وقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ، وقال سبحانه: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [مائدة: ١٠٧] ، وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ عِدَاكَ لَكَلْبَتِ رَبِّي لَقَدْ أَلْبَسَ قُلُوبَ أَنْ تَقْدِرَ كَيْفَ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبَيِّنَاتٍ مَدَّكَ﴾ [الكهف: ١٠٩] ، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَقْلَمٌ وَآلِئِنْ سَأَلْتَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ سَبْعُ أَبْحُرٍ مَّا نَوَيْتَ كَيْفَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [القصص: ٢٧] ، فهذه النصوص تدل على أن الرب فَعَالٌ، وكل حي فَعَالٌ، والفعل صفة كمال، فلا يمكن أن يكون فاعلاً لهذا الكمال في وقت من الأوقات.

وقال بعض أهل الكلام: لا بد من أن توجد فترة ليس فيها كلام ولا فعل، قالوا: لأننا لو قلنا إن الكلام متسلسل والفعل متسلسل فمعنى ذلك

= ولد سنة ٢٦٠هـ، وإليه ينسب مذهب الأشاعرة. كان مُعْتَرِياً، ثم أشعرياً، ثم رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات كما هو واضح من مؤلفاته، ومنها: «الإبانة عن أصول الديانة»، و«مقالات الإسلاميين»، و«إمامة الصديق». توفي سنة ٣٢٤هـ ببغداد. انظر: «تبين كذب المفترى» لابن عساكر (١٤٦-١٢٨)، و«البداية والنهاية» (١١٠/٢١)، و«الإعلام» (٤/٢٦٣)، و«طبقات الشافعية» (٣/٣٤٧).

أنه قد انسَدَّ علينا طريق إثبات الصانع وهو الله، فلا ندري هل هذه الأفعال أو الحوادث سابقة لله أو هو سابق عليها؟

فلا بد في إثبات أن الله هو الأول من إثبات أن هناك فترة ليس فيها كلام ولا فعل، ثم بعد ذلك يأتي الكلام والفعل حتى يكون الله هو الأول؛ هذه شبهتهم.

وقد ردَّ عليهم أهل السنة من وجوه كثيرة؛ منها:

أولاً: أن إثبات الفترة التي ليس فيها كلام، ولا فعل: لا دليل عليه.

ثانياً: أن إثبات هذه الفترة تعطيل للرب من الكمال، والرب فَعَالٌ لما يريد، فلا يمكن أن يكون فاعلاً لهذا الكمال في وقت من الأوقات.

ثالثاً: أن قولكم: إن الكلام والفعل كان ممتنعاً على الرب، ثم انتقل فجأة فصار ممكناً؛ نقول: إذا كان الرب ﷻ فَعَالاً وكاملاً ولم يتجدد له شيء فما الذي جعل الكلام والفعل ممتنعاً ثم جعله ممكناً؟ كيف يكون ذلك وما من وقت يُقَدَّرُ إلا والإمكان ثابت قبله إلى ما لا نهاية؟! وهم لا يستطيعون أن يحددوا وقتاً يكون بدءاً للفعل والإمكان.

رابعاً: أنه يلزمكم -على هذا- أن العالم ليس حادثاً؛ والعالم حادث، والحادث ممكن أن يوجد، ويجوز ألا يوجد، فإذا أراد الله إيجاده: أوجده، وإذا لم يُرَدْ: فلا .

وقولكم: إن الرب هو الأول. هذا صحيح: لأن الرب هو الأول الذي ليس قبله شيء، وكون الحوادث متسلسلة في المستقبل لا يمنع أن يكون الله هو الأول؛ لأننا نقول: كل فرد من أفراد الحوادث مسبوق بالعدم، موجود بإيجاد الله له.

وإذا وصفنا بهذا الوصف فلا يلزم وجود هذه الفترة، ولذلك نقول: الحوادث متسلسلة في الماضي إلى ما لا نهاية.

خامساً: أنكم خالفتم النصوص؛ فإن النصوص فيها أن الرب فعّال، كما تقدم، وأنكم بهذا تنقصتم الرب ﷻ حيث نفيتم عنه صفة الكمال، وهو الفعل والكلام، وهذه تسمى مسألة تسلسل الحوادث.

فالمخلوقات- مثل النبات، والحيوان، والأشجار، والطيور، والحيوانات، والسموات، والأرضين... إلى غيرها؛ تسمى: حوادث متسلسلة.

وأهل السنة يقولون: الحوادث متسلسلة -أي: مستمرة- في الماضي؛ بمعنى: أن الرب لم يزل يفعل ويخلق خلقاً بعد خلق إلى ما لا نهاية في الأزل، ولكن كل فرد من أفراد هذه المخلوقات، مسبوق بالعدم، موجود بإيجاد الله له، ليس له من نفسه وجود ولا عدم.

أما نوع الحوادث؛ فهو متسلسل إلى ما لا نهاية؛ كما أن الحوادث متسلسلة في المستقبل إلى ما لا نهاية؛ فكما أن تسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الله هو الآخر؛ فكذلك تسلسلها في الماضي لا يمنع أن يكون الله هو الأول؛ لأن الحوادث متسلسلة في المستقبل بالاتفاق، حتى عند أهل البدع؛ لأن الله لا يزال يُخْلِقُ لأهل الجنة نعيمًا بعد نعيم إلى ما لا نهاية. هذا هو الحق الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة النبوية وإجماع السلف الصالح.

وذهب كثير من أهل البدع وأهل الكلام: إلى أن الحوادث متسلسلة في المستقبل، إلا أنها غير متسلسلة في الماضي، وأثبتوا فترة كان الرب سبحانه فيها مُعْطَلًا عن العمل، والفعل، والكلام.

وذنب الجهم بن صفوان^(١) إلى أن الحوادث غير متسلسلة لا في الماضي ولا في المستقبل؛ لأن مذهبهم إلى أن النار والجنة تفتيان.

وذنب أبو الهذيل العلاف^(٢) -شيخ المعتزلة في المئة الثالثة- أن أهل الجنة والنار تفتن حركاتهم، ويكونوا كالحجارة.

وعلى هذا: تكون مسألة تسلسل الحوادث من المسائل المهمة العظيمة التي أحجم عنها الفحول من الرجال، حتى إن ابن القيم ذكر هذا في «الكافية الشافية» وأشار إلى أن من عنده علم فليأت به.

والصور العقلية التي يتصورها العقل في مسألة التسلسل أربع صور:

الصورة الأولى: الحوادث متسلسلة في الماضي وفي المستقبل.

الصورة الثانية: الحوادث غير متسلسلة لا في الماضي ولا في المستقبل.

والصورة الثالثة: الحوادث متسلسلة في المستقبل لا في الماضي.

الصورة الرابعة: الحوادث متسلسلة في الماضي لا في المستقبل.

(١) هو جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز، من موالى بني راسب، رأس الجهمية واليه ينتسبون؛ لأنه أول من نشر المذهب. قال الذهبي: الضال المتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان أصغر التابعين، وما علمته روى شيئاً، ولكنه زرع شراً عظيماً. قتله سلمة بن أخوذ سنة ١٢٨هـ. انظر: «ميزان الاعتدال» (١/٤٢٦)، و«الأعلام» (٢/١٤١).

(٢) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي، مولى عبد القيس، أبو الهذيل العلاف، ولد سنة ١٣٥هـ في البصرة، وكان من أئمة المعتزلة. كُتِبَ بصره في آخر عمره. توفي سنة ٢٣٥هـ بسمراء. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/٥٤٢، ٥٤٣)، و«الأعلام» (٧/١٣١).

هذه صور عقلية؛ ثلاث صور قال بها الناس جميعاً، وصورة لم يقل بها أحد؛ وهي: أن الحوادث متسلسلة في الماضي وفي المستقبل، وهذا قول أهل السنة والجماعة، وهذا هو الصواب الذي تدل عليه النصوص.

والقول بأن الحوادث غير متسلسلة لا في الماضي ولا في المستقبل هو قول جهم بن صفوان، وأبي الهذيل العلاف، وأنكر عليه ذلك أهل السنة، وبذعوه، وصاحوا به.

والقول بأن الحوادث متسلسلة في المستقبل دون الماضي هو قول كثير من أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة.

والقول بأن الحوادث متسلسلة في الماضي لا في المستقبل لم يقل به أحد.

ولهذا قال لهم أهل السنة: ما الفرق بين تسلسل الحوادث في الماضي وفي المستقبل؟! أنتم وافقتم على أن الحوادث متسلسلة في المستقبل، وأن الرب لا يزال يُحدث في أهل الجنة نعيمًا بعد نعيم، إلى ما لا نهاية، وهذا لا يمنع أن يكون سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء، وكذلك تسلسل الحوادث في الماضي؛ لا يمنع أن يكون الله هو الأول الذي ليس قبله شيء؛ لأننا نقول: كل فرد من أفراد الحوادث مسبوق بالعدم؛ مخلوق بعد أن لم يكن^(١).

والصفات الذاتية والفعلية -كما سبق- ثابتة للرب ﷻ بخلاف قول أهل البدع؛ فإنهم أنكروا الصفات الذاتية والفعلية كالجهمية والمعتزلة؛

(١) للتوسع في هذه المسألة انظر: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٩٩٦/٣ - ١٠١٢)، وه الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات» (٣١٧/١ - ٤٥٣/٢).

وأما الكلائية فإنهم: أثبتوا الصفات الذاتية وأنكروا الصفات الفعلية، فتكون المذاهب ثلاثة:

- أهل السنة: أثبتوا الصفات الذاتية والفعلية.
- أهل البدع من الجهمية والمعتزلة: نفوا الصفات الذاتية والفعلية.
- عبد الله بن سعيد كلاب -زعيم الكلابية-: أثبت الصفات الذاتية، ونفى الصفات الفعلية.

وشبه الكلابية والأشاعرة في ذلك يقولون: لتلا تحل الحوادث بذات الرب، ويسمونها مسألة حلول الحوادث؛ يقولون -أي: الكلابية والأشاعرة -:

لو أثبتنا الصفات الفعلية: من الغضب، والرضا، والكره، والسخط، والقبض، والبسط، والإحياء، والإماتة، والخفض، والرفع، والظي، والاستواء، والنزول، لَلَزِمَ من ذلك حلول الحوادث بذات الرب، والله منزّه عن حلول الحوادث به.

قال أهل السنة: ما مرادكم بحلول الحوادث؟! هذا القول -وهو حلول الحوادث- قول مُجْمَل لا بد فيه من التفصيل؛ فإن أردتم بحلول الحوادث أن الله يحل في ذاته شيء من مخلوقاته؛ فهذا باطل، ونفيكم له بهذا الاعتبار: صحيح، وإن أردتم بأن الله تجدد له صفات لم يكن متصفاً بها خلقها لنفسه، أو سماه بها الناس فهذا باطل، وإن أردتم بحلول الحوادث نفي أن يكون الله يغضب، ويرضى، ويكره، ويسخط، ويستوي، وينزل كما يشاء، ويكون متصفاً بالطي، وبالقبح والبسط، والخفض والرفع؛ فهذا باطل؛ لأن هذه المعاني والصفات ثابتة لله، ولا نفيها عن الله

بتسميتكم إياها «حلول الحوادث» .

ويتبع هذا البحث مسائل:

المسألة الأولى: الصفة؛ هل هي زائدة على الموصوف أو غير زائدة؟ وهل الصفة غير الموصوف أو الصفة هي الموصوف؟^(١).

والجواب: أن هذا لفظ مجمل؛ لا بد فيه من التفصيل؛ فلا يقال: إن الصفة غير الموصوف، ولا يقال: إنها هي الموصوف، ولا يقال: الصفة زائدة على الموصوف، ولا يقال: غير زائدة؛ بل لا بد من التفصيل؛ بل يقال: إن أردتم بذلك أن الرب ﷻ له ذات منفصلة عن الصفة؛ فهذا قول باطل، وإن أردتم أن الصفات لها معنى يفهم منها غير ما يفهم من الذات؛ فهذا صحيح، لكن ليس هناك ذات منفصلة عن الصفات؛ بل الذات لا بد أن توصف بالصفات، فليس هناك ذات مجردة إلا في الدهن.

وهناك فرق بين أن يقال: الصفات غير الذات، وبين أن يقال: الصفات غير الله، فالقول: بأن الصفات غير الله باطل؛ لأن اسم الله؛ اسم له ﷻ متصرف بصفاته، أما القول بأن الصفات غير الذات فهذا صحيح؛ لأن الصفات لها معان غير معنى الذات .

أما في حق الله؛ فلا يقال: إن صفات الله غير الله؛ ولهذا استعاذ النبي ﷺ بالصفات فقال: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأَحَاطِرُ»^(٢).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/٣٢٦، ٣٣٨).

(٢) أخرجه من حديث عثمان بن أبي العاص، بهذا السياق؛ ابن ماجه (٣٥٢٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٣٤٢)، وأخرجه بنحوه من حديث عثمان بن أبي العاص أيضاً؛ مسلم (٢٢٠٢)، وأبو داود (٣٨٩١)، وابن ماجه (٣٥٢٢)، والترمذي (٢٠٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧٥٤٦، ٧٧٢٤، ١٠٨٣٧-١٠٨٣٩)، وغيرهم.

وقال: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّمَنَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»^(١)، ولم يَعدُ بمخلوق عليه الصلاة والسلام فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَانَايِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»^(٢)، وقال: «... وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أَغْتَالَ مِنْ تَخَنُّي»^(٣)، فاستعاذ بالعظمة، وقال: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتِ»^(٤)، فهذه استعاذ بالله، لأن الصفات لا تنفصل عن الذات .

فالله - تعالى - هو الذات المقدسة، المتصفة بالصفات، والله - تعالى- بذاته وصفاته وأسمائه؛ هو الخالق وغيره مخلوق؛ فإن أريد أن هناك ذاتاً منفصلة مجردة عن الصفات؛ فهذا باطل، وإن أريد أن الذات متصلة بصفاتها؛ فهذا صحيح .

المسألة الثانية: هي الاسم غير المسمى أو عين المسمى؟^(٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة ﷺ.

(٣) أخرجه النسائي (٥٥٢٩)، وأبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وأحمد (٢/٢٥) من حديث ابن عمر، وزواه الحاكم في «المستدرک» (١/٦٩٨ - تحقيق: مصطفى عبدالقادر)، وابن حبان (٩٦١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٢٧٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٨٣٧)، والحديث صححه الحاكم، والنووي في «الأذکار» (ص ٦٥)، وصححه الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ١٣١ ط: السابعة).

(٤) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/٢٦٨) ورد هذا اللفظ في سياق قصده أخرجه الضياء في «الأحاديث المختارة» (١٧٩-١٨١)، وقوام السنة في «الحجة» (١/٢١٦) و (٢/٤٧٣-٤٧٤)، والطبراني في «الدعاء» (١٠٣٦)، وابن عساکر في «تاريخ دمشق» (١٥٢/٤٩)، وقال الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ١٣١ ط: السابعة): «ضعيف، رواه ابن إسحاق بسنن ضعيف مُعْضَل».

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/١٨٥-٢٠٧).

الجواب: هذا فيه تفصيل، فلا يقال: إنه هو المسمى، ولا يقال: إنه غير المسمى؛ بل تارة يُراد بالاسم المسمى؛ كما تقول: سمع الله لمن حمده؛ فالاسم يراد به المسمى، وتارة يراد به اللفظ الدال على المسمى؛ كما تقول: الله اسم عربي؛ والرحمن اسم عربي؛ فالرحمن اسم من أسماء الله؛ فالاسم ها هنا هو المراء لا المسمى، أما إذا قال: سمع الله لمن حمده؛ فالاسم يراد به ها هنا المسمى. فلا بد من التفصيل في هذه المسائل.

وجدير بنا هنا أن نقول: إنه يفهم من معاني الصفات ما لا يفهم من الذات، فإن أُريد أن هناك ذاتاً مجردة؛ فهذا ليس بصحيح، وإن أُريد أن الصفات لها معنى غير معنى الذات فهذا صحيح.

أما الله ﷻ فلا يقال: إن صفاته غير ذاته، بل الله ﷻ بذاته وصفاته هو الله، فلا يقال: إن الصفات غير الذات، فلا يقال -مثلاً-: الله وعلمه، أو: الله وقدرته.

ولهذا أنكر الإمام أحمد ﷺ في كتاب «الرد على الزنادقة»^(١) حين رد على الجهمية وعلى أهل البدع لما قالوا: الله وقدرته، الله وعلمه، الله ونوره؛ قال: لا نقول الله وعلمه، الله وقدرته، الله ونوره؛ لأن الواو تفيد المغايرة، بل نقول: الله بعلمه وقدرته ونوره.

سؤال ما هو مذهب الفلاسفة في الصفات؟

الجواب: أما مذهب الفلاسفة كأرسطو والفارابي وابن سينا وغيرهم من الفلاسفة المتأخرين - وهم الذين يسمون الفلاسفة الإلهيين-؛ فإنهم

قالوا: إن المخلوقات والحوادث مقارنة للرب، ملازمة له في الأزل وفي الأبد.

فقالوا: إنها مقارنة للرب، فلم يثبتوا أن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، بل قالوا: إنها مقارنة له في الزمان أزلاً وأبداً، وهي لازمة له كلزوم النور للسراج والمصباح؛ لا يستطيع الانفكاك عنها، فهي ليست مخلوقة باختياره وإرادته؛ لأنه علتها، وهي المعلولة، وتقدم عليها إنما هو كتقدم العلة على المعلول.

ولم يثبت أرسطو وجوداً لله إلا من جهة كونه مبدأ للكثرة، وعلة غاية لحركة الفلك، بل هذه الكثرة وهذه المخلوقات مبدؤها الله، أي كأنه جزء منها - عياداً بالله -، وهو العلة المحرك لها.

وهؤلاء الفلاسفة قد كفّروهم العلماء مثل شيخ الإسلام ابن تيمية^(١) فقال ما معناه: أنتم أنكرتم أن يكون الله متقدماً في الزمان، وأنكرتم أن يكون الله هو الأول الذي ليس قبله شيء حينما قلتم: إن الحوادث والمخلوقات مقارنة للرب في الزمان، ولم تثبتوا أن هذه الحوادث مخلوقة لله بقدرته ومشيئته، فكنتم بذلك كفاراً.

ثم ناقش شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من العلماء -أهل البدع؛ أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة - فقالوا لهم: أنتم خالفتم الفلاسفة فأثبتتم فترة كان مُعْظَلًا فيها عن الفعل حتى تثبتوا أن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، ولم تقولوا كقول الفلاسفة: إن المخلوقات مقارنة لله في الزمان،

لكنكم حينما أنكرتم العلو - علو الرب على خلقه، واستواءه على العرش - وقلتم: إن الله مختلط بالمخلوقات، ونفى بعضكم - وهم الجهمية المتأخرون - عنه الوصفين المتقابلين، فقالوا: لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا مابين له، ولا مُحَايِثَ له، ولا متصل به، ولا منفصل عنه. ولزم من كلامكم هذا أنه - تعالى عن ذلك - عدم.

فالجهمية الأول قالوا بالحلول، والجهمية الثانية قالوا بنفي التقييد؛ فالطائفتان لم تثبتا أن الله فوق المخلوقات، وأنه مستوٍ على العرش، بائن من خلقه، فأنتم أنكرتم أن يكون الله متقدماً في المكان، فلم تثبتوا أن الله هو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، كما أن الفلاسفة أنكروا تقدم الله في الزمان؛ فلم يثبتوا أن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، فصرتم بهذا مماثلين للفلاسفة. والله - تعالى - قد وصف نفسه بهذه الصفات الأربع، وبهذه الأسماء الأربعة متقابلة فقال عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

فسر النبي ﷺ الأولية: بنفي تقدم شيء عليه، وفسر الآخرة: بنفي أن يكون بعده شيء، وفسر الظاهر بنفي أن يكون فوقه شيء، فقال - عليه الصلاة والسلام - في الحديث الصحيح: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»^(١). فليس هناك فرق بين كفر الجهمية وكفر الفلاسفة، وهذه فائدة مهمة في بيان ما عليه أهل البدع من الجهمية والمعتزلة.

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

الخلاصة:

وعلى كل حال؛ فهذه المباحث مباحث عظيمة؛ ولكن لم يتكلم السلف والسابقون فيها، ولولا أن أهل الكلام وأهل البدع تكلموا فيها بالكلام الباطل وملثوا به الأوراق والكتب، لما اضطر أهل العلم إلى رد هذا الكلام الباطل، بمثل هذا التفصيل.

صفنا الخالق والبارئ

◆ قَالَ الْمُؤَلِّهُ ﷻ: (لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الْخَلْقِ اسْتِفَادَ اسْمُ الْخَالِقِ، وَلَا بِإِخْدَاتِ الْبَرِيَّةِ اسْتِفَادَ اسْمُ الْبَارِي):

الشرح

المعنى: أن الله ﷻ اسمه الخالق، واسمه البارئ؛ ولم يزل له هذا الاسم، والبارئ: أي: الذي خلق الخلق وبرأ البرية وأحدثها، ولم يزل له الأسماء الحسنی؛ لأنه ﷻ قادر على الفعل في أي وقت.

ومادام أنه فعّال وقادر على الفعل في أي وقت؛ فهو متصف بالصفات؛ فالإنسان حينما يتكلم ويكون قادراً على الكلام يقال: إنه متكلم، فإذا تكلم أمس ثم تكلم اليوم يقال: إنه متكلم؛ وإذا كان ساكناً وهو قادر على الكلام يقال: إنه متكلم بالقوة، وإذا تكلم يقال: إنه متكلم بالفعل؛ لأنه قادر على الكلام؛ والكاتب إذا كان يكتب ويباشر الكتابة، يقال: كاتب بالفعل؛ وإذا رفع يده عن القلم يقال: كاتب بالقوة؛ لأنه قادر على الكتابة؛ فالقادر على الفعل يكون فاعلاً له، والله ﷻ فعال قادر على الفعل في أي وقت من الأوقات؛ ولهذا هو ﷻ الخالق وهو البارئ قبل الخلق وبعده.

الله تعالى هو الرب بكل معاني

الربوبية قبل أن يخلق الخلق

◆ قَالَ الْمُؤَلِّهُ ﷻ: (لَهُ مَعْنَى الرَّبُّوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبٌ، وَمَعْنَى الْخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقٌ):

الشرح

● (لَهُ مَعْنَى الرَّبُّوبِيَّةِ):

لأنه ﷻ هو مُرَبِّي عباده، وحافظهم، ومدير أمرهم.

وقوله: (ومعنى الخالق ولا مخلوق): هذا قد يفهم منه أنه يميل إلى قول أهل الكلام الذين يقولون: إن هناك فترة ليس فيها مخلوق؛ وسبق بطلان هذا القول؛ لأن الرب ﷻ لم يزل فاعلاً لما يريد؛ مطلقاً؛ في كل وقت، وعلى هذا فله معنى الربوبية، وله معنى الخالق في كل وقت؛ في الأزل وفي الأبد.

الله تعالى هو الخالق قبل إنشاء الخلق وبعد إنشائه

◆ قَالَ الْمَوْلَاهُ ﷺ: (وَكَمَا أَنَّهُ مُحْيِي الْمَوْتَى بَعْدَ مَا أَحْيَا اسْتَحَقَّ هَذَا الْأَسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمُ الْخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ):

الشرح

أي: أنه ﷺ محيي الموتى؛ وكذلك أيضًا هو الخالق قبل إنشائهم وبعد إنشائهم، ومن صفاته الفعلية: أنه يحيي ويميت، ومن أسمائه: الخالق؛ وذلك لأنه قادر على الفعل في أي وقت؛ ولذلك فإن له صفات الفعل ﷺ.

متعلقات القدرة والرد على المعتزلة

◆ قَالَ الْمَوْلَاهُ ﷺ: (ذَلِكَ بَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ قَتِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ):

الشرح

أي: لكونه ﷺ متصفاً بصفاته الذاتية والفعلية في الأزل، وأنه لم يزل فعالاً، وأنه ليس هناك فترة يعطل فيها الرب ﷺ؛ فهو على كل شيء قدير؛ وأراد بذلك الرد على المعتزلة الذين يقولون: إن الله على ما يشاء قدير، ولا يقولون: إن الله على كل شيء قدير^(١).

لأن هناك شيء لا يقدر عليه الله عند المعتزلة؛ وهي أفعال العباد؛ ولذلك أولوا وحرفوا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (تُصَدِّقُ: ٣٩) بقولهم: على كل ما هو مقدور له، وأفعال العباد -بزعمهم- لا يقدر عليها؛ لأن أفعال العباد من خير وشر وطاعة ومعصية؛ فهم الذين خلقوها وأوجدوها، والله لا يقدر عليها، أو يقولون: إن العباد أحدثوا أفعالاً من طاعات ومعاص استغلالاً، ولهذا قالوا: إن العبد يستحق الثواب من الله كما يستحق الأجير أجره؛ لأنه هو الذي أوجده؛ وقالوا: إنه يجب على الله أن يعاقب العاصي، وأن يخلد صاحب الكبيرة في النار؛ لأنه توعده بذلك وهو لا يخلف وعده؛ ولذلك قالوا: إن أفعال العباد لا يقدر عليها الرب، وسيأتي شرح هذا إن شاء الله في بابه.

(١) انظر: «الإيمان بالقضاء والقدر» للحمد (ص ١٤٧-١٤٩) وتعليق الشيخ ابن باز عليه هناك.

والمقصود أنهم لا يقولون: إن الله على كل شيء قدير، بل يقولون: إنه على ما يشاء قدير؛ ولذلك إذا رأيت في بعض الكتب يُذكر في آخرها عبارة: (وهو على ما يشاء قدير)، فاعلم أن هذا يتمشى مع مذهب المعتزلة، ولا يرد على ذلك قوله -تعالى-: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التورى: ٢٩]؛ لأن هذا مقيد بجمعهم؛ فلا يقال: إنه على ما يشاء قدير، بل يقال: إنه على كل شيء قدير؛ لأن معنى قولهم: (على ما يشاء قدير)؛ يفهم منه أن هناك شيئاً لا يشاؤه الله؛ فلا يقدر عليه، وهي أفعال العباد؛ وهذا باطل؛ وعلى هذا فقياس مذهبيهم ألا يقال: الله بكل شيء عليم، بل يُقال: هو عالم بكل ما يعلمه ونحوها من العبارات التي لا فائدة فيها، فالحاصل: أن تحريفهم للآية، على معنى: أنه على كل شيء مقدور له قدير؛ أما أفعال العباد فليست مقدورة له؛ فهو من أبطل الباطل؛ وهو كذلك مصادمٌ لنصوص القرآن والسنة، لأن الله -تعالى- يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥] ويقول: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [البقرة: ٢٥]، و(كل) من صيغ العموم، فكل ما يسمى شيئاً؛ فإن الله -تعالى- يقدر عليه.

فكل ممكن فهو داخل في هذا بخلاف الممتنع الذي لا يمكن؛ لأنه لا يسمى شيئاً؛ فلا يرد على هذا أيضاً المُحال لذاته، مثل كون الشيء موجوداً معدوماً في وقت واحد، ومثل قولهم: هل يقدر على خلق مثل نفسه؟!، ومثل قولهم: هل يقدر على إعدام نفسه؟!.

والجواب: أن هذا من الممتنع المُحال تماماً؛ لأنه لا يمكن إيجادها ولو تصوراً، ولا تسمى شيئاً باتفاق العقلاء؛ وليست داخلية في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقد اختلف العلماء في المعدوم الذي يمكن وجوده: قالوا: هل يسمى شيئاً أو لا؟^(١).

والصواب: أنه يسمى شيئاً في الذكر والكتاب والعلم؛ كما قال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفَرًا رِيَكُمْ لَيْسَ زَلَّةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الصح: ١]، فالساعة لم تأت ومع هذا فقد سماها الله شيئاً؛ فهي شيء عظيم في الذكر، وفي علم الله، وفي الكتاب، ومن الأمثلة قوله ﷺ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فإنه لم يكن شيئاً في الوجود، لكنه شيء في علم الله، وذكّره، وكتابه، ومن الأمثلة كذلك قوله - سبحانه - عن زكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٢٩]، أي: لم تكن شيئاً في الوجود، ولكن في علم الله، وذكّره، وكتابه.

فهذا في الممتنع الذي يمكن وجوده، أمّا الممتنع الذي لا يمكن وجوده؛ فإنه لا يسمى شيئاً، فلا يقال: إنه داخل تحت القدرة.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤٣/٢) - ١٤٦.

الخلق جميعاً كلهم فقراء إلى الله

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (ذَلِكَ بَأْنُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ):

الشرح

هذا وصف لله - سبحانه - بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء عليه يسير؛ فلا يعجزه شيء، ولا يشق عليه شيء؛ وليس هناك شيء عسير على الله سبحانه وتعالى.

قوله: (وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ) لأن المخلوقين كلهم فقراء إلى الله كما قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أُنثَىٰ الْأُنثَىٰ إِلَىٰ اللَّهِ فَإِلَيْهِ هُوَ الْفَقِيرُ ۝١٥﴾ إن يَتَأْتِيَ بَذَنِّكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧﴾ (قاطر: ١٥-١٧)، وقال - سبحانه - : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۝١٨ وَالشُّرُكُوكَ ۝١٩﴾ (مستند: ٣٨)، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ۝٢٧﴾ (الرؤم: ٢٧)؛ أي: هين عليه؛ فكل شيء هين على الله، وكل شيء يسير على الله، وكل مخلوق هو فقير إلى الله - عز وجل -، والله هو الغني ﷻ.

الرد على الممثلة والمنشبهة والمعطلة

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷻ: (لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، لَيْسَ كَجَبْتِلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ):

الشرح

لا يحتاج إلى شيء من الأشياء، فالشيء شاملة لجميع الموجودات؛ فهو لا يحتاج إلى أي مخلوق لكمال غناه. وقوله: ﴿لَيْسَ كَجَبْتِلِهِ شَيْءٌ﴾ (التبرئ: ١١) هذا رد على الممثلة والمنشبهة، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (التبرئ: ١١) رُدٌّ على المعطلة الذين ينكرون الأسماء والصفات. فهذه الآية تَضَمَّنَتْ الردَّ على طائفتين: الممثلة، والمنشبهة؛ الذين يشبهون الله بخلقه، ويمثلون الصفات بصفات المخلوقين، وعلى المعطلة؛ الذين ينكرون الأسماء والصفات.

الله سبحانه خلق الخلق وهو عالم به

قَالَ الْوَلَدُ ﷺ (خَلَقَ الْخَلْقَ يَعْلَمُهُ)

الشرح

الله - سبحانه وتعالى - هو الذي خلق الخلق بعلمه، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو عليم بكل شيء كما قال - سبحانه -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكِلُ شَيْءًا عَالِمًا﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال - سبحانه -: ﴿وَعِنْدَهُ مَقَاتِلُ النَّبِيِّ لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا هُوَ وَسَيَكُونُ مَا فِي النَّارِ وَالْجَنَّةِ وَمَا تَشَاءُونَ مِنْ دُونِهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا حَافِظُ فِي ثَلَاثَةِ الْأَرْضِ وَلَا زَلْزَلُ وَلَا يَأْبِسُ إِلَّا فِي كَيْفٍ ثَبِيثٍ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّارِ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ فِيهِ يَنْصُتُ أَجَلَ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وهو - سبحانه وتعالى - يعلمهم قبل خلقهم، ويعلمهم بعد خلقهم.

وأراد المؤلف الرد على المعتزلة الذين يقولون: إنه لا يعلم الخلق إلا بعد خلقه، وهذا من أبطل الباطل؛ لأن علم الله شامل للماضي والحاضر والمستقبل؛ فهو سبحانه يعلم ما كان في الماضي، ويعلم ما يكون في المستقبل والحاضر، وأيضاً يعلم ما لم يكن لو كان فكيف يكون؟ كما في قوله سبحانه عن الكفار الذين سألوهم الرجعة إلى الدنيا؛ قال سبحانه: ﴿وَكُلُّهُمْ رُذُلٌ لِمَا كَانُوا عَنْهُمْ وَأَنَّهُمْ كَذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ فهذا علمه بحالهم لو رُدُّوا، ومثل قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ عِلَّمُ اللَّهُ يَوْمَ غَرَّكَ لَكُنْمَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فهذا علمه بحالهم.

ومثل قول الله - سبحانه وتعالى - في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَنُحْدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْقِسَاءَهُمْ فَتَضَلُّهُمْ وَيَقُولُ افْعُلُوا مَعَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولا أضموهم لئلا يفتنكم الفتن، ويكره سننهم لهم والله عليم بالظالمين ﴿٢٦﴾ [التوبة: ٢٦-٢٧]، فإنه يعلم سبحانه لو خرجوا ماذا سيحدث؛ وذلك قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٢٧]، يعني: شراً؛ وقال بعضهم: إن الشر هو الفتنة والفساد، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَضْمُوا لِلْكَافِرِينَ يَكُونُ لَكُمْ سَعْتُونَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٢٧]، وهذا من لطفه سبحانه بعباده أنه يهبطهم ومنعهم حتى لا يفسدوا على عباد الله المؤمنين.

قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

♦ قَالَ الرَّؤُوفُ ﷻ: (وَقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَارًا):

الشرح

الله - سبحانه وتعالى - قَدَّرَ الأقدار والأجال، وجعل لكل شيء من مخلوقاته أقداراً وأجلاً، قال سبحانه: ﴿وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدَرٌ قَلِيلٌ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿لِكُلِّ أَمَلٍ كِتَابٌ﴾ [الزهد: ٣٨]، ومن ذلك: أن الله - سبحانه وتعالى - قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وقَدَّرَ لكل أجل كتاباً، وخلق كل شيء بقدره تقديرًا؛ كما في الحديث الذي ثبت في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قَالَ: وَعَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ»^(١).

وثبت في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنْ أَخَذَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلَاقَةٌ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْمَةٌ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ الْمَلَكَ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتُبُ رُزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ أَخَذَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَخَذَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)

فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»^(٢)، وهذا من تقدير الأجل .

ومن ذلك أن الله - سبحانه وتعالى - قَدَّرَ الموت على كل أحد، وجعل له أجلاً مقدراً؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَاءَ أَجَلَهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، وقال: ﴿وَأَنفِثُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَسْتَفْتِكَ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ [النمل: ٢٤]، وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [النمل: ٢٥] [المستفيقون: ١١-١٢].

وأسباب الموت متعددة؛ سواء أقدَّرَ اللهُ الموتَ على العبد بالمرض أو بالقتل أو بالغرق أو بالحرق أو بأي سبب من الأسباب، فإنه قد مات بأجله الذي قدره الله عليه.

وهذا فيه الرد على المعتزلة الذين يقولون: إن المقتول قُطِعَ عليه أجله؛ ولو لم يُقتل لعاش إلى أجل آخر، وهذا باطل؛ لأن الله - تعالى - قَدَّرَ الموت، وجعل له أسباباً؛ قَدَّرَ بأن هذا سيموت بالقتل، كما قدر الموت على من يموت بالمرض، أو بالهدم أو بالغرق أو بالحرق أو بغير ذلك من الأسباب .

فقول المعتزلة هذا من أبطل الباطل؛ لأن معنى ذلك: أن له أجلاً لا يصل إليه، أو أن الله جعل له أجلين، فجعلوه تعالى عن قولهم كالجاهل الذي لا يعلم العواقب، وهذا من أبطل الباطل؛ والصواب أن المقتول؛ كغيره أجله مُقَدَّرٌ بالقتل؛ لا يتقدم ولا يتأخر، فهو داخل في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا جَاءَ أَجَلَهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ومن

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) واللفظ له

ذلك: حديث أم حبيبة بنت أبي سفيان أنها قالت للنبي ﷺ: اللَّهُمَّ أَشْنِعْنِي بِرُؤُوحِي رَسُولَ اللَّهِ، وَيَأَيُّ أَبِي سُفْيَانَ وَيَأَيُّ مُعَاوِيَةَ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِأَجْمَلِ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامِ مَعْدُونَةٍ، وَأَرْزَاقِ مَقْسُومَةٍ لَنْ يَمُجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ جَلْوِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ جَلْوِ، وَلَوْ كُنْتَ سَأَلْتَ اللَّهَ أَنْ يُعِيدَكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ^(١) أَوْ كَمَا قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - .

وهذا دليل واضح بأن الآجال مضروبة ومعدودة؛ ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يكره أن يدعى له بطول العمر ويقول: إن هذا أمر فرغ منه^(٢)، لكن ظاهر حديث أم حبيبة أنه جائز؛ لأن النبي قال: «لَوْ كُنْتُ سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُعِيدَكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا»^(٣)، ولم يقل: إنه ممنوع، فدل على جوازه، لكن ينبغي أن يُقَيَّدَ بالطاعة، فإذا قلت: أطال الله عمرك على طاعته؛ فهذا حسن، أما إذا قلت: أطال الله عمرك فقط؛ فهذا ليس دعاءً. ومنه ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»^(٤)، فإذا طال

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

(٢) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفى (ص ٦٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٤٠/٥) و(٤٣/٥)، و(٤٧ - ٥٠)، والترمذي (٢٣٣٠) من حديث أبي بكره رحمه الله، وقال: «حسن صحيح»، والدارمي (٢٧٤٢)، والحاكم (٤٨٩/١) - تحقيق: مصطفى عبدالقادر، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٧١/٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٤٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٤٩) - تحقيق: طارق عوض الله، والبزار في «مسنده» (٣٦٢٣)، والطيالسي (٨٦٤)، وغيرهم. وفي سننه علي بن زيد: ضعيف، لكن له شاهد لا بأس به من حديث عبدالله بن بسر؛ أخرجه الترمذي (٢٣٣٩)، وأحمد (١٨٨/٤) و(١٩٠/٤)، والضياء في «المختارة» =

العمر على شر، فهذا شر لا خير، وإذا طال العمر على خير؛ فهذا خير، ونحن في لهجتنا الدارجة نقول: (أطال الله عمرك)، (طَوَّلَ الله عمرك)، فينبغي أن يضاف إليها: «على طاعته»؛ حتى تحصل الفائدة، وتكون الدعوة فيها خير.

= (٤٣/٩)، (٦٠، ٨٣، ٨٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٧١/٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٤٢٠)، والطبراني في «الأوسط» (١٤٤١)، و(٢٢٦٨) - تحقيق: طارق عوض الله، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٥٠٩). وفي الباب بمعناها عن أبي هريرة، وجابر، وأنس، وعبادة بن الصامت، وغيرهم. انظر: «مجمع الزوائد» (٢٠٣/١٠ - ٢٠٤).

شمول علمه سبحانه وتعالى

♦ قَالَ الْمَوْلَى ﷺ: (وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ):

الشرح

في هذا إثبات علم الله - عز وجل -، وقد سبق الكلام على علم الله، عند قول المؤلف: (خَلَقَ الْخَلْقَ يَعْلَمُوهُ)، وهنا كَوَّر ما أشار إليه، فقال: (لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ)؛ والمعنى: أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ - سبحانه وتعالى - سابق للمقادير.

ومراتب القدر - كما هو معلوم - أربع:

المرتبة الأولى: عِلْمُ اللَّهِ الشامل لجميع الكائنات

الثانية: كتابته لها في اللوح المحفوظ.

الثالثة: إرادته ومشيتة.

الرابعة: خلقه وإيجاده^(١).

هذه مراتب القدر، فمن لم يؤمن بها؛ لم يؤمن بالقدر، والأدلة عليها كثيرة؛ قال الله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٢٧٠]، فهذا دليل على إثبات العلم والكتاب، وقال سبحانه: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

(١) انظر: «شفاء العليل» (١/ ١٣٣- ٢٢٦)

[الحديد: ٢٢].

وللإرادة أدلة كثيرة كما سبق؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وللخلق والإيجاد أدلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَقْدُهُ تَقْدِيرٌ﴾ [الفرقان: ٢]، ومنها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٦]، ومن أنكر المرتبة الأولى والثانية - العلم والكتابة - فقد كفره أهل العلم؛ لأن من أنكر العلم؛ فقد نسب الله إلى الجهل، ولا شك في كفر هذا وأمثاله.

وكانت القدرة الأولى ينكرون العلم والكتابة، وهم الذين قال فيهم الإمام الشافعي ﷺ: (ناظروا القدرة بالعلم فإن أقروا به تحصموا، وإن أنكروه كفروا)؛ وذلك لأنهم ينسبون الله إلى الجهل، والقدرة الأولى قد انقرضوا، وأما عامة القدرة فهم يثبتون العلم والكتابة، وينكرون عموم الإرادة والمشيتة بجميع الكائنات؛ حتى تشمل أفعال العباد، فإنهم قالوا: إن أفعال العباد ما أرادها الله ولا خلقها؛ فالعباد هم الذين أرادوها وخلقوها.

وعِلْمُ اللَّهِ - كما سبق - شامل للماضي والمستقبل والحاضر، بل لما لم يكن أن لو كان كيف يكون؟ وأدلة العلم كثيرة من الكتاب والسنة؛ فمنها قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَقَائِلُ الْقَبْرِ لَا يَغْلِبُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٢٥٩]، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٧٥].

أما الدليل العقلي على ثبوت العلم لله - عز وجل -:

فإنه يستحيل إيجاد هذه الأشياء مع الجهل؛ ولأن الإيجاد يستلزم

الإرادة، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم؛ فثبت علم الله في الشرع والعقل؛ ففي الشرع فالأدلة كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمٌ﴾ [الأنعام: ٢٧٥]، ومنها قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ أَشَيْءٌ﴾ [الجن: ٢٦] [سورة الجن آية: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَبَعْدَهُ مُقَابِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْغَيْبُ وَمَا تَسْتَفْتِي مِنْ ذِكْرِهِ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِجَابَ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ وَلَا يُظْهِرُ وَلَا يُخْفِي إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهناك من قسّم المراتب إلى ستة، وهذا كلام لا نعرف من قاله.

ومعروف عند أهل العلم أن المراتب أربعة، والمشيئة واحدة لا تنقسم. والإرادة جعلها شيخ الإسلام رحمه الله على درجتين، وكل درجة تتضمن مرتبتين^(١).

الدرجة الأولى: العلم، وتتضمن مرتبة العلم والكتابة.

والثانية: الإرادة وتتضمن الإيجاد والخلق.

فهذه أربع مراتب، ولا نعرف أنَّ أحداً قسمها ستاً.

(١) انظر: «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام، ومجموع الفتاوى (١٥٢/٢) و(١٢/١٢) و(١٢٧) و(١٣٧/١٦-١٣٨)، و«جامع الرسائل والمسائل» (١٨٣/١).

الله تعالى خلق الخلق لعبادته وتوحيده

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رحمه الله: (وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَنَهَاَهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ):

الشرح

في هذا أن الله - سبحانه وتعالى - أمر العباد بطاعته ونهاهم عن معصيته، فبعد أن ذكر الخلق والقدر، ذكر مقتضى خلق الخلق؛ وهو عبادته وتوحيده وطاعته، فقال: (وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَنَهَاَهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ)؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومعنى يعبدون: أي: يوحّدون؛ بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والوقوف عند الحدود، والاستقامة على دين الله، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمُ الْوَقْفُ يُؤْمِنُونَ بِأَكْبَرِ اللَّهِ وَهُوَ أَعْلَى الْغُورِ﴾ [الشك: ٢٢]، فهذه هي العبادة التي خلق الله الخلق من أجلها.

◆ قَالَ الرَّاهِلَةُ ﷺ: (وَكُلُّ سَيِّءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ):

هَذَا فِي بَيَانِ مَشِيئَةِ الرَّبِّ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَأَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ نَافِذَةٌ؛ أَمَّا مَشِيئَةُ الْعِبَادِ فَفِيهَا تَابِعَةٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ - عز وجل - ؛ فَلَا تَخْلُفُ مَا شَاءَ اللَّهُ؛ كَمَا ذَرَجَ أَنْ يُقَالَ: (مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)؛ فَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ. وَإِرَادَةُ الْكُونِيَّةِ ؛ لَا تَخْلُفُ، وَالْمَشِيئَةُ لَا تَنْقَسِمُ كَمَا تَنْقَسِمُ الْإِرَادَةُ، قَالَ اللَّهُ - سبحانه وتعالى - : ﴿وَمَا تَكْنُتُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأنعام: ٢٣٠] - وقال - سبحانه - : ﴿وَمَا تَكْنُتُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] - وقال - سبحانه - : ﴿وَلَوْ أَنَّ زُلَّةً لِهَاجِمِ الدَّبَلِ لَكُنَّ أَهْلَهُ لَقَضَيْنَا إِلَيْكُمْ زُلَّةً فَذَرِكُنَّ﴾ [الأنعام: ١١١] - وقال - سبحانه - : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا هَلَكُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقَادَرُوا﴾ [الأنعام: ١١٢] - وقال - سبحانه - : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَكُنَّا فَجُورًا﴾ [الأنعام: ١١٣] - وقال - تعالى - : ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْهِدْهُ عَلَى سَبِيلِ مَشِئَتِهِ﴾ [الأنعام: ١٢٩] - وقال - سبحانه - : ﴿مَنْ يَزِدْهُ اللَّهُ يُمْدِدْهُ كَمَا يَزِيدُ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْهِدْهُ عَلَى سَبِيلِ مَشِئَتِهِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] -

107

وقد أنكر الله - سبحانه وتعالى - على الكفار احتجاجهم بالمשיحة ؛ كما في قوله عز وجل: ﴿سَيُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِتْنَةً وَلَئِنْ لَمْ تُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ الصُّلْحِ فَقَدْ جُعِلَتْ لَكُمُ الْأَرْضُ مَسَاجِدًا فَاسْجُدُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْحَقِّ الَّذِي تَقَالِبُ الْأَشْيَاءَ فِي دَحْيَاهَا ۚ فَاذْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ۚ وَلَئِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَئِنْ نُفِخَ فِي الصُّورِ لَكُنَّا عَنْ أَمْرِ رَبِّي مُصْرِتُونَ ۚ﴾ (الأنعام: ١١٨) الآية، وقال - سبحانه - : ﴿وَقَالَ الْيَهُودُ اتَّبِعُوا مَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ قَوْلَ الَّذِينَ مَلَآَتْهُمُ الْهَيْبَةُ ۚ قُلْ بَلَىٰ سَيُجَنَّبُكُمُ اللَّهُ وَهُوَ الْكَافِرُ ۚ﴾ (النحل: ٢٦) وقال الله - سبحانه وتعالى- عن نوح في خطابه لقومه: ﴿وَلَا يَفْقَهُوْا صُحُفَ الْكِتَابِ وَلَا يُطِيعُوا أَمْرًا إِذَا قِيلَ لَهُمْ سَبِّحُوا لِلَّهِ حَمْدًا مِمَّا عَلَّمَكُمْهُنَّ قُلُوبُكُمْ ۖ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْأَمْرَ فَاذْكُرُوا لِلَّهِ حَمْدًا ۖ إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ۚ﴾ (هود: ١٠٤) فهؤلاء المشركون احتجوا بالمسيحية على محبة نبيهم ﷺ، فأبكر الله عليهم ذلك؛ لأنهم استدلوا به على أن ما شاء الله؛ فقد أحبه ورضيه، فولوا أنه أحبه ورضيه له فأنكر الله عليهم ذلك؛ لأن الله قد يشاء الشيء ولا يرضاه ولا يحبه، أو أنهم عارضوا شرع الله ودينه بمشيعته، أو عارضوا قضاء الله وقدره بالشرع، قال تعالى ذاكراً قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَتَيْنَكُم بِشَيْءٍ ۚ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

على جوار المعصية.

وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَخَذُلُ وَيَتَّبِلِي عَذْلًا):

— الشرح

المرتبة الأولى: الهداية العامة:

(١) انظر: «شفاء العليل» (ص ٦٥ وما بعدها)، نشر: دار الفكر، بيروت، طبع سنة ١٣٩٨هـ تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس الحلبي.

[illegible]

٢١٧ هديناهم؛ أي: دللناهم على طريق الخير وطريق الشر، فلما بين الله لهم طريق الخير وطريق الشر واستحبوا العمى على الهدى؛ جاءتهم العقوبة وهي المذكورة في قوله: ﴿فَلَعَنَهُمُ اللَّهُ أَهْلَ الْكُفْرِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [عنك: ٢١٧].

وهذه الهداية ثابتة للرسول والأنبياء والمصلحين والدعاة، أي أن كلهم يقدرون عليها؛ قال الله - تعالى - للنبي ﷺ: ﴿وَلَيْكَ الْبَرَاءَةُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [التور: ٢٥٢]، أي: ترشد وتدل وتبلغ وتدعو إلى الأمر الذي خلق العباد له؛ وتبين ما أوجب الله عليهم من توحيده وطاعته وترك معصيته. فإذا بعث الله الرسول فأرشد الناس ودلهم على ما أوجب الله عليهم من التوحيد والطاعة واجتناب المعصية؛ قامت الحجة عليهم، فإن عصوا بعد ذلك أو كفروا؛ استحقوا العذاب.

النوع الثالث: هداية التوفيق، والإلهام، والتسديد:

وهي أن يوفق الله الإنسان إلى قبول الحق والرضا به واختياره، وهذه الهداية خاصة بالله، فلا يقدر عليها إلا هو - سبحانه -؛ فلا يقدر عليها أحد من الخلق؛ لا الأنبياء، ولا غيرهم؛ وهذه هي التي نفاها الله عن النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصل: ٥٩]، أي: أن النبي ﷺ لا يخلق الهداية في القلب، ولا يلهمه، ولا يجعله يقبل الحق ويختاره ويرضى به، قال سبحانه: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، فالله - تعالى - هو الذي يهدي ويضل، والعبد هو الضال والمهتدي. ولا بد في وقوع هذه الهداية من أمرين:

الأمر الأول: الهداية من الله.

والثاني: الاهتداء من العبد.

فإذا هداه الله واعتدى؛ حصلت له الهداية بالتوفيق، وكذلك الإضلال من الله، والعبد هو الضال؛ فإذا أضله الله فُضِّلَ؛ صار ضالاً.

فالهداية والإضلال بيد الله عز وجل؛ وقد اتفقت رسل الله وكتبه المنزل، على أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له.

وهذه المسألة مسألة عظيمة؛ لأن أفضل ما يقدره الله على العبد وأجل ما يقسمه له هو الهداية، وأعظم ما يتبلى الله به العبد، وأعظم مصيبة تصيبه هو أن يقدر الله عليه الإضلال، وكل نعمة فهي دون نعمة الهداية، وكل مصيبة هي دون مصيبة الإضلال.

وهذه المرتبة أنكرها المعتزلة والقدرية، فأنكر عليهم أهل السنة وبدعهم وضللهم، ومن ذلك قول المؤلف رحمه الله: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَضَلَّ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ وَيُتَّبِلِي عَذْلًا).

فأهل السنة قالوا: النصوص واضحة؛ أن الله - سبحانه وتعالى - بيده الهداية والإضلال، ومن ذلك قول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَكْبَتْنَا كُلَّ فَئِيسٍ هَدَيْنَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِن الشَّعْبِ﴾ [الشجدة: ٢١٣]، فلو كانت الهداية بيد العبد لما قبلها الله بالمشيئة، ولكن الله - سبحانه وتعالى - خص المؤمن بنعمة دينية دون الكافر؛ كما قال - سبحانه -: ﴿وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّكَ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الضاحات: ٥٧]، وقال - سبحانه -: ﴿...وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِغْيَاثَ أُولَئِكَ هُمُ الْآزِلُونَ﴾ [٧]، فَضَلَّ مَنْ أَلَّهَ وَيُضِلُّهُ [المجادات: ١٨-٧].

هذه النعمة اخص الله بها المؤمنين؛ فجعلهم يقبلون الحق، ويرضون

والكافر أضله الله وخذله وابتلاه، كل ذلك عدلاً منه، وحكمة بالغة.

وضرب القدرة مثلاً ذلك - والله يقول: **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ** (النحل: ١٣٤) -، فقالوا: **مَتَى** الله في ذلك **مَتَى** رجل له ابنان أعطى كل واحد منهما شيئاً، وقال لهما: جاهداه في سبيل الله؛ فالأول أطاع والده وجاهد به في سبيل الله؛ والثاني عصى والده وجعل يستعرض رقاب المسلمين ويقتلهم، فهذا طريق الحق من نفسه، وهذا اختار طريق الضلال من نفسه، - تعالى - ما خصص القرآن بهدية ولا خص الثاني بالاضلال!! وهذا من أبطل الباطل كما أوضحنا أولاً

فالكفار يهديمهم الله إلى النار، والمؤمنون يهديهم الله إلى الجنة، قال سبحانه وتعالى في الكفار: ﴿أَشْرَوْا إِلَيْهِمْ عِلْمَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ وَأَكَلُوا بُرْءَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَأَكَلُوا﴾ [النساء: ٢٤]، وقال سبحانه في المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُوا مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فِي مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَوَسِّلُونَ﴾ [النساء: ٢٥]، فهذه هداية بعد ضلالهم يهديهم الله إلى طريق الجنة، ويصلح لهم بغير ضلالتهم، ويقول أعمالهم

● هداية دلالة وإرشاد.

● وهداية توفيق وإلهام^(١)

وهذا أيضًا مبني على أصلهم الفاسد الآخر، وهو القول: بأن أفعال العباد مخلوقة لهم؛ فالعباد هم الذين خلقوا الهداية والضلال، وهم الذين يخلقون الطاعات والمعاصي، ولو خص الله أحدًا بالهداية وخذل أحدًا؛ لكان ظالمًا، والله عدل لا يجور.

ولهذا: فإن الهداية والإضلال بيد الله؛ فالله تعالى يهدي ويضل، والعبد يأسر؛ فكون هو المهتدي أو الضال.

تقلب العباد في مشيئة الله

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِي بَيْنَ فَضْلِي وَعَذْلِي):

الشرح

• قوله: (وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِي بَيْنَ فَضْلِي وَعَذْلِي)

أي: أن كل العباد يتقلبون بين مشيئته وفضله؛ كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَارُكُمْ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التفائين: ١٢] فهو - سبحانه وتعالى - يهدي من يشاء فضلاً منه وإحساناً، ويضل من يشاء مشيئة وحكمة وعدلاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [صافات: ٤٦].

فالله - سبحانه وتعالى - عليم بالمحال التي تصلح للهداية؛ عليم بالمحل الذي يصلح لغرس الكرامة فيهديه، وليم بالمحل الذي لا يصلح لغرس الكرامة فلا يهديه.

وهو - سبحانه وتعالى - يتصرف في عباده كما يشاء، والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، والله تعالى وضع الأشياء في مواضعها، ولا يكون الإنسان ظالماً إلا إذا منع الشخص مما يستحقه.

والله تعالى ما منع الكافر شيئاً يستحقه؛ فالهداية والإضلال ملكه، وبيده - سبحانه وتعالى - فهو يهدي من يشاء، ويضل من يشاء؛ يهدي من يشاء فضلاً وإحساناً، ويضل من يشاء مشيئة وحكمة وعدلاً.

ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ نَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [مجادل: ٢١٧]، وقال: ﴿وَمَنْ يَمْسَلْ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَافِظْ عِلْمًا وَلَا هُدًى﴾ [سجدة: ١٧٢]

والظلم يختلف الناس في تفسيره، ولعله يأتي - إن شاء الله - في العقيدة بيان حقيقة الظلم، وأقسامه، والأقوال فيه.

تعالى الله سبحانه عن الأضداد والأنداد

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الْأَضْدَادِ وَالْأَنْدَادِ):

الشرح

● قوله: (وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الْأَضْدَادِ وَالْأَنْدَادِ).

أي: أن الله تعالى متعال عن الأضداد والأنداد، و(الأضداد) جمع ضدّ وهو المخالف، و(الأنداد) جمع ندّ وهو المثل، فهو سبحانه لا مخالف له، «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»^(١) فلا يمكن أن يخالفه شيء، كما قال سبحانه: ﴿وَكَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفْرًا أَحَدٌ﴾ [الإعراس: ٤] فلا ضد له، ولا مخالف له، ولا مثل له - سبحانه وتعالى -، ومقصود الماتن ﷺ الإشارة إلى الردّ على المعتزلة؛ القائلين بأنّ العبد يخلق فعل نفسه.

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، ومن طريقه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٤٢) - تحقيق: الحاشدي)، ورواه أيضاً النسائي في «السنن الكبرى» (٩٨٤٠) من حديث إحدى بنات النبي ﷺ، وضعفه الحاشدي في تعليقه على «الأسماء والصفات» للبيهقي (٤٢٠/١ - ٤٢١)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٥٨/١) - بعد ما عزاه إلى أبي داود والنسائي: «... وأم عبد الحميد، لا أعرفها». وفي الباب أحاديث وآثار، لا تخلو أسانيداً من مقال. انظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي (٤٢١/١ - ٤٢٥).

لا راد لقضاء الله

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا غَالِبَ لِأَثَرِهِ):

الشرح

لا يرد قضاء الله راد، فإذا قضى الله شيئاً فلا يردّه أحد، ولا بد من وقوعه، (وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ)؛ أي: لا يؤخر أحد حكم الله، بل لا بد أن ينفذ، (وَلَا غَالِبَ لِأَثَرِهِ)؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - هو الغالب، وهو الواحد القهار، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، فلا يغلب أمر الله شيء.

الإيمان بأن كل شيء يجري بمشيئة الله وقدره

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (أَمَّا بِذَلِكَ كُلُّهُ، وَأَيُّقُنَا أَنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِهِ):

الشرح

أي: صدقنا، واعتقدنا ذلك، وقوله: (وَأَيُّقُنَا): من اليقين وهو الاستقرار؛ يقال: يقن الماء إذا استقر في المكان، أي: ثبت هذا في قلوبنا واستقر، بأن كل ما تقدّم، فإنه يجري بمشيئة الله وقدره.

والمعنى: أن كل شيء يجري بقضاء الله وقدره وإرادته وتكوينه ومشيتته. ومشية الله نافذة، وقدر الله جارٍ ماضٍ، وما أَرَادَهُ اللهُ لَا بَدَّ لَهُ مِنْ شَيْءٍ؛ أَمَّا بِذَلِكَ وَصَدَقْنَا، واستقر ذلك في قلوبنا؛ لأن هذا من الإيمان بقضاء الله وقدره.

كما لا بد من الإيمان بعلم الله بالأشياء، وكتابتها في اللوح المحفوظ، وإرادته لكل ما يوجد في هذا الكون؛ لأنه هو الذي خلقه وأوجده.

وهذا مكتوب قبل أن تُخْلَقَ الخلائق بخمسين ألف سنة؛ كما ثبت في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)

وأن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبي

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى):

الشرح

(إن) - بكسر الهمزة - معطوف على قوله: (نَقُولُ فِي تَوْجِيدِ اللهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللهِ: إِنَّ اللهَ وَاجِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ)؛ لأن (إن) تكسر بعد القول كما في قوله تعالى: «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ خَلَقْتَنِي مِنْ نَفْسٍ فَارْحَمْنِي» [مریم: ٣٠]، وكما في قوله: «يَقُولُ أَلَمْ يَكُنْ لَنَا رَسُولٌ مُبَشِّرٌ بِمَا نَعْمَلُ» [الأنبياء: ١٠٢]؛ وتقرأ الجملة هكذا: (نَقُولُ فِي تَوْجِيدِ اللهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللهِ: إِنَّ اللهَ وَاجِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا شَيْءٌ مِثْلُهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى). فقد عطف المؤلف إثبات النبوة على إثبات توحيد الله في ربوبيته، وفي أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وفي ألوهيته وعبادته.

قوله: المجتبي والمصطفى والمرضى: متقاربة، يعني: أن محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي العربي المكي، ثم المدني هو عبد الله ورسوله، اجتبه الله، واصطفاه على العالمين، وارتضاه، واختصه بالرسالة والنبوة - عليه الصلاة والسلام -.

فلا بد من الإيمان بأن محمداً عبد الله ورسوله، وأنه خاتم النبيين، وأنه أفضل الأنبياء، وأنه رسول الله إلى العرب والعجم، والجن والإنس؛ من لم يؤمن بهذا فهو كافر ليس بمؤمن، ولو زعم أنه يوحد الله ويعبده.

شهادتان لا تصح إحداهما بدون الأخرى: من شهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم تقبل منه، ومن شهد أن محمداً رسول

الله ولم يشهد أن لا إله إلا الله لم تقبل منه، وإذا أطلقت إحداهما دخلت فيها الأخرى، وإذا اجتمعنا تفسر الشهادة الأولى بتوحيد الله، والثانية الشهادة برسالة النبي ﷺ.

ولهذا نفى الله الإيمان عن أهل الكتاب - اليهود والنصارى -؛ لأنهم لم يشهدوا أن محمداً رسول الله، وإن كانوا يزعمون أنهم مؤمنون بالله؛ قال الله تعالى في سورة «براءة»: ﴿قِيلُوا الْيَهُودُ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الْبَرِّ أَوْشَرُوا أَلَمْ يَكُنْ حَقًّا يَنْظُرُوا آلِيزَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فنفى عنهم الإيمان؛ لأنهم لم يؤمنوا بأن محمداً رسول الله، وإن كانوا يزعمون أنهم آمنوا بالله، وأنهم يعملون بكتبهم، لكن الإيمان نفى عنهم؛ فما صح، ولا اعتبر.

وقد جمع الله ﷻ بين العبودية والرسالة، وهذه أفضل المقامات وأكملها، وكلما حقق الإنسان العبودية لله؛ كلما علت درجته، ومرتبته عند الله.

ولا يمكن أن يخرج أحد عن العبودية أبداً، فالناس - بل جميع المخلوقات - معبدة لله؛ العبودية العامة، قال سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [نجم: ٢٩٣]؛ هذه هي العبودية العامة، ومعناها: أن كل مخلوق تنفذ فيه مشيئة الله وقدرته وإرادته.

وأما العبودية الخاصة؛ فهذه خاصة بالمكلفين، الذين يعبدون الله باختيارهم، ويوحدهونه من الجن والإنس والملائكة، وأكمل المقامات للنبي ﷺ هي العبودية الخاصة والرسالة^(١).

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١٠٥/١).

وكلما حقق الإنسان عبوديته لله؛ كلما علت درجته ومرتبته؛ ولما كان الأنبياء أكثر الناس عبودية لله؛ كانوا أفضل الناس وأقربهم إلى ربهم عز وجل، ولذلك كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - أكثر الناس عبودية لله - عز وجل -، وأعلاهم وأشرفهم منزلة، ولهذا: فقد وصفه الله بالعبودية في المقامات الشريفة، فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا بِرَبِّ السَّجْدِ الْكَرَامِ إِلَى السَّجْدِ الْأَخْصَا﴾ [الاسراء: ٢١]، ووصفه بالعبودية في مقام الدعوة إلى الله فقال: ﴿وَلِلَّهِ نَاكِبُ اللَّهِ يَتَّبِعُهُ غُفْرًا يَتَخَوَّنُ عَلَيْهِ لِيَا﴾ [الحج: ٢١٩]، ووصفه بالعبودية في مقام الوحي فقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [الشهم: ٢١٠]، ووصفه بالعبودية في مقام التحدي فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فهذه أكمل المقامات وأشرفها.

كيفية إثبات النبوة:

وفي ثبوت النبوة كلام للناس؛ فكثير من أهل الكلام والنظر يشتون النبوة بالمعجزات؛ فيرون أن المعجزات هي الدليل على النبوة.

والمعجزات لا شك أنها من دلائل النبوة، لكن ليست دلائل النبوة محصورة في المعجزات، بل دلائل النبوة كثيرة؛ منها: المعجزات، وخوارق العادات التي يجريها الله على يد النبي، مثل الإسراء والمعراج.

وكذلك من أعظم المعجزات الدالة على نبوته ﷺ: القرآن الكريم، ومنها: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، وكذلك تكثير الطعام، وإخباره عن المغيبات بوحى من الله عز وجل.

وهناك أيضاً دلائل كثيرة، حتى ألف العلماء مؤلفات كـ«دلائل النبوة» لليبهي وغيره.

والنبوة يدعيها أصدق الناس، وأكذبهم، والناس يفرقون بين الصادق وبين الكاذب في أخباره وأقواله وأفعاله، فلا بد أن يقول مدعيها للناس كلامًا، ولا بد أن يخبرهم بأخبار، ولا بد أن يفعل أشياء؛ يعرف الناس بها الصادق من الكاذب .

بل إن الناس يعرفون الصادق من الكاذب في غير دعوى النبوة؛ فأنت تعرف الصادق من الكاذب في بيعه وشراؤه؛ فتعرف المهندس الصادق، وتعرف الطبيب الصادق الناصح؛ ولهذا تجد بعض الناس يشتري من فلان؛ لأنه صادق، ولا يشتري من فلان؛ لأنه كاذب .

فإذا كان هذا حاصلًا في أمور الناس المعيشية، فكيف لا يُعرف الصادق من الكاذب في دعوى النبوة؟!

فالنبي يعرف الناس صدقه فيما يُخبر به من الأخبار، وبما يفعله من أمور كلها مشتملة على علوم وأحوال يتبين بها صدقه، فصديق النبي ووفاءه ومطابقة أقواله لأفعاله؛ دليل على نبوته .

ومن أمثلة ذلك: استدلال خديجة بنت خويلد ﷺ زوج النبي ﷺ على نبوته بما جبل الله نبيه عليه من الأخلاق والصفات الحميدة مثل الصدق والوفاء، وذلك لما جاءه جبريل في أول البعثة في صورته التي خلق عليها، وقد ملأ ما بين السماء والأرض، رُعبَ النبي ﷺ رعبًا شديدًا، وجاء إلى زوجته خديجة وقال: «لقد حُشيتُ على نفسي، فقالت له خديجة: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَنَصِلُ الرَّجَمَ، وَنَحْوِلُ الْكَلَّ، وَنُكْسِبُ الْمَغْدُومَ، وَنُقْطِرُ الصَّبْغَ، وَنُؤَيِّنُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»^(١)، فالنبي ﷺ يعلم أنه صادق،

(١) أخرجه البخاري (٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٠).

ولكن يخشى أن يكون عرض له عارض سوء، فبينت له خديجة أنه لا يمكن أن يعرض له عارض سوء؛ لأن الله لما جبله على هذه الصفات الحميدة فلا يخزيه - سبحانه وتعالى - . فهذا من الأدلة التي يُستدل بها على نبوة النبي ﷺ.

ومن ذلك أيضًا: تصديق ورقة بن نوفل ابن عم خديجة له، وكان قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب من الإنجيل بالعربية، فجاءت خديجة بالنبي ﷺ إلى ابن عمها، وقالت: اسمع من ابن أخيك .

فأخبره النبي ﷺ خبره، فأمن به وصدقه في الحال، واعترف بنبوته، وقال: «هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى»^(١)، والناموس: هو صاحب السر في الخبر، يعني جبريل الذي ينزل على موسى وأمن في الحال، وكان ورقة كان شيخًا كبيرًا قد عمي وطعن في السن، فتمنى أن يكون جذعًا حين يخرج من قومه، قال: «يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْمُخْرِجِي هُم؟! فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي»^(٢)، فأمن ورقة ﷺ، وجاء في حديث أن النبي ﷺ شهد له بالجنة، والمقصود: أن ورقة استدلل بذلك على صدق النبي ﷺ.

وكذلك أيضًا هرقل ملك الروم لما كتب له النبي ﷺ له الكتاب يدعوه إلى الإسلام كتب له: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ،

(١) أخرجه البخاري (٣) وفي مواضع متفرقة من صحيحه الجامع، ومسلم (١٦٠)، وهو طرف آخر للحديث السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٢) واللفظ له، ومسلم (١٦٠)، وهو طرف آخر للحديث السابق.

سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَتَا بَعْدُ... فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَاةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمُوا
تَسْلِمًا يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ
«يَأْهَلُ الْكَتَبِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّيْتُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ إِلَّا حَبِيبٌ إِلَا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُوا
بِوَدِّهِ سَكِينًا وَلَا يَجِدُ بَعْضُهُمْ أَرْثَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ» [إلى عمران: ١١٤].^(١)

فاهتم هرقل بهذا الكتاب اهتمامًا عظيمًا، وسأل في بلده: هل يوجد
أحد من العرب؟ - وكان أبو سفيان في ذلك الوقت في الشام في تجارة
ومعه أصحابه - فقيل: نعم هاهنا، فقال: عليّ به، وقال لترجمانه: قل
لهم: أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل؟ فقالوا: أبو سفيان، فقدم أبا سفيان
وجعلهم خلفه، وقال لترجمانه: نسائل هذا الرجل مسائل فإن كذبنني
فكذبوه؛ ولهذا تحاشى أبو سفيان الكذب وهو في كفره وقال: لولا أن يؤثر
عليّ الكذب لكذبت.

فسأله أسئلة استدل بها على صدق النبي ﷺ واعترف بنبوته، «قَالَ لَهُ:
كَيْفَ نَسَبُ فَيْكَمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ»^(٢)، قال: «وَكَذَلِكَ الرَّسُولُ تَبَعْتُ
فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا»^(٣) وسأله: «فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا»^(٤).
فَقَالَ: «قُلُوا كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مَلِكًا أَبِيهِ»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٧) بهذا اللفظ، من حديث أبي سفيان بن حرب، وهو خير
طويل، وسأني تخريجه تمامه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣) بهذا اللفظ.

(٤) أخرجه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).

(٥) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).

وسأله «فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ قُلْتُ: بَلِ ضَعَفَاؤُهُمْ»^(١)،
فَقَالَ: «وَكَذَلِكَ أَتَّبَاعُ الرَّسُولِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ»^(٢)، وسأله «أَتَزِيدُونَ أَمْ
تَنْقُصُونَ؟»^(٣) فَقَالَ: تَزِيدُونَ، فَقَالَ: «وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ»^(٤)،
وسأله فقال: «فَهَلْ يَزِيدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ سُخْطَةً لِإِبْنِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ:
لَا»^(٥)، قَالَ: «وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بِشَاةَ الْقُلُوبِ»^(٦)، وسأله «فَكَيْفَ
كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟ قُلْتُ: كَانَتْ دُولًا وَسَجَالًا؛ يُدَالِ عَلَيْنَا الْمَرَّةُ، وَتُدَالِ
عَلَيْهِ الْأُخْرَى»^(٧) يعني مرة تنتصر عليه، ومرة ينتصر علينا فقال: «فَكَذَلِكَ
الرَّسُولُ تُنْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْحَاقَّةُ»^(٨)، وسأله «فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟ قَالَ:
يَأْمُرُنَا بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَتَهَانَا عَمَّا كَانَ يَغْدُو آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ،
وَالْعَقَابِ وَالْوَقَاءِ بِالْمَعْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ»^(٩).

ثم قال لهم: «وَعَلَيْهِ صِفَةُ نَبِيِّ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَكُنْ

(١) أخرجه البخاري (٧) وهذا لفظه، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) لم يقع في «الصحاحين» بلفظ: «وَكَذَلِكَ أَتَّبَاعُ الرَّسُولِ»، بل عند الطبراني في
«المعجم الكبير» (٧٢٧٢)، وليس عند لفظ: «فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ»، ولفظه في
«البخاري» (٧): «... فَذَكَرْتُ أَنَّ ضَعَفَاءَهُمْ أَتَّبَعُوهُ؛ وَهُمْ أَتَّبَاعُ الرَّسُولِ...» ولفظ
مسلم (١٧٧٣): «... قُلْتُ: بَلِ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ وَهُمْ أَتَّبَاعُ الرَّسُولِ...».

(٣) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) بهذا اللفظ.

(٤) أخرجه البخاري (٧) وهذا لفظه، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).

(٥) أخرجه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).

(٦) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)، كلاهما بهذا اللفظ، وله عند البخاري
في مواضع من الصحيح، بنحوه.

(٧) أخرجه البخاري (٢٩٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).

(٨) أخرجه البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٧٣).

(٩) أخرجه البخاري (٢٩٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).

أعلم أنه منكم^(١)، «وإن يك ما قلّت حقاً؛ فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليّ لتجشمت لقاءه، ولو كنتُ عنده، لغسلتُ قدّيتي»، «فإن كان ما تقول حقاً فسيفعلك موضع قدمي هاتين^(٢)».

ثم أخرج أبو سفيان وقومه، فقال لهم أبو سفيان حين خرج: «لقد أمرَ أمرُ ابنِ أبي كُثَيْبٍ أَنَّهُ لِيَخَافَهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ^(٣)»؛ قوله: (أمر) يعني عظم شأنه، و(ابن أبي كُثَيْبٍ): نسبة إلى أحد أجداده الغامضين من جهة الرضاع، وكانت العرب إذا كرهت الإنسان نسبته إلى جد غامض، قال أبو سفيان: «والله ما زلتُ ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلامَ وأنا كاره^(٤)».

فهذا هرقل استدل على نبوة النبي ﷺ بهذه الأدلة من غير المعجزات وخوارق العادات.

وكذلك النجاشي - رحمه الله ورضي عنه - لما جاءه الصحابة وهاجروا إليه سألهم، واستخبرهم خبر النبي ﷺ واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه، فقال لهم: «إن هذا والذي أتى به موسى من مُسْكَاةٍ وَاحِدَةٍ^(٥)».

وبهذا يتبين أن الأدلة على نبوة الأنبياء كثيرة، ليست خاصة

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، وأحمد (٢٦٢/١).

(٢) أخرجه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) واللفظ له، وأحمد (٢٦٢/١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣) واللفظ لهما، وأحمد (٢٦٢/١).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٤١) بهذا اللفظ، ورواه مسلم (١٧٧٣) بنحوه.

(٥) أخرجه أحمد (٢٠١/١ - ٢٠٢) و (٢٩١ - ٢٩٠/٥) من حديث أم سلمة ؓ، وكذا ابن خزيمة (٢٢٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١١٥ - ١١٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٧/٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع».

بالمعجزات وخوارق العادات، كما يزعمه بعض أهل الكلام والنظر من الأشاعرة وغيرهم، حتى إن المعتزلة أنكروا خوارق العادات التي تجري على أيدي المؤمنين، وخوارق العادات التي تجري على أيدي السحرة، مع أنها واقعة، وقالوا: حتى لا يلتبس النبي بغيره، وهذا من جهلهم، وهو من أبطل الباطل.

ومن دلائل النبوة أيضاً: ما أبواه الله تعالى من آثار الأهم المهلكة؛ فإن الله تعالى ينصر المؤمنين، ويؤيدهم على القوم الكافرين، وبهلك الكفار ويعاقبهم، فيقضى آثارهم في العالم موجودة، وأخبارهم متواترة؛ يعرفها الناس جميعاً؛ كتواتر الطوفان الذي أغرق الله به قوم نوح، وكغرق فرعون، وكآثار قوم لوط، وقوم هود، وقوم صالح.

ولهذا في سورة «الشعراء»: لما ذكر قصة موسى، ثم قصة إبراهيم، ثم قصة نوح، ثم قصة هود، ثم قصة صالح، ثم قصة لوط، ثم قصة شعيب قال الله - تعالى - بعد كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ وَلَئِنْ رَأَيْتَ رِجَالًا لَّهُمْ أَلْمَازُ الْبَرِّ ﴿٨﴾ [الشعراء: ٨-٩].

ومن دلائل النبوة كذلك: ما اشتملت عليه الشرائع التي جاء بها الأنبياء من العلوم والأعمال والأحوال العظيمة، وما اشتملت عليه من الرحمة للخلق، ودعوتهم إلى ما فيه خلاصهم ونجاتهم، ودعوتهم إلى ترك ما فيه هلاكهم، فهي مشتملة على علوم وأحوال وصفات إذا تخلق بها الناس، وعملوا بها حصلت لهم السعادة، وهي مشتملة كذلك على التحذير من أسباب الهلاك والأخلاق السيئة.

مراتب الأنبياء والرسل والفرق بين الأنبياء والرسل:

والأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - على مراتب ودرجات، فالرسل أفضل من الأنبياء.

وهناك فرق بين النبي والرسول:

فمن العلماء من قال: إن الفرق بين النبي والرسول أن كلًا من النبي والرسول يوحى إليه، لكن الرسول يوحى إليه بشرع ويؤمر بتبليغه، والنبي يوحى إليه ولا يؤمر بتبليغه، فإذا أوحى إليه وأمر بتبليغه كان رسولاً، وإن لم يؤمر بتبليغه كان نبياً، ولكن هذا قول مرجوح، والصواب أن الرسول هو الذي يُرسل إلى أمة كافرة فيؤمن به بعضهم ويكفر به بعضهم، كنوح - عليه الصلاة والسلام - أرسل إلى الكفار، فأمن به بعضهم، وكفر به بعضهم، ومثل نوح أيضاً: هود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونبينا محمد ﷺ.

أما النبي: فهو الذي يرسل إلى قوم مؤمنين، ويكلف بالعمل بشريعة سابقة^(١)، فمثلاً آدم - عليه الصلاة والسلام - نبي؛ لكنه نبي إلى بني، ولم يقع الشرك في زمانه، والأمر كذلك بالنسبة لنبي الله شيت، وأما نوح ﷺ فكان أول رسول بعثه الله بعد وقوع الشرك أول ما وقع في الأرض؛ فأرسله إلى بني و إلى غير بني.

قال ابن عباس ؓ: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الشرك^(٢)، هذا معنى قوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُكُمْ كُفْرًا﴾.

(١) انظر: «النبوات» لشيخ الإسلام (٢/٦٨٧ - ٦٩٠، ٧١٤).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢/٤٨٠، ٥٩٦)، وابن أبي حاتم في =

الله الْكَافِرِينَ مُبْذَرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴿٢١٣﴾.

وبالمثل: داود وسليمان أنبياء؛ لأنهم كفوا بالعمل بالتوراة جميعاً التي أنزلت على موسى - عليه الصلاة والسلام - وأرسلا إلى بني إسرائيل الذين كانوا بعد موسى، حتى جاء عيسى - عليه الصلاة والسلام - بشريعة مستقلة؛ وهو تابع أيضاً لما جاء في التوراة، ولكنه خفف بعض الأحكام، وقال: ﴿وَلَا جُنْدَ لَكُمْ بَعَثَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُمْ﴾ [١٥٠].

فالصواب الذي أقره وحكم به أهل العلم: أن الرسول هو الذي بُعث إلى أمة من أهل الشرائع الكبيرة؛ أي: إلى أمة كافرة؛ فيؤمن به بعضهم ويكفر بعضهم، والأنبياء هم الذين يوحى إليهم، ويرسلون إلى المؤمنين خاصة، وَيُكَلِّفُونَ بالعمل بشريعة سابقة.

= «التفسير» (١٥١٨٤)، وابن جرير في «التفسير» (٢/٣٣٤)، كلهم من طريق أبي داود الطيالسي، عن همام، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه».

ختم النبوة بمحمد ﷺ

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَإِنَّ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ):

الشَّيْخُ

نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - خاتم الأنبياء، وقوله: (وَإِنَّ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ) معطوف على قوله: (نَقُولُ فِي تَوْجِيدِ اللَّهِ مُتَقَلِّدِينَ بِتَرْفِيقِ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى).

فلا بد في صحة الإيمان برسالة محمد ﷺ: أن يعتقد المسلم ويؤمن بأنه خاتم الأنبياء، ليس بعده نبي، فمن زعم أن بعده نبياً؛ فهو كافر بعد أن تقوم عليه الحجة، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مَلَكِي وَمَلَكَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَلِّي رَجُلٌ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ كِبْتَةٍ مِنْ رَأْوِيَةٍ، فَعَمَلُ النَّاسِ يَطْوِفُونَ بِهِ وَيَعْبَجُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وَضِعَتْ هَذِهِ الْكِبْتَةُ؟! قَالَ: فَأَنَا الْكِبْتَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(١).

وقال - عليه الصلاة والسلام - : «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧) بنحوه: من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعند مسلم (٢٢٨٦) وحده من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجاء بنحوه أيضاً من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عند الترمذي (٣٦١٣) وقال: «حسن صحيح غريب»، وأخرجه أيضاً الإمام أحمد (١٣٦/٥)، (١٣٧).

أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمُخُو اللَّهُ بِبِي الْكَفَرُ، وَأَنَا الْخَاشِرُ الَّذِي يُخْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاثِرُ. لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ»^(١)، والعاقب: الذي ليس بعده شيء.

وفي حديث ثوبان يقول النبي ﷺ: «وَلَوْ أَنَّ سَيِّدُونَ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(٢).

وقال - عليه الصلاة والسلام - : «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَائِزَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغَبِ، وَأُجِلْتُ لِي الْمَقَامُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ ظَهْرًا وَمَسْجِدًا، وَأُزِيلَتْ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ»^(٣) أو كما قال - عليه الصلاة والسلام - .

والشاهد من الحديث أنه قال: «وُخِّمَ بِي النَّبِيُّونَ»^(٤)؛ فهذه الأدلة تدل على أنه خاتم النبيين، وأنه ليس بعده نبي، فمن اعتقد أن بعده نبياً فهو كافر، ولا يصح إيمانه؛ ولهذا فإن من ادعى النبوة بعده فهو كافر^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤)، واللفظ له، من حديث جابر بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقُفْتُ عَلَى مَا أَفَادَهُ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٥٥٧/٦) من احتمال إدراج ما ورد في بعض طرق هذا الحديث من تفسير لقوله ﷺ: «وَأَنَا الْعَاثِرُ».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢١٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، والحاكم (٤٩٦/٤) -تحقيق: مصطفى عبد القادر، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين...»، وأحمد (٢٧٨/٥) من طريق عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان به، وهو حديث صحيح؛ أصله في مسلم (٢٨٨٩)، وفي الباب أحاديث أخر. انظر: «البخاري» (٧١٢١)، ومسلم (٢٩٢٣)، وانظر: «عمدة القاري» (٢١٥/٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٥٢٣)، وغيره.

(٥) انظر: «الجواب الصحيح» (١).

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ (وَإِمَامُ الْأَتْقِيَاءَ):

فهر - عليه الصلاة والسلام - إمام الأتقياء، يُقتدى به وَيُتَّبَعُ؛ كما قال سبحانه: ﴿هَلْ لَكُم مِّنْ شَيْءٍ مِّثْلُ مَا أَفْعَلُ﴾ فَأَتَيْنَا فِيهِمْ فَفَعَلْنَا مَا فَاعِلُ لَكُمْ لَوْ كُنْتُمْ عَالِمِينَ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿١٢١﴾ إِلَىٰ مِرَاسٍ: ١٢١، وهو - عليه الصلاة والسلام - له النصيب الأوفر من صفات المتقين؛ فهر مقدمهم وإمامهم، والله تعالى وصف المتقين بصفات كقولهِ سبحانه: ﴿وَسَيُؤْتِيهِمْ فِي زَمَانٍ مِّنْ فَسَحَاتٍ مِّنَ الْأَرْضِ أَجْدَدُ تَأْتِيهِمْ فِي الْأَنْفَالِ وَالْغَنَائِمِ وَالْغَنَائِمِ عَنِ النَّبِيِّ وَاللَّهُ يُجِزِّي الْمُتَمِيزِينَ وَالَّذِينَ إِذَا تَعَلَّوْا فَحُشَّةً أَوْ قَلَمًا أَفْهَمُوا لَكُمْ أَنَّ اللَّهَ قَاسَمُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَقْدِرِ الذُّكْبُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ مَا يَنْصُرُوا عَلَىٰ مَا هُم بِمُتَعَلِّقِينَ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ بَعْضِهِمْ مِّنْ زَيْمِهِمْ وَجَعَلَ بَيْنَ مَتْنِهِمُ الْبَحْرَ لِيَلْجَأَ الْخَالِفِينَ إِلَيْهَا وَهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (سجدة: ١٨-٢٠)، هذه صفات المتقين، وهو - عليه الصلاة والسلام - أسبق الناس إلى هذه الصفات إلى يوم القيامة.

(١) «القاديانية» نسبة إلى: مرزا غلام أحمد القادياني الهالك سنة ١٣٢٥هـ. ادعى النبوة، وكان يزعم أنه ينقل الوحي من السماء، كما زعم أن الله عز وجل - أخيره بأنه سيحيي ثمانين سنة، وقد صار له أتباع وأوعان؛ فأنبرى له كثير من العلماء وردوا عليه وينبوا أنه دجال من الدجالين، وكان منهم العالم الكبير ثناء الله الأمر تسري الذي كان من أشد العلماء عليه حتى إنه في عام ١٣٢٦هـ تحدى القادياني الشيخ ثناء الله هذا، بأن الكذاب المغترى من الرجز سيموت، وقد اعاد الله أن يقضى البطلان في حياة صاحبه، ويسلط عليه داء مثل الهضبة والطاعون يكون في حنقه، وبعد ثلاثة عشر شهرا وعشرة أيام تقريبا أصيب القادياني بدعوته. وقد ذكر أبو زوجة ثناء الله بقوله: «أن أشد مرضه أفضطنى فذهب إلى حضرتها ورأيت ما يعانیه من الألم خائبطني قالنا: لا تستد الكوليرا، ثم لم ينطق بعد هذا بكلمة صريحة؛ حتى مات. وانظر: «القاديانية» لإحسان علي ظهير (١٥٥ - ١٥٩).

محمد ﷺ سيد المرسلين

♦ قَالَ الدَّوْلَةُ ﷺ: (وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ):

الشرح

هذا وَصْفُهُ - عليه الصلاة والسلام - أنه سيد المرسلين جميعاً، وهو سيد الناس؛ كما ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه - عليه الصلاة والسلام - أفضل الناس، وإذا كان سيد المرسلين - والمرسلون أفضل الناس - فهو ﷺ سيد العالمين كما ثبت من الحديث الصحيح قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُسْتَقْبَحٍ»^(١)، فقد اختاره الله - سبحانه وتعالى -، واصطفاه على خلقه؛ كما في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٢)، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»^(٣)، فهو أفضل الناس على الإطلاق.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث ثوبان ؓ، وفي الباب أيضاً عن عبد الله بن سلام، وأنس بن مالك، الخديري عند أهل السنن، وفي الباب أيضاً عن عبد الله بن سلام، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله وغيرهم. وانظر: «مجمع الزوائد» (٢٥٤/٨) و(١١٦/٩) و(١٠/٣٧٥-٣٧٦)، وكتاب «تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في كتاب الكشاف» للزيلعي (١٦٨/٢-١٧٢) فقد توسع تخريجه واستقصاه طرفة.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٤٨) و(٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (٢/٣) من طريق علي بن زيد -وفيه ضعف-، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، وله شواهد من حديث أبي بكر، وابن عباس، وأنس ؓ، ولذا صححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٧١).

وأما ما جاء في بعض الأحاديث من النهي عن تفضيله؛ كحديث: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»^(١)، ورواية: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُضَعِّفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَضَعُّ مَعَهُمْ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ فَإِذَا مُوسَى بَاطِنٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أَذْرِي أَكَانَ فَيَمُنُّ صَبَاحًا فَكَأَنَّا قَبْلِي أَوْ كَانَ وَمَنْ اسْتَشْنَى اللَّهَ»^(٢).

وفي لفظ: «لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُضَعِّفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى أَجَدَ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَذْرِي أَكَانَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِي بِصُفَّةِ الطُّورِ»^(٣).

وهذا الحديث له سبب، وهو أن يهودياً قال: والذي اصطفى موسى على العالمين، فسمعه مسلم فطمه، قال: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فجاء اليهودي واشتكى المسلم للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»^(٤)، فيكون النهي محمولاً على ما إذا كان التفضيل على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس، أو يكون التفضيل على وجه الفخر؛ أو على وجه الانتفاص للمفضول؛ فهذا منهي عنه، أو أن النهي محمول على ما إذا كان خاصاً بمعنى: أن يُفَضَّلَ نبياً بعينه على آخر، بخلاف قوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»؛ فإنه تفضيل عام؛ فلا بأس.

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١، ٢٤٠٨) و(٦٥١٧، ٧٤٧٢)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٧٣)، والترمذي «تفسير القرآن» (٣٢٤٥)، وأبو داود «السنن» (٤٦٧١)، وأحمد (٢/٢٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩١٧) بهذا السياق، ومسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخديري.

(٤) سبق تخريجه.

فإن الجهاد - وهو أفضل الأعمال - إذا كان على وجه الحمية والعصبية؛ فإنه لا يكون جهاداً في سبيل الله؛ كما ثبت في الحديث: أن النبي ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل عصبية أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

ومثله الحديث الآخر: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ أَنْبَاءِ اللَّهِ»^(٢) فيجاب عنه بأجوبة وهو تفصيل لما سبق ذكره:

الجواب الأول: أن النهي محمول على ما إذا كان التفضيل على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس.

الجواب الثاني: أنه محمول على ما إذا كان على وجه الفخر؛ لأن الفخر منهى عنه كما قال النبي ﷺ: «وَأَنَّ اللَّهَ أَوْخَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَتَّبِعِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(٣).

الجواب الثالث: أن النهي محمول على ما إذا كان على وجه

(١) أخرجه بهذا السياق البخاري (٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤)، وابن ماجه (٢٧٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ورواه بنحوه أبو داود (٢٥١٧) من حديث أبي موسى أيضاً.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٥)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الطيالسي (٢٣٦٦) بلفظ: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ أَنْبَاءِ اللَّهِ، أَوْ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ»، وعند أحمد (٤٠/٣) من حديث أبي سعيد الخدري، بلفظ: «... لَا تَفْضَلُوا بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ...».

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه، وفي الباب عن أنس عند ابن ماجه (٤٢١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١/١٥٣)، وأبي هريرة عند إسحاق بن راهويه في «المستد» (٤٠٥)، وحديث أنس حسنه الحافظ ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (ص ٩٣).

الانتقاص للمفضول.

الجواب الرابع: أن النهي محمول على ما إذا كان خاصاً، أما إذا كان عاماً فلا بأس بتفضيله على عموم الناس، أما تفضيله خاصة كتفضيله على موسى، فيكون منهياً عنه.

وأما الحديث الذي بروى: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُوْنُسَ بْنِ مَتَّى»، وأن بعض الشيوخ امتنع عن تفسيره حتى أعطي مالا جزيلا، فلما أعطي مالا جزيلا فشره، وقال: يعني: أن قرب يونس بن متى وهو في بطن الحوت وفي قعر البحار، كقربي من الله ليلة المعراج. وهذا الحديث باطل محرف لفظاً ومعنى^(١)، وهذا يدل على جهل هؤلاء بالفاظ الحديث ومعانيه، وهذا التفسير ذكره بعضهم، وأظنه أبو المعالي الجويني^(٢)، وهو يتمشى مع القول بنفي العلو عن الله، وأن من كان فوق السبع الطباق، ومن كان في بطن الحوت في قعر البحار فقربهم منه سواء.

وقد علم بكثير من الأدلة قطعاً أن الله تعالى في العلو؛ فوق العرش، ومحمد - عليه الصلاة والسلام - عرج به إلى الله في العلو، ويونس إنما

(١) قال الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ١٧٢ ط: السابعة): «لا أعرف له أصلاً بهذا اللفظ...».

(٢) نقله عنه أبو بكر ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن ٦/٤٩٢» وأبو المعالي هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، إمام الحرمين، ولد سنة ٤١٩هـ في «جوين» من نواحي نيسابور. من كتبه «الشامل في أصول الدين»، و«الإرشاد»، و«الورقات في أصول الفقه»، وهو من أئمة الأشاعرة، وتلميذ عليه أبو حامد الغزالي. توفي سنة ٤٧٨هـ في قرية «بشتغال» من أعمال نيسابور. انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (٣/٣٥٨-٣٦٢)، و«تبيين كذب المفتري» لابن عساكر (٢٧٨-٢٨٥)، و«الأعلام» للزركلي (٤/١٦٠).

كان في قعر البحار، فأين هذا من هذا؟

وصواب الحديث: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»^(١)، وفي لفظ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»^(٢)، وفي لفظ: «مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»^(٣)، فليس في الحديث نهي عن تفضيل النبي ﷺ على يونس عليه السلام، فالصواب أن الأنبياء يتفاضلون؛ كما قال الله تعالى: «وَلَقَدْ فَتَلْنَا بِمَنْ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ» [الأنبياء: ٢٥٥]، «وَلَقَدْ فَتَلْنَا بِمَنْ بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ» [البقرة: ٢٥٣].

وكيف يقال: إن يونس يفضل على محمد ﷺ ومحمد - عليه الصلاة والسلام - قد عُرج به إلى السماء، فهو مقرب معظم مُبجل، ويونس ممتحن مؤدب مسجون في قعر البحار، فأين المعظم، المقرب، المبجل، من الممتحن المؤدب؟!

(١) رواه البخاري (٤٦٠٣) من حديث ابن مسعود بلفظ: «ما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (١١١٦٧)، بلفظ: «لا ينبغي» والباقي مثله، وكذا أخرجه أبو يعلى في «المسند» (٥٢٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٧/٥)، (١٢٨/٧).

وجاء من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٣٧٣) بلفظ: «ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى...»، وكذا أخرجه أحمد في «المسند» (٣٩٠/١)، (٤٤٠/١)، (٤٤٣)، والشاشي في «المسند» (٥٧/٢)، وغيرهم، وجاء من حديث ابن عباس بلفظ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى...»، عند أحمد في «المسند» (٢٤٢/١)، (٣٤٨)، وفي (٢٩١/١) لكن بلفظ: «وما ينبغي...». وكذا رواه بهذا اللفظ أبو يعلى في «المسند» (٢٥٤٤).

وورد أيضاً من حديث عبدالله بن جعفر رضي الله عنه، عند أبي يعلى في «المسند» (٦٧٩٣)، بلفظ: «لا يقولن أحدٌ إنِّي خيرٌ من يونس متى».

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٢) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٠٤)، (٤٨٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومع ذلك فإنه لا ينبغي لإنسان أن يفضل نفسه على يونس، حتى لو كان فاضلاً، فكيف إذا كان مفضولاً؟! فمن قال إنه خير من يونس بن متى - حتى ولو كان فاضلاً -: فكفى بقوله هذا سبباً للحط من مرتبته، فلو قال بهذا أحد: فهو كاذب. وهذا من باب الشرط المقدّر؛ كقوله تعالى: «كَيْفَ أَتَرْتَهُ لِيَحْمِلَ ظَنِّي عَلَيَّ» [الأنبياء: ٦٥].

وسبب ذلك أن يونس - عليه الصلاة والسلام - لما ذهب مغاضباً والتقمه الحوت وهو مليم فسيح وقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» [الأنبياء: ٨٧]؛ وقد يظن بعض الناس: أنه خير من يونس بن متى، وأنه لا يحتاج إلى هذا الندم والاستغفار والتسبيح، وهذا باطل؛ لأن كل أحد يحتاج إلى أن يستغفر من ذنبه، وكل أحد ظالم لنفسه.

وكذلك نبينا ﷺ نهاء الله عن التشبه بيونس قال: «تَشَبَّرَ يَلْكِرَ رَبِّكَ وَلَا تُكَلِّبْ كَلْبِي» [الفتح: ٤٨]، وأمره بالتشبه بأولي العزم: «كَاسِرِ كَنَا صَبْرَ أَوْلَادِ الْقَوْمِ مِنَ الْأُرْسُلِ وَلَا تَسْتَعِجِلْ لِقَاءَهُ» [الأحزاب: ٣٥].

وقد أخبر الله عن الأنبياء كلهم أنهم يستغفرون، وأولهم آدم وآخرهم نبينا محمد ﷺ؛ فأخبر الله عن آدم أنه قال: «رَبَّنَا ظَنَنَّا أَنْنَا لَمَنَّا وَإِنَّا لَكَاذِبُونَ» [البقرة: ٣٧]، وقال نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - وهو أشرف الخلق كما في حديث الاستفتاح: «وَجْهْتُ وَجْهِي»^(١)، وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي فَأَعِزُّ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إِلَّا أَنْتَ»^(١).

فكل أحد - حتى الأنبياء - يحتاج إلى ما احتاج إليه يونس. فمن وقع في نفسه أنه خير من يونس بن متى فهو كاذب .

ثبوت الخلّة لنبينا ﷺ

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ):

الشهر

● قوله: (وَحِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

يعني: نبينا ﷺ حبيب رب العالمين، بل هو ﷺ، خليل رب العالمين، ولو قال الشيخ الطحاوي: (رخيل رب العالمين) لكان أولى؛ لأن الخلَّة أكمل من المحبة، وقد ثبت له - عليه الصلاة والسلام - الله؛ كما ثبت لإبراهيم، قال - عليه الصلاة والسلام - : «إِنِّي أُبَرِّأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ». فَإِنَّ اللَّهَ أَتَعَزَّيْبُ خَلِيلًا كَمَا أَتَعَزَّزُ إِتْرَاهِيمَ خَلِيلًا^(١)». وفي الحديث الآخر: «لَوْ كُنْتُ مُتَعَزِّدًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَأَتَعَزَّزْتُ مِنْهُمْ بِأَبِي إِسْحَاقَ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ^(٢)». إذن: فالخلَّة ثابتة لنبينا ﷺ. والخلَّة أعلى مقامات المحبة، والمحبة ثابتة لغير الخليل؛ قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» (البقرة: ١٩)، وقال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» (البقرة: ١٩٥)، وقال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» (البقرة: ١١٠). فهذه المحبة ثابتة لهم، لكن الخلَّة فوق ذلك. والخلَّة لم تكن إلا لأئتين: محمد - عليهما السلام -، فهما الخليلان، وأما

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن جنادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه بهذا السياق مسلم (٢٣٨٣) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وله عند مسلم أيضاً عن ابن مسعود ألفاظ أخرى، وأخرجه البخاري (٣٦٥٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه بلفظ: «لو كنْتُ متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي». والحديث له في الصحيح، وفي السنن، والمانيد، والمعجم روايات وألفاظ أخرى.

(١) هو من تنمة الحديث السابق

ما يقوله بعض الناس ويزعمه من أن الخلّة لإبراهيم، والمحبة لمحمد؛ ويقول: لإبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله؛ فهذا باطل، بل إن محمداً أيضاً خليل الله، ويُروى في ذلك حديث رواه الترمذي؛ فيه: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، آلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ»^(١)، وهذا حديث ضعيف لا يصح؛ في سننه راويان ضعيفان: زُفْعَةُ بْنُ صَالِحٍ، وسَلَمَةُ بْنُ وَهْرَامٍ.

والصواب: أن محمداً خليل الله كما أن إبراهيم خليل الله؛ فقول الشيخ: (وَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يوهن أنه لا يُثَبِّتُ الخلّة لمحمد ﷺ ولو قال: (وَحَلِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) لكان أحسن؛ حتى يُدْفَع عنه توهم عدم إثبات الخلّة لمحمد ﷺ^(٢).

والخلّة هي نهاية المحبة؛ وذلك: لأن المحبة لها درجات ومراتب^(٣):

فأول مراتب المحبة: العلاقة؛ وهي: تعلق القلب بالمحبيب.

المرتبة الثانية: الإرادة؛ وهي: إرادة المحب للمحبيب، ومُثْلُ قلبه إليه، وطلبه له.

المرتبة الثالثة: الصبابة؛ وهي: انصباب القلب إلى المحبوب؛ بحيث لا يملكه؛ كانصباب الماء في الحذور.

المرتبة الرابعة: الغرام؛ وهو: الحب الملازم للقلب، سمي غراماً لملازمته له، ومنه الغريم، وسمي غريماً لملازمته لغريمه صاحب الدّين،

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٦)، والدارمي (٣٩/١) من حديث ابن عباس ؓ، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب»، وضعفه الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ١٧٥ ط: السابعة).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥٦٧/٧)، (٦٧/١٠)، و«مدارج السالكين» (٢٧/٣).

(٣) انظر: «روضة المحبين» (ص ١٦).

ومنه قوله تعالى في جهنم: «إِنَّكَ عَبْدُهَا كَأَنَّكَ عَبْدُهَا»^(١) والمعنى: ملازماً.

المرتبة الخامسة: المودة والود؛ وهو: صفو المحبة، وخلوصها، ولُبّها، ومنه قوله تعالى: «إِنَّ الْأَرْوَاحَ أَمَرُوا وَعَمَلُوا أَلَمْ تَلَكَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ لَمَّا أَكْرَمْتُمْ وَكُنَّا مُنْذِرِينَ»^(٢).

المرتبة السادسة: الشّغف؛ وهو: الحبّ الذي وصل إلى شغاف القلب، وهو غلافه، وهي: جلدة دونه؛ كالحجاب.

المرتبة السابعة: العشق؛ وهو: الحبّ المفرط الذي يُخشى على صاحبه منه، وهذه المرتبة لا يوصف بها الرب، ولا يوصف العبد بها في محبته لربه؛ لأنه لم يرد، ولعل الحكمة في ذلك: أنها محبة مع شهوة.

المرتبة الثامنة: التّميم؛ وهو: التّعبّد، ومنه تيم الله أي: عبد الله، يقال: تيمّنت الحب؛ أي: عبّده وذلك.

المرتبة التاسعة: التّعبّد؛ وهو غاية الذل مع غاية المحبة، يقال: طريق مُعبّد إذا وُطئت الأقدام، ومجبة العبودية خاصة بالله، ولا تكون إلا لله؛ فإذا صُرفت لغير الله: كانت شركاً.

المرتبة العاشرة: الخلّة وسميت خلّة لأنها تتخلل القلب والروح حتى تصل إلى سويدانك، كما قال الشاعر^(٣):

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسَلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَلِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا
والخلّة: هي نهاية المحبة وكمالها، ولا يتسع القلب لأكثر من خليل

(١) انظر: «محاضرات الأدباء» (٣٣٤/١)، و«المنتحل» (٦/١).

واحد؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»^(١) يعني نفسه - عليه الصلاة والسلام -؛ يعني: لو كان في قلبي متسع؛ لكان لأبي بكر، ولكن قلبي امتلأ بخلة الله؛ فليس فيه متسع لأكثر من واحد.

أما المحبة: فيتسع ﷺ لكثير؛ كما كان يحب عائشة، ويحب أبا بكر، وكان أسامة جبه وابن جبه زيد؛ فالقلب يتسع لأكثر من واحد؛ هذا بالنسبة للمخلوق، أما وُصِفَ الله بالخلة والمحبة، فهو كما يليق بجلاله وعظمته. والله - تعالى - يوصف من هذه المراتب: بالإرادة، والمحبة، والمودة، والخلة، أما بقية المراتب فلم يرد بها النص. فاتصافه بالخلة هو كسائر صفاته كما يليق بجلاله وعظمته؛ لا تشبه صفاته صفات المخلوقين.

(١) ذكره الشارح - حفظه الله - أول الباب والحديث سبق تخريجه هناك.

كل من ادعى النبوة بعده ﷺ كاذب

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ (وَكُلُّ دَعْوَى النَّبُوَّةِ بَعْدَهُ فَكْيٌ وَهْوَى)

الشرح

كل من ادعى النبوة بعد النبي ﷺ فهو غاوي؛ والغاوي هو المنحرف عن علم وهوى؛ أي: اتبع هوى نفسه قال تعالى: «فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿١٥﴾ وَآثَرَ الْمَنَیَّةَ ﴿١٦﴾ أَلْبَسًا ﴿١٧﴾ فَإِنَّ الْمَجِیمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿١٨﴾» [الشعر: ٣٧-٣٩]، فالغوي: هو ترك العمل مع العلم، أما الضلال: فَمَمَّلَ مَعْ جَهْلٍ، وقد برأ الله نبيه الكريم من هذين الوصفين؛ قال سبحانه: «وَالنَّبِيُّ إِذَا هَدَى ﴿١٩﴾ مَا كُنَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿٢٠﴾» [النجم: ١-٢]، أي: ليس ضالاً؛ فيكون جاهلاً، بل هو على علم من ربه، وليس هو كذلك: غاوياً لا يعمل؛ بل هو راشد. والراشد: هو الذي يعلم ويعمل.

عموم بعثته ﷺ للإنس والجن

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (وَهُوَ الْمُبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى):

الشعر

أي: أنه رسول الله إلى خلقه، يعني: الجن والإنس. والأدلة في كونه مبعوثاً إلى الجن واضحة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُيِّضَ قَالُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذْذِرِينَ ۖ﴾ قَالُوا يَتَّبِعُونَ إِنَّا سَمِعْنَا دَعْوَىٰ رَبِّنَا أَنِ ارْجِعُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ فَاتَّبَعْنَاهُمْ فَذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّكَ الْكَافِرِينَ ۚ﴾ [الاحقاف: ٢٩-٣٠]، ثم قالوا بعد ذلك: ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا دَعْوَىٰ اللَّهِ ۖ﴾ [الاحقاف: ٣١]؛ فهذا دليل على أنه مرسل إليهم، وكذلك في سورة «الجن» كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۚ﴾ [الجن: ١]، وقوله في سورة «الرحمن»: ﴿يَتَنَمَّرُ لَحِينًا ۖ وَالْآلِينَ ۚ﴾ [الرحمن: ٣٣] إلى قوله: ﴿وَيَأْتِي مَآلَهُ رُدُّكُمَا ذِكْرِيَّانِ ۚ﴾ [الرحمن: ١٣]؛ قراها النبي ﷺ عليهم وقرأها على الإنس، فقال النبي ﷺ: «لَلْجِنِّ أَحْسَنُ رَدًّا مِنْكُمْ مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَيَأْتِي مَآلَهُ رُدُّكُمَا ذِكْرِيَّانِ ۚ﴾» [الرحمن: ١٣] مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا قَالُوا: وَلَا يَشِيءُ مِنْ نَعِيمِكَ يَا رَبَّنَا نَكْذِبُ فَلَكَ الْحَمْدُ^(١).

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم (٥١٥/٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٨٩)، و (١٠١/٤)، وفي «دلائل النبوة» (٢/ ٢٣٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٦٦٦/٥)، كلهم من حديث جابر بن عبد الله. وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، وأورده الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٢٠١/١) وقال: «زهير ضعيف». وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد. قال ابن حنبل: كأَنَّ زهير بن محمد الذي وقع بالشام؛ ليس هو الذي يُروى عنه بالعراق؛ كأنه رجل آخر، قلبوا اسمه،»

وثبت أيضاً أنهم جاءوا للنبي ﷺ وسألوه الزاد؛ فقال: «لَكُمْ كُلُّ عَظِيمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، أَوْفَرُ مَا يَكُونُ لِحُكْمًا وَكُلُّ بَغْرَةٍ عَلَفَتْ لَدَوَائِكُمْ...»^(١)، وقال النبي ﷺ: «لَا تَسْتَنْجُوا بِالْعُظْمِ وَالرُّؤْيِ؛ فَإِنَّهُ رَادٌّ

= يعني: لما يروون عنه من المناكير. وسمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: «أهل الشام يروون عن زهير بن محمد مناكير، وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة».

فرواية أهل الشام عنه، غير مستقيمة، قال المباركفوري في «تحفة الأحاديث» (٩/ ١٢٧): «حديث جابر هذا رواه الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، وهو من أهل الشام؛ ففي الحديث ضعف، لكن له شاهد من حديث ابن عمر، أخرجه ابن جرير، والبخاري، والدارقطني في «الأفراد» وغيرهم. وصحح السيوطي إسناده، كما في (فتح البيان)».

تنبيهات: قول الإمام الترمذي: «لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم» أورده عنه الإمام ابن كثير في «التفسير» (١٧١/٤)، ثم قال: «كذا قال!! وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطاطري، عن زهير بن محمد به مثله».

الشاهد الذي أشار إليه المباركفوري، من حديث ابن عمر، أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٢٣/٢٧-١٢٤)، والبخاري، والبيهقي، وكما في «كشف الأستار» (٧٤/٣)، والخطيب في «التاريخ» (٣٠١/٤)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٦٩٠/٧) نسبته إلى ابن المنثور، وابن مردويه، والدارقطني في «الأفراد». وصحح السيوطي إسناده، لكن ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٧/٧) من رواية البخاري، وقال: «رواه البخاري، عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي، وثقه ابن حبان، وضمفه غيره، وبقي رجاله رجال الصحيح».

لكن لم ينفرد به عمرو بن مالك، بل هو مقرون في رواية ابن جرير بمحمد بن عباد ابن موسى المكي، الملقب (سند ولا)؛ صدوق يخطئ، كما في «التقريب» (٥٩٩٥)، لكن في إسنادهما يحيى بن سلمة الطاطري، وهو مع كونه صدوقاً إلا أنه سيء الحفظ، كما في «التقريب» (٧٥٦٣).

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠) من حديث ابن مسعود ۞.

إخوانكم من الجن»^(١).

وثبت في قصة ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا تبرح مكانك»، وسمع حركة الجن، ولغظهم، وأصواتهم^(٢)؛ فأراد أن يذهب لكنه ذكر قول النبي ﷺ: «لا تبرح مكانك»؛ فلما جاء النبي ﷺ أخبره وقال: يا رسول الله! سمعتُ كذا وكذا، وخشيتُ عليك، فتذكرتُ قولك: «لا تبرح...» قال: «هل سمعتُ؟» قال: نعم، فجاءه، فأراه النبي ﷺ مكان نيرانهم، وأخبره أنهم سألوه كذا وكذا^(٣).

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠) بلفظ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم»، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (٣٩) بلفظ: «لا تستنجوا بالبروت ولا بالعظام فإنها زاد إخوانكم من الجن»، وكذا الترمذي في «السنن» (١٨)، وأبو عوانة في «المسند» (٥٨٥)، والطبراني في «الكبير» (١٠٠١٠)، لكن وقع عند الترمذي ومُن بعده بلفظ: «فإنه...».

وعند البخاري (٣٨٦٠) من حديث أبي هريرة: «... فقلتُ: ما بال العظم والرؤة؟ قال: هما من طعام الجن...».

قال في «البدل المنيرة» (٣٤٨/٢): «أما النهي عن الاستنجاء بالعظم؛ فصحيح رواه جماعة من الصحابة...»، ثم ذكرهم كثرة.

(٢) انظر: ما أخرجه أحمد (٤٥٥/١)، والدارقطني (٧٧/١)، والبيهقي (٩/١)، بمعناه، وفي سننه علي بن زيد ابن جدعان وهو ضعيف.

(٣) انظر ما رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٧/١٠) من حديث ابن مسعود، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٥٢/٨)، وقال: «رواه الطبراني وفيه يحيى بن يعلى الأسلمي وهو ضعيف».

والذي في «صحيح مسلم» (٤٥٠) من حديث ابن مسعود المتقدم قريباً: «أتاني داعي الجن فذهبتُ معه فقرأتُ عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وميزانهم، وسألوه عن الزاد... الحديث. وقد توسع الحافظ الزيلعي في «نصب الراية» (١٣٩/١-١٤٧) في الكلام على طرق حديث ابن مسعود، فليُنظره من شاء.

فهذه أدلة تدل على أنه - عليه الصلاة والسلام - مُرْسَلٌ إلى الجن . قال ابن القاسم: إنه لم يُرسل نبي إلى الإنس والجن إلا محمد ﷺ، لكن هذا بعيد؛ لأن ظاهر قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا سَمِعْنَا حِكْمًا مِّنْ رَبِّكَ مُبَشِّرًا بِقُدْرَتِكَ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ظاهره أن موسى مُرْسَلٌ إليهم، وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، دليل على أنه أُرْسِلَ إليهم رُسُلٌ.

مسألة:

هل يكون من الجن رسول ونبي؟^(١).

قاله بعضهم؛ وروي هذا عن الضحاك بن مزاحم، ومجاهد وغيره، والذي روي عن ابن عباس: أن الرسل تكون من الإنس خاصة، وأما الجن فيكون فيهم نُذُرٌ؛ يُنذِرُونَ، كما في الآية: ﴿فَلَمَّا قُتِلَ إِبْرَاهِيمَ وَلَوْ أَنَّهُ قَتِلَ فِيهِمْ لَآتَيْنَهُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ نَذِيرًا مِّنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٦].

فالنبوة والرسالة تكون في الإنس، والجن إنما يكون فيهم نُذُرٌ؛ وأما قوله تعالى: ﴿يَمَسُّنَ الْإِنسَ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فلا يلزم من ذلك أن يكون منهم رسل، وإنما من أحدهما وهم الإنس؛ كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْخَبْرَيْنِ قَلْبًا يَوْمَ لَا يَبْقَىٰ لِلَّذِينَ كَفَرُوا شَيْءٌ وَلَا يُنصَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، ثم قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْزَبَرُ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وإنما يخرج اللؤلؤ من أحدهما، وهو المالح دون العذب .

وقال آخرون: لا مانع من ذلك؛ فقوله تعالى: ﴿يَمَسُّنَ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ظاهره أن يكون من الجن رسل، وقالوا: إن القول في ﴿يَخْرُجُ

(١) انظر: «النبوات» لشيخ الإسلام (١٠٠٤/٢).

يَتَمَّا أَلُوهُ وَأَمَرَكَاتُ ﴿٢٢﴾ [الرحمن: ٢٢] ليس بصحيح؛ بل قد يخرج من العذب، والله أعلم بالصواب.

وأما كون النبي ﷺ مرسلًا إلى عموم الناس إلى يوم القيامة - العرب والعجم - ففي ذلك أدلة واضحة لا شك فيها كما سيأتي، فمن أنكر رسالة محمد ﷺ إلى عموم الناس أو قال: إنه رسول إلى العرب خاصة؛ فهو كافر؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سجدة: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ لِيُصْغِتَهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِتُذَكِّرَ بِهِ مَنِ اتَّبَعَ لَا يُزِلَّ اللَّهُ أَصَابًا وَلَا تَوَدُّهُ إِلَّا وَجْهًا لِّمَن لَّا يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَآءَ لَآئِينَ لِّلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ لِلَّهِ لَئِينَ شَهِدُوا﴾ [النساء: ٧٩]، وقال سبحانه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُبِّيٰ بِهِمْ أَنْ أَدْرِ النَّاسَ﴾ [يس: ٢] أي: جميعًا وعمومًا، وقال ﷺ في حديث صحيح: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١)، فهذه الأدلة تدل على عموم الرسالة.

وأما قول بعض النصارى: إن النبوة خاصة بالعرب فيقال لهم: إذا أثبتتم أنه رسول إلى العرب فيلزمكم أن تثبتوا أنه رسول الله إلى الناس عامة؛ ما دام أثبتتم أنه رسول؛ فالرسول لا يكذب، وقد أخبر أنه رسول الله إلى الناس كافة؛ فيلزمكم تصديقه وإلا فاكفروا؛ فالرسول لا يكذب؛ كما قال ﷺ: «قَالَ فَصَلُّوا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسَبِّ: أُعْطِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ، وَتُصَرِّثُ

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

بِالرُّغْبِ، وَأُجِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمِ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُزِيلَتْ إِلَيَّ الْخَلْقُ كَافَّةً، وَخُيِّمَ بَيْنَ النَّيْتَيْنِ»^(١).

فيلزمكم أن تؤمنوا كذلك بالقرآن؛ الذي نزل عليه؛ ما دام أنه رسول؛ وفيه نصوص واضحة في عموم رسالته إلى الناس كافة؛ فإذا لم تؤمنوا بالقرآن، ولم تصدقوه؛ كفرتم، وإن صدقتموه في أنه رسول؛ فصدقوا في إخباره بأنه رسول الله إلى الناس كافة.

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

الرسول هو المبعوث لعامة الجن والإنس بالحق والهدى

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (وَهُوَ الْمُبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى بِالْحَقِّ وَالْهُدَى وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ):

الشرح

• قوله: (وَهُوَ الْمُبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى)

أي: بُعِثَ كَافَّةً لِلنَّاسِ، وَكَافَّةً لِلْجِنِّ بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَالنُّورِ وَالضِّيَاءِ .
هذا وَصَفَ الشَّرْعَ لَهُ ﷺ أَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَالنُّورِ وَالضِّيَاءِ،
وَالْعِلْمَ النَّافِعَ؛ فَاللهُ تَعَالَى أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ: الَّذِي هُوَ الْمَطَابِقُ لِلرَّاقِعِ،
وَالْهُدَى: أَيِ: الْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي يَشْمُرُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَالنُّورَ: الَّذِي
يَسْتَضَاءُ بِهِ وَيُوَصِّلُ إِلَى اللَّهِ وَجَنَّتِهِ وَدَارِ الْكِرَامَةِ، وَالضِّيَاءَ: الَّذِي هُوَ أَبْلَغُ
مِنَ النُّورِ؛ كَمَا قَالَ -سُبْحَانَهُ تَعَالَى-: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ كَاسْتِئْثَارٍ لِّلنَّجْمِ
ثُكْرًا﴾ [يُونُس: ٥]، فَإِنَّ الضِّيَاءَ نُورٌ فِيهِ حَرَارَةٌ، وَالْقَمَرُ فِيهِ نُورٌ بَدُونِ حَرَارَةٍ،
وَالشَّمْسُ فِيهَا نُورٌ بِحَرَارَةٍ.

وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الشَّرْعَ فِيهِ نُورٌ وَضِيَاءٌ، وَحَرَارَةُ الشَّرْعِ الَّذِي بِهِ جَاءَ
مُحَمَّدٌ ﷺ نُورٌ فِيهِ بَيَانٌ وَإِضْاحٌ وَدَعْوَةٌ وَتَعْلِيمٌ وَبَيَانٌ حَقُّ اللَّهِ، وَفِيهِ حَرَارَةٌ
أَيْضًا: قُوَّةٌ وَقَمْعٌ لِّلْمُجْرِمِينَ، وَجِهَادٌ لِّلْكَافِرِينَ، وَإِقَامَةٌ لِّلْحُدُودِ؛ فَهُوَ نُورٌ
وَضِيَاءٌ.

القرآن كلام الله تعالى ليس بمخلوق

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ﷺ: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ؛ مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا،
وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا، وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا، وَأَيَّقَنُوا
عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ. فَمَنْ
سَمِعَهُ فَرَّغَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ
بِسَقَرٍ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأُثْبِتُ سَقَرَ﴾ [الْمُدَّثِّر: ٢٦]. فَلَمَّا
أَوْعَدَ اللَّهُ بِسَقَرٍ لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [الْمُدَّثِّر: ٢٥]
عَلِمْنَا وَأَيَّقْنَا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ وَلَا يُثْبِتُهُ قَوْلُ الْبَشَرِ):

الشرح

• قوله: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ):

بِالْكَسْرِ؛ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ الْمُتَعَدِّينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ:
إِنَّ اللَّهَ وَاجِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى... وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ
اللَّهِ) فَالْكَلِمَةُ مَعْمُولٌ قَوْلُ: «نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ
لَهُ»، وَنَقُولُ: «إِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى وَرَسُولُهُ»، وَنَقُولُ: «إِنَّ الْقُرْآنَ
كَلَامُ اللَّهِ».

فَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَصِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، تَكَلَّمَ بِهِ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى
نَبِيِّهِ وَحِيًّا، وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْبِدْعِ، وَلَيْسَ مَعْنَى قَائِمًا بِالنَّفْسِ؛
بَلْ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَكَلَّمَ بِهِ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ يُسْمَعُ؛ سَمِعَهُ جِبْرَائِيلُ، وَكَلَّمَ اللَّهُ
مُحَمَّدًا ﷺ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَسَمِعَ مُوسَى كَلَامَ اللَّهِ؛ هَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ

أتباع الرسل من أهل السنة والجماعة والصحابة والتابعين وأتباعهم^(١).

ومسألة الكلام مسألة عظيمة، وهي من الصفات العظيمة المشهورة التي اشد النزاع فيها بين أهل السنة والحق من ناحية، وبين المخالفين لهم من ناحية أخرى. ففي معنى كلام الله وحقيقة كلام الله: مذاهب للناس.

ولما كان النزاع فيها شديداً بين أهل السنة وأهل البدع؛ ولما كان الحق قد يلتبس بالباطل لكثرة من خاض في هذه المسألة؛ فلا بد من استعراض المذاهب فيها^(٢)، وبيان القول الحق الذي تشهد له الأدلة والنصوص، وتشهد له العقول السليمة والفطر المستقيمة، فالناس قد تنازعوا في كلام الله على مذاهب، لكن أبرز المذاهب في هذه المسألة: ثمانية مذاهب لأهل الأرض جميعاً؛ سبعة مذاهب باطلة، والمذهب الثامن هو القول الحق.

ومع كون هذه المذاهب الباطلة سبعة يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: هذه المذاهب السبعة هي النائعة بين الناس وبين فضلاء العالم، لا يعرفون غيرها مع بطلانها، وهذه المذاهب بعضها كفرية وبعضها مبتدعة.

المذهب الأول: مذهب الاتحادية.

المذهب الثاني: مذهب الفلاسفة.

المذهب الثالث: مذهب السالمية.

(١) انظر تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه الصفة الجلية في «التسعينية» لشيخ الإسلام - طبعة دار المعارف، و«مجموع الفتاوى» - المجلد (١٢)، و(٥٢/٥-٥٥٨).

(٢) انظر تلك المذاهب مبسطة ومرتبطة في «منهاج السنة» (٣٥٨/٢-٣٦٣).

المذهب الرابع: الكرامية.

المذهب الخامس: مذهب الكلائية^(١).

المذهب السادس: مذهب الأشعرية.

المذهب السابع: مذهب الجهمية والمعتزلة.

المذهب الثامن: مذهب أهل السنة والجماعة.

هذه أبرز مذاهب أهل الأرض جميعاً في معنى كلام الله، وهناك مذاهب أخرى لكنها ليست مشهورة.

المذهب الأول: مذهب الاتحادية:

وهم الذين يقولون بوحدة الوجود، وأن الوجود واحد، ومذهبهم في كلام الله: أنه كل ما يُسمع في الوجود، سواء أكان حقاً وصدقاً، أو باطلاً وكذباً، وزوراً وبهتاناً، وسواء أكان نظماً أو نثراً، وسواء أكان كلام الأعجميين، أو أصوات الطيور أو الحيوانات؛ فكله كلام الله، نعوذ بالله من ذلك.

كما قال زعيمهم ابن عربي الطائفي رئيس وحدة الوجود^(٢) في كتابه

(١) هم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، وهم يزعمون أن صفاته -تعالى- لا هي هو ولا غيره، ويقولون بأن الصفات لا تتفاير، وأن العلم لا هو القدرة ولا غيرها، وكذلك سائر الصفات، كما يقولون: إن أسماء الله هي صفاته، ولم يفرقوا بين صفات الذات وصفات الأفعال. انظر: «مقالات الإسلاميين» (١/٢٥٠، ٢٥٣) و(٢٢٥، ٢٢٧)، و«نهاية الإقدام» للشهرستاني (١٨١)، و«أصول الدين» لعبد القاهر البغدادي (٩٠).

(٢) هو أبو بكر أو أبو عبدالله محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائفي =

«الفتوحات المكية»^(١):

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نشره ونظامه وهذا المذهب مبني على مذهبهم في القول بوحدة الوجود؛ فإن مذهبهم أن الوجود واحد؛ فليست هناك موجودات، بل ليس هناك رب وعبد، ولا خالق ولا مخلوق؛ بل الوجود كله واحد؛ الرب هو العبد، والعبد هو الرب، والخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق؛ لا فرق بينهم؛ ولهذا يقول ابن عربي الطائفي^(٢):

الرب حق والعبد حق يا ليت شعري من المكلف إن قلت عبد فذاك ميت أو قلت رب أنى يكلف فالعبد هو الرب، والرب هو العبد فأيهما المكلف، إن قلت: عبد فذاك ميت وذاك نفي، وإن قلت رب أنى يكلف؟

= الأندلسي، المعروف بابن عربي، ولد سنة ٥٦٠هـ، من القائلين بوحدة الوجود، والملقب عند الصوفية بالشيخ الأكبر، والكبريت الأحمر وغير ذلك. له كتب: منها «الفتوحات المكية»، و«فصوص الحكم»، و«ديوان الشعر»، و«التعريفات». توفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ. انظر: «ميزان الاعتدال» (٦٥٩/٣، ٦٦٠)، و«الأعلام» (٦/٢٨١، ٢٨٢). وانظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٦/٦٢٩).

(١) ذكره في كتابه «الفتوحات المكية» (٤/١٤١)، ورد البيئ في المصدر المذكور هكذا:

ألا كل قول في الوجود كلامه سواء علينا نشره ونظامه (٢) ذكره في كتابه «الفتوحات المكية» (٢/١)، وفي «كتاب الجلالة» (ص ١٢) المطبوع ضمن رسائله، وقال في الكتاب المذكور في الصفحة نفسها: تعجبت من تكليف ما هو خالقي له وأنا لا فعل لي فأراء فيا ليت شعري من يكون مكلفاً وما نسم إلا الله ليس سواء

وقال أيضاً:

(رب مالك وعبد هالك، وأنتم ذلك)

وهؤلاء الاتحادية أكثر خلق الله، وهم منافقون زنادقة يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فهم في الدرك الأسفل من النار -نعوذ بالله من النفاق والمنافقين - والله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي أَلْذَرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (التوبة: ١٤٥) - نسأل الله السلامة والعافية - وليس بعد هذا كفر؛ لأنه إنكار كامل لوجود الله؛ وأصل هذا المذهب نشأ من إنكار مسألة المباشرة والعلو؛ أي: إنكار علو الله على الخلق، وإنكار مباينته للمخلوقات، لَمَّا قالوا: ليس منفصلاً عنها ولا مبيئاً لها، ولا فوقها، وقرروا هذه القاعدة الفاسدة التي هي أصل من أصولهم. والمقصود: أنهم منافقون زنادقة؛ يُظهرون الإسلام، ويخفون الكفر، ولهم مؤلفات تُحقق وتُنشر، ككتاب «الدرة» وغيره، توجد في كثير من الأقطار العربية، وتُطبع بورق صقيل، وخط واضح، ومن زعماء القائلين بوحدة الوجود: ابن عربي الذي له مؤلفات وكتب مشهورة منها: «الفتوحات المكية»، و«فصوص الحكم»، وله مؤلفات في الفقه أيضاً.

وهذا المذهب لم ينقرض؛ بل هو موجود ومنتشر؛ فهناك من يدافع عن ابن عربي إلى يومنا هذا ويقول: إنه معذور، بل إن هناك رجلاً في السودان على عهد النميري - أحد الحكام السابقين - يقال له «محمود محمد طه» ادعى أن الله قد خلّ فيه، وقال: إنه هو الله - والعباد بالله -، فهم من أكفر خلق الله، بل أكفر خلق الله. والعجيب أنهم - مع ذلك - يدعون أنهم أولياء الله وخاصته من خلقه.

فلا بد إذن من بيان مذهبهم حتى لا ينطلي على بعض الناس. فهؤلاء

لَمَّا أَتَوْا مِبَايِةَ اللَّهِ لَخْلَقَهُ وَعَلَوْهُ؛ صَارُوا بَيْنَ وَاحِدٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

الأمر الأول:

أَنْ يَقُولُوا: بَأَنَّ اللَّهَ مَعْدُومٌ؛ لَا وَجُودَ لَهُ صِرَاحَةً، وَهَذَا لَمْ يَسْتَسِيغُوهُ؛ لِأَنَّ النَّاسَ سَيَكْشِفُونَ كُفْرَهُمْ.

الأمر الثاني:

أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، وَلَا فَوْقَهُ وَلَا تَحْتَهُ، وَلَا مَغَايِرَ لَهُ، وَلَا مُحَايِثَ لَهُ، وَلَا مُتَصِلَ بِهِ، وَلَا مُتَفَصِّلَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ بِهَذَا الْجَهْمِيَّةُ الَّذِينَ نَفَوْا عَنْ اللَّهِ التَّقْيِيزِينَ، وَهَذَا أَيْضًا لَمْ يَسْتَسِيغُوهُ؛ قَالُوا: لِأَنَّ هَذَا غَيْرُ مُتَصَوِّرٍ.

القول الثالث:

- وهو الذي اختاروه -، أَنَّ اللَّهَ عَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَالْمَخَالِقُ هُوَ الْمَخْلُوقُ، وَكُلُّ مَا تَرَاهُ هُوَ الرَّبُّ. قَالَ ابْنُ عَرَبِي (سُرٌّ حَيْثُ شُتَّ فَإِنَّ اللَّهَ نَمٌّ، وَقُلُّ مَا شُتَّ بِهِ فَالْوَاسِعُ اللَّهُ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَرَاهُ هُوَ اللَّهُ، وَاللَّهُ هُوَ عَيْنُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ عَيْنُ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ، وَالشَّيْءُ لَا يَحَايِدُ نَفْسَهُ وَلَا يَنَاقِيهَا)، فَلَمَّا ثَبِتَ عَنْدهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَيْنَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، قَالُوا: إِنْ كُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ هُوَ كَلَامُهُ، سَوَاءٌ أَكَانَ حَسَنًا أَوْ قَبِيحًا، وَسَوَاءٌ أَكَانَ كُفْرًا أَوْ إِيمَانًا، وَكُلُّ اسْمٍ فَهُوَ لَهُ؛ حَسَنًا كَانَ أَوْ قَبِيحًا، وَكُلُّ صِفَةٍ -سَوَاءٌ أَكَانَتْ صِفَةً نَقْصٍ، أَوْ كَمَالٍ- فَهِيَ لَهُ؛ وَهَذَا مَذْهَبُ كُفْرِي شَدِيدٍ؛ بَلْ هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ كُفْرًا، كَفَى بِهِمْ كُفْرًا أَنْ يَقَالَ: كَيْفَ يَجْرُؤُ عَاقِلٌ أَنْ يَقُولَ: كُلُّ كَلَامٍ يُسْمَعُ فِي هَذَا الْوُجُودِ، كَلَامُ اللَّهِ مَعَ مَا فِي بَعْضِ هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْكُفْرِ وَالسَّبِّ وَالشَّتْمِ وَالْغَنَاءِ وَالْبَاطِلِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ؟!

فَهَؤُلَاءِ كُفْرَةٌ؛ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَلَا بِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا بِكِتَابِهِ، وَلَا بِرَسُولِهِ، وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ فَهَمَّ أَكْثَرُ النَّاسِ كُفْرًا.

وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا الْمَذْهَبِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنْ فِرْعَوْنُ مُصِيبٌ حِينَمَا قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَكْبَرُ﴾ [التَّحَارُغَات: ٢٤]، وَكَذَلِكَ: عُثَاذُ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ، يَكُونُونَ عَلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَكُلٌّ مِنْ عِبَدٍ شَيْئًا فَهُوَ مُصِيبٌ؛ فَمَنْ عِبَدَ النَّارَ فَهُوَ مُصِيبٌ، وَمَنْ عِبَدَ الصَّنَمِ فَهُوَ مُصِيبٌ، وَمَنْ عِبَدَ الْعَجَلِ فَهُوَ مُصِيبٌ، وَإِنَّمَا الْكُفْرُ عَنْدهُمْ التَّخْصِيسُ؛ فَلَا تَنَةَ أَحَدًا عَنْ عِبَادَةِ شَيْءٍ؛ فَإِذَا خَصَّصْتَ شَيْئًا، وَقَلْتَ: لَا يَجُوزُ عِبَادَةُ إِلَّا هَذَا الشَّيْءِ؛ فَهَذَا هُوَ الْكُفْرُ عَنْدهُمْ^(١).

وَإِبْنُ عَرَبِي يَقُولُ فِي إِحْدَى مُؤَلَّفَاتِهِ: إِنْ فِرْعَوْنُ مُصِيبٌ حِينَمَا قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَكْبَرُ﴾ [التَّحَارُغَات: ٢٤]، وَإِنَّهُ لَمَّا أَغْرَقَهُ اللَّهُ فَهَذَا الْإِغْرَاقُ تَطْهِيرٌ لَهُ؛ لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ الرَّبُّ وَحْدَهُ، وَهَذَا غُلَطٌ، وَيَقُولُ مُعَارِضًا لِكِتَابِ اللَّهِ: إِنْ مُوسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَمَّا أَخَذَ بِرَأْسِ هَارُونَ وَلَحِيَّتِهِ حِينَمَا عَبَدُوا الْعَجَلَ يَقُولُ إِنَّمَا كَانَ مُقْصُودُهُ: لِمَاذَا تَنَاهَاهُمْ عَنِ الْعَجَلِ وَهَمَّ عَلَى الصَّوَابِ؟^(٢).

وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا الْمَذْهَبِ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الزُّنَا وَالنِّكَاحِ، وَلَا بَيْنَ الْخَمْرِ وَالْمَاءِ، وَلَا بَيْنَ الْأُمِّ وَالْأَخْتِ وَالْأَجْنَبِيَّةِ؛ الْكُلُّ وَاحِدٌ، نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ .

(١) يَقُولُ ابْنُ عَرَبِي فِي «فُصُوصِ الْحُكْمِ» (ص ١٩٥): «وَالْعَارِفُ الْمَكْمُلُ مَنْ رَأَى كُلَّ مَعْبُودٍ مُجْلَى لِلْحَقِّ يُعْبِدُ فِيهِ، وَلِلَّذِكِّ سَمَوَهُ كُلَّهُمْ إِلَهًا مَعَ اسْمِهِ الْخَاصِّ: بِحَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ حَيَوَانٍ، أَوْ إِنْسَانٍ، أَوْ كَوْكَبٍ، أَوْ مُلْكٍ...».

(٢) انْظُرْ تَصْحِيحَ ابْنِ عَرَبِي لِعِبَادَةِ مَنْ عِبَدَ الْعَجَلَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فِي «الْفُصُوصِ» (١/ ٦٢ وَمَا بَعْدَهَا)، وَتَصَوُّبِهِ لِدَعْوَى فِرْعَوْنَ بِالرَّبُوبِيَّةِ فِي «الْفُصُوصِ» (١/ ١٩١-١٩٤)، وَانْظُرْ أَيْضًا «الْفُصُوصِ» (٢١٠/١ - ٢١١).

فلا بد أن يكون طالب العلم على حذر، وعلى إمام بهذا المذهب الخبيث الذي هو أكثر مذهب في الأرض؛ وبهذا القدر نكتفي لئلا نسترسل في الكلام.

المذهب الثاني: مذهب الفلاسفة وأتباعهم:

الفلاسفة المشأون ومن تبعهم من متكلم ومن متصوف كابن سينا^(١)، والفارابي^(٢)، وابن عربي، وغيرهم، هؤلاء الفلاسفة مذهبهم في كلام الله عز وجل: أنه فيض فاض من العقل الفعّال على النفس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها فحصل لها تصورات وتصديقات بحسب ما قبلت منه، فكلام الله ليس حرفاً ولا صوتاً، ولكنه معاني تفيض على النفوس الفاضلة الزكية، ويحصل لها تصورات وتصديقات بحسب ما قبلته من هذا الفيض.

وهذا المذهب في الكلام مبني على مذهبهم في القول بقدّم العالم، وأن العالم لازم لله أزلاً وأبداً؛ كلزوم الضوء للسراج. فلا يقولون: إن

(١) هو الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي شرف الملك الفيلسوف الرئيس، ولد سنة ٣٧٠هـ في إحدى قرى بخارى، كان هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين. من كتبه: «الشفاء»، و«الإشارات». توفي سنة ٤٢٨هـ. انظر: «لسان الميزان» (٢٩١-٢٩٣)، و«الأعلام» (٢٤١-٢٤٤)، و«الموسوعة العربية الميسرة» (١٩).

(٢) هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، أصله تركي، ولد سنة ٢٦٠هـ في «فاراب» على نهر جيحون، وانتقل إلى بغداد ونشأ فيها، سمي المعلم الثاني؛ لشرحه كتب أرسطو المعلم الأول. من كتبه: «مبادئ الموجودات»، و«إبطال أحكام النجوم»، وغيرها. قال ابن كثير: ولم أرَ الحافظ ابن عساكر ذكره في «تاريخه»؛ لنتته وقبحته. توفي سنة ٣٣٩هـ. انظر: «أخبار الحكماء» لابن القطيبي (١٨٢-١٨٤)، و«البداية والنهاية» (٢٥١/١١)، و«الأعلام» (٢٠/٧).

العالم حادث بل يقولون: إن العالم قديم كقدّم الله؛ وهذا المعنى إنكار لوجود الله، وأنه واجب الوجود بذاته، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء؛ فَيَبْتُؤُا على هذا الأصل، وهو القول بقدّم العالم؛ أن الكلام معنى يفيض على النفس الفاضلة الزكية فيحصل لها تصورات وتصديقات بحسب ما قبلت منه.

وأصل هذا: أنهم لم يؤمنوا بالرب الذي أخبر عن نفسه أنه الأول، وليس قبله شيء، والذي عرف اسمه الرسل، الفعال لما يريد، المنتصف بالصفات، القادر على كل شيء، المتكلم بقدرته ومشيتته؛ فلما لم يؤمنوا بالرب الذي وصف نفسه، وسمّاها بأسماء وصفات؛ قالوا: إن العالم قديم، ثم إن الكلام فيض فاض من العقل الفعّال.

وحقيقة هذا المذهب: الكفر بالله، وملأكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره والبعث والنشور، وبالجنة والنار؛ فهم كفره ملاحظة لم يؤمنوا برسله؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله رباً وإلهاً ومعبوداً بالحق، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه الغني بذاته، الذي لا يحتاج إلى أحد، وأن له الكمال في أسمائه وصفاته.

وهم يلتقون مع الاتحادية الذين يقولون: الوجود واحد؛ والعبد هو الرب، والرب هو العبد، وهؤلاء الفلاسفة يقولون: إن العالم قديم ولازم للرب، ولم يثبتوا رباً غنياً خالقاً قادراً بمشيئته، وقالوا: إن الرب هو أول هذا العالم، وهو المحرك له، وهو العلة الغائية لحركته، فهم بهذا يلتقون مع الاتحادية في الكفر والزندقة، نسأل الله السلامة والعافية.

ولكن العلماء يذكرون هذه المذاهب؛ لأن الملاحظة تستروا باسم الإسلام، وهم في حقيقة الأمر يظهرون الإسلام، ويطنون الكفر والإلحاد،

وكذلك الفلاسفة. فهناك من يظن من الناس أنهم على حق وصواب، وأنهم أهل علم، وأهل قواعد وأصول؛ فاغتر بهم كثير من الناس من أهل البدع، وظنوا أنهم على حق وصواب.

المذهب الثالث: مذهب السالمية^(١).

وهم أتباع محمد بن أحمد بن سالم، أبي عبد الله، وتبعهم بعض أتباع الأئمة الأربعة أو بعض من ينتسب للحديث، وذهبوا إلى أن كلام الله ألفاظ ومعاني وحروف وأصوات قديمة في الأزل لم تزل ولا تزال، ولا يقولون إن الكلام متعلق بقدرة الله ومشيتته، وما دامت الألفاظ قديمة؛ فالحروف التي تولف هذه الأصوات قديمة، وما دامت المعاني قديمة؛ فالحروف التي تتألف من هذه الألفاظ قديمة.

وهم يقولون: إن كلام الله نوعان:

• نوع يُسمَعُ بواسطة .

• ونوع يُشَمَّعُ بغير واسطة .

كما سَمِعَ مُحَمَّدٌ ﷺ كلام الله بواسطة جبرائيل، لكن الكلام وإن كان لفظاً ومعنى، وإن كان بحرف وصوت، إلا أنه قديم لم يزل ولا يزال، ولا

(١) هم أتباع محمد بن أحمد بن سالم، أبي عبد الله المتوفى سنة ٢٩٧هـ، وابنه الحسن أحمد بن محمد بن سالم المتوفى سنة ٣٥٠هـ، وقد تلمذ الابن على سهل بن عبد الله التستري. ومن أشهر رجال السالمية أبو طالب المكي صاحب كتاب «قوت القلوب» المتوفى سنة ٣٨٦هـ. ويجمع السالمية في مذهبهم بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة مع ميل إلى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية. انظر: «شذرات الذهب» (٣/٣٦)، و«اللمع» للسراج (٤٧٢-٤٧٦)، و«طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمى (٤١٤-٤١٦)، و«الفرق بين الفرق» لعبد القاهر البغدادي (١٥٧-٢٠٢).

يزال الرب يتكلم في القدم والأزل، وكلمات الرب مقترنة لا يسبق بعضها بعضاً؛ فالباء مع السين مع الميم كلها يتكلم بها الرب دفعة واحدة؛ هكذا يقولون.

وقالوا: إن الحروف إنما تُسمع متعاقبة بالنسبة لسمع الإنسان؛ وإلا فالحروف مقترنة، وشبهتهم في ذلك مبنية على أن الكلام -عندهم- لا بد أن يقوم بمتكلم، وأن الرب ليس محلاً للحوادث؛ قالوا: فلو قلنا: إن كلام الرب متعلق بقدرة ومشيتته؛ لصار محلاً للحوادث؛ بل يقولون: إن الكلام قديم في الأزل لم يزل ولا يزال، فمضى شاء الله تكلم بالحروف مقترنة.

ولهذا يسمونهم بـ«الاقترانية»؛ نسبة إلى الاقتران الذي ذكروا في الحروف، وأن الرب يتكلم بها دفعة واحدة، فقالوا لو قلنا: إن الحروف متعاقبة؛ لزم من ذلك: أن يحدث الحرف الثاني في ذات الرب، فيكون ذلك محلاً للحوادث، وهذا مذهب باطل.

وقولهم: إن الكلام ألفاظ ومعاني وحروف وأصوات قائمة بذات الرب؛ فهذا حق، لكن قولهم: إنه لا يتعلق بقدرة ومشيتته؛ فهذا باطل، فالرب لم يزل يتكلم، وكلامه قديم لكن ألفاظه لم تزل حادثة متعلقة بمشيتته؛ فهو يكلم جبريل، ويكلم الملائكة، ويكلم الأنبياء، ويكلم الناس يوم القيامة، فالقول بأنه لا يتعلق بقدرة ومشيتته، تعطيل للرب من الكمال وتنقص له - سبحانه -.

وكذلك قولهم: إن الحروف مقترنة، وأنه لا يسبق بعضها بعضاً، وأنها غير متعاقبة؛ هوتخليط وهذيان غير متصور، ومخالفة للجس، وليس معلوماً بالقطرة؛ لأن الكلمة إذا كانت مكونة من حرفين؛ فلا يمكن

للمتكلم أن يتكلم بالحرف الثاني إلا بعد الأول، ولا وجود للكلمة إلا بالتعاقب، وقولهم: إنه يلزم من ذلك أن تحدث الحروف في ذات الرب، فهذا باطل؛ لأن هذا يلزم بالنسبة للمخلوق، أما الخالق فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ لأن الرب لا يشابه المخلوقين لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله - سبحانه -.

المذهب الرابع: مذهب الكلائية:

وهم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، ويرون أن كلام الرب معنى قائم بنفس الرب ليس بحرف ولا صوت، ولا يمكن أن يُسمع، وهو لازم لذاته كلزوم السمع والبصر والعلم والحياة، وهو أربعة معاني في نفسه: الأمر والنهي والخير والاشتهاء.

وأما الحروف والأصوات؛ فهذه حكاية دالة على كلام الله وليست كلام الله، فليس في المصحف كلام بزعمهم، بل ما فيه إنما هو حروف وكلمات دالة على كلام الله، ليست هي كلام الله، فكلامه في نفسه لا يُسمع، والحروف والأصوات حكاية دالة عليه، وهذا المذهب مبني على أن الكلام لا بد من أن يقوم بالمتكلم، وعلى هذا: فإن الله ليس محلاً للحوادث؛ لأنه لو كان حرفاً وصوتاً؛ لكان محلاً للحوادث، كما قالوا: ليس بحرف ولا صوت، وإنما هي حكاية دالة عليه.

ومناقشة هؤلاء الكلائية نقول:

أولاً: أنتم تقولون: إن الحروف والأصوات حكاية عن كلام الله؛ فحكاية الشيء إنما تكون بالإتيان بمثل الشيء؛ من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقديم ولا تأخير؛ تقول: حكيت الحديث بعينه؛ تريد أن الرواية مطابقة للحديث من غير زيادة ولا نقص، والحروف والأصوات ليست مطابقة

للمعنى القائم بنفس الرب فكيف يقال: إنها حكاية لكلام الله؟!
ثانياً: لو كانت الحروف والأصوات حكاية عن كلام الرب كما تزعمون؛ فلزم من ذلك أن تكون صفات الله محكية، وله مثل وشبيه، والله ليس له مثل ولا شبيه.

ثالثاً: لو كانت الحروف والأصوات حكاية عن كلام الله؛ لأتى الناس بكلام مثل كلام الله، وحينئذ أين عجزهم عن الإتيان بمثله؟ وقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَبْصِرُ ظُهُورَهُمْ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال أيضاً: ﴿لَمْ يَخْلُقْ أَفَرَقَهُ قُلُوبُهُمْ فَأُولَئِكَ يُشْرِكُونَ إِنِّي وَادُّعَا مَنِ اسْتَكْبَرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كُفْرَهُمْ صَدِيقٌ﴾ [الزمر: ١٦٨] [ابن: ٢٣٨].

ورابعاً: لو كانت الحروف والأصوات حكاية عن كلام الله؛ للزم عليه أن يُحكي بحرف وصوت ما ليس بحرف ولا صوت.

وعلى هذا يتبين بطلان هذا المذهب.

المذهب الخامس: مذهب الأشاعرة^(١)

وهم أتباع أبي الحسن الأشعري يقولون: إن الكلام معنى قائم بنفس

(١) وينسبون إلى أبي الحسن الأشعري، ويقولون بإثبات سبع صفات فقط؛ لأن العقل دل على إثباتها، وهي السمع، والبصر، والعلم، والكلام، والقدرة، والإرادة، والحياة، وقالوا بأن كلام الله هو المعنى القائم، وهو قائم بالذات يستحيل أن يفارقه، والعبارة والحروف دلالات على الكلام الأزلي، وعندهم أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والعمل والإقرار من فروع الإيمان لا من أصله، وقد رجع أبو الحسن الأشعري عن قوله في الأسماء والصفات. انظر: «الملل والنحل» (١/ ١١٩)، و«رسالة في الرد على الرافضة» (١٦٦).

الرب وهو بمعنى واحد؛ ليس بحرف ولا صوت، وهو لا يُسمع، لكنه معنى واحد وشيء واحد، وهو لا يتنوع لأربعة أشياء كما يقول الكلاية .

فهم يقولون بأن الكلام معنى واحد؛ لا يتعدد ولا يتبعض، ولا يتجزأ، ولا يتكثر، بل هو معنى واحد، والحروف والأصوات عبارة دالة عليه؛ فهذا يقول حكاية، وهذا يقول عبارة، وكونه أمراً ونهياً وخبراً واستفهاماً فهذه الصفات إضافية لهذا المعنى الواحد، ولكنها ليست أنواعاً بل صفات إضافية لذلك النوع الواحد؛ فيكون الخطاب أمراً بالإضافة، ونهياً بالإضافة، وخبراً بالإضافة، واستفهاماً بالإضافة؛ فهي صفة إضافية كما أن الإنسان له صفات إضافية، فأنت شخص واحد توصف بأنك أب بالإضافة إلى أبنائك، وتوصف بأنك ابن بالإضافة إلى آبائك، وتوصف بأنك خال بالنسبة لأولاد الأخت .

وقوله: تورا وإنجيل وقرآن وزبور، قالوا: هذا تقسيم للعبارة؛ للدلالات لا للمدلول، فالمدلول واحد، وهو المعنى القائم بنفس الرب؛ بحسب العبارة؛ لكن إن عبرت عنه بالعربية؛ فهو القرآن، وإن عبرت بالعبرانية؛ فهو التورا، وإن عبرت عنه بالسريانية؛ فهو الإنجيل، وإن عبرت عنه بالداودية؛ فهو الزبور، وهو شيء واحد، ومعنى واحد فقالوا: إن الحروف تفسير بالنسبة للدلالات والعبارات؛ فالحروف والأصوات عبارة دالة عليه.

وبعضهم يرى أنه لا فرق بين مذهب الكلاية والأشاعرة، فبعض الأشاعرة يقول: إن المذهب واحد؛ لأن كلاً من المذهبين يتفق على أن الكلام معنى قائم بنفس الرب، واففقوا على أن الحروف والأصوات دالة على كلام الرب؛ فتكون الكلاية قالوا: «حكاية»، والأشاعرة قالوا:

«عبارة»، فمذهب الأشاعرة والكلاية متقاربان، ومذهب الأشاعرة - يزعم أصحابه - هو المذهب الذي يكاد يقنع العقل، وهم يسمون أنفسهم بأهل السنة والجماعة!!

وفي بعض الأزمنة عُمّت هذه التسمية عليهم، ولم ينبج إلى الحق والهدي إلا طائفة قليلة، ولذا: كان من المهم أن تُعرّف مذهب الأشاعرة، وتبين بطلانه للناس .

المذهب السادس: مذهب الكراوية^(١)

وكان الترتيب أن يكون قبل مذهب الكلاية والأشاعرة. وهم أتباع محمد بن كرام، وهم يقولون: إن كلام الله حروف وأصوات وألفاظ ومعان قائمة بذات الرب، متعلق بمشيئته وقدرته، فهو يتكلم متى شاء إن شاء، إلا أن الكلام حادث في ذاته؛ فكان الكلام ممتنعاً عن الرب؛ لا يقدر عليه، ثم انقلب فجأة فصار ممكناً.

فقولهم: إن كلام الرب ألفاظ ومعان وحروف وأصوات قائم بذاته، ومتعلق بقدرته ومشيئته؛ فهذا حق، وهو موافق لأهل السنة والجماعة، لكن

(١) وهي إحدى فرق المرجئة، وسموا بذلك نسبة إلى محمد بن كرام من أهل سجستان، وهم يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ مؤمنين على الحقيقة، وزعموا أن الكفر بالله هو جحوده وإنكاره باللسان، وهم فرق: الطريقة، والإسحاقية، والعابدية، والهيصمية، وغيرها، وكانوا يشبّهون الصفات إلا أنهم يتنزهون فيها إلى التجسيم والتشبيه. انظر: «مذاهب الإسلاميين» للدكتور عبد الرحمن بدوي: (٢٢٣/١)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين» (١٠١)، و«الملل والنحل» (١/١٤٤)، و«رسالة في الرد على الرافضة» (١٦٣-١٦٥).

قولهم: إن كلام الرب حادث في ذاته؛ فهذا باطل، وقولهم: إن الكلام كان ممتنًا عن الله، ثم انقلب فجاء فصار ممكنًا، فكانت هناك فترة لا يقدر أن يتكلم فيها؛ فهذا مبني على أن القول بأن الكلام قديم يوجب أن تتسلسل الحوادث والموجودات.

قالوا: لو قلنا بأن كلام الرب قديم ليس حادثًا للزم التسلسل في الحوادث والموجودات، ولو أردنا إثبات أولية الرب، فلا نستطيع أن نثبت أن الله هو الأول وليس قبله شيء، ولا انسُدَّ علينا هذا الباب؛ ففرارًا من ذلك قالوا: إن الكلام كان ممتنًا على الرب، ثم انقلب فجاء فصار ممكنًا؛ وهذا باطل من وجوه:

أولاً: أن الرب موصوف بالكمال؛ والكلام صفة الرب؛ فالكلام صفة كمال؛ فكيف يخلو الرب من هذا الكمال في وقت من الأوقات؟! فإذا خلا من الكمال: صار ذلك نقصًا، والله منزّه عن كل نقص.

وكيف يكون كلامه ممتنًا ثم يصير ممكنًا؟! فإذا كانت حال الرب سواء، ولم تتجدد له صفة الكلام؛ فكيف يكون الكلام ممتنًا كما قالوا؟! وما الذي جعله ينقلب من الامتناع إلى الإمكان؟!

ثانياً: القول بأن الطريق ينسد بإثبات الأولية، نقول: لا ينسد بالله هو الأول، وليس قبله شيء، وهو قائل - سبحانه وتعالى -، ويتكلم ويخلق بالكلام؛ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون، وكل فرد من أفراد المخلوقات مسبوق بالعدم، خلقه الله بقدرته ومشيتته بعد أن كان معدومًا، وإذا وُصِف كل فرد من المخلوقات بهذا؛ فلا يلزم من ذلك أن تكون هناك فترة يُعْطَل فيها الرب.

المذهب السابع: وهو مذهب الجهمية:

وتلقته منهم المعتزلة فنُسب إليهم، ومن أجل ذلك يقال «مذهب الجهمية، ومذهب المعتزلة»، وهو القول: بأن كلام الرب ألفاظ ومعان وحروف وأصوات، وهو متعلق بقدرته ومشيتته، إلا أنه مخلوق، خارج عن ذاته، فصار به متكلّمًا.

فقولهم: إن كلام الرب ألفاظ ومعان وحروف وأصوات متعلق بقدرته ومشيتته؛ فهذا حق ولكن قولهم: إنه مخلوق فهذا باطل؛ قالوا: إن الله - تعالى - لما نادى موسى من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة قالوا: إن الله خلق الكلام في الشجرة فهي التي قالت: ﴿إِذْ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ (الفص: ٣٠)، فالكلام - قالوا - مخلوق خارج ذاته، وإن كان ألفاظًا ومعاني وحروفًا وأصواتًا بمشيتته. وهذا المذهب مبني على نفي الصفات عن الرب لما يقتضيه إثبات الصفات عندهم من التشبيه والتجسيم، ومثابهة المخلوقات؛ ففرارًا من ذلك نفوا الصفات.

فهذه سبعة مذاهب، وكلها باطلة وهي التي تدور في العالم. لكن هذه المذاهب ليست منتشرة انتشارًا كبيرًا، وقد رددنا عليها، وأكثر المذاهب انتشارًا هو مذهب الأشاعرة والكلابية؛ ويكادان يكونان مذهبًا واحدًا، حتى إن كثيرًا من الفقهاء وغيرهم ينتحلون مذهب الأشاعرة؛ فالفقهاء من الحنابلة وغيرهم، وكثير من الأحناف مذهبيهم أشعري، حتى صاحب «الروض المربع» قال أول ما بدأ في الشرح: «بسم الله الرحمن»؛ ففسر الرحمة بالإنعام، على طريقة الأشاعرة، والإنعام ليس الرحمة، وقد يوافقهم بعض المُحَدِّثِينَ في بعض الأمور كالحافظ ابن حجر رحمه الله، فبعض الصفات أُولَّهَا على طريقة الأشاعرة: كالغضب والرضا والكلام، وكذلك

النوي رحمه الله في شرح «صحيح مسلم» يؤزل الصفات على طريقة الأشاعرة. والسبب في هذا: أن هؤلاء العلماء الفطاحل المحذنين، لم يؤفقوا لمن يُشكُّهم على معتقد أهل السنة والجماعة في سن الطلب؛ فظنوا أن ما هم عليه هو الحق.

فالحلاصة: أن لهم أفعالاً عظيمة في خدمة الإسلام، لكن هذه الأخطاء صدرت منهم عن اجتهاد لم يتعمدوها، فإذا كان هؤلاء العلماء الفطاحل الكبار وقعوا في الخطأ ولم يهتدوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة؛ فلذلك: كان لا بُدَّ من توضيح المحجة، وإقامة الحجة، فطالب العلم يُشكِّي عليه أن يزل، ولكن مذهب أهل السنة والجماعة اليوم هو أكثر المذاهب انتشاراً والحمد لله.

المذهب الثامن: مذهب أهل السنة والجماعة:

وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، والأئمة وأتباعهم، فهم أتباع الرسل، ومذهبهم في كلام الرب: أن الله موصوف بالكلام، وأن الكلام من صفاته الذاتية؛ لانصافه به في الأزل؛ فانه تعالى موصوف بالكلام أزلاً وأبداً، وكذلك هو من صفاته الفعلية لكون الكلام بمشيئة الرب واختياره؛ ولأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المُمَيَّن قديماً، ومن صفاته الفعلية؛ لأن الله يتكلم بقدرته ومشيبته، ويتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء سبحانه.

وأن كلام الله ألفاظ ومعاني بحرف وصوت يُسمَع، وأن كلام الرب - سبحانه وتعالى - ليس حالاً في المخلوقات ولا متحداً بهم، بل الرب بائن بذاته وصفاته من خلقه منفصل عنهم، والقرآن كلام الله لفظه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، وأمّا ألفاظ

العباد وأصواتهم وحركاتهم وأدائهم وأفعالهم؛ فكل ذلك مخلوق بأمر الله عز وجل.

هذه المذاهب الثمانية هي أبرز المذاهب في كلام الرب، وهذه المذاهب تدور على أصلين:

الأصل الأول: هل كلام الرب واقع بمشيئته واختياره أو بغير مشيبته واختياره؟!

اختلفوا في ذلك:

فقال بعضهم: إن كلام الرب واقع بغير مشيبته واختياره، وهم أربع طوائف:

الأولى: قالت: إن كلام الرب واقع بغير مشيبته واختياره، وهو معنى يفيض منه على نفس شريفة تتكلم به؛ وهم الفلاسفة.

الثانية: قالت: إن كلام الرب معنى قائم به، وهو ألفاظ ومعان وحروف وأصوات قديمة في الأزل لم تزل ولا تزال؛ وهم السالمية.

الثالثة: قالت: إن كلام الرب واقع بغير مشيبته واختياره، وهو معنى قائم بنفسه، جامع لأربعة معان: هي الأمر والنهي والخبر والاستفهام؛ وهم الكلاية.

الرابعة: قالت: إن كلام الرب معنى قائم بنفسه، وهو واحد لا يتبعض ولا يتعدد ولا يتكرر؛ وهم الأشعرية.

وقال بعضهم: إن كلام الرب واقع بمشيئته واختياره، وهم أربع طوائف:

الأولى: قالت: إن كلام الرب واقع بمشيئته واختياره؛ وهو الذي

يتكلم به الناس كلهم، وهو يُسمع من جميع الناس؛ وهم الاتحادية.

الثانية: قالت: إن كلام الرب واقع بمشيئته واختياره، وهو ألفاظ ومعان وحروف وأصوات، إلا أنه حادث في ذاته، كائن بعد أن لم يكن؛ وهم الكرامية.

والثالثة: قالت: إن كلام الرب واقع بمشيئته واختياره، وهو ألفاظ وحروف ومعان وأصوات، إلا أنها مخلوقة خارجة عن ذاته؛ وهم الجهمية والمعتزلة.

والرابعة: قالت: إن كلام الرب قائم بذاته، واقع بمشيئته واختياره، وهو قديم النوع حادث الآحاد، بحرفٍ وصوت يُسمَع؛ وهم أهل السنة والجماعة.

أما الأصل الثاني: هل كلام الرب قائم بذاته ومتصف به أو هو خارج عن ذاته ومنفصل عنه؟! واختلفوا فيه كالتالي:

فقال بعضهم: إن كلام الرب خارج عن ذاته ومنفصل عنه، وهم ثلاث طوائف:

قالت طائفة: إن كلام الرب خارج عن ذاته ومنفصل عنه، وهو معانٍ تفيض على النفوس الفاضلة الزكية؛ وهم الفلاسفة.

وقالت طائفة: إن كلام الرب خارج عن ذاته ومنفصل عنه، وهو الذي يتكلم به الناس كلهم؛ حقّه وباطله؛ وهم الاتحادية.

وقالت طائفة: إن كلام الرب خارج عن ذاته ومنفصل عنه، وهو هذه الحروف والأصوات خلقها خارجة عن ذاته فصار بها متكلمًا؛ وهم الجهمية والمعتزلة.

وقال بعضهم: واقع بذاته متصف به؛ وهم خمس طوائف:

قالت طائفة: إن كلام الرب قائم بذاته متصف به، وهو ألفاظ ومعان وحروف، والأصوات لم تزل ولا تزال؛ وهم السالمية.

وقالت طائفة: إن كلام الرب قائم بذاته ومتصف به؛ وهو ألفاظ ومعان وحروف وأصوات، إلا أنه حادث في ذاته، كائن بعد أن لم يكن؛ وهم الكرامية.

وقالت طائفة: إن كلام الرب قائم بذاته ومتصف به، وهو معنى جامع لا معانٍ لها هي؛ الأمر والنهي والخبر والاستفهام؛ وهم الكلاية.

وقالت طائفة: إن كلام الرب قائم بذاته ومتصف به وهو معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض ولا يتجزأ ولا يتكثر؛ وهم الأشاعرة.

وقالت طائفة: إن كلام الله قائم بذاته ومتصف به وهو قديم النوع حادث الآحاد؛ وهم أهل السنة والجماعة.

فتبين بهذا أن هذه المذاهب ترجع لهذين الأصلين.

والذين أثبتوا الصوت في كلام الله؛ خمس طوائف:

الأولى: قالت: إن كلام الله بصوت وهو الذي يتكلم به للناس كلهم؛ وهم الاتحادية.

الثانية: قالت: إن كلام الله بالصوت، وهذه الحروف والأصوات خلقها خارجة عن ذاته فصار بها متكلمًا؛ وهم الجهمية والمعتزلة.

الثالثة: قالت: إن كلام الله بالصوت حادث في ذاته كائن بعد أن لم يكن، وهم الكرامية.

الرابعة: قالت: إن كلام الله بصوت، وهو ألفاظ ومعاني لم تزل ولا تزل في الأزل؛ وهم السالمة.

الخامسة: قالت: إن كلام الله بالصوت قديم النوع وحادث الأحاد؛ وهم أهل السنة والجماعة.

والذين لم يثبتوا الصوت ثلاث طوائف:

الأولى: قالت: إن كلام الله ليس بصوت، وهو معنى يفيض على النفس الشريفة فتتكلم بها؛ وهم الفلاسفة.

الثانية: قالت: إن كلام الله ليس بحرف ولا صوت، لكنه معنى جامع لأربعة معان: الأمر والنهي والخبر والاستفهام؛ وهم الكلاية.

الثالثة: قالت: إن كلام الله ليس بصوت، وهو معنى واحد لا يتجزأ ولا يتعدد ولا يتعض ولا يتكثر؛ وهم الأشاعرة.

مسألة:

الصوت المسموع من كلام الله - تعالى - هل يقال: إنه مخلوق أو غير مخلوق؟

الجواب:

هذا فيه تفصيل؛ إن أُريدَ به الصوت المسموع عن الله، فهذا كلام غير مخلوق، وإن أُريدَ به الصوت المسموع عن المُنْبَغِ فهذا مخلوق.

مسألة:

وُسِّمِيَ الكلام هل هو اللفظ أو المعنى؟

الجواب:

اختلفوا فيه:

فقال بعضهم: إن مُسَمَّى الكلام حقيقة في المعنى، مجاز في اللفظ؛ وهم الأشاعرة.

وقيل: إن الكلام حقيقة في اللفظ، مجاز في المعنى، وهذا مذهب المعتزلة.

وقيل: إن الكلام حقيقة في كُلِّ من اللفظ والمعنى، فإطلاقه على المعنى وحده حقيقة، وإطلاقه على اللفظ حقيقة، فهو مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات، وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات^(١)، وهذا مذهب أبي المعالي الجويني.

وقيل إن الكلام حقيقة في اللفظ والمعنى على سبيل الجواز؛ فإطلاقه على أحدهما إطلاقه على جزء معناه، وإطلاقه عليهما على سبيل الجمع؛ إطلاق على كل معناه.

وهذا هو الذي عليه أكثر العقلاء وهو الصواب في مَسَمَّى الكلام.

حقيقة مذهب أهل السنة والجماعة في كلام الرب عز وجل:

(١) انظر: «منهاج السنة» (٣٦٣/٢)، و«مجموع الفتاوى» (١٦٧/١٢). قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «درء التعارض» (٣٢٩/٢): «والناس لهم في مَسَمَّى الكلام أربعة أقوال: أحدها: أنه اللفظ الدال على المعنى، والثاني: أنه المعنى المنقول عليه باللفظ، والثالث: أنه مقول بالاشتراك على كل منهما، والرابع: أنه اسم لمجموعهما، وإن كان مع القرينة يراد به أحدهما؛ وهذا قول الأئمة وجمهور الناس».

أن كلام الله محفوظ في الصدور، مقروء بالأسنان، مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، معلوم في القلوب، مقروء مسموع بالأذان، وهو في هذه المواضع كلها حقيقة.

فإذا قيل: في المصحف كلام الله؛ فهم منه معنى حقيقي، وإذا قيل: فيه مداد كتب به، فهم منه معنى حقيقي، وإذا قيل: في المصحف خط فلان الكاتب؛ فهم منه معنى الحقيقية.

وإذا قيل: المداد في المصحف؛ فالظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قولك: فيه السموات والأرض، وفيه محمد وعيسى؛ وهي غير الظرفية المفهومة من قولك: فيه خط فلان الكاتب، وهي غير الظرفية المفهومة من قولك: فيه مداد كتب به، وهي غير الظرفية المفهومة من قولك: في المصحف كلام الله.

هذه كلها حقائق؛ فالمصحف فيه كلام الله، وفيه خط فلان، وفيه مداد كتب به، وفيه محمد وعيسى؛ يعني: ذكر محمد وعيسى، وفيه السموات والأرض أي: ذكر السموات والأرض.

ومن لم ينتبه لهذه الفروق ضل ولن يهتدي إلى الصواب، وكذلك لا بد من الانتباه للفرق بين القراءة والمقروء؛ فالقراءة فعل القارئ، والمقروء كلام الرب.

وقد استدلل الإمام البخاري رحمه الله في كتابه «الصحیح» على أن أفعال العباد مخلوقة، واستدل بنصوص التبليغ كقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَمَا يَكُنْ لَّكُمْ سُلْطَانٌ عَلَيْهِمْ سَآتِرَةً﴾ [النساء: ٦٧]، وقوله: ﴿إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٢٤٨]، وهذا من رسوخه في العلم، فإن ذلك يتضمن أصليين عظيمين ضل فيها أهل الزيغ:

الأصل الأول: أن المبلغ ليس له من الكلام إلا مجرد التبليغ فليس مُنْشِئًا ولا مُخَوِّئًا للكلام؛ إذ لو كان الكلام من عنده لكان مُنْشِئًا مُخَوِّئًا للكلام ولم يكن مبلغًا؛ فالمبلغ إنما يبلغ كلام غيره؛ فإذا قرأت: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَىٰ»^(١) تقول هذا كلام الرسول، ولا تقول إنه كلامك، وإذا قرأت قول امرئ القيس:

فما نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول
تقول: هذا كلام امرئ القيس؛ لأنك أنت المبلغ عنه، فالمبلغ إنما يبلغ كلام غيره.

الأصل الثاني: أن التبليغ فعل المبلغ؛ وحقيقته أن يورد إلى الموصل إليه ما حمله إليه غيره، فله مجرد التبليغ، وقد ترجم الإمام البخاري رحمه الله في «الصحیح» في كتاب التوحيد باب قراءة الفاجر والمنافق لا تجاوز حناجرهم، أراد من ذلك أن أفعال العباد وقراءتهم وأصواتهم مخلوقة، وأنهم يقرءون كلام الله بأصواتهم، فأصواتهم وقراءتهم هي أفعالهم، والمقروء كلام الله.

وحقيقة كلام الله الخارجية هي ما يسمع منه أو من المبلغ عنه، كما سمعه جبرائيل، وكما سمعه نبيينا محمد ﷺ، وكما سمعه موسى، وكما يسمعون نص كلام الله يوم القيامة، فإذا سمعه السامع فكلام الله له مسموع، وإذا علمه وحفظه فكلام الله له محفوظ، وإذا قرأه فكلام الله له مقروء، وإذا كتبه فكلام الله له مكتوب، وهو حقيقة في هذه المواضع كلها؛ لا يصح نفيها، ولو كان مجازًا لصح نفيه.

(١) أخرجه البخاري (١) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولو كان مجازاً لقل: ما قرأ القارئ كلام الله، وما كتب الكاتب كلام الله، وما سمع السامع كلام الله، أو ما حفظ الحافظ كلام الله، وهذا حق؛ لأن هذا فيه خطأ، فهو حقيقة في هذه المواضع كلها.

والفرق بين كون القرآن في زبر الأولين - أي: في كتب الأولين - وبين كون القرآن في لوح محفوظ، وفي كتاب مكنون، وفي رق منشور واضح؛ فإن معنى: ﴿وَلَقَدْ لَبِئْسَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] أي: ذكره ووصفه والإخبار عنه، فالقرآن في الإنجيل والتوراة؛ أي: ذكره وخبره، وليس المراد أن القرآن نزل في التوراة والإنجيل؛ لأن القرآن إنما أنزله الله على محمد ﷺ كما أن فيه خبر النبي ﷺ.

وأما ما ترى من قوله - تعالى -: ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطه: ١٣]، و﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البزج: ٢٢]، و﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الرافعة: ٧٨]؛ أي: مكتوب فيه؛ ولهذا قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله في رسالة سماها «الفقه الأكبر»^(١) قال ما معناه: وكلام الله في المصاحف مكتوب، وعلى الألسن مقروء، وفي القلوب محفوظ، وعلى النبي ﷺ منزل، ولفظنا في القرآن مخلوق، والقرآن غير مخلوق، وما ذكر الله في القرآن عن موسى - عليه الصلاة والسلام - وعن إبليس وفرعون فهذا إخبار عنهم، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق.

وكلام الله ليس ككلام المخلوقين، يُعْلَمُ لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرويتنا، ويتكلم لا ككلامنا، أو كما قال رحمه الله.

والأدلة على ثبوت كلام الرب عز وجل، وأن الله يتكلم بحرف

(١) انظر: «الفقه الأكبر» للإمام أبي حنيفة، مع شرحه؛ للملا علي القاري (٤٧-٥٨).

وصوت، وأن الله موصوف بالكلام؛ كثيرة منها: تكليم الله - سبحانه وتعالى - لأتباعه ورسله، وكلام الله مع أهل الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

ومن السنة: ما ثبت في الحديث الذي رواه ابن ماجه: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَيِّبِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَزَعَوْا رُءُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ قُوفِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، قَالَ: وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ). قَالَ: فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النِّعَمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ، وَيَبْقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ»^(١)، أو كما جاء في الحديث، والحديث وإن كان فيه ضعف، إلا أن له شواهد.

ومن الأدلة على أن الله يتكلم، وأن الكلام قائم به: قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ يَنْتَزِعُونَ يَمْهَدُ اللَّهُ لَهُمْ سُرًّا قَلِيلًا أَلْوَيْتُكَ لَا تَخْلُقُ لَهُمْ فِي

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤) واللفظ له، والبخاري كما في «مجمع الزوائد» (٤٧٨/٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠٨/٦-٢٠٩)، وابن عدي في «الكامل» (١٣/٦)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، والحديث ضعفه غير واحد من أهل العلم؛ قال البوصيري في «مصابيح الزجاجة» (٢٦/١): «هذا إسناد ضعيف؛ لضعف الفضل بن عيسى بن أبيان الرقاشي». وبالفضل هذا أعلى الهيثمي الحديث، كما في «مجمع الزوائد» (٤٧٨/٦)، و(٩٨/٧). وحكم عليه ابن الجوزي بالوضع كما في كتاب «الموضوعات» (٤٣٢/٢)، لكن قال ابن عراقي في «تنزيه الشريعة» (٣٨٤/٢) - بعد أن أوردته: - «... وأورده الشيخ تقي الدين ابن تيمية في رسالته أن النساء يرين الله تعالى في الدار الآخرة، وأعله بالفضل الرقاشي ثم قال: (وقد روينا من طريق أخرى) فذكرهما، ثم قال: (وهذه الطريق تنفي أن يكون الفضل قد تغرد به. والله تعالى أعلم). وانظر كلام ابن تيمية في «مجمع الفتاوى» (٤٤٩/٦).

الْأَجْسَدَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَلَا تُرْجَعُ إِلَيْهِمْ وَاُولَئِكَ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ [آل عمران: ٧٧] ونفى التكليم عن أعدائه؛ فقال: (لا يكلمهم) أي: لا يكلمهم الله تكليم الرضا؛ بل يكلمهم كلام السخط والغضب، كما أخبر الله أنه يكلم أهل النار ويقول: ﴿لَنْ تُحْشَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

ونفى الكلام عن أعداء الله؛ يدل على أن الله يكلم عباده، ولو كان لا يكلمهم لتساووا هم وأعداؤه في عدم الكلام، أي لو كان لا يكلم أعداءه لسخطه عليهم؛ فهو يكلم أولياءه لرضاه عنهم.

ومن الأدلة: قول النبي في الحديث الصحيح: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»^(١)، «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامَاتِ الَّتِي لَا يَمَاجُزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»^(٢)، فالنبي ﷺ استعاض بكلمات الله؛ فدل على أن كلام الله غير مخلوق - كما تقول المعتزل -؛ لأن النبي ﷺ لا يستعبد بمخلوق.

فالبخاري رحمه الله يثبت في «صحيحه»: باب كلام الرب مع أهل الجنة وغيرهم، وذكر فيه عدة أحاديث^(٣).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها، و (٢٧٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤١٩/٣)، وأبو يعلى (٦٨٤٤)، وابن السني في «اليوم والليلة» (١٣٧) وغيرهم من طرق عن جعفر بن سليمان، عن أبي التياح، عن عبد الرحمن بن خنيس رضي الله عنه، وجعفر لا يحتمل تفريده، لكن جود العراقي إسناده كما في تخريج «إحياء علوم الدين» (٢٣/١)، وقد ورد هذا الحرف أيضاً من حديث قبيلة بنت شحرمة رضي الله عنها عند الطبراني في «الكبير» (١٢/٢٥)، بإسناد حسنه الحافظ المهيمن في «مجمع الزوائد» (١٠/١٢٥). وفي الباب أيضاً عن خالد بن الوليد، وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «فتح الباري» (٤٨٨/١٣) وما بعده.

ومن الأدلة العقلية على أن الرب يتكلم والكلام قائم به: أن الكلام صفة كمال، والرب - سبحانه وتعالى - لا يخلو من الكمال فلا بد أن يتصف الرب بالكلام، فالكلام صفة كمال، فلا يخلو الرب من هذا الكمال، وعدم الكلام نقص ينزه عنه الرب؛ كما قال الله - تعالى - عن العجل وعبيده: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ عِيقِهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خَوَارُ أَكْثَرُ بَرزاً أَنَّهُ لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، وقال في الآية الأخرى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا تَمْلِكُ لَهُمْ حَرَكٌ وَلَا قَمَقًا﴾ [طه: ٨٩].

فعلم أن عدم الكلام نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل؛ فالعجل لم يتكلم، كما قال الله - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩]، وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكَلِّمُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

فنفي رجوع القول؛ يدل على عدم ألوهية العجل، وبنو إسرائيل سكتوا ولم يقولوا: إن الله لا يتكلم، فهم في هذه الخصلة، أحسن من المعتزلة الذين قالوا: إن الله لا يتكلم، وإن الكلام مخلوق.

ومن الأدلة على أن كلام الله قديم النوع حادث الأحاد:

قول الله - تعالى -: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَتَمَّعُوا بِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [الأنبياء: ٢]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ آيَاتِنَا مُحَدَّثٍ﴾ [الحشر: ٥]، فقوله: ﴿مُحَدَّثٍ﴾ صريح في حدوث آحاد كلام الله، ولا يفهم من ذلك أن تحمل الحوادث في ذات الرب؛ لأن كلام الله لا يماثل كلام المخلوقين، إنما كلام المخلوقين هو الذي يلزم منه الحدوث في ذاتهم، أما كلام الرب فلا يماثل كلام المخلوقين.

ومن الأدلة أيضاً على أن كلام الله آحاده حادثة: قول الله - تعالى -:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ٣٤]، فالله - تعالى - أخبر عن سماعه لكلام المجادلة بلفظ الماضي «سَمِعَ» وهذا يدل على أن المجادلة والجدال الذي حصل كان قبل نزول الآية، ثم نزلت الآية بعد، فدل هذا على أن الرب تكلم في هذه الآية، بعد حصول الحادثة.

فالمرأة التي جاءت تجادل النبي ﷺ في زوجها هي خولة بنت حكيم لما ظاهر منها زوجها؛ قالت: أشكو إلى الله صبيته - تعني: أولادها الصغار - إن ضممتهم إلي ضاعوا أو إليه جاعوا، وجعلت تجادل النبي ﷺ فيقول: «مَا أَرَاكَ إِلَّا حَرُمْتُ عَلَيْهِ»، فجاءت تشتكي إلى الله فقالت: أشكو إلى الله صبيته إن ضممتهم إلي ضاعوا، أو إليه جاعوا، قالت عائشة رضي الله عنها: «إِنَّهُ يُخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ الْكَلَامِ مِنَ الْمَرْأَةِ سُبْحَانَ مَنْ وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ»، لكن الله سمع كلامها من فوق سبع سموات وأنزل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ٣٤].

فهذا دليل على حدوث آحاد كلام الله، وأن كلام الله وإن كان قديم النوع لكن أفراد حادثة، ومثله قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ نُبُؤُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْنُونٌ لِقَائِ اللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٢١]؛ فالله أخبر عن خروج نبيه ﷺ أول النهار بلفظ الماضي «وَإِذْ عَدَوْتَ»، وهذا يدل على سبق الغدو للخبر أي: أن النبي خرج أول النهار وروا المؤمنين مقاعد للقتال، ثم أنزل الله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ نُبُؤُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْنُونٌ لِقَائِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٢١]؛ فالغدو والخروج سابق لنزول الآية.

ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ سُورِكُمْ ثُمَّ كُنَّا لِلْمَلَائِكَةِ حَاشِدًا وَنُصَوِّرُكُمْ﴾ [الاعراف: ١١]، ف«ثُمَّ» تفيد الترتيب والتراخي، فخلق آدم وتصويره

سابق، ثم تكلم الله بعد ذلك فقال للملائكة: اسجدوا لآدم، والأدلة في هذا كثيرة.

والمعتزلة لهم شبهة في قولهم: إن كلام الله مخلوق، وهي موجودة الآن ومنتشرة في بعض البلدان، ومذهب الأشاعرة والمعتزلة يدرك الآن في بعض البلدان العربية ولهم مؤلفات موجودة، حتى إن كثيراً من المفسرين الآن غلطوا في هذا؛ فالزمخشري كتابه «الكشاف» مبني على هذا، حتى قال البلقيني: استخرجت من «الكشاف» اعتزالاً بالمناقشة؛ منها أنه قال في قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ رُخِّصَ عَنِ الْكَلَامِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال: أي فوز أعظم من الجنة؟! قضيه بذلك عدم إمكان رؤية الله يوم القيامة.

فإذا كانت كتب التفسير - الآن - موجوداً فيها مذهب المعتزلة؛ فقد يقرأها طالب العلم، وينظري عليه ما فيها من الضلالات فلا بد لطالب العلم أن يكون على إمام ببعض الشبه، وطرق الرد عليها، ولذلك نستعرض شيئاً من شبههم؛ ونعرف طلاب العلم بطرائق الرد عليها.

ومن شبه المعتزلة العقلية أنهم يقولون: إنه يلزم من إثبات الكلام لله التشبيه؛ فلو قلنا: إن الله يتكلم والمخلوق يتكلم؛ لزم من ذلك صوت يخرج من الرئة، ويلزم من الكلام أضرار وأسنان ولسان ولثة وشفتان، والله منزّه عن ذلك؛ فلا نقول: إن الله يتكلم حتى لا يشابه المخلوقين، فيما ذكر؛ والله ليس كمثل شيء.

والجواب عن هذه الشبهة أن نقول: إننا إذا قلنا: إن الله يتكلم ليس ككلام المخلوق، ولا نعلم كيف يتكلم؛ زالت هذه الشبهة، فليس له مثل لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله.

ونحن نعلم أن بعض المخلوقات تتكلم ولا نرى كيف تتكلم، فهذه الجلود تنطق يوم القيامة والأرجل والأيدي تشهد؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَحْنُ عَنْ أَلْفِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا يُبَايِعُوكُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [نمل: ٢١].^(١)

كذلك ثبت تسبيح الحصا^(٢) والطعام بين يدي النبي ﷺ^(٣)، وقال: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ...»^(٤) وكذلك الجذع حنّ وصاح وبكى مثل بكاء الصبي، وجعل يهدئه؛ فجعل يهدأ شيئاً فشيئاً كما يهدأ الصبي^(٥)، فكلام هذه الأشياء قد ثبت بالدليل لكننا لانستطيع أن نكفيه .

فإذا كانت بعض المخلوقات تتكلم، ولا نعلم كيف تتكلم؛ فمن باب أولى أن الله يتكلم ولا نعلم كيف يتكلم، وعلى هذا تبطل هذه الشبهة.

ومن شبههم أن بعضهم يقول: إن الله خلق الكلام لا في محل، وعند بعضهم أنه: خلقه في محل، لكنه مخلوق؛ أضيف إلى الله.

نقول لهم: أي الذين يقولون: كيف يكون الكلام مخلوقاً لا في محل؟! أن الكلام معنى من المعاني؛ لا بد أن يقوم بغيره، ومحال أن

(١) وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَّا نُفْسُهُ يَوْمَ يُكْفَىٰ لَا تَفْقَهُونَ تَتْلِيهِمْ﴾ [الإنش: ٤٤].

(٢) انظر: «ظلال الجنة» للألباني (١١٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٧٩) عن ابن مسعود قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهم يؤكل».

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة ؓ.

(٥) انظر ما أخرجه البخاري (٩١٨)، و(٣٥٨٣)، و(٣٥٨٤)، و(٣٥٨٥).

يكون الكلام مخلوقاً لا في محل.

ونقول للطائفة الثانية: الكلام لا بد أن يكون بمتكلم؛ فكيف يقولون: إن الكلام مخلوق خارج عن ذات الله؛ فصار الله به متكلماً؟! ولو صح أن يوصف الله بصفات لم تقم به؛ لصح أن يوصف بما خلقه في غيره من المخلوقات من الصفات؛ من الروائح، والألوان، والطعوم، والطول، والقصر!!! فلو صح أن يتكلم الله بكلام قام بغيره؛ للزم أن يكون ما خلقه في غيره من الحيوانات، وما أحدثه من الجمادات: كلاماً له، كما فرض ذلك الانحاديّة. وهذا باطل .

وكيف يوصف الله بصفة قامت بغيره؟! لو صح أن يوصف الله بصفة قامت بغيره لصح أن يوصف الشخص بصفة قامت بغيره؛ كأن يقال للأعمى بصير، أو للبصير أعمى؛ لأن الأعمى قام وصف البصر بغيره، والبصير قام وصف العمى بغيره، وهذا باطل، ولو كان كذلك لكان قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَكْبَرُ﴾ [الشع: ٢٤] صدقاً، وهذا باطل أيضاً، كما لا يخفى .

ومن شبههم يقولون: إن كلام الله مخلوق لكنه أضيف إلى الله إضافة تشريف وتكريم، كما أن الكعبة أضيفت إلى الله لتشريف بيت الله، والناقة أضيفت إلى الله في قوله: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [القص: ١٣] للتشريف، والعبد في قوله: ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾ [زمر: ٣٠] أضيف إلى الله للتشريف، والروح أضيف إليه سبحانه إضافة تشريف في قوله: ﴿رُوحُ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٨]، فكذلك الكلام أضيف إلى الله - وإن كان مخلوقاً بغيره - للتشريف والتكريم.

والجواب: أن هذه الشبهة باطلة؛ وذلك أن المضاف نوعان:

النوع الأول: أعيان قائمة بذاتها كالبيت والعبد والرسول والروح، كما قال الله: ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾، و﴿روح الله وكلمته﴾، و﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾؛ هذه إضافة

مخلوق إلى خالقه؛ لأنها أعيان قائمة؛ فالبيت عين قائم بنفسه، والناقة عين قائمة بنفسها، والعبد عين قائم بنفسه، والروح عين قائمة بنفسها، فإذا أضيفت إلى الله فهي إضافة مخلوق إلى خالقه؛ وتقتضي هذه الإضافة التشريف والتكريم لما امتاز به ذلك المضاف من الصفات.

النوع الثاني: إضافة معاني وأوصاف لا تقوم بنفسها؛ كالعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام.

هذه إضافة صفات إلى الموصوف؛ وتقتضي هذه الإضافة انصاف الموصوف بهذه الصفات وقيامها به، وهذا فرق بديهي لا ينكره إلا من أنكر المحسوسات.

هذه من أبرز الشبه العقلية التي يقول بها المعتزلة، وهي في نظرهم القاصر أدلة؛ ولكنها أوهى من بيت العنكبوت، ولهم شبه شرعية؛ وهي نصوص من الكتاب والسنة.

الشبه الشرعية:

من الشبه الشرعية التي استدلوها به على أن القرآن مخلوق: قول الله - عز وجل -: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦١)، ووجه الاستدلال: أنهم قالوا: إن «كل» من صيغ العموم فتعم كل شيء، ويدخل في هذا العموم: صفة الكلام؛ فيكون القرآن مخلوقاً.

وقد أجاب أهل السنة والجماعة عن هذه الشبهة بأجوبة؛ منها:

الجواب الأول: أن اسم الخالق يشمل الذات والصفات؛ فصفاته ليست خارجة عن مسمى ذاته، فالله - سبحانه وتعالى - بذاته وصفاته؛ هو الخالق، وكلامه صفة من صفاته ليست خارجة عن مسمى اسمه، فالله هو

الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق.

وعلى ما سبق فيقال للمعتزلة: كيف أدخلتم كلام الله الذي هو صفة من صفاته في هذا العموم، وأخرجتم أفعال العباد؛ فقلتم: إن الله لم يخلقها؟! هذا يدل على أنكم أهل هوى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦١)؛ فهو خالق الذوات والصفات والأفعال، وأفعال العباد داخلة في هذا العموم؛ فتكون مخلوقة، فكيف أخرجتموها عن عموم «كل» وأدخلتم في هذا العموم الكلام الذي هو صفة من صفاته؟!!

الجواب الثاني: أن الكلام صفة من صفات الله، به تكون المخلوقات، فالله تعالى يخلق بالكلام؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)، وقد فرق الله - سبحانه وتعالى - بين الخلق والأمر فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (الاعراف: ٥٤)، فالخلق شيء، والأمر شيء آخر، فلو كان الكلام مخلوقاً، ولو كان الأمر مخلوقاً؛ للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر إلى ما لا نهاية، فيلزم التسلسل؛ وهو باطل.

ويتبين بهذا: أن الكلام صفة من صفات الله؛ به تكون المخلوقات؛ لأن الله يخلق كل شيء.

والجواب الثالث: أن عموم «كل» في كل موضع بحسبه؛ يبين هذا قول الله - عز وجل - في الريح التي أهلك بها عاداً: ﴿تَدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الاحقاف: ٢٥)، فهي لم تدمر المساكن، ولم تدمر السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتَبَهُوا لَا يُرْجَى إِلَّا سَكِينَتُهُمْ﴾ (الاحقاف: ٢٥)، فالمعنى - والله أعلم - ﴿تَدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الاحقاف: ٢٥) يصلح للتدمير، أو يستحق التدمير عادة؛ فالعموم في كل موضع بحسبه.

وَمِثْلُ قَوْلِ اللَّهِ - عز وجل - عن ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ [النمل: ٢٣]، فهناك أشياء ما أُوتِيَتْها، والمعنى - والله أعلم -: وأوتيت من كل شيء يصلح للملوك؛ فكذلك عموم «كل» في هذه الآية الكريمة هو بحسبه؛ فالمراد من قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] أي: الله خالق كل شيء مخلوق، ولا يدخل في ذلك صفات الله، ولا يدخل في ذلك الكلام؛ لأنه صفة من صفاته؛ داخل في مسمى اسمه .

الجواب الرابع: على مذهب المعتزلة أنه يلزم أن تكون جميع الصفات: من العلم، والقدرة، والحياة، مخلوقة، وهذا صريح الكفر.

الشبهة الشرعية الثانية:

ومن شبههم الشرعية التي استدلو بها قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٣]، فقالوا: (جعل) بمعنى خلق، والمعنى: إنا خلقناه قرآنًا عربيًّا؛ وهذا يدل على أن القرآن مخلوق.

أجاب أهل السنة:

بأنه استدلال باطل؛ لأن (جعل) إنما تكون بمعنى خلق إذا تعدت إلى مفعول واحد لا إلى مفعولين؛ فإذا تعدت إلى مفعول واحد؛ كانت بمعنى (خلق) كقوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ الْمَاءِ كُلِّ نَهْيٍ حَيْثُ أَفَّاكَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وكقوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تُبِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وكقوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا شُكًّا لِمَنْهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وكقوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْعًا مَحْمُوسًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وكقوله - تعالى -: ﴿يَجْمَلُ اللَّفْلَتِ وَالنُّورِ﴾ [الأنعام: ٢١].

أما إذا تعدت إلى مفعولين؛ فلا تكون بمعنى خلق، كما في هذه الآية التي احتجوا بها؛ وكما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْنَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ كِتَابًا﴾

[النمل: ٩١]، فلو فُسِّرَتْ (جعل) بمعنى خلق؛ لفسد المعنى، فهل يستطيع معتزلي أن يقول: المعنى: وقد خلقتم الله كفيلاً؟! وكقوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِشِينَ﴾ [الحجر: ٩١]؛ هل يقول المعتزلي: الذين خلقوا القرآن عشرين؟! وكقوله - تعالى -: ﴿وَلَا يَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، هل يمكن أن تُفسَّر (جعل) بمعنى خلق؛ وكذلك في هذه الآية التي احتجوا بها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزمر: ٣] لا تكون بمعنى (خلق)، وبهذا يطل استدلال المعتزلة بهذه الآية .

الشبهة الشرعية الثالثة:

استدلو بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]؛ قالوا: وجه الدلالة: أن الله أخبر أن القرآن قول رسول؛ فدل على أن القرآن مخلوق، وليس كلام الله؛ لأن الله نسبته إلى الرسول، والله خلق الرسول، وخلق كلامه؛ فيكون القرآن مخلوقًا .

أجاب أهل السنة عو هذه الشبهة بأجوبة منها:

الجواب الأول: أن الله تعالى قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، والرسول إنما يبلغ عن المرسل، فلم يقل: إنه قول نبي، بل قال: قول رسول؛ والرسول لا ينشئ الكلام، وإنما يبلغ كلام غيره، فدل على أن الكلام كلام الله.

الجواب الثاني: أن الرسول جاء في موضعين من كتاب الله عز وجل: في سورة «التكوير» في قوله: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [٢٠-٢١]، وفي قوله: ﴿وَيَقُولُ كَيْفَ يَكُونُ قَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [٢٠-٢١]، وهو جبريل، وجاء في سورة «الحاقة» في قوله: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [٢٠-٢١]، وهو يقول: قَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ولا يقول: كَيْفَ يَكُونُ قَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، [الحاقة: ٤٠-٤١].

٢٢، والمراد به هنا: الرسول البشري؛ وهو محمد - عليه الصلاة والسلام -، فأجى الرسولين - على زعمكم أيها المعتزلة - أحدث نظم القرآن؟! إن أحدثه محمد؛ امتنع أن يحدثه جبريل، وإن أحدثه جبريل امتنع أن يحدثه محمد؛ وهذا يدل على بطلان قولكم، ويدل على أن المراد: أن الرسول مبلغ، والله تعالى تكلم بالقرآن، وسمعه جبرائيل وبُلقه محمدًا، ثم قرأه محمد - عليه الصلاة والسلام - وبُلقه الأمة.

رابعًا: أنه قال في وصفه: ﴿شَلَخَ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١] كما في سورة «التكوير»؛ وَوَضَعُهَا بِالْأَمَانَةِ يَدِلُّ عَلَى أَنَّهُ يَبْلُغُ مَا أُرْسِلَ بِهِ، كما أنزل، لا يزيد، ولا ينقص، فجبريل يبلغه كما سمعه من الله عز وجل، على ما أُرْسِلَ به؛ لا يزيد فيه، ولا ينقص منه.

خامسًا: أن قولكم: إن محمدًا أحدث نظم القرآن؛ هذا القول يجعله داخلًا في الوعيد الذي توعد الله به الوليد بن المغيرة، الذين قال الله عنه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٣﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٤﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٥﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٦﴾ فَفَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا يَحْرُوقُ ﴿٧﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٨﴾ سَتَجْلِبُ سَفَرٌ ﴿٩﴾﴾ [المذثر: ١٨-٢٦]، فالله توعد من قال: (إن هذا القرآن إلا قول البشر) بأن يصليه سفر، فمن قال: إن القرآن قول محمد، ومحمد بشر - عليه الصلاة والسلام - فهو داخل في هذا الوعيد، فيكون المعتزلة داخلين في هذا الوعيد أيضًا.

اجابة أهل السنة على أن القرآن كلام الله

من أدلة أهل السنة والجماعة على أن القرآن كلام الله: أن الله أخبر بأنه منزل؛ قال تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [مائدة: ٢] [سورة غافر آية: ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [نفس: ١].

٢، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

فهذه النصوص صريحة في أن القرآن منزل.

واعترض المعتزلة على هذه النصوص التي فيها أن القرآن منزل؛ قالوا: إن الإخبار عن القرآن أنه منزل لا يمنع أن يكون مخلوقًا؛ لأننا نجد أن بعض المخلوقات أخبر الله عنها بأنها منزلة وهي مخلوقة، وقد اتفقت معنا يا أهل السنة على أنها مخلوقة، فالله تعالى قال عن الحديد: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، فالله أخبر عن الحديد أنه منزل؛ ومع ذلك فهو مخلوق؛ وأنتم توافقوننا على هذا، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَنْتَارِ نَفِيثَةً نَارًا﴾ [الأنعام: ٦]، فأخبر الله عن الأنعام بأنها منزلة؛ وهي مخلوقة، وأنتم توافقوننا على هذا، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ أَسْفَلِ مَاءٍ﴾ [المؤمنون: ١٨]، فأخبر الله أنه أنزل من السماء ماء، والمطر مخلوق، وأنتم توافقوننا على هذا؛ فكذلك القرآن مخلوق؛ ولو أخبر الله بأنه منزل، فلا يمنع أن يكون مخلوقًا.

اجابة أهل السنة على هذا الاعتراض:

أن هناك فرقًا بين إنزال القرآن وإنزال الحديد والأنعام والمطر؛ فإن إنزال القرآن صريح في الآيات أنه منزل من عند الله لا من غيره؛ قال تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْمَكِينِ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [نفس: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، فهو صريح بأنه منزل من عند الله.

أما الحديد فإن إنزاله مطلق فلم يخبر الله أن الحديد منزل من عنده، وذلك: أن الحديد إنما يؤخذ من الجبال، والجبال عالية على وجه

الأرض؛ وكلما كان أخذ الحديد من أعلى الجبل؛ كان حديد أجود؛ فالمقصود الإنزال من الجبال.

والأنعام أخبر الله أنها منزلة: قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ نَبِيَّةً الْأَنْعَامِ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وذلك أن الأنعام إنما تخلق بالتوالد، والتوالد يستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات على وجه الأرض؛ فهذا إنزال.

وأما إنزال المطر؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ أَسْمَاءٍ﴾ [الأنعام: ١٨] هو مقيد بأنه من السماء، والسماء من جهة العلو، وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاءً﴾ [الشعراء: ١٨]، والمعصيرات السحاب، والآية الأخرى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَبْلُغُونَ﴾ [الأنعام: ١٨]، والمزون هو السحاب، فبين بهذا الفرق بين إنزال القرآن، وإنزال الحديد والأنعام والمطر.

هذه أمثلة لشبه المعتزلة، وهذه الشبه موجودة ومُدَوَّنة في الكتب وفي التفاسير؛ فإنك لو طالعت «الكشاف» للزمخشري أو غيره، تجد فيها هذه التأويلات، وقد ذكرناها ليكون طالب العلم على بصيرة من أمره، فإذا عرف بعض الأمثلة، قاس عليها بقية الأمثلة.

مناقشة أجلة الإشاعة في كلام الله عز وجل والقرآن:

نتنقل بعد هذا إلى شبه الإشاعة، والأدلة التي استدلو بها على تقرير مذهبهم في كلام الله، وهم طائفة كبيرة يسمون أنفسهم «أهل السنة»، وتأويلاتهم موجودة ومنتشرة في كتب الفقه وكتب الأصول والتفاسير التي يتداولها الناس، ويتدارسونها في كثير من المؤسسات العلمية وغيرها، وهم

ينافسون أهل السنة في كثير من الأزمان؛ فلا بد لطالب العلم أن يكون على إمام بحقيقة مذهب الإشاعة، وبيان بعض الشبه التي يركزون عليها.

حقيقة مذهب الإشاعة:

يقولون: إن كلام الله معنى قائم بالنفس؛ ليس بحرف ولا صوت، والله تعالى لا يسمع منه الكلام، بل الكلام معنى قائم بنفسه؛ لا يسمع.

وأما الموجود في المصاحف فهذا عبارة عن كلام الله، عبّر به جبريل، أو عبّر به محمد ﷺ، ويسمى ما في المصاحف كلام الله مجازاً، ولهذا إذا قلت لبعض الإشاعة - عند التسامح -: المصاحف فيه كلام الله، يقولون: المصاحف كلام الله، لكن عند المناظرة وبيان حقيقة المذهب يقولون: لا ليس في المصاحف كلام الله، لكن نسميه كلاماً لله مجازاً؛ لأنه تأدّى به كلام الله؛ ولأنه دليل على كلام الله؛ أما كلام الله فهو معنى قائم بنفسه - ولهذا - والعياذ بالله - فبعضهم قد يجعل المصاحف تحت قدميه، ويقول: ليس فيه كلام الله، نسال الله السلامة والعافية -. وأما النظم المسموع المقروء في المصاحف فهو دليل على أن القرآن مخلوق؛ فعلى هذا: يكون القرآن من شيتين أو كلام الله من شيتين: شيء له نصفان: نصف غير مخلوق؛ وهو المعنى القائم بنفس الرب، ونصفه الآخر مخلوق؛ وهو الحروف والكلمات التي يقرؤها القارئ؛ وأما كيف عرف جبريل ما في نفس الله؟ فلهم أقوال في ذلك، وبعضهم يقول: إن الله اضطر جبريل ففهم المعنى القائم بنفسه اضطراراً فعبر عنه، فالقرآن عبارة عبّر بها جبريل، مثال ذلك: أن يكون عندك أخرس؛ لا يتكلم، فيشير إليك بالإشارة، ثم تفهم إشارته وتكتبها، فهؤلاء - والعياذ بالله - جعلوا الله كالأخرس - نسال الله

العافية -، وبعضهم يقول: إن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ.

وحقيقة مذهب الأشاعرة يوافق نصف المذهب المعتزلة؛ فالمعتزلة يقولون: القرآن مخلوق لفظاً ومعنى، والأشاعرة يقولون: معناه غير مخلوق، ولفظه مخلوق.

كما أن الأشاعرة يشابهون النصارى في مسألة اعتقادهم في عيسى؛ فالنصارى يعتقدون أن عيسى مكون من شيئين: جزء من الإله، وجزء من الناس؛ اتحداً وامتزجاً فصاروا شيئاً واحداً يقال له: المسيح عيسى ابن مريم.

والأشاعرة لهم شبه أدلة حول مذهبيهم، إلا أنها أوهى من بيت العنكبوت مثلهم في ذلك كمثل إخوانهم من الفرق الأخرى؛ فإن الأشاعرة يقولون: إن كلام الله معنى قائم بنفسه، وأما الألفاظ والحروف والكلمات فدلّيل يفهم بها المعنى القائم بنفس الرب؛ فافهم المعنى القديم الذي هو في نفس الرب بواسطة الألفاظ والحروف والكلمات؛ يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى، كما أوضحناه.

من أدلة الأشاعرة على أن القرآن معنى قائم بالنفس لا يُسمع؛ ليس بحرف، ولا صوت، ولا لفظ:

استدلوا يقول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَتَّىٰ يَسْلُوتَنَّهُ قَيْسُ الْأَنْفُسِ﴾ [المجادلة: ٢٨]، قالوا: وجه الدلالة أن الله قال: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢٨]، فدلّ على أن القول إنما يكون في النفس، وأما الألفاظ والحروف والأصوات فليست من القول؛ فدلّ على أن كلام الله معنى قائم بنفسه.

أجاب أهل السنة عن هذا بجوابين:

الجواب الأول: جواب بالمنع: وهو أن نقول: نمنع أن يكون المراد في الآية في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢٨] المعنى القائم بالنفس، وإنما المراد القول سرّاً؛ أي: يقولون سرّاً ويتكلمون بأنفسهم سرّاً، كما قاله أكثر المفسرين؛ وذلك أن اليهود كانوا يأتون النبي ﷺ ويقولون: «السام عليك»^(١)؛ والسام الموت، وهم يُظهرون أنهم يلقون السلام، ثم إذا خرجوا من عند النبي ﷺ قال بعضهم لبعض سرّاً: لو كان نبياً لعذبنا يقولنا له الذي نقول، فأنزل الله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٢٨]، وهذا هو الذي عليه أكثر المفسرين، ويؤيده ما ثبت في «الصحيحين» في الحديث القدسي أن النبي ﷺ قال: «فَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَكَلٍّ ذَكَرْتُهُ فِي مَكَلٍّ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(٢)، معناه: ذكر الله سرّاً؛ بدليل قوله: «وَمَنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَكَلٍّ...».

الجواب الثاني: جواب بالتسليم؛ وهو أن نقول: سلمنا جدلاً أن قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢٨] قول في النفس، وأنه ليس فيه حروف ولا كلمات؛ لكن الآية مقيدة بأنه قول في النفس، وإذا قيد القول

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٥)، ومسلم (٢١٦٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي الباب أيضاً من حديث ابن عمر عند البخاري (٦٢٥٧)، ومسلم (٢١٦٤)، ومن حديث أنس عند البخاري (٦٩٢٦)، ومن حديث جابر بن عبد الله عند مسلم (٢١٦٦).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) والسياق له، ومسلم (٢٢٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الباب أيضاً عن أنس؛ أخرجه أحمد في «المسند» (١٣٨/٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (١١٦٩). وقد قال الهيثمي عن رواية أحمد كما في «مجمع الزوائد» (٧٨/١٠) -: «ورجاله رجال الصحيح».

بأنه في النفس تقيّد، ونظيره الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّي مَا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»^(١)، فإذا قيد القول بأنه في النفس تقيّد، فهل قيد كلام الله أنه في النفس في قوله: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْوِيمًا» (النساء: ١٦٤) هل قال الله: وكلم الله موسى في نفسه، فإذا لم يتقيد فلا يكون القول في النفس، وإنما يكون قولاً يتكلم به المتكلم؛ حروفاً وألفاظاً وكلمات.

ومن أخطاهم:

الاستدلال ببيت من الشعر منسوب إلى الأخطل؛ وهو:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفَوَادِ دَلِيلًا

وجه الجلالة:

قالوا: إن هذا بيت عربي، والقرآن نزل بلغة العرب، وأثبت الشاعر العربي أن الكلام إنما يكون في الفؤاد، أي: في النفس، وأما ما يكون في اللسان فالحروف والكلمات واللفظ.

أجاب أهل الحق عن هذا الاستدلال بأجوبة:

الجواب الأول: أنا لا نسلم أن هذا البيت للأخطل، فهذا البيت مصنوع مختلق لا يوجد في ديوان الأخطل، وكثير من النحويين ينكرون نسبته إليه؛ فكيف تستدلون ببيت مصنوع مختلق لا أساس له من الصحة؟! وبهذا يبطل استدلالكم، كيف تصنعون بيتاً ثم تستدلون به على كلام الله وكلام رسوله؟!.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٩) واللفظ له، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجواب الثاني: ولو سلمنا بصحة البيت جدلاً، وأن الأخطل قاله؛ لكنه قول واحد من أهل اللغة، فلا يقبل حتى يوافقه أهل اللغة، فإذا كان حديث رسول الله ﷺ لا يقبل حتى يصح سنده وتعدّل روايته، ولا يكون شاذاً ولا معطلاً؛ فكيف ببيت من الشعر لا يدري من صاحبه؛ قاله واحد ولم يوافقه أهل اللغة؛ فيكون شاذاً.

الجواب الثالث: سلمنا صحة البيت، وسلمنا نسبته إلى الأخطل، وسلمنا قبول أهل اللغة له، لكن ليس مقصود الشاعر بقوله: إن الكلام لفي الفؤاد: الكلام العاري عن الألفاظ والحروف والكلمات؛ بل مقصود الشاعر أن الكلام الحقيقي هو الذي يهيئه الإنسان في نفسه، ويزنه بعقله قبل أن ينطق به ويتروى فيه؛ أما الكلام الذي يجري على اللسان من دون تروء، ومن دون نظر؛ فهذا يشبه كلام النائم والهادي؛ الذي لا قيمة له، ولهذا روي البيت برواية أخرى، وهي أقرب إلى الصحة:

إن البيان لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

رابعاً: سلمنا صحة البيت، وأنه للأخطل، وسلمنا موافقة أهل اللغة له، وسلمنا أن المراد بالبيت الكلام النفسي العاري عن الحروف والألفاظ؛ لكنه قول نصراني؛ لأن الأخطل نصراني، ومعلوم أن النصاري قد ضلوا في معنى الكلام؛ فإن النصاري زعموا أن المسيح هو كلمة الله؛ أي كلمة «كن».

وأهل السنة يقولون: ليس نفس الكلمة، إنما هو مخلوق بالكلمة، قال تعالى: «وَكَانَ مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (آل عمران: ٥٩)، فكيف تستدلون بقول نصراني قد ضل في

معنى الكلام على معنى الكلام، ويُترك ما يُعرَّفُ بمعنى الكلام من النصوص واللغة؟!

خامساً: سلمنا جدلاً الاستدلال بقول النصارى؛ لكن البيت يلزم عليه معنى فاسد؛ وهو أن يسمى الآخرس متكلمًا؛ لقيام الكلام بنفسه، وإن لم يتكلم به؛ والآخرس لا يسمى متكلمًا لا شرعًا، ولا عقلاً، ولا لغةً، ولا حسًا، وبهذا يطل استدلال الأشاعرة بهذا البيت .

مناقشة أهل السنة للأشاعرة في أن كلام الله معنى واحد لا يتجزأ: ومما ناقش به أهل الحق الأشاعرة القائلين: إن الكلام معنى واحد؛ لا يتعدد، ولا يتجزأ، ولا يتكثر، والتعدد والتجزؤ والتكثر إنما هو في الدلالات والعبارات .

ناقشوه وأجابوه عن قولهم هذا بأن الله تعالى أخبر أن موسى سمع كلام الله، فهل سمع موسى جميع المعنى أو بعض المعنى؟

إن قلتم: سمع جميع المعنى؛ فقد زعمتم أن موسى سمع جميع كلام الله؛ وهذا باطل. وإن قلتم: سمع بعض كلام الله فقد قلتم بالتبعض وأبطلتم مذهبكم بأنفسكم؛ فلا محيد لكم عن هذين الإلزامين.

ثانيًا: أن يقال: لو كان الكلام معنى قائمًا بالنفس، كما تزعمون أيها الأشاعرة، وأن الدلالات والعبارات هي التي تختلف؛ للزم على ذلك لوازم فاسدة منها:

أولاً: أن يلزم على قولكم: إن الكلام معنى قائم بالنفس وأنه لا يتعدد ولا يتبعض، أن يكون معنى قو: ﴿وَأَلْقَيْنَا الْفُلُكُوتَ﴾ [الشعر: ٥٦] هو معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ﴾ [الإسراء: ٢٣] وأن يكون معنى آية الدين هو معنى

آية الربا، وأن يكون معنى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإعلاص: ٢١] هو معنى ﴿تَبَّتْ يُكَا﴾ [المناد: ٢١] وهذا باطل.

ثانيًا: لو كان الكلام معنى قائمًا بالنفس، وأن المصحف ليس فيه شيء من كلام الله؛ لجاز للمُخْلِيتِ مس المصحف، وهذا خلاف ما أجمع عليه الأئمة الأربعة: أنه يجب على المحدث أن يتوضأ لِمَسِّ المصحف، كما جاء في الحديث الذي كتبه النبي ﷺ لعمر بن حزم: «أَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا ظَاهِرُهُ»^(١).

ولو كان القارئ لا يقرأ كلام الله؛ لجاز للجُئِبِ أن يقرأه وهو لم يغتسل، وكذلك الحائض عند كثير من الفقهاء على الخلاف في المسألة.

(١) أخرجه النسائي (٥٧/٨)، وأبو داود في «المراسيل» (٢٥٩)، والدارمي (١٦٢١-١٦٢٨-١٦٣٥)، والدارقطني (١٢٢/١)، وابن حبان (٦٥٥٩)، والحاكم (٥٥٢/١)، والبيهقي (٨٧/١-٣٠٩، ٨٩-٩٠، ٧٣/٨)، والطحاوي (٣٤/٢)، وغيرهم من طرق، وقد اختلف في وصله وإرساله، والصواب المرسل والمرسل من قسم الضعيف، لكنه هنا يرتقي إلى الصحة بأمرين: الأول: تلقي العلماء له القبول: قال الحافظ في «التلخيص» (١٨/٤): (وقد صح الحديث بالكتاب المذكور جماعة من الأئمة، لا من حيث الإسناد؛ بل من حيث الشهرة: فقال الشافعي في «رسالته» (٤٢٢): لم يقبلوا هذا الحديث حتى ثبت عندهم أنه كتاب رسول الله ﷺ).

وقال ابن عبد البر (٣٨٨/١٧): هذا كتاب مشهور عند أهل السير، معروف ما فيه عند أهل العلم معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة).

وقال شيخ الإسلام (٢٦٦/٢١): (قال أحمد: لا شك أن النبي ﷺ كتبه) اهـ. الأمر الثاني: أن للحديث شواهد كثيرة: من حديث حكيم بن حزام، وعثمان بن أبي العاص، وابن عمر، وثوبان، وغيرهم، وأسانيد ضعيفة. وانظر: «الإرواء» (١٢٢).

ويقال للأشاعرة: إن النصوص الكثيرة تبطل قولكم منها:

قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِبَيِّنَةٍ هَذَا الْقُرْآنُ لَا يَقُولُوا بِهِ شَيْءٌ وَلَا يَكُنْ لَهُمْ بِهِ قَوْلٌ مَعَهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ (الإسراء: ٨٨)؛ هل الإشارة تعود إلى ما في نفس الله، أو تعود إلى القرآن المتلو المسموع المكتوب في المصاحف؟! لا شك أن الإشارة تعود إلى القرآن المتلو بالألسن، المكتوب في المصاحف؛ لأن ما في نفس الله غير مشار إليه ولا متلو ولا مسموع.

وكذلك قوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِبَيِّنَةٍ﴾ (الإسراء: ٨٨) هل الضمير يعود إلى ما في نفس الله، أو إلى ما في هذا القرآن المتلو المكتوب في المصاحف؟! لا شك أنه يعود إلى ما في المصحف؛ لأن ما في نفس الله لا حيلة إلى الوصول إليه؛ فهو غير متلو، وغير مسموع، كذلك أيضاً قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْإِنْسَانِ نَفْسٌ مِّنْ شَيْءٍ مِّمَّا يَخْتَلَفُ فِيهِ﴾ (التوبة: ٦٦)؛ صريح في أن الذي يسمعه المشرك كلام الله، ولم يقل: حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله كما تقولون.

ومن الأدلة أيضاً ما ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُخْبِرُ مِنْ أَمْرِ مَا يَشَاءُ، وَإِنْ مِمَّا أَخَذَتْ أَلَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ»^(١)، وحديث: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ

(١) علقه البخاري بهذا اللفظ (٤٩٦/١٣ - فتح)، عن ابن مسعود مرفوعاً، لكن رواه موصولاً بغير هذا السياق.

وأخرجه أبو داود (٩٢٤) من حديث ابن مسعود بلفظ: «... إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخْبِرُ مِنْ أَمْرِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخَذَتْ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا =

النَّسِيجُ وَالْكَثِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(٢).

وقد أجمع العلماء على أن الإنسان المصلي لو تكلم في الصلاة عامداً في غير مصلحتها؛ بطلت صلاته، وقد أجمعوا أيضاً على أن حديث النفس الذي يكون في القلب من تصديق بأمور دنيوية، وطلب؛ لا يبطل الصلاة، فدل على أن الكلام إنما هو لفظ ومعنى، والكلام الذي يتكلم به الإنسان بلسانه هو اللفظ والمعنى، وهو حروف وأصوات، فكلام الله لفظ ومعنى، وهو بحرف وصوت يُسْمَعُ. فهذا هو حَدُّ الكلام عند أهل اللغة.

ومن الأدلة أيضاً: ما ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأَمْرِي عَمَّا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَكَلِّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ»^(٣)؛ ففرق النبي ﷺ بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أن الله عفا عن حديث النفس، وأن ما تكلم به الإنسان بلسانه لا يعفى عنه؛ فدل على أن الكلام لفظ ومعنى، حروف وأصوات.

ومن الأدلة أيضاً: ما ثبت في «السنن» من حديث معاذ الطويل لما سئل النبي ﷺ عن عمل يدخله الجنة ويبعده عن النار قال: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَبِيبُ عَلَى مَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعَبُّدُ اللَّهِ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً،

= في الصلاة، وأخرجه أيضاً النسائي في «السنن الكبرى» (٥٥٩، ١١٤٤)، وفي «الصغرى» (١٢٢٢)، والحميدي في «المسنَد» (٩٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠١٢٠ - ١٠١٢٣) وغيرهم.

والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٨٨) وحسنه النووي في «المجموع» (١١٥/٤)، وصححه ابن الملقن في «الدر المنير» (١٧٣/٤).

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

(٢) سبق تخريجه قريباً.

وَتَقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتُحْجُ الْبَيْتَ... ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ. قَالَ: كُفْتُ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: تَكَلَّمْتُ أَمَّا يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ عَلَى مَنْأَجِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ^(١).

فأخبر النبي ﷺ أن الإنسان إنما يؤخذ بما يتكلم به بلسانه، فدل على أن الكلام ألفاظ ومعان؛ حروف وأصوات، وكذلك كلام الله عز وجل تكلم به، فكلام الله اسم للمعنى واللفظ جميعاً، والله تكلم به، وبهذا يتبين أن مسمى كلام الله: المعنى واللفظ جميعاً، وأن كلام الله يحرف وصوت يُسمع. والحق: أن التوراة والإنجيل والزيور والقرآن كلهم من كلام الله، وكلام الله لا يتناهى، ولو مُدَّ البحر بسبعة أبحر، وجعل ما في الأرض من الأشجار كله أقلام وجعلت البحار مداداً يُكتب بها؛ لتكسرت الأقلام، ونفدت مياه البحر، وما نفدت كلمات الله:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ عِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِحِيرَةٍ مَدًّا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَدْعُو مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [القلم: ٢٧]

فهذه المسألة - مسألة الكلام - مسألة عظيمة اشتد النزاع فيها بين

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) والسياق له، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٩٤)، وأحمد في «المسند» (٢٣١/٥)، (٢٣٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وانظر ما علقه الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٦٩ - ٢٧٠) عن طرق حديث معاذ هذا.

أهل السنة وبين المخالفين لهم، والتبس الأمر على كثير من الناس، ولا سيما مذهب الأشاعرة، ثم مذهب المعتزلة فينبغي لطالب العلم أن يعتني بهذا الأمر، وأن يعتني بالنصوص، وأن يتأمل حينما يقرأ في الكتب حتى لا يلتبس عليه معتقد أهل السنة والجماعة المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة، بخلاف مذهب المعتزلة والأشاعرة المبني على الآراء والأهواء والشبهات.

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَأَ بِهَا كَثِيرَةً قَوْلًا):

الشرح

• قوله: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَأَ بِهَا كَثِيرَةً قَوْلًا)

الطحاوي رحمه الله يقرر مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله؛ أي: لفظه ومعناه، هذا هو الأصل، فالكلام لفظاً تشمل اللفظ والمعنى، فالقرآن كلام الله، لفظاً ومعنى.

وقوله: (منه بدا) هذا فيه الرد على المعتزلة والأشاعرة؛ فإن المعتزلة لا يقولون: منه بدا؛ وإنما يقولون: بدا من شيء آخر؛ بدا من الشجرة، أو بدا من الهواء، أو بدا من اللوح المحفوظ يعني: خلقه الله في اللوح المحفوظ، فأضافه إليه إضافة تشريف وتكريم؛ وكذلك الأشاعرة لا يقولون: منه بدا، بل يقولون: لم يبد منه شيء، لأن الكلام معنى قائم بنفسه تعالى، فلم يبد منه ما شأنه أن يُسمَعَ؛ فما سمع جبريلُ منه كلاماً ولا لفظاً ولا حرفاً ولا صوتاً، وإنما جبريلُ هو الذي أحدث لفظ القرآن، أو أحدثه محمد؛ لأنه فهم المعنى القائم بنفس الرب، إنما لأن الله اضطره لذلك؛ ففهم المعنى، أو أن الله خلقه في الهواء، وأخذته من الهواء.

وأهل السنة يقولون: القرآن منزل غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود؛ فالقرآن كلام الله منزل، نُزِّلَ الله كما قال سبحانه: ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْحَقِّيقِ﴾ (أنشأت: ٢)، وغير مخلوق لا كما تقول المعتزلة. ومعنى قوله: (منه بدا)، أي: بدا من الله، وظهر منه، وأكد هذا المعنى بقوله: (قولا)، فأتى بالمصدر المعرف للحقيقة، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت النافي للمجاز في قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾ (البقرة: ٢٥٤)، ومعنى قول أهل السنة: (وإليه يعود)، أي: في آخر الزمان؛ فمن أشرط الساعة الكبرى

التي تعقبها الساعة مباشرة ما يلي:

أولها: خروج المهدي في آخر الزمان قُبَيْلَ بُعْثِهِ، واسمه كاسم النبي ﷺ وكنيته: أبو عبدالله: محمد المهدي؛ يملأ الأرض عدلاً، كما مُلِئت جوراً، قُبَيْلَ بُعْثِهِ له في وقت ليس للناس فيه إمام. وفيه أحاديث كثيرة بعضها صحيح، وبعضها ضعيف، وبعضها موضوع، والاعتماد على ما ثبت من أخباره.

ثم يخرج الدجال في زمنه؛ يدعي الصلاح، ثم يدعي النبوة، ثم يدعي الربوبية، ثم ينزل عيسى ابن مريم فيقتله، ثم يخرج يأجوج ومأجوج، ثم بعدها تتتابع أشرط الساعة، فتهدم الكعبة - والعياذ بالله -، ثم يصلي الناس إلى جهنم، ثم ينسون الجهة، ويُتْرَكُ الْقُرْآنُ من الصدور ومن السطور في آخر الزمان؛ فإذا ترك الناس العمل به؛ نُزِعَ من صدورهم؛ أي: من صدور الرجال، ونُزِعَ من المصاحف؛ فيصبح الناس لا يجدون في صدورهم آية، ولا في المصاحف آية -نعوذ بالله - إذا ترك الناس العمل به. هذه هي أشرط الساعة.

ومنها أيضاً: الدخان الذي يملأ الأرض، ومنها: طلوع الشمس من مغربها، ومنها: الدابة، ثم يعقب ذلك نار تخرج من قعر عدن؛ تسوق الناس إلى المحشر. فهو شرط من أشرط الساعة. وقوله: (وإليه يعود) يعني: يعود إلى الله في آخر الزمان؛ فالقرآن منزل غير مخلوق، بدا من الله، وإليه يعود في آخر الزمان؛ يعود إلى الله حينما يترك الناس العمل به، فيُنزَعُ من صدور الناس، ومن المصاحف - نسأل الله السلامة والعافية -.

القرآن أنزل على الرسول وحياً

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ (مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا):

الشرح

● قوله: (مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا).

أي: أن القرآن أنزل على رسوله وحياً؛ هذا ردٌّ على قول المعتزلة والأشاعرة؛ فإن المعتزلة لا يقولون: أنزله بل يقولون: خلقه. وقوله: (وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا)؛ معناه: أن الله تكلم به، وسمعه منه جبرائيل؛ سمع كلام الله، بحرف وصوت. ثم أوصله جبرائيل إلى محمد - عليه الصلاة والسلام - وفي قوله: (وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا) ردٌّ أيضاً لقول المعتزلة، وردُّ لقول الأشاعرة؛ لأن الأشاعرة لا يقولون: أنزله بل يقولون: إن القرآن معنى قائم بالنفس، أما ما في المصاحف فليس فيه شيء منزل؛ إنما الموجود في المصاحف هذا شيء أحدثه جبريل أو محمد؛ فهو عبارة عن كلام الله، عبارة عما في نفس الله.

إيمان وتصديق المؤمنين بأن القرآن كلام الله

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا):

الشرح

● قوله: (وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا).

أي: المؤمنون صدَّقوا واعترفوا، واعتقدوا أن هذا القرآن كلام الله حقًّا، لا مرية فيه ولا شك، فهكذا أهل السنة والجماعة، وهكذا أهل الحق؛ يصدقون ويؤمنون ويوقنون - من قلوبهم - بأن القرآن كلام الله حقًّا، وأنه كلام الله؛ ألفاظه ومعانيه.

يقن المؤمنون بأن القرآن كلام الله بالحقيقة

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞ : (وَأَيُّقُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ - تَعَالَى - بِالْحَقِيقَةِ) :

الشرح

● قوله : (وَأَيُّقُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ - تَعَالَى - بِالْحَقِيقَةِ).

وَأَيُّقُوا : أي : تيقنوا بذلك ؛ ليس عندهم شك ولا ريب ، أن القرآن المكتوب في المصاحف ، المقروء باللسن ؛ أنه كلام الله بالحقيقة .

وهذا فيه رد أيضاً على المعتزلة والأشاعرة ؛ فإنهم لا يقولون : هذا كلام الله بالحقيقة ، بل المعتزلة يقولون : كلام الله مخلوق ، والأشاعرة لا يقولون : إنه كلام الله بالحقيقة ، بل يقولون : كلام الله بالحقيقة ؛ معنى قائم بنفسه ، أما هذا الموجود في المصاحف ، فليس كلام الله بالحقيقة ، وإنما يُسَمَّى كلام الله مجازاً ، فلماذا قالوا : يسمى ما في المصحف كلام الله مجازاً ؟ لأن كلام الله تأدَّى به ؛ فهو مجاز عن كلام الله ؛ لأنَّ كلام الله عندهم لا يُسمع ؛ ليس بحرف ولا صوت ، وإنما قائم بنفسه ؛ فَيُسَمَّى كلام الله مجازاً - أي : من باب المجاز لا الحقيقة - لأنه دليل على كلام الله ؛ ولأنه فهم به كلام الله الذي هو المعنى القائم بنفسه ؛ وإلا فكلام الله قائم بنفسه ؛ لا يُسمع ، ولازم لذات الرب ؛ كلزوم الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر .

القرآن كلام الله ليس بمخلوق ككلام البرية

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞ : (وَأَيُّقُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ) :

الشرح

هذا رد على المعتزلة فإنهم يقولون : كلام الله مخلوق ؛ بل يقولون : هو معناه كلام الناس ، والأشاعرة يقولون : نصفه مخلوق ، - وهو الألفاظ المقروءة ، المتلو ، المسموعة ، المكتوبة في المصاحف - ونصفه غير مخلوق - وهو المعنى القائم بالنفس - .

كُفِّرَ مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ الْبَشَرِ. صراحةً من دون شبهة
♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (فَمَنْ سَمِعَهُ فَرَّغَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ):

الشرح

هذا تصريح بأن من قال: إن القرآن كلام بشر؛ فقد كفر؛ هذا إذا قاله من دون تأويل؛ فهذا كافر بالإجماع، لكن إذا قاله متأولاً؛ لشبهة حصلت له؛ كالاشعري؛ فهذا يُدْرَأُ عنه التكفير؛ لأن له شبهة؛ فهو لم يقل صراحة: إنه كلام البشر، بل يقول: أعتقد أن القرآن كلام الله، لكن كلام الله معنى قائم بنفسه، أما ما في المصاحف والألفاظ فهذا يتأذى به كلام الله؛ فهذا قاله عن شبهة. مثال ذلك أيضاً: قول الله تعالى: ﴿الزَّحْنُ عَلَى الْكَرْبِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] من قال فيه: إن الله لم يستو على العرش حقيقة، بدون شبهة؛ فهو كافر بالإجماع، لأنه رد كلام الله، لكن إذا قال شخص: أنا أؤمن أن هذه آية في كتاب الله، لكن معنى استوى: استولى؛ وكان قوله هذا لشبهة حصلت له؛ فهذا لا يكفر؛ لأنه قول عن شبهة وتأويل، فكذا من قال: إن القرآن كلام البشر بدون شبهة أو تأويل؛ فهو كافر، كما قال الله عن الوليد بن المغيرة: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المؤثر: ٢٥]، ثم قال الله: ﴿سَأُخْلِبَنَّ سَعْرَ﴾ [المؤثر: ٢٦].

ذم الله من قال: إن القرآن كلام البشر وتوعده
♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدُهُ بِسَعْرِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأُخْلِبَنَّ سَعْرَ﴾ [المؤثر: ٢٦]:

الشرح

هذا ذم من الله لمن قال: إن القرآن كلام البشر، وتوعده الله بأنه سيصلبه سقراً؛ وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة كما قال الله: ﴿يَذَّكَّرْ وَقَدْ أَقْبَلَ كَيْفَ فَذَرَّ﴾ [نم: ١١] ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَذَرَّ [نم: ١٢] ثُمَّ ظَنَرَ [نم: ١٣] ثُمَّ عَسَّ وَنَسَّ [نم: ١٤] ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ [نم: ١٥] فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا بَعْرٌ يُؤْخَرُ [نم: ١٦] إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ [نم: ١٧] سَأُخْلِبَنَّ سَعْرَ [نم: ١٨] وَمَا أَزِيكَ مَا سَعْرُ [نم: ١٩] لَا تَهَيَّ وَلَا تَذَرُ [نم: ٢٠] قَالَتْ لِلنَّسْرِ [نم: ٢١] [المؤثر: ٢٥-٢٦]؛ فمن قال: إن القرآن كلام البشر، من دون تأويل؛ فهو كافر، وله هذا الوعيد؛ أما من قال عن تأويل؛ فهو على خطر عظيم، ولكن الشبهة التي حصلت له، والتأويل الذي حصل له يُدْرَأُ بها عن نفسه التكفير، فلا يكفر كما سبق إيضاحه.

كلام الله ليس ككلام البشر

♦ قَالَ الْمُؤَلِّهُ ﷻ: (فَلَمَّا أَوْعَدَ اللَّهُ بِسَقَرٍ لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المؤثر: ٢٥]، عَلِمْنَا وَأَيَقْنَا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشَبِّهُ قَوْلَ الْبَشَرِ):

الشرح

لما توعد الله الوليد بن المغيرة حينما قال: ﴿قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المؤثر: ٢٥]؛ عَلِمْنَا أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَيْسَ كَكَلَامِ الْبَشَرِ، بَلِ اللَّهُ - تَعَالَى - لَيْسَ لَهُ مِثِيلٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وَلَا يَشَابُهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا يَمِثِّلُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ؛ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَعْمَالِهِ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا تَوَعَّدَ مَنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ أَيْقَنَّا مِنْ قُلُوبِنَا - وَلَمْ نَشْكْ - أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَيْسَ كَكَلَامِ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ مِثِيلٌ، وَقَدْ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ مِمَّا ثَلَاثَةٌ مِنْ خَلْقِهِ كَمَا قَالَ - سُبْحَانَهُ -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وَقَالَ - سُبْحَانَهُ -: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [زمر: ١٥]، وَقَالَ - سُبْحَانَهُ -: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وَقَالَ - سُبْحَانَهُ -: ﴿فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَشْأَالَ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [النحل: ١٧]، وَقَالَ - سُبْحَانَهُ -: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

كفر من وصف الله بمعاني البشر

♦ قَالَ الْمُؤَلِّهُ ﷻ: (وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ):

الشرح

أي: ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر - كالصفات - وقال: إن الله مثل المخلوقات - كما تقول المشبهة؛ وهم من غلاة الشيعة فإنهم يقولون: علم الله كعلم المخلوقين، وصفاته كصفاتهم، وقد قالوا: إن الله مثل الإنسان - من قال ذلك؛ فهو كافر إن لم يكن ذلك عن تأويل؛ لأنه تنقص الرب؛ ولأنه صادم النصوص؛ فالله - تَعَالَى - يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وهو يقول: الله مثل الأشياء - تَعَالَى سُبْحَانَهُ عَنْ ذَلِكَ - وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [زمر: ١٥]، وهو يقول: له شيء مماثل؛ وهي المخلوقات، والله يقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] وهو يجعل لله أندادًا، وأمثالًا، ونظراء؛ فهذا كافر بالاتفاق، ولكن من قال ذلك عن تأويل: نُذِرْ عَنْهُ الشبهة وَصَفَ الْكَفَرَ.

من أبصر وقرأ النصوص تبين له أن الله

سبحانه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ (وَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ، وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ):

الشرح

أي: من أبصر هذا وقرأ النصوص وتدبرها: تبين له أن الله - سبحانه وتعالى - لا يماثل شيئاً من مخلوقاته، وأنه كامل في ذاته وصفاته وأفعاله، وأنه لا شبيه له، ولا مثيل له ولا سمي له، ولا كفو له؛ فمن أبصر هذا ونظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات صفات الله على الوجه اللائق، ونفي المماثلة والتشبيه، وما توعد الله به المشبهة: اعتبر، واتضح له الحقيقة، وحينئذ ينزجر عن مثل قول الكفار؛ فإن الكفار هم الذين يمثلون الله بخلفه، وينقصونه؛ كاليهود وأشباههم، قال تعالى: ﴿وَكَاذِبُ الْيَهُودِ يُدُّ إِلَهَ مَعْلُومَةٍ﴾ [المائدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْفَرِيقِ قَالُوا إِنَّ إِلَهَ اللَّهِ فُتُورٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وكذلك المشبهة الذين يقولون: إن الله مثل المخلوقات، وإن سمعه كسمعهم، وهكذا.

فمن أبصر هذا: اعتبر، وانزجر، عن أن يقول قولاً يماثل قول الكفار.

الله تعالى بصفاته ليس كالإنسان

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَعَلِمَ أَنَّهُ بِصَفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ):

الشرح

أي: علم أن الرب بصفاته ليس كالإنسان؛ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالله لا سمي له، ولا مثل له، ولا يد له، ولا كفو له - سبحانه وتعالى -؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله.

رؤية المؤمنين لربهم

أقوال أهل العلم في رؤية المؤمنين لربهم

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (وَالرُّؤْيَى حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَغَيَّرُ إِحَاطَةً وَلَا كَيْفِيَّةً).

الشرح

بين المؤلف -رحمه- الله هنا اعتقاد أهل السنة والجماعة في أن الرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية، ولم يذكر الرؤية قبل دخول الجنة. والرؤية قبل دخول الجنة، فيها ثلاثة أقوال لأهل العلم:

القول الأول: أن المؤمنين يرون ربهم في المحشر؛ في الموقف قبل دخول الجنة؛ لا يراه إلا المؤمنون خاصة.

القول الثاني: أنه يراه أهل الموقف جميعًا؛ مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفرة، فلا يرونه بعد ذلك.

القول الثالث: أنه يراه المؤمنون والمنافقون؛ لما ثبت في «الصحيحين» من أن الكفرة يساقون إلى النار، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، وأن الله يتجلى لهم^(١).

هذه ثلاثة أقوال لأهل العلم؛ أما رؤية المؤمن لربه في الجنة بعد الموقف؛ فهذه لا شك فيها، ومسألة رؤية المؤمنين لربهم في الجنة من أشرف مسائل أصول الدين، وهي التي لأجلها سُمِّرَ المشمرون، وتنافس المتنافسون، ولأجلها حُرِّمَ الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن يابه مطرودون.

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ۞.

وهي من المسائل التي اشتد النزاع فيها بين أهل السنة وبين المخالفين لهم من أهل البدع؛ كمسألة الكلام، وكذلك أيضًا: مسألة العلو؛ علو الله فوق سمواته، وفوق عرشه. فهذه المسائل الثلاث، وهذه الصفات الثلاثة هي العلامة الفارقة بين أهل السنة وبين أهل البدع، فهذه قاعدة: فمن أثبت رؤية الله في الآخرة، وأثبت كلام الله، وأن الله يتكلم بحرف وصوت، وأن كلام الله لفظ ومعنى، فهو من أهل السنة، ومن أنكرها أو نفاها: فهو من أهل البدعة.

ومسألة الرؤية: مسألة أيضًا اشتد النزاع فيها بين أهل السنة وبين أهل البدع؛ مثل مسألة الكلام، فأهل البدع لهم مصنفات ومؤلفات يستعرضون أدلة أهل السنة ويردون عليها، كما أننا نستعرض أدلة الخوارج^(١) والمعتزلة، وأدلة الأشاعرة ونرد عليها، وقد وُزِعَتْ بَعْضُ الرسائل من سنتين بعض الطوائف، منها: رسالة في المسجد الحرام، فيها نفي الرؤية، ونفي الكلام، ونفي العلو والفوقية، ويقولون فيها: إن هذا هو الحق؛ فيردون على أهل السنة، ويسمون أنفسهم: أهل الحق والاستقامة، فلا يُظَنُّ ظَنَّ أن بحث مثل هذه المسائل بعيدٌ عَنَّا؛ قد انقضى دهره وفات أوانه؛ بل الذين يتبنون نفي الرؤية من المعتزلة والخوارج الإباضية؛ هم موجودون الآن، وكذلك الكلاية والأشعرية، ولهم مؤلفات في هذا

(١) سما بهذا؛ لخروجهم على علي ۞، ونزلوا بأرض حروراء فسماوا بالحرورية، وهم الذين يَكْفُرُونَ أصحاب الكبار ويقولون بأنهم مخلدون في النار، كما يقولون بالخروج على أئمة الجور، وأن الإمامة جائزة في غير قریش، وهم يكفرون عثمان، وعليًا، وطلحة، والزبير، وعائشة ۞، ويعظمون أبا بكر وعمر ۞. انظر: «الفصل في الملل والنحل» (١١٣/٢)، و«الملل والنحل» (١٥٤/١)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (١٥٠).

الباب، ولذلك ينبغي على طالب العلم اتباع السنة، ومنهج السلف الصالح، وأهل السنة والجماعة.

أقوال المذاهب في رؤية الله في الآخرة:

والواجب على الإنسان أن يلزم الحق، وأن يبحث عن ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيعمل به، ويعمل بما قرره أهل السنة والجماعة من الحق المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فرؤية الله في الآخرة مسألة عظيمة من أشرف مسائل أصول الدين، وقد اختلف الناس في رؤية الله في الآخرة على ثلاثة مذاهب مشهورة:

المذهب الأول: مذهب أهل السنة والجماعة: وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ومن تبعهم من الأئمة؛ أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عياناً؛ مواجهة لهم، وهذا مذهب الصحابة والتابعين والأئمة وتابعيهم، وأئمة الدين كالأئمة الأربعة - أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد - وسفيان الثوري، وأبي عمرو الأوزاعي، والليث بن سعد، وأبي يوسف، وغيرهم من الأئمة والعلماء، وكذلك أيضاً سائر الفقهاء، وأهل الحديث: كلهم على هذا الاعتقاد، وكذلك بعض الطوائف التي تنسب إلى الحديث: كالكرامية، والسالمية: كلهم يثبتون أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عياناً؛ مواجهة؛ فهم يثبتون رؤية الله بالإبصار، ويثبتون الفوقية أيضاً؛ وأنهم يرون ربهم من فوقهم، فهم يثبتون الأمرين: يثبتون الفوقية والعلو، ويثبتون الرؤية^(١).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤٨٩/٦)، (١٢/١١٧)، (٢٤٧، ٢٤٨، ٢٩٧)، و«منهاج السنة النبوية» (٢/٢٥٥)، و«بيان تلبس الجهمية» (٧/٤١٩-٤١٨)، و«حادي الأرواح» (ص ٢٠٤).

المذهب الثاني: نقأ رؤية الله في الآخرة؛ وهم القائلون بأن الله لا يرى في الآخرة، ولا يرى بالأبصار، وليس له جهة، وليس له مكان؛ فهؤلاء نفوا الرؤية، ونفوا الفوقية، وهذا مذهب الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، والإمامية^(١)؛ فإن الإمامية لهم قولان: القدماء من الإمامية وهم الرافضة؛ يثبتون الرؤية، وجمهور المتأخرين؛ ينفون الرؤية؛ فيكون نفي الرؤية هو مذهب الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، وجمهور المتأخرين من الإمامية، ويسمون الإمامية؛ لأنهم يقولون: بإمامة اثني عشر إماماً، فهؤلاء ينفون الأمرين؛ ينفون الرؤية، وينفون الفوقية والعلو، ويقولون: إن الله ليس له مكان؛ فليس فوق المخلوقات؛ بل هو في كل مكان - نسأل الله السلامة والعافية -.

المذهب الثالث: مذهب بين مذهب أهل السنة، وبين مذهب الجهمية، وهم القائلون: إن الله يرى لكن ليس في جهة؛ فأثبتوا الرؤية ونفوا الفوقية والعلو، فقالوا: يرى لا في جهة، وهذا مذهب طائفة من الكلابية والأشاعرة، فهم مذنبون بين هؤلاء وبين هؤلاء؛ حيث أثبتوا الرؤية؛ فكانوا مع أهل السنة، ونفوا العلو والفوقية؛ فكانوا مع المعتزلة، وتجد في الغالب أن مذهب الأشاعرة مذبذب بين هؤلاء وبين هؤلاء، ولهذا يسميهم بعض العلماء «خنائي» أي: لا أنثى ولا ذكر.

أجلة أهل السنة في مسألة إثبات الرؤية

وأهل السنة اعتصموا بالكتاب والسنة، واستدلوا بالنصوص الكثيرة من

(١) من فرق الرافضة سموا بالإمامية؛ لأنهم يقولون بإمامة الاثني عشر. ويُسمون الرافضة؛ لرفضهم زيد بن علي، حينما عدَّ أباً بكر وعمر، فترخَّ عنهم، وقال: هما وزيراً جدي رسول الله ﷺ؛ فرفضوه. فقال: رفضتموني. رفضتموني.

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على إثبات الرؤية، واستدلوا أيضاً بالإجماع والعقل الصريح وأدلتهم كثيرة في هذا الباب منها:

اجلهم من القرآن الكريم:

الدليل الأول: قول الله تعالى: ﴿لَمَّا تَأْتَاكَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (آ: ٣٥)، والمعنى: أن المؤمنين (لهم ما يشاءون) أي: في الجنة (ولدينا مزيد) أي: رؤية الله في الآخرة، فقد فسر العلماء المزيد بأنه: رؤية الله في الآخرة.

الدليل الثاني: قول الله - تعالى - : ﴿لَلَّذِينَ آمَنُوا لِمُتَىٰ وَرِثَاةٌ﴾ (يونس: ٢٦)، والحسن المراد بها: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم؛ كما جاء تفسير ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم بأن «الزَّيَادَةُ هِيَ النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ»^(١).

الدليل الثالث: قول الله - تعالى - : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْكَافُورُ﴾ (إِنْ رَبَّكَ نَاطِرٌ) (الزَّيَادَةُ: ٢٢-٢٣)، ناضرة - بالضاد - من النضرة والبهاء والحسن، ﴿إِنْ رَبَّكَ نَاطِرٌ﴾ (الزَّيَادَةُ: ٢٣) - بالطاء - من النظر بالعين، ووجه الدلالة من الآية على أن الله يرى في الآخرة: أن الله - سبحانه وتعالى - أضاف النظر إلى الوجه الذي هو محله، وعدَّاه بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين، وأخلى الكلام من قرينة تدل على خلاف حقيقة موضوعه؛ فدلَّ على أن المراد: النظر بالعين التي في الوجه، إلى الرب - جل جلاله - وذلك: أن النظر له عدة استعمالات، بحسب صلاته وتغيُّبه:

فالنظر إذا عُذِيَ بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار؛ كقوله تعالى:

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب، وسيأتي لفظه.

﴿أَنْظُرُوا نَفْسٌ مِنْ نَفْسِكُمْ﴾ (الحديد: ١٣)؛ أي: توقفوا وانظروا. وإذا عُذِيَ به في فمعناه: التفكير والاعتبار؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

وإذا عُذِيَ به إلى فمعناه: المعاينة بالأبصار؛ كقوله: ﴿أَنْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَجْهَدُ﴾ (الأنعام: ٩٩).

فقوله هنا: ﴿إِنْ رَبَّكَ نَاطِرٌ﴾ (الزَّيَادَةُ: ٢٣): معناه: النظر بالعين.

الدليل الرابع: قول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (المطففين: ١٥) وجه الدلالة: أن الله - سبحانه وتعالى - أخبر أن الكفار محجوبون عن الله فلا يرونه؛ فدلَّ على أن أولياءه يرونه، وإلا فلو كان المؤمنون لا يرونه؛ لتساووا هم والكفار في الحجب، فلمَّا أن حجب الكفار؛ دلَّ على أن المؤمنين لا يحجبون، وبهذا استدلل الإمام الشافعي بكثرة فقال: لما أن حجب هؤلاء في السخط دلَّ أن أولياءه يرونه في الرضا.

هذه أمثلة من الكتاب العزيز على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

وأما السنة: فالأحاديث فيها متواترة رواها من الصحابة نحو ثلاثين صحابياً؛ فهي في «الصحاح» و«السنن» و«المسانيد» و«المعاجيم»، ساقها العلامة ابن القيم بكثرة في كتابه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»^(١)، ومن المعلوم أن المتواتر يفيد العلم القطعي؛ فلا تجوز مخالفته، ومع ذلك خالف الجهمية والمعتزلة هذه النصوص؛ وهي متواترة؛ ومن أمثلتها:

(١) انظر الباب الخامس والستين من الكتاب (ص ١٩٦).

الدليل الأول: ما ثبت في «الصحاحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ - رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -: هَلْ تُصَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَهَلْ تُصَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»^(١).

الدليل الثاني: ما ثبت في «الصحاحين» من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَتَنَظَّرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ يَعْنِي: الْبَدْرِ - فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُصَامُونَ فِي رُلُوبِهِ»^(٢).

الدليل الثالث: حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فَضْطٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يُنْظَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِجَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَذْنٌ»^(٣) رواه الشيخان.

الدليل الرابع: حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه وفيه: «ثُمَّ لَيَقْفَنَ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ جَبَابٌ وَلَا تَرْجَمَانٌ يَرْجِمُ لَهُ ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُوتِكَ مَالاً؟ فليقولَنَّ: بلى، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أُزِيلْ إِلَيْكَ رَسُولاً؟ فليقولَنَّ: بلى...»^(٤)؛ والشاهد في الحديث قوله: «لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ جَبَابٌ»، وهذا صريح في الرؤية.

الدليل الخامس: ما ثبت في «صحاح مسلم» من حديث صهيب

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٨) والسياق له، ومسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٤) والسياق له، ومسلم (٦٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٤٤)، ومسلم (١٨٠)، بهذا السياق.

(٤) أخرجه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).

الرومي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُخْرِجَنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْجَبَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»^(١) رواه الإمام مسلم في «صحاحه».

هذه أمثلة من النصوص المتواترة، وهي كثيرة كما سبق، ولما ساق العلامة ابن القيم رحمه الله هذه النصوص قال بعد ذلك: فكانت تشاهد رسول الله ﷺ وهو يقول ذلك وبلغه للأمة، ولا شيء أقر لأعينهم منه.

وشهدت الجهمية والفرعونية^(٢)، والرافضة، والقرامطة^(٣)، والباطنية^(٤)،

(١) أخرجه مسلم (١٨١)، هكذا من طريق عبدالرحمن بن مهدي، ثم أخرجه من طريق يزيد بن هارون، وفيه زيادة، وهي: «ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَلَّذِينَ آمَنُوا وَلِلسَّعَةِ زَوِيدَةٌ﴾ (يونس: ٢٦)».

(٢) لقب يطلق على فضاء العلو.

(٣) هم أتباع حمدان القرمطي، وكان رجلاً متوارثاً صار إليه أحد دعاة الباطنية، ودعوه إلى معتقدهم فقبل الدعوة، ثم صار يدعو الناس إليها، وضل بسببه خلق كثير، وكان ظهورهم في عام ٢٨١هـ. في خلافة المعتضد، ودخلوا مكة سنة ٣١٧هـ، واقتلعوا الحجر الأسود، وقتلوا المسلمين في الحرم، وقد أعيد الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩هـ على يد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكي النيسابوري رحمه الله. انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (١٢٢).

(٤) سموا بذلك؛ لأنهم يقولون: إن للنصوص ظاهراً وباطناً، ولكل تنزيل تأويلًا. ولهم ألقاب كثيرة: منها: القرامطة، والخرمية، والإسماعيلية، والمزدكية، والتعليمية، والبابكية، والسبعية، والملحدة. ومنهم: النصيرية، والدروز، وهم يعتقدون أن الإله لا يوصف بوجود ولا عدم، ولا هو معلوم ولا مجهول، ومذهبهم في النبوات قريب من مذهب الفلاسفة، ويقولون: إنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق، يرجع إليه في تأويل الظواهر، وانفقوا على إنكار القيامة، والمثول =

وفرق الصابئة^(١) ،

= عنهم الإباحة المطلقة، ورفع الحجاب، واستباحة المحظورات، وإنكار الشرائع، وهم يتكبرون ذلك إذا نُسب إليهم. انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢٩/٢)، (٣٢)، واعتقادات فرق المسلمين والمشرىين (١١٩)، و«فضائح الباطنية» للغزالي (٤٦، ٤٠، ١١).

(١) الصابئة: في «الملل والنحل» للشهرستاني (٧٠/٢)، و«الفرق في زمان إبراهيم الخليل» راجعه إلى صنفين: الصابئة والحنفاء، ويذكر أن كلا الصنفين قال: إنا نحتاج في معرفة الله وطاعته إلى متوسط، لكن قالت الصابئة: يجب أن يكون ذلك المتوسط روحانيًا لا جسمانيًا، وقالت الحنفاء: بل يكون من جنس البشر، وتكون له العصمة والتأييد.

يقول الشهرستاني (٧١/٢): «ثم لما ينطرق للصابئة الاقتصار على الروحانيات البحتة، فزعت جماعة إلى هياكلها وهي السيارات السبع وبعض التوابت».

وفي (٩٥/٢) يرجع لقب «الصابئة» إلى اللغة فيقول: «قد ذكرنا أن الصبوة في مقابلة الحنفية، وفي اللغة: صبا الرجل إذا مال وزاغ، فيحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قبل لهم الصابئة».

ويقول ابن تيمية «الرد على المنطقيين» (ص ٢٨٨): «إن الصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون».

فالأولون هم الذين اتنى الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالشَّكَنِيَّ وَالْقَبِيلِيَّ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَكَانَ صِلًا بَيْنَهُمْ فَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢).

ويقول البيروني «الآثار الباقية عن القرون الخالية» (ص ٢٠٥) عن صابئة حران: «نحن لا نعلم منهم إلا أنهم أناس يوحدون الله، وينزهونه عن القبائح، ويصفونه بالسلب لا الإيجاب، كقولهم: لا يُحد، ولا يُرى، ولا يُظلم، ولا يجور، ويسمونهم بالأسماء الحسنى مجازًا إذ ليس عندهم صفة بالحقيقة، وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامه، ويقولون بحياتها وتعلقها وسمعها وبصرها، ويعظمون الأنوار. وابن تيمية يصف بعض النفاة من فلاسفة ومعتزلة وغيرهم بالصابئة إما لنشابه تصور هذه الفرق لذات الله سبحانه وتعالى، أو أنه يلحظ المعنى اللغوي لـ«الصابئة»: =

والمجوس^(١)، واليونان بكفر من اعتقد ذلك وأنه من أهل التشبيه والتجسيم، وساعدهم على ذلك كل عدو للسنن وأهلها، والله ناصر كتابه وسنة رسوله ولو كره الكافرون^(٢).

الرد على شبه نفاة الرؤية:

يقول ابن القيم: إن هؤلاء الجهمية والفرعونية والرافضة وغيرهم شهدوا بكفر من أثبت الرؤية؛ وقالوا: إنه من أهل التشبيه والتجسيم؛ لأنه شبه الله بخلقه؛ لأن الذي يرى هو الجسم الذي يكون محدودًا ومجسمًا؛ أما الرب فلا يرى؛ لأنه ليس بجسم وليس محدودًا، وليس له مكان يحصره، هكذا يقولون! من أثبت العلو وأن الله له مكان، وأثبت الرؤية: فهو كافر؛ لأنه مشبه ومجسم؛ ولهذا: فأهل البدع من هذه الأصناف

= وانظر لزيادة التفصيل عن الصابئة: «الآثار الباقية» (ص ٢٠٤-٢٠٧)، و«الملل والنحل» (٧٠-٧٢)، (٩٥ وما بعدها)، واعتقادات فرق المسلمين والمشرىين» للرازي (ص ٩٠)، و«الخطط» للمقريزي (٣٤٤/٢)، و«الرد على المنطقيين» (ص ٢٨٧-٢٨٩)، و(٤٥٤-٤٥٥)، و«تفسير الطبري» ط - دار المعارف (١٤٥/٢-١٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٨٩-١٩١).

(١) هم الذين يعبدون النار؛ فهم يعتقدون أنها أعظم شيء في الدنيا، ويسجدون للشمس إذا طلعت، ويتكبرون نبوة آدم ونوح عليهما السلام، وقالوا: لم يرسل الله عز وجل - إلا رسولًا واحدًا، لا ندري من هو، ويقولون بإثبات أصلين: النور والظلمة، وفي باب الشريعة يستحلون نكاح الأمهات، والبنات، والأخوات، وسائر المحرمات، ويتطهرون بأبوال البقر تدينًا، ولذا قيل: إن أصل الكلمة النجوس، وقد نشأت المجوسية في بلاد الفرس. انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشرىين» (١٣٤)، و«البرهان في عقائد أهل الأديان» (٥٧)، و«الملل والنحل» (٧٣).

(٢) انظر: «حادي الأرواح» (ص ٢١١).

يُخبرون أهل السنة والجماعة.

وقد أجابوا عن هذه النصوص من الكتاب والسنة، بالتأويل والتحريف، وقالوا على لسان بشر المريسي الجهمي المعتزلي: إن المراد بالرؤية في هذه الأحاديث: الرؤية القلبية، وهي: العلم، فمعنى قول النبي ﷺ «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ»^(١)، والمراد: تعلمون ربكم؛ لا تتخللونكم فيه الشكوك والريب؛ كما تعلمون في القمر أنه قمر، وليس المراد الرؤية بالأبصار.

قالوا: وأنتم أيها المشبهة - يعنون أهل السنة - توهمتم أن المراد بالرؤية: الرؤية بالأبصار، وهذا تشبيه منكم للرب وتنقص له، فليس المراد: الرؤية باليبصر؛ لأن هذا تشبيه وتجسيم، وإنما المراد: الرؤية بالقلب.

وقالوا: اللغة العربية تدل على ما قلنا؛ فالعرب تقول للأعمى: ما أبصره! يعني: ما أعلمه، فالمراد: العلم، وتقول العرب: نظرت في المسألة، وليس للمسألة جرم ينظر إليه، وليس المراد: الرؤية - كما توهمون - بالأبصار؛ لأن الله نفى ذلك عن نفسه بقوله: «لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ» [النعام: ١٠٣].

قالوا: والدليل على ما قلنا: أن الرؤية بمعنى العلم؛ نصوص كثيرة، منها: قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْآيَةِ» [القصص: ١٦]؛ أي: ألم تعلم؛ فدل على أن الرؤية في هذه النصوص المراد بها: العلم.

هذا هو جواب نفاة الرؤية عن هذه النصوص.

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه قريباً

وأجاب أهل السنة عن هذا الاعتراض بأجوبة:

الجواب الأول: أن النبي ﷺ فسر الرؤية في هذه الأحاديث برؤية البصر، فالنبي ﷺ قرن التفسير بالحديث فلم يدع لمتأول مقالاً؛ فقال: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»^(١)، وهذا صريح في رؤية العين؛ أي: الرؤية بالبصر.

الثاني: أن تفسير الرؤية با - تفسير مخالف لتفسير النبي ﷺ، مع كونه لم يؤثر عن عالم أنه فسر الرؤية في هذه الأحاديث بالعلم، إلا جاهل ظالم، فكيف يترك تفسير رسول الله ﷺ المقرون بحديثه، إلى تفسير جاهل ضال، ليس له مستند، ولا يؤثر عن عالم؟!

الجواب الثالث: أن أهل اللغة أجمعوا على أن اللقاء إنما يكون معانية بالأبصار، فنقل أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بـ«ثعلب»؛ إجماع أهل اللغة أن المراد باللقاء في قول الله عز وجل: «...وَكَانَ الْكَاذِبِينَ رَجِيمًا» [الأنعام: ١٢٢] يَجْتَمِعُ يَوْمَ يَقُودُهُ سَلَامٌ [الأعراف: ٤٣-٤٤] أن اللقاء هو: المعانية بالأبصار؛ نقله عنهم بسند صحيح؛ فإجماع أهل اللغة على أن اللقاء هو: المعانية بالأبصار.

رابعاً: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ»^(٢)؛ فأدخل كاف التشبيه على ما المصدرية الموصولة بـ«ترون» التي تُؤوَّلُ مع صلتها بالمصدر، وهي الرؤية، فيكون المعنى: إنكم ترون ربكم كروية الشمس والقمر، ومعلوم أننا نرى الشمس والقمر بأبصارنا؛ من فوقنا، فيجب أن تكون رؤية الله كذلك بالأبصار من فوق.

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه قبل قليل، دون ذكر الشمس فيه
(٢) سبق قريباً.

الخامس: أننا لا ننكر أن الرؤية لها معان متعددة؛ فتكون بالبصر، وتكون بالقلب، وتكون رؤية رؤيا منام؛ كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»^(١)؛ أي: في النوم، ولكن لا بد من قرينة تبين المعنى المراد، وأي قرينة فوق هذه القرينة في قوله ﷺ: «فَهَلْ تُنَازِرُونَ فِي رُؤْيَا الضَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قالوا: لا، قَالَ: فُلَيْتُكُمْ تَزُودُهُ كَذْلِكَ...»^(٢)؛ فهل هذا مما يتعلق برؤية البصر أو مما يتعلق برؤية القلب؟! وهل يخفى هذا على ذي البصيرة؟!!

السادس: أن تفسير الرؤية بالعلم تفسير مخالف لتفسير النبي ﷺ، ومخالف للغة، ويترتب عليه فساد المعنى، مع ما فيه من المعاندة لرسول الله ﷺ؛ فإن تفسيركم أيها النفاة للرؤية بالعلم وقولكم: معنى إنكم ترون ربكم كما ترون القمر أي: تعلمون أن لكم رباً؛ لا تشكون في ربوبيته، كما لا تشكون في القمر أنه قمر، نقول جواباً عليه: هذا الشك زائل عن المؤمنين وعن الكفار يوم القيامة؛ لأنه في موقف القيامة كل يعلم ربه؛ حتى الكفرة، وحتى النفاة، وحتى من أنكروا وجود الله؛ إذا كان يوم القيامة علموا بربهم وتيقنوا ربهم، فالشك في الربوبية زائل عن جميع أهل الموقف؛ مؤمنهم وكافرهم، والنبي ﷺ خص المؤمنين بالرؤية وبشرهم هذه

(١) أخرجه أحمد (٣٧٨/٥)، والدارمي (٢١٤٩)، واللفظ له، من حديث عبدالرحمن بن عائش رضي الله عنه، وقال الهيثمي (٣٦٨/٧): «وقد سئل الإمام أحمد عن حديث عبدالرحمن بن عائش، عن النبي ﷺ بهذا الحديث فذكر أنه صواب هذا معناه». وله شواهد من حديث ابن عباس، ومعاذ بن جبل، وجابر بن سمرة، وأبي أمامة، وثوبان، وأم الطفيل. وانظر بتوسع للكلام على طرق هذه الأحاديث وتصحيحها؛ «ظلال الجنة» للآلاني (٣٣٨)، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١. (٢) أخرجه البخاري (٨٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

البشرى؛ فما قيمة هذه البشرى، وما فائدة تخصيص المؤمنين بالرؤية إذا كان المراد بها مجرد العلم؟! فتفسير الرؤية بالعلم في هذه الأحاديث - مع كونه مخالفاً للغة - يُفْسِدُ المعنى ولا يكون للحديث معنى سليم، مع ما فيه من المعاندة للرسول ﷺ.

لكن النفاة للرؤية - لما أجيبوا بهذه الأجوبة - قالوا: ألجأنا إلى نفي رؤية الله في الآخرة، حُكِّمَ العقل بأن رؤيته - تعالى - محال؛ لا يُتَصَوَّر إمكانها؛ فهم يرون - كما سيأتي في أدلتهم - أن الله ليس بجسم، ولا داخل العالم، ولا خارجه، وما كان كذلك لا يمكن رؤيته، ولا يتصور إمكانها.

وأجاب أهل السنة: فقالوا: قولكم: إن العقل يحكم بأن الرؤية محالة؛ فهذه دعوى خالفكم فيها أكثر العقلاء، بل لو عُرض على العقل السليم موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال.

تأليل الإجماع:

أجمع الصحابة والتابعون ومن بعدهم من الأئمة قبل مجيء الجهمية، والرافضة، والمعتزلة، والخوارج، على أن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم عياناً في الآخرة، وما زال العلماء والأئمة وأهل السنة يتناقلون هذا الإجماع؛ يرويه المتأخر عن المتقدم، والمتقدم يورثه للمتأخر؛ يقرؤون ذلك، ويفتون بذلك، ويقولون، ويتجملون به، ويتوارثونه جيلاً عن جيل، وقرناً بعد قرن؛ بل كان من أكثر رجائهم، وأجزل ثوابهم عند الله؛ أنهم يرونه في الآخرة، فأنتم أيها النفاة نفيتهم أعظم نعيم يعطاه أهل الجنة، وهو: الرؤية! وقد نقل البيهقي رحمته الله إجماع الصحابة على إثبات الرؤية^(١)،

(١) انظر: «حادي الأرواح» (ص ٢٢٣).

ولا زال أهل السنة والجماعة والأئمة والعلماء يؤلفون في تقرير ذلك وإثباته المؤلفات، ويعدون من أنكر الرؤية معطلاً؛ من شر أهل التعطيل.

ومن تراجمهم في تلك الكتب والمؤلفات: باب إثبات الرؤية والرد على الجهمية، باب الوعيد لمنكر الرؤية، كما فعل شيخ الإسلام وغيره ﷺ.

أما دليلهم من العقل فقالوا: إن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بوجود، ومن كان أكمل وجوداً؛ كان أحق بالرؤية من غيره، والله - تعالى - أكمل وجوداً من غيره؛ فهو أحق أن يرى من غيره، يوضح ذلك: أن تعذر الرؤية إما لخفاء المرئي وإما لضعف آفة في الرائي، والله - تعالى - ليس به خفاء؛ فهو أظهر من كل موجود، وإنما تعذر رؤيته في الدنيا؛ لضعف القوة الباصرة؛ فإذا كان يوم القيامة نُشئ المؤمنون تنشئة قوية؛ بجوارح وأبصار قوية؛ يتحملون بها رؤية الله في الآخرة؛ أما في الدنيا: فلا يستطيعون أن يروا الله؛ لضعف بشرتهم؛ ولهذا لما سأل موسى ربه الرؤية قال الله: ﴿لَنْ تَرَىٰ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَىٰ الْجَبَلِ﴾ [الاعراف: ١٤٣]، فلما تجلى الله للجبل تدكدك الجبل وخر موسى صعقاً. وإذا كان الإنسان في الدنيا لا يستطيع أن يرى الشمس ويُجِدَ النظر إليها؛ وهي مخلوقة؛ فكيف يستطيع أن يرى الله؟! بل إن الإنسان لا يستطيع أن يرى الملك على صورته إلا إذا قواه الله؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَكُلُّ جَبَلٍ مِّنْهُ مَلَكٌ لِّمَلَأَتُهُ رُحُلًا﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُتِنَ الْأُمَّةُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، يعني: لمات، فلا يستطيع الإنسان أن يرى الملك على صورته، والنبي ﷺ لما رأى الملك على صورته رعب رعباً شديداً وذهب إلى زوجته، وقال: «دُثِرُونِي دُثِرُونِي»، لكن قواه الله. فإذا كان الإنسان لا يستطيع رؤية الملك ورؤية الشمس؛ فكيف يستطيع أن يرى

الله في الدنيا؟! لكن في الآخرة ينشئهم الله تنشئة قوية يتحملون فيها رؤية الله عز وجل.

هذه أدلة أهل السنة من الكتاب والسنة والإجماع والعقل على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

أما الكلاية والأشاعة فقد أثبتوا الرؤية، ونفوا الجهة والفوقية؛ وأرادوا بذلك: أن يجمعوا بين الاعتقادين: بين اعتقاد نفي الجسمية عن الله، وبين إثبات الرؤية لما ليس بجسم بالحس، فأرادوا أن يثبتوا الرؤية؛ لأنهم لم يجرؤوا على إنكارها، ولم يستطيعوا ذلك؛ لأن النصوص وردت بها، لكن أرادوا أن يوافقوا المعتزلة في نفي الجهة والفوقية؛ فهم لا يريدون أن يفرقوا المعتزلة في هذا الاعتقاد؛ أي: في نفي الفوقية عن الله والعلو؛ لأن كلاهما نفيان أن يكون الله جسماً؛ ولا يكون المكان إلا للأجسام؛ فما دام أن الله ليس بجسم؛ فلا يكون له مكان، فأراد الأشاعرة أن يكونوا مع أهل السنة في إثبات الرؤية، وأن يكونوا مع المعتزلة في نفي الجهة والفوقية، فعجزوا عن ذلك؛ فلجؤوا إلى حجج السفسطائية؛ وهي الحجج المموهة، التي توهم أنها حجة وليست بحجة؛ لأن الحجج أقسام:

فهناك حجج يقينية؛ تفيد اليقين، وهناك حجج دون اليقين، وهناك حجج موهمة مرآية؛ وهي: التي توهم أنها حجة وليست بحجة، وهذه كحجة الأشاعرة هنا، كما أن الناس أقسام؛ فمن الناس من هو فاضل تام الفضيلة، ومن الناس من هو دون ذلك في الفضل، ومن الناس من هو مرآة يوهم أنه فاضل وليس بفاضل، فلما عجزوا عن ذلك قالوا: نثبت الرؤية، وننفي الجهة والفوقية فقالوا: إن الله يُرى لا في جهة؛ لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال.

ناقشهم أهل السنة بجوابين:

الجواب الأول: وهو أن يقال: إنكم أيها الكلابية والأشاعرة انفردتم بهذا القول عن طوائف بني آدم، وخرجتم به عن ضرورات العقل، فإنه في بداءة العقل أن كل مرئي لا بد أن يكون مواجهًا للرائي؛ مباينًا له، لا يمكن أن يكون هناك مرئي قائم بنفسه إلا بجهة للرائي، أما أن يوجد مرئي ليس في جهة فهذا لا يُعقل.

ولهذا ضحك جمهور العقلاء من الكلابية والأشعرية حينما أثبتوا الرؤية ونفوا الجهة، قالوا: هذا لا يمكن ولا يُتصور؛ ولهذا أنكر على الكلابية والأشاعرة جميع طوائف بني آدم وضحكوا من إثباتهم الرؤية وإنكارهم الجهة والفوقية؛ ولهذا تسلط عليهم المعتزلة وقالوا: أنتم الآن وقعتم في الفخ؛ كيف تثبتون الرؤية ولا تثبتون الجهة؟! لا بد أن تثبتوا الجهة والفوقية؛ فتكونوا أعداء لنا مع المشبهة، أو تنفوا الرؤية؛ فتكونوا غير معقول، ولا يمكن.

الجواب الثاني: ما جاء في الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ الصريحة في أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة؛ كما في الحديث: أن النبي ﷺ سئل هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؟ قَالُوا: لَا قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»^(١)، وفي الحديث الثاني يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا كَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلًا الْبَدْرُ صَحْوًا كَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ

(١) سبق تخريجه.

وتعالى يوم القيامة إلا كما تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا...»^(٢)، وفي الحديث الآخر: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيْنًا»^(٣)، يعني: مواجهةً، فهذه النصوص صريحة في أننا نرى ربنا كما نرى الشمس والقمر، ونحن نرى الشمس والقمر من فوقنا عيانًا. فالأحاديث صريحة في هذا، وليس المراد من الأحاديث: تشبيه الله بالقمر والشمس - تعالى الله عن ذلك - بل المراد: تشبيه الرؤية بالرؤية؛ والمعنى: أننا نرى ربنا يوم القيامة رؤية واضحة؛ لا لبس فيها؛ كما أننا نرى الشمس والقمر رؤية واضحة؛ لا لبس فيها؛ من فوقنا، فالله ليس له مثيل: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»^(٤) [البقرة: ٢٥٥]، سبحانه «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» [نريم: ٢١٥].

وبطل بهذا دعوى الكلابية والأشاعرة من أنه يمكن أن تكون هنالك رؤية بلا جهة؛ لكنهم لمَّا ألزموا بذلك وضيق عليهم الخناق؛ قالوا: عندنا دليل عقلي على أن الرؤية ممكنة بدون جهة؛ وهو أن الإنسان يرى صورته في المرآة وليس في جهة منها؛ فهذه رؤية بدون جهة؛ فكذا الله يرى لا في جهة.

أجاب أهل الحق: بأن هذا تلبس منكم أيها الكلابية والأشاعرة؛ فإن الإنسان لا يرى صورته الحقيقية في المرآة، وإنما يرى خيال صورته التي تنطبع في الجسم الصقيل، وهو أيضًا في جهة منها؛ فتبين بهذا أن هذا الدليل العقلي الذي زعموه: لا قيمة له، وبطل بهذا مذهب الأشاعرة والكلابية.

ومع أنه يلزم الكلابية والأشاعرة أن يثبتوا الجهة والعلو، حتى يكونوا

(١) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) هذا لفظ البخاري (٧٤٣٥) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ، وسبق بالفاظ

من أهل السنة، أو ينفوا الرؤية فيكونوا كالمعتزلة، وأنه لا يمكن لهم البقاء على هذا المذهب، ومع ذلك: فهم أقرب إلى الحق من المعتزلة -نفاة الرؤية-؛ لأن من أثبت شيئاً من الحق؛ فهو أقرب؛ ولو كان متناقضاً؛ لأنهم أثبتوا الرؤية وهي حق، وإن كان يلزمهم أن يثبتوا الغوية والعلو .

وأما النفاة الذين ينفون رؤية الله في الآخرة مثل: الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية، فلهم شبه عقلية، وشبه شرعية، والمراد بالشبه الأدلة، لكن إذا كان المستدل غير محق سمي ما لديه من الأدلة شبهاً.

والأصل الذي قادمهم إلى هذا هو اعتمادهم على العقل، وهو الأساس عند المعتزلة النفاة، فبلاؤهم إنما جاءهم من تقديم العقل على النقل، وجعل العقل أساس فهمهم، وتركهم كتاب الله وراءهم ظهرياً؛ فلما اعتمدوا على العقل: أولوا النصوص التي تدل على إثبات الرؤية؛ فلما كان العقل هو الأصل والأساس عند النفاة، حرّفوا لأجله النصوص من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ حتى يوافق عقولهم.

فهم الشبه العقلية لنفاة الرؤية:

أولاً: هو أنهم قالوا: يلزم من إثبات رؤية الله؛ أن يكون الله ذا جهة، ويلزم من كونه ذا جهة أن يكون جسماً، أو أن يكون محدوداً ومتحيزاً، والله ليس في جهة، وليس جسماً، وليس محدوداً، ولا متحيزاً؛ فالرؤية منتفية؛ لانتهاء لازمها، وهو الجهة، ولو أثبتنا الجهة فإن هذا تنقّص للرب .

وقد يصوغون هذا الدليل بصياغة منطقية، فيصوغون الدليل مركباً من مقدمتين ونتيجة كما هو معروف عند أهل المنطق؛ فيقولون في صياغة الدليل: الله ليس في جهة؛ وكل ما ليس في جهة لا يرى، فالنتيجة: الله لا

يرى. هذا الدليل المنطقي، مكون من مقدمتين ونتيجة، والنتيجة مستخلصة من المقدمتين: الله ليس في جهة، هذه المقدمة الأولى مكونة من مبتدأ، أو خبر .

المقدمة الثانية: كل ما ليس في جهة لا يرى، النتيجة تؤخذ من المقدمتين، وهو أنك تحذف مبتدأ الجملة الأولى، وخبر الجملة الثانية، فتأخذ النتيجة وهي السابقة: الله لا يرى، وأنت إذا سلمت لهم المقدمتين. ألزموك بالنتيجة، لكن الطريقة في هذا: أنك تعارض المقدمة الأولى؛ فلا تسلم بها، أو تعارض المقدمة الثانية: فلا تسلم بها، أو تعارض كلا المقدمتين، حتى تُبطل النتيجة.

والجواب عن هذه الشبهة:

أولاً: أن يقال: ما قولكم في الجهة؟ تقولون: إنه يلزم من إثبات رؤية الله أن يكون في جهة، هل مرادكم بالجهة أمراً وجودياً؟ أو أمراً عديماً؟ هل مرادكم بالجهة أمراً مخلوقاً؟ أو أمراً عديماً؟ ومن المعلوم أنه ليس هناك في هذا العالم إلا الخالق والمخلوق، فإن أردتم بالجهة أمراً وجودياً؛ أي: أمراً مخلوقاً؛ فالله منزّه عن أن يكون في جهة بهذا المعنى، أو في شيء من مخلوقاته؛ فهو سبحانه لم يدخل في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته؛ فهو بائن عنهم - سبحانه وتعالى -، فإن أردتم بالجهة جهة وجودية مخلوقة؛ تحويه وتحصره، وتحيط به إحاطة الظرف بالمظروف؛ فالله منزّه عن الجهة بهذا المعنى؛ لأن الله ليس في جهة من خلقه، وليس في شيء من خلقه، ولا يحويه، ولا يحصره شيء من خلقه - سبحانه وتعالى -؛ فهو أعظم، وأعلى، وأجل من ذلك، وهو متميز عن خلقه، منفصل بائن عنهم - سبحانه وتعالى - .

فإنه ليس في جهة بهذا المعنى. وإن أردتم بالجهة أمراً عديمياً غير مخلوق، وهو ما فوق العرش؛ فإن نفيكم الجهة بهذا المعنى باطل، فإنه في جهة العلو بعد أن تنتهي المخلوقات إلى سقف عرش الرحمن؛ فإذا لا بد من التفصيل والاستفصال، فإن أردتم بالجهة أمراً مخلوقاً؛ فإنه ليس في جهة، وإن أردتم بالجهة أمراً عديمياً، وهو ما فوق العرش، فإنه في جهة بهذا الاعتبار. وعلى هذا نقول:

المقدمة الأولى باطلة؛ قولكم: الله ليس في جهة، إن أريد به أمراً عديمياً؛ نقول: هذه المقدمة باطلة، ولا دليل على إثباتها، بل نقول: الله في جهة بهذا المعنى؛ لأن الجهة أمر عديمي، والمعنى: أن الله في العلو؛ فوق العرش، وإن أردتم بالجهة أمراً وجودياً؛ بطلت المقدمة الثانية، وهو قولكم: كل ما ليس في جهة؛ لا يرى؛ لأنه لا يلزم أن يكون كل مرئي في جهة مخلوقة، فإن سطح العالم يمكن أن يرى، وليس العالم في عالم آخر، وإلا لزم التسلسل فيكون العالم في عالم، والعالم في عالم، إلى ما لا نهاية، وإذا بطلت المقدمتان، أو بطلت إحداهما؛ بطلت النتيجة، وهي قولكم: الله لا يرى.

هذا هو الدليل الأول؛ العقلي.

الدليل العقلي الثاني لنفاة الرؤية لله عز وجل قالوا: الله ليس بجسم، ولا هو داخل العالم ولا خارجه، وما كان كذلك: لا تمكن رؤيته.

وأجيب عن هذا الجليل العقلي بأجوبة:

الجواب الأول: أن إثبات ما لا يكون داخل العالم ولا خارجه، أمر لا يمكن الإحساس به، والحكم الفطري يحيل إثبات شيء، أو أمر لا يمكن الإحساس به.

الجواب الثاني: سلمنا وجود أمر، أو شيء لا يمكن الإحساس به، فوجود ما يمكن الإحساس به أولى - ولو سلمنا بهذا جدلاً، فقد سلمنا به من جهة لثبوت من جهة أخرى - فمن أثبت موجوداً فوق العالم ليس بجسم؛ يمكن الإحساس به، كان قوله أقرب إلى العقل ممن أثبت موجوداً لا يمكن الإحساس به، وليس داخل العالم، ولا خارجه.

الجواب الثالث: أن رؤية ما ليس بجسم ولا في جهة إما أن يُجَوِّزَه العقل، وإما أن يمنع؛ فإن جَوِّزَه: فلا كلام، وإن منعه: كان مُنْعُ العقل لإثبات موجود لا داخل العالم، ولا خارجه؛ أشد وأشد.

الجواب الرابع: أن رؤية الباري - تعالى - إما أن تكون ممكنة، وإما أن لا تكون ممكنة؛ فإن كانت ممكنة، بطل قولكم بإثبات موجود لا يمكن الإحساس به، وهو ما لا يكون لا داخل العالم ولا خارجه، وإن قلتم: رؤيته غير ممكنة، قيل لكم: فحينئذ هو غير محسوس، فلا يقبل فيه حكم الوهم.

فثبت أن رؤية الله - سبحانه وتعالى - مناسبة له، وليست كالرؤية المعهودة للأجسام، هذه الأدلة العقلية يصارع فيها الخصم بالأدلة التي يعتقدونها، دليلاً بدليلاً؛ دليل عقلي يُردُّ عليه برد عقلي.

أما أدلتهم الشرعية وشبههم الشرعية فاستدلوا بأدلة منها:

الدليل الأول: قول الله - تعالى -: ﴿وَكُنَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِيُعْذِرَنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي فَأَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنُؤْتِيَنَّكَ لَكِن لَّا تُنْظِرُ إِلَى الْجَنَّةِ فَإِنْ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوَّىٰ رُتْبِي فَنَسَا حَجَلُ رَبُّهُ، إِلَيْكَ جَعَلَهُ دَكَاةً وَكَرَّ هَوًى صَوْفًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتِ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٤]، ووجه الاستدلال؛ قالوا: إن الله نفى رؤية موسى له بـ«لن» فقال: ﴿لَنُؤْتِيَنَّكَ﴾

[الأعراف: ١٤٣] و «لن» تقتضي النفي المؤبد؛ فدلّ على أن الله لا يُرى في الآخرة.

أجاب أهل الحق عن استدلالهم بأجوبة:

أولاً: نحن لا نوافق أن «لن» تقتضي النفي المؤبد، بل نقول بأن القول بأن لن تقتضي النفي المؤبد قول ضعيف مرجوح عند النحاة وأهل اللغة^(١)؛ بدليل تحديد الفعل بعدها كما في قول الله - تعالى - : ﴿قُلْ أُنَبِّئُكَ أَنَّ هَذِهِ نَفْسٌ كَانَتْ لِلنَّفِيِّ الْمَوْبِدِ لَمَّا حُدِّدَ الْفِعْلُ بَعْدَهَا.

ولهذا قال ابن مالك^(٢) رحمه الله تعالى- في «ألفيته»:

ومن رأى النفي بلسن مؤبداً فقولُه اِردُ وسوَاهُ فاعضدا يعني: من رأى هذا القول؛ فقله ضعيف مردود.

(١) انظر: «معني اللب» لابن هشام (١/٣٧٤).

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجبائي الأندلسي المعروف بابن مالك النحوي المالكي ولد سنة ٦٠٠هـ نشأ راغباً في طلب العلوم والفنون، وصرف همه في إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، تصدر بحلب لإثراء العربية، وأربى على المتقدمين وكان إماماً في القراءات وعلماً صنف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية، وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها. توفي سنة ٦٧٢هـ في دمشق الشام بعد أن قلم إليها من القاهرة.

من كتبه: الأفعال وتصريفها، ألفية في النحو منظومة، بغية الأريب وغنية الأديب في الأصول، الضرب في معرفة لسان العرب، الفوائد في النحو، قصيدة دالية في الفراءات، لامية الأفعال، النظم الأوجز فيما يهيمز وما لا يهيمز، وغيرها كثير. وهذا البيت في «الكافية الشافية» بشرح ابن مالك (٣/١٥٦٥). انظر ترجمته في «البدية والنهاية» (١٣/٢٦٧)، و«غاية النهاية» لابن الجزري (ص ٣٥٦)، و«الوفاي بالوفيات» (١/٤٤٣).

الجواب الثاني: أن (لن) لا تفيد النفي المؤبد، ولا تفيد دوام النفي في الآخرة حتى ولو قيدت بالتأييد؛ فحتى ولو جاء التأييد بعدها؛ فهي لا تفيد دوام النفي المطلق؛ على التأييد، والدليل على ذلك قول الله - تعالى - عن اليهود: ﴿وَلَنْ يَسْتَمْنُوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ آلِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]، فأخبر الله عن الكفار أنهم لن يتمنوا الموت بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر، و «لن يتمنوه» قيدت «لن» بالتأييد، ثم أخبر الله عن أهل النار أنهم سيتمنون الموت في الآخرة؛ كما في قوله: ﴿وَوَلَدُوا بُكُورًا يُنْفِقُونَ عَلَيْهِمْ مَالَهُمْ﴾ [الزمر: ٣٧]، فأخبره عن تمنيمهم الموت مع قوله: ﴿وَلَنْ يَسْتَمْنُوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] دليل على أن (لن) لا تفيد دوام النفي في المستقبل، حتى ولو قيدت بالتأييد، فكيف إذا لم تقيد بالتأييد؟!.

الجواب الثالث: أن نقول: إن الآية الكريمة وهي قول الله - تعالى - لموسى: ﴿لَنْ تَرَنِ وَلَكِنْ أُنْظِرُ إِلَىٰ لَجْجِي فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ تدل على ثبوت الرؤية في الآخرة من وجوه متعددة:

الوجه الأول: أن موسى - عليه الصلاة والسلام - سأل ربه الرؤية، ولو كانت الرؤية مستحيلة، وغير ممكنة؛ لما سألها موسى - عليه الصلاة والسلام - وهو كليم الرحمن، وأعلم الناس بربه في وقته، ومثله لا يجهل الجائز في حق الله - تعالى -؛ فلما سألها موسى؛ دلّ على أن الرؤية ممكنة؛ ليست مستحيلة.

الوجه الثاني: أنه لو كانت الرؤية مستحيلة وغير ممكنة؛ لأنكر الله على موسى سؤاله رؤيته، كما أنكر الله على نوح سؤاله نجاه ابنه، فإن نوحاً - عليه الصلاة والسلام - لما أغرق ابنه الكافر نادى ربه؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَدَّاهُ نُوْحٌ رَّحِيْمًا فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِّنْ أَهْلِ رَحْمَتِكَ فَتَدْعُكَ أَلْحَقْ وَأَنْتَ

أَكْمَرُ الْكَرِيمِينَ ﴿٤٥﴾ [مترد: ٤٥] [سورة هود آية: ٤٥]، فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَالَ: ﴿قَالَ يَنْشُجُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَيْنَا مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُ يَعْلَمُ لَئِنْ أُعْطِيَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [مترد: ٤٦]، فلو كانت الرؤية غير جائزة؛ لأنكر الله على موسى سؤاله، كما أنكر على نوح سؤاله نجاة ابنه، لكن الله لم ينكر على موسى سؤاله؛ فدل على جوازها .

الوجه الثالث: أن الله - تعالى - أجاب موسى بما يدل على جواز الرؤية، ولم يجبه بما يدل على نفيها، ولو كانت الرؤية غير جائزة لأجاب الله موسى بما يدل على نفي الرؤية واستحالتها، فقال له: «إني لا أرى» أو: «لا تمكن رؤيتي»، أو: «الست بمرئي»، وإنما أجابه فقال: «لَنْ تَرِنِي» [الاعراب: ١٤٣]، والفرق بين الجوابين ظاهر.

الوجه الرابع: أن الله لم يعلق الرؤية بشيء مستحيل؛ كالأكل، والشرب، والنوم؛ لأن الأكل، والشرب، والنوم؛ مستحيل على الله، وإنما علقه بشيء ممكن، وهو استقرار الجبل فقال: الله لموسى: «لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي» [الاعراب: ١٤٣]، فإله قادر على أن يجعل الجبل مستقرًا، فلم يعلقه بشيء مستحيل، كالأكل، والشرب، والنوم، وإنما علقه بشيء ممكن، وهو استقرار الجبل، فلو كانت محالًا، لكان نظير أن يقول: إن استقرَّ الجبل؛ فسوف أكل، وأشرب، وأنام .

الخامس: أن موسى - عليه الصلاة والسلام - لم يستطيع رؤية الله - تعالى - في الدنيا؛ لضعف القوة البشرية عن تحمّل ذلك، فإذا كان يوم القيامة نشأ الله المؤمنين تنشئة قوية يستطيعون بها الثبوت لرؤيته - سبحانه وتعالى - .

السادس: أن الله تجلى للجبل وهو جماد، ولا ثواب له ولا عقاب عليه، فلتن يتجلى الله لرسله وأوليائه وعباده المؤمنين في دار كرامته؛ من باب أولى .

السابع: أن الله نادى موسى وناجاه، وكلمه، ومن جاز عليه التكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه؛ جاز عليه رؤيته في الآخرة من باب أولى .

الثامن: أن رؤية الله نعيم، وهو أعظم نعيم كما جاء في الحديث، والنعيم يكون لأهل الجنة ولا يكون لأهل الدنيا؛ فلذلك مُنِعَ موسى من رؤية الله؛ فإذا كشف الله - سبحانه وتعالى - الحجاب ورآه المؤمنون، نسوا ما هم فيه من لذة، فلذلك نفى الله رؤية موسى له في الدنيا.

وبهذا يبطل استدلال نفاة الرؤية بهذه الآية الكريمة .

الدليل الثاني: استدلووا بقول الله - تعالى - : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْأَطْيَفُ لَمَّا تَرَى﴾ [الأنعام: ١٠٣] .

وجه الاستدلال:

قالوا: إن الله نفى إدراك الأبصار له؛ فدل على أن الله لا يُرى في الآخرة، وهذا نفى للرؤية، وأجيب بجوابين:

الجواب الأول: أن الله نفى الإدراك، ولم ينف الرؤية؛ والإدراك قدُرُ زائد على الرؤية وهو أخص من الرؤية، فالرؤية أعم، ونفي الأخص لا يدل على نفي الأعم، فإله نفى الإدراك ولم ينف الرؤية؛ ففُرق بين الرؤية وبين الإدراك؛ فالرؤية أعم من الإدراك، والإدراك أخص، ونفي الأخص لا يدل على نفي الأعم - كما سبق -، فأنت ترى السماء لكن لا تحيط بها رؤية، وترى البستان الواسع لكن لا تحيط به رؤية، وترى الجبل ولا

تحيط به رؤية، وترى المدينة ولا تحيط بها

فإذا كان الإنسان يرى بعض المخلوقات ولا يحيط بها رؤية، فكيف يحيط بالله - سبحانه وتعالى -؟ فالله - تعالى - يرى ولا يحاط به رؤية، كما أنه يعلم ولا يحاط به علماً - سبحانه وتعالى -؛ لكمال عظمته، وكونه أكبر من كل شيء .

والدليل على أن نفي الرؤية غير نفي الإدراك، ما أخبر الله - سبحانه وتعالى - عن موسى - عليه الصلاة والسلام - حينما سار بالجيش وتبعه فرعون وقومه كما في قوله: ﴿وَلْيَتَبَيَّنْ إِلَىٰ مَوْجِ أَنْ أُنْزِلَ بِمَكُونِ الْكُرْ تُنْزِلُونَ﴾ (الشعراء: ٥٢) فسرى موسى بالجيش وتبعه فرعون بجيشه، فلما تراءى الجمعان قال الله: ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (الشعراء: ٦١-٦٢)، فالرؤية ثابتة بقوله: «فلما تراءى رَفِي سَبِيحِينَ» (الشعراء: ٦١-٦٢)، والجمعان هما: الجيشان: الجمع الذي يقوده موسى؛ والجمع الذي يقوده فرعون: تراءيا، أي: رأى بعضهم الآخر؛ فهذا ثبوت الرؤية وقوله: ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (الشعراء: ٦١)؛ أي: لمحاط بنا، فنفي موسى الإدراك فقال: كلا لستم بمدركين: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَدِينُ﴾ (الشعراء: ٦٢) .

يعني: يقول قوم موسى - عليه الصلاة والسلام - لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (الشعراء: ٦١)، وسوف يحيط بنا فرعون فماذا نفعل؟! البحر أمامنا؛ فإن خضناه: غرقنا، وفرعون وجيشه خلفنا؛ فإن وقفنا: أدركنا، فماذا نفعل؟ ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (الشعراء: ٦١) فقال موسى «كلا» لستم بمدركين: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَدِينُ﴾ (الشعراء: ٦٢)، فَأَمَرَ الله موسى فضرب البحر بعصاه، فصار يبساً في الحال؛ اثني عشر طريقاً، فسلكه موسى

وقومه، وتبعه فرعون وقومه، فلما خرج موسى من الجهة الثانية وتكامل جيش فرعون، أمر الله البحر أن ينطبق عليهم، وأن يعود إلى حالته، والقصة معروفة. إذا: فالرؤية ثابتة؛ لأنّ الجمعين قد تراءيا، مع أن موسى نفى الإدراك؛ فدلّ على أن الإدراك قدر زائد على الرؤية، وهو الإحاطة، فالله - تعالى - يرى ولكن لا يحاط به رؤية؛ لكمال عظمته؛ وكونه أكبر من كل شيء .

الجواب الثاني: أن الآية سبقت مساق المدح، والمدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، أو بالنفي الذي يتضمن إثبات ضده من الكمال؛ لا بالنفي المحض، فالله أثنى على نفسه بأنه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)؛ فالآية سبقت مساق المدح، والمدح إنما يكون بشيئين:

الأول: الصفات الثبوتية؛ كما يمدح نفسه بأنه على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً .

والثاني: النفي الذي يتضمن إثبات ضده من الكمال؛ كنفي السنة والنوم؛ لكمال قيوامته؛ قال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥)؛ فهذا نفي، لكنه يتضمن إثبات ضده من كمال حياته وقيوامته؛ وقوله: ﴿وَلَا يَأْخُذُهُ حِفْظُهُمَا﴾ (البقرة: ٢٥٥) فلا يعجزه شيء لكمال قوته، واقتداره، وقوله: ﴿وَنُكَتِلَ عَلَىٰ آلِي آلِي لَا يُؤْثِرُ﴾ (البقرة: ٢٥٨)، فنفي الموت لكمال حياته، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَطْلُبُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٢٤٩)، فنفي الظلم عن نفسه لكمال عدله، ونفى الولد والشريك والصاحبة؛ لكمال ربوبيته، وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ عَنْهُ يُقَالُ ذَرِّفْ فِي السَّحَابِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (سجدة: ١٣)، أي: لكمال علمه، فكذلك قوله في هذه الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)؛ فلكمال عظمته، وكونه أكبر من كل شيء .

فالكمال إنما يكون بالنفي الذي يتضمن إثبات ضده من الكمال، كما في هذه الآيات، أو يكون بالصفات الثبوتية .

أما النفي المحض؛ الصرف: فهذا لا يكون كمالاً؛ لأن المعدوم يوصف بالنفي الصرف المحض، والمعدوم لا يُمدح، فلو كان المراد من الآية نفي الرؤية فقط؛ لما كان ذلك كمالاً، ولما كان مدحاً؛ فلو قيل: معنى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [النجم: ١٠٣]؛ لا تراه العيون؛ لم يكن في هذا مدح؛ لأن المعدوم لا يُرى، فما فائدة هذا النفي؟! ولكن إنما يكون كمالاً إذا تضمن إثبات ضده من الكمال؛ وهو إثبات الرؤية ونفي الإدراك، والمعنى: تراه الأبصار ولكن لا تحيط به، ولا تدركه؛ لكمال عظمتها، ولكونه أكبر من كل شيء - سبحانه وتعالى -، فتبين أن الآية تدل على إثبات الرؤية، ولكن المنفي هو الإدراك .

الدليل الثالث: استدلو بقول الله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَكُونُ لَنَا نَارٌ كَأَنَّ اللَّهَ جَهَنَّمَ فَآخِذَتُكُمُ الضُّعُفُ وَأَنْتُمْ تُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ويقول تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىَ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ فَأَخَذَتْهُمُ الضُّعُفُ بِأَعْيُنِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣] .

واستدلوا أيضاً بقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا قُلُوبًا غَوِيًّا﴾ [الأنعام: ٢٢١]، ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا قُلُوبًا غَوِيًّا﴾ [الأنعام: ٢٢١] .

قالوا: وجه الدلالة من هذه الآيات: أن الله - تعالى - أنكر على هؤلاء حينما سألو رؤية الله وذمهم وعاقبهم بالصاعقة والصيحة؛ لظلمهم؛ فدل على أن الله لا يُرى في الآخرة، فلو كان الله يرى؛ لما أنكر على

هؤلاء الذين طلبوا رؤيته، وكما ذمهم وعاقبهم بالصاعقة، كما في الآيات السابقة، فدل على أن الله لا يُرى في الآخرة؛ هذا وجه استدلالهم بهذه الآيات .

والجواب: أن يقال: إن هؤلاء القوم، إنما ذمهم الله وعاقبهم وأنكر عليهم؛ لأنهم سألو شيئاً ممنوعاً؛ سألو رؤية الله في الدنيا؛ إلحافاً في السؤال، فذمهم الله وأنكر عليهم، وعاقبهم بالصاعقة .

لكن لو سألو رؤية الله في الآخرة لسا ذمهم الله، فإن الصحابة - رضوان الله عليهم - سألو النبي ﷺ رؤية الله في الآخرة فقالوا: «هَلْ نَرَى رَبَّنَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ ضَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»^(١)، فلما سألو رؤية الله في الآخرة أثبت الرؤية، وبشرهم بذلك بشرى حسنة، وهي أنهم يرون الله في الآخرة، لكن أولئك الذين أنكر الله عليهم وذمهم وعاقبهم بالصاعقة؛ فلأنهم سألو شيئاً ممنوعاً في الدنيا .

نتقل بعد ذلك إلى حكم رؤية الله في الدنيا: هل رؤية الله في الدنيا ممكنة؟ أو غير ممكنة؟ وهل هي واقعة؟ أو غير واقعة؟ هذا التحرير محل النزاع:

أولاً: اتفقت جميع الطوائف على أن الله يرى في المنام كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢)، إلا الجهمية فإنهم أنكروا ذلك لشدة إنكارهم للرؤية، لكن رؤيته في المنام جائزة عند جميع الطوائف، ولا يلزم من ذلك أن يراه الإنسان على صفته التي هو عليها، بل إن رؤية الإنسان لله في

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه .

(٢) انظر: «بيان تلبس الجهمية» ابن قاسم (٧٢/١ - ٧٣) .

المنام على حسب اعتقاده، فإن كان اعتقاده صحيحاً رأى ربه في صورة حسنة، وإن كان اعتقاده فيه خلل رأى ربه في صورة مناسبة لاعتقاده. كما قال ذلك أبو العباس ابن تيمية رحمته.

أما رؤية الله في الدنيا في البقطة فهذا محل نزاع:

فذهبت المشبهة إلى أن الله يرى في الدنيا، وأنه يحاضر ويُسائر ويُصافح ويعانق وينزل عشية عرفة على جمل - قبحهم الله وأزاهم -، فهؤلاء المشبهة من غلاة الشيعة، وهم كفره يقولون: إن الله على صورة الإنسان، وإن الله يشبه الإنسان في ذاته وصفاته - قبحهم الله -.

كذلك بعض الصوفية^(١) قالوا: يمكن أن يكون الله في الخضرة، فإذا رأيت شيئاً أخضر، قالوا: لا ندري لعل ربنا يكون في هذه الخضرة - قبحهم الله -.

أما ما عدا المشبهة فأجمعت الأمة على أن الله - تعالى - لا يراه أحد في الدنيا، ولم يختلفوا في ذلك، إلا في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فاختلّفوا في رؤيته لربه ليلة المعراج هل رأى ربه؟ أو لم ير ربه؟

واتفقوا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ربه في الأرض؛ هذا بالإجماع، واتفقوا على أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين قلبه لا بعين رأسه، والمراد بالرؤية

(١) سُموا بذلك نسبة إلى البسة الظاهرة وهي الصوف غالباً. ولقد مرّ التصوف بعدة مراحل، فقد كان في أوله زهداً في الدنيا وانقطاعاً لعبادة الله - عز وجل -، ثم صار حركات ومظاهر خالية من الروح والعبادة، ثم صار إلحاداً وغروجاً عن دين الله؛ فقالوا بالحلول، ووحدة الوجود، وإباحة المحرمات، وترك الواجبات، وعلم الباطن. انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (٨٧، ١١٥)، و«المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» وهو في الهامش (١١٢، ١٣٠).

بعين القلب: العلم الزائد عن العلم العادي.

والخلاف بين العلماء في رؤية النبي لربه بعيني رأسه ليلة المعراج في السماء، هل رآه؟ أو لم يره؟ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج خاصة.

وهذا مروى عن ابن عباس رضي الله عنه^(١) وأصحابه، وهي رواية عن الإمام أحمد^(٢) رحمته، واختار هذا القول النووي في «شرح صحيح مسلم»^(٣)، وأبو الحسن الأشعري وأتباعه^(٤)، واختاره الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد^(٥)، واختاره أبو إسماعيل الهروي^(٦)، وكل هؤلاء رأوا

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٥٣٩)، والحاكم في «المستدرک» (١٣٣/١)، و(٥٠٩/٢) - تحقيق: مصطفى عبدالقادر، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٩٢/١)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢٧٢)، وصححه الحافظ في «الفتح» (٦٠٨/٨)، والحاكم في «المستدرک» - كما في المواضع المشار إليها -، والألباني، ولكنه ليس صريحاً في رؤية العين. وجاء مثله عن أنس عند ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦٠١٤)، لكن في سنده رشدين بن سعد، وهو سيء الحفظ. وروى بلغفظ آخر عند الترمذي (٣٢٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٣٧)، وقال: «وفيه كلام». وضعفه الألباني، وليس صريحاً أيضاً.

(٢) انظر: الروايتين والوجهين للقاضي أبي يعلى «مسائل في أصول الديانات» (ص ٦٣-٦٤).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٩/٣).

(٤) انظر: «شرح جوهرة التوحيد» (ص ١١٨).

(٥) «كتاب التوحيد» لابن خزيمة (٤٧٧/٢-٥١٢).

(٦) هو عبد الله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري، أبو إسماعيل. كان يُدعى شيخ الإسلام، وكان إمام أهل السنة بهراة، ويسمى خطيب العجم؛ لتبحر علمه وفصاحته وتبله. توفي سنة ٤٨١ هـ. انظر: «طبقات الحنابلة» (٢/٢٤٧، ٢٤٨)، و«الذيل» لابن رجب (١/٥٠-٦٨)، و«الأعلام» (٤/٢٦٧). وانظر اختياره بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه في كتابه «الأربعين في دلائل التوحيد» (٨١).

أن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه^(١) ليلة المعراج.

واستدلوا بقول الله - تعالى - : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِمَوْلَاةٍ لَيْلًا بِرَبِّكَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ مَّيْمَنَتِكَ إِنَّهُ هُوَ السَّوَّيُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها رؤية عين أريها النبي ﷺ ليلة أسري به^(٢)، ذكر ذلك الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد، وغيره .

القول الثاني: أن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه ليلة المعراج وإنما رآه بعين قلبه، وهذا مروي عن عائشة رضي الله عنها قالت لمسروق لما سألها: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ قالت: لقد فُتِّ شُعْري مما قلت، ثم قالت: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَّبَ»^(٣).

(١) انظر: «زاد المعاد» (٣/٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٨)، و(٤٧١٦)، و(٦٦١٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/٣٨٠)، والطبري في «التفسير» (١١٠/١٥)، والترمذي في «السنن» (٣١٣٤)، وأحمد في «المسند» (٢٢١/١)، والحاكم في «المستدرک» (٣٩٤/٢) - تحقيق: مصطفى عبد القادر، وابن حبان في «الصحيح» (٥٦)، وابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (٤٩٣/٢ - ٤٩٤)، والهروي في «الأربعين» (ص ٨١ - ٨٣) من طريق ابن خزيمة.

فائدة: قال الحافظ في «الفتح» (٣٩٨/٨ - ٣٩٩): «واستدل به على إطلاق لفظ الرؤيا على ما يرى بالعين في اليقظة. وقد أنكره الحريري تبعاً لغيره وقالوا: إنما يقال: رؤيا في المنام، وأما التي في اليقظة، فيقال: رؤية. ومن استعمل الرؤيا في اليقظة المُتَنَبِّئُ في قوله: ورؤياك أحلى في العيون من الغمض. وهذا التفسير يرد على مَنْ خَلَّاهُ».

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) واللفظ له.

وفى رواية أنها قالت: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَغْطَمَ عَلَى اللَّهِ الْغِطَاءَ»^(١).

وهذا مروي أيضاً عن ابن مسعود^(٢) وعن أبي هريرة^(٣)، واختلف فيه جماعة من الصحابة والتابعين، وهو قول كثير من الفقهاء والمحدثين والمكلمين، بل هو قول جمهور العلماء، وهو الصواب^(٤) كما سيأتي .

واستدلوا على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعين رأسه بأدلة:

الدليل الأول: قول الله - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُبِينٌ﴾ [الفورئ: ٥١]، فهذه الآية فيها بيان أنواع الوحي، وأن الله - تعالى - إذا كلم الرسول فإما أن يكون ذلك وحياً يُلقى في روعه، أو يرسل رسولاً، أو يكون التكليم من وراء حجاب؛ كما كلم الله موسى من وراء حجاب، وكما كلم محمداً ﷺ من وراء حجاب أيضاً؛ قال تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الفورئ: ٥١]، فقول الله - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ [الفورئ: ٥١] لفظ عام؛ يدخل في ذلك محمد ﷺ؛

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٤) إلى قوله: «فقد أعظم»، وأخرجه بنحوه في مواضع مفرقة من الصحيح، لكن السياق ينميه عند مسلم في الصحيح (١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، و(٤٨٥٦)، و(٤٨٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٥).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/٣٣٥، ٣٣٦)، و(٥١٠٠٥٧/٦)، و«منهاج السنة» (٥/٣٨٤-٣٨٧)، و«الشيبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (١٦٠، ١٦١)، و«درر المعارض» (٨١/٤٢)، و«تفسير ابن كثير» (٧/٤٢٣)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/٢٢٢، ٢٧٥)، و«فتح الباري» (٨/٤٧٤)، و«الوامع الأنوار» (٢/٢٥٠-٢٥٦).

لأنه بشر، فيشمله قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمُهُ اللَّهُ إِلَّا وَجْهًا أَوْ مِنْ دُونِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، فيكون محجوباً عن رؤية الله؛ كلمه الله بدون واسطة؛ فسمع كلام الله، وفرض الله عليه الصلوات خمسين صلاة في اليوم والليلة، ثم خففها الله إلى خمس صلوات.

فأله تعالى إذن: كَلَّمَ مُحَمَّدًا ﷺ ليلة المعراج؛ من وراء حجاب، ولم يكشف له الحجاب حتى يراه، وإنما كلمه من وراء حجاب.

الدليل الثاني: ما ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي ذر ﷺ أنه سأل النبي ﷺ فقال: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: نُوْرُ أَتَى أَرَأَيْتَ؟^(١)؛ و«أَتَى» اسم استفهام بمعنى «كيف». والمعنى: نوْرًا! كيف أراه؟ وهذا يعني: أن النور حجاب معني من رؤية الله.

الدليل الثالث: ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَنَامُ وَلَا يَنْتَبِيْهُ لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّوْرُ^(٢)»، وفي رواية: «النَّارُ»، والمعنى واحد؛ فالنار بمعنى النور، قال: «لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»؛ ومحمد ﷺ من خلقه.

فهذه أدلة على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه في ليلة المعراج؛ لأن الحجاب منعه من رؤية الله؛ لأنه احتجب عن جميع خلقه بالنور، ولأنه لو كشف الحجاب، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهذا يشمل النبي ﷺ، وغيره.

(١) أخرجه مسلم (١٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩).

وأما أهل القول الثالث: الذين توقفوا فقالوا: لا نقول: إن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، ولا نقول: إنه لم يره، وهذا رأي القرطبي^(١) رحمه الله والقاضي عياض^(٢) وغيرهما، قالوا: لأن الأدلة متكافئة، فليس في المسألة دليل قاطع، فما استدلل به هؤلاء وما استدلل به هؤلاء ظواهر قابلة للتأويل؛ فلذلك توقفوا في المسألة.

والصواب في المسألة: مع أصحاب القول الثاني وهم القائلون: بأن النبي ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه؛ لأن الأدلة التي استدلوها بها صريحة واضحة، وكون القاضي عياض والقرطبي لم تثبت لهم هذه الأدلة، فهذا يدل على تفاوت الناس في الأفهام، ولكن هذا قد يثبت لغيرهم فقول الله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمُهُ اللَّهُ إِلَّا وَجْهًا أَوْ مِنْ دُونِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] صريح في أن النبي ﷺ إنما كلمه الله من وراء حجاب.

وكذلك حديث أبي موسى الأشعري: «حِجَابُهُ النُّوْرُ^(٣)»، أو «النَّارُ»، وحديث أبي ذر: «رَأَيْتُ نُوْرًا^(٤)»؛ صريح الدلالة في أن النبي ﷺ محجوب عن ربه بالنور، وأن الله احتجب عن جميع خلقه، ومنهم محمد ﷺ، وأن أي مخلوق لا يثبت لرؤية الله في الدنيا، وذلك لأن الرؤية نعيم فلا تكون إلا لأهل الجنة؛ فلا تكون للأنبياء، ولا لغيرهم، فالإنسان لا يستطيع أن يثبت لرؤية الشمس وهي مخلوقة؛ فكيف يستطيع البشر أن يرى الله؟!.

(١) انظر توقفه عن القول بأن محمداً ﷺ رأى ربه بعيني رأسه في «تفسيره» (٥٥/٧)، (٥٦).

(٢) انظر توقفه عن القول بأن محمداً ﷺ رأى ربه بعيني رأسه في كتابه «الشفاء» (ص ١٩٥-٢٠٢).

(٣) سبق قبل قليل، وهو من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) سبق تخريجه قبل قليل.

ولهذا لما اقترح المشركون أن يكون الرسول من الملائكة أخبر الله أن هذا لا يكون، وقال - سبحانه وتعالى - : ﴿وَقَالُوا لَوْ أَنَّا نُمَلِّكُ مَا فِي الْأَرْضِ لَكُنَّا عَلَىٰ سُرَّةٍ مِّنْهُ وَكُنَّا تُرْسًا يُدْفَعُ عَنْكُمْ﴾ [الأنعام: ٢٨]، يعني: لمانتوا، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَكًّا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٢٩]، فيمكن لكم مقارنته والأخذ عنه. فإذا كان البشر لا يستطيعون أن يروا الملك على الصورة التي خلق عليها، فكيف يستطيعون أن يروا الله؟ لكن النبي ﷺ ثبته الله حينما رأى جبريل في أول بعثته على الصورة التي خلق عليها، وجاء يرجف فؤاده إلى زوجه وقال: «خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي»، فإذا كان البشر لا يستطيعون أن يروا الملك، وهو مخلوق، فكيف يستطيعون أن يروا الله؟!

ومن الأدلة على أن النبي ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج بعيني رأسه قول الله - تعالى - : ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَرْبَابًا إِلَهًا فَتَنَّا لُكَّانًا﴾ [الأنعام: ٢٦٠]، وقوله: ﴿أَتَشْكُرُنَا عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [التجيم: ٢١٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [التجيم: ٢١٣]، فالله أخبر أنه رأى الآيات ورأى جبريل، ولو كان الله أراه نفسه لكان ذكر ذلك أهم وأولى من ذكر الآيات، فالله - تعالى - أخبر أنه «الَّذِي تَرَىٰ يُصَدِّقُ لِكُلِّ مَنكُمُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ خِطَابَةَ الْإِبْرَاهِيمَ مِن بَيْنَ الْأَيْمَانِ» [الأنعام: ٢١٢]؛ فهذه رؤية الآيات، وقال: ﴿أَتَشْكُرُنَا عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [التجيم: ٢١٢]؛ أي: من الآيات، وقال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [التجيم: ٢١٣]؛ أي: جبريل. فلما نوه الله على رؤيته للآيات ورؤيته لجبريل؛ دل على أنه لم يره نفسه.

أما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وما روي عن الإمام أحمد رحمه الله في هذا الباب فإن الروايات التي رويت عن ابن عباس بعضها مطلق وبعضها مقيد، فما روي عن ابن عباس أنه قال: «رأه»، وفي رواية: أنه قال: «رأه بفؤاده»، فيحمل المطلق على المقيد، وكذلك ما روي عن الإمام أحمد

رحمه الله فإنه تارة يطلق الرواية بـ«رأه»، وتارة يقول: «رأه بفؤاده»، فيحمل المطلق على المقيد، وليس هناك رواية عن ابن عباس، وعن الإمام أحمد صريحة بأن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، وإنما الروايات إما مطلقة برأه، أو مقيدة برؤية الفؤاد، ففي رواية: «رأه بفؤاده».

وكذلك ما ورد عن السلف وعن العلماء من الروايات بأن النبي ﷺ رآه: فهي محمولة على رؤية القلب والفؤاد، وما ورد عن الصحابة وعن السلف والعلماء والأئمة من الروايات بأن النبي ﷺ لم ير ربه، فهي محمولة على أنه لم ير ربه بعين رأسه، وهذا هو الصواب، وهو الذي عليه المحققون، وبذلك تجتمع الأدلة والآثار ولا تختلف، كما بين ذلك أهل التحقيق: كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى - والله الموفق للصواب^(١).

مسألة: ورد الحديث: «فَأَسْتَحْيَا فَاَسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ»^(٢)، وورد في الحديث الآخر: «لَا أَحَدٌ أَفْخَرُ مِنَ اللَّهِ»^(٣)، فهل يوصف الله بالحياء والغيرة أم لا؟

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣٥/٢)، (٣٣٦)، (٥١٠-٥٠٧/١)، و«منهاج السنة» (٥/ ٣٨٤-٣٨٧)، و«التيبان في أقسام القرآن» لابن القيم (١٦٠، ١٦١).

قال شيخ الإسلام في «جامع المسائل» (١٠٥/١): «أما رؤية النبي ﷺ ربه بعين رأسه في الدنيا فهذا لم يثبت عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من الصحابة، ولا عن أحد من الأئمة المشهورين، لا أحمد بن حنبل ولا غيره...»، وينظر بقية كلامه إلى (ص ١٠٧) فإنه مهم جداً.

وقال الشافعي في «أضواء البيان» (١٠١/٣): «التحقيق الذي دلت عليه نصوص الشرع: أنه ﷺ لم يره بعين رأسه. وما جاء من بعض السلف من أنه رآه؛ فالمراد به الرؤية بالقلب. كما في صحيح مسلم: «أنه رآه بفؤاده مرتين» لا بعين الرأس».

(٢) أخرجه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦)، من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤١٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الجواب: نعم يوصف الله بالحياة قال الله - تعالى - : ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّاسَ فَيَسْتَجِيبُ مِنْكُمْ إِنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ [الاحزاب: ٤٣]، وقال - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ أَنْ يُتْرِكَ مَكَانًا يُؤْتَمَرُ فَمَا قَوْلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٦]، وفي الحديث: «فَأَسْتَجِيبَا فَاَسْتَجِيبَا اللَّهُ مِنْهُ»^(١)، وهو من الصفات التي تليق بالله - عز وجل - ولا يماثل فيها أحدًا من صفاته كسائر الصفات، ولا يلزم منه ما يلزم من حياة المخلوق، وكذلك الغيرة من الأوصاف الفعلية؛ قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةٍ سَعْدٍ؟! لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي»^(٢)، وفي الحديث الآخر: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَجْلِ غَيْرَتِهِ حَرَمَ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ»^(٣)، فهذا فيه إثبات الغيرة لله كما يليق بجلاله وعظمته، فالله تعالى يوصف بالغيرة كسائر الصفات الفعلية؛ مثل الغضب، والرضا، والسخط، والمحبة، والكراهية، والحياة؛ كلها صفات تليق بجلال الله وعظمته، وهي صفات كاملة ليس فيها نقص، ولا يماثل فيها أحدًا من خلقه - سبحانه وتعالى - .

مسألة: هل يصح التسمي بـ(عبد المنعم، وعبد المحسن، وعبد الناصر)؟

الجواب: إذا ثبت أنه اسم من أسماء الله فيجوز، فـ«عبد المحسن» ثابت ولا يزال الأئمة والعلماء يعبدون له، وكذلك «المنعم» يغلب على الظن أنه ثابت، أما «الناصر» فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ

(١) أخرجه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦)، من حديث أبي واقد الليثي ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، واللفظ له. ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة ؓ.

(٣) هو بعض ألفاظ الحديث الذي تقدم تخريجه.

التَّائِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]، ولكنه يحتاج إلى تأمل؛ هل هو من أسماء الله أو لا.

مسألة: ما الفرق بين الاعتقاد واليقين؟ وهل لو عبر أهل السنة بقولهم: «اليقين» لكان أولى؛ لأن الاعتقاد فيه شيء من عدم الثبوت؟

الجواب: الاعتقاد يفيد اليقين، والاعتقاد من العقد والربط، ومنه عقد البيع، ويطلق على التصديق الجازم، لكن إذا كان هذا الاعتقاد موافقًا للحق؛ فهو اعتقاد صحيح، وإذا كان باطلاً؛ فهو اعتقاد باطل؛ مثل يقين اليهود والنصارى على ما هم عليه، ويقين أهل البدع على ما هم عليه أنه يقين، أما اعتقاد أهل الحق فهو اعتقاد صحيح، والاعتقاد ليس طناً إنما هو يقين.

مسألة: هل يرى الملائكة يوم القيامة؟

الجواب: إذا كان الله تعالى - وهو أعظم - يرى، فالملائكة من باب أولى؛ قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [سورة النبا: ٢٤]، فكيف يدخلون عليهم وهم لا يرونهم؟! فظاهر الأدلة أنهم يرونهم، ورؤية الله أعظم نعيم يرضاه أهل الجنة، أما رؤية الملك فدون ذلك بكثير .

مسألة: ما رأيكم في وصف الله بالحمية يقال: إن لله حمية على عباده المؤمنين؟

الجواب: القاعدة عند أهل السنة والجماعة أن الأسماء الصفات توقيفية؛ فليس لنا أن نسمي الله بأسماء مخترعة من عند أنفسنا وكذلك الصفات، فلا يقال: إن من صفات الله الحمية إلا بدليل، ولا أذكر أن الله وصف نفسه أو وصفه رسوله ﷺ بالحمية .

مسألة: قد يقول قائل بالنسبة لرؤية الرب - سبحانه - دفاعاً عن الزمخشري في كتاب «الكشاف»: إن دخول الجنة يتضمن رؤية الرب، وبذلك فإن أقصى ما يتمناه العبد دخول الجنة؛ لأن يحصله يرى الرب؟

الجواب: معروف عن الزمخشري أنه معتزلي وأنه ينفي الرؤية ويدافع عن ذلك بشدة؛ ولهذا قال البلقيني: استخرجت منه اعتزالاً بالمناقشة؛ لأنها أشياء خفية؛ فمنها أنه قال في قوله تعالى: ﴿كَمَنْ يُخْرِجُ عَنِ الْكَافِرِ وَأُذِينَ الْإِيمَانِ فَكَذَلِكَ﴾ [١٨٥] قال: أي فوز أعظم من الجنة؟ وقصده بذلك: إنكار الرؤية، وهو معروف عنه فإذا حُسم كلامه بعضه إلى بعض ويثبت أنه من نفاة الرؤية.

مسألة: سبق أن الصفات لها نظران؛ النظر إلى المعنى: وهذا يشبه أهل السنة والجماعة، والنظر الثاني: الكيفية: وهذه يفوضونها، وبناء على ذلك فكيف يحمل قول الإمام الطحاوي: «فَمَنْ وَصَفَ اللَّهُ بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ؟»

الجواب: هو يعني: أن من وصف الله بصفات البشر، التي هي من خصائصهم بأن قال: إن صفات الله كصفات البشر، أو قال: إن الله كالإنسان، أو قال: إن الله كالإنسان في الحاجة، أو في غير ذلك - فمن خصائص البشر الفقر، والحاجة، والنقص في صفاتهم وأعمالهم - فمن قال ذلك: كفر؛ لأن الله كامل في ذاته وصفاته، ولا يوصف بنقص البشر.

مسألة: أليس ما قرناه سابقاً: أن الله بصفات ثابتة ولو كانت صفات للمخلوقين كالعلم والقدرة، ن المحذور هو عدم تفويض الكيفية؟ فكيف التوفيق بين ما قرناه سابقاً وبين قول الإمام الطحاوي؟

الجواب: إن الصفات المشتركة مثل العلم ثابتة للمخلوق والمخلوق لكن

من دون مشابهة أو مماثلة، فمقصود الطحاوي: من قال إن علم الله مثل علم المخلوق، وأما من قال: إن الله يوصف بالعلم والمخلوق يوصف بالعلم، فللخالق علمه يخصه وللمخلوق علمه يخصه؛ فلا إشكال في ذلك.

مسألة: ما الضابط للتأويل الذي يدرأ به التكفير عن المبتدعة؛ لاسيما وأن أكثرهم يكون معتمداً على أدلة أو شبهة؟

الجواب: المقصود أن يكون عنده شبهة؛ فلا يكون جاحداً، أما من جحد الصفات: فهذا يكفر، وأما من كانت له شبهة فإنه يدرأ عنه التكفير بالشبهة، وقد يكفر لكن بالعموم مثلما كفر السلف القتالين بخلق القرآن، على جهة العموم فقالوا: من قال: إن القرآن مخلوق فهو كافر - والمعتزلة يقولون: إن القرآن مخلوق - أما الشخص المعلن فهذا لا يكفر حتى تقام عليه الحجة؛ فبيّن ويوضح له الحق، فإن أصر يحكم بكفره بعد ذلك.

مسألة: سبق أن أجبت عن سؤال من قال للميت: ادع الله لي فقلت: إن فيه قولاً قوياً أنه شرك أكبر؛ فلم لم تجزموا بأنه شرك أكبر؟

الجواب: هذا؛ لأنه ما دعا الميت وطلب منه المدد، أو طلب منه الاستغاثة، إنما طلب منه شيئاً يخصه، وهذا فيه كلام لشيخ الإسلام وفيه كلام لبعضهم، والأقرب أنه شرك أكبر؛ إذا كان يدعو الميت وهو عظام رميم مثل لو قال: يا فلان اشفع لي عند ربك، كذلك إذا قال: أعطني كذا أو كذا، فالأقرب عندي أن الحكم واحد، لكن المسألة بحاجة إلى تحرير أكثر حتى يمكن أن نجزم بأحد الحكمين.

مسألة: ما المقصود بالإمامية المتقدمين والإمامية المتأخرين مع التمثيل - أثابكم الله -؟

الجواب: الإمامية هم الرافضة، ولهم أسماء غير ذلك؛ فيقال لهم

«الرافضة»؛ لأنهم رفضوا زيد بن علي حينما سأله عن أبي بكر وعمر فقال: هما وزيراً جدي رسول الله، فرفضوه فسموا بالرافضة، وسموا «الإمامية»؛ لأنهم يقولون: بإمامة اثني عشر إماماً منصوص عليهم؛ معصومين؛ من سلالة علي بن أبي طالب، وهم:

- علي بن أبي طالب.
 - ثم الحسن بن علي.
 - ثم الحسين بن علي.
 - ثم علي بن الحسين زين العابدين.
 - ثم محمد بن علي الباقر.
 - ثم جعفر بن محمد الصادق.
 - ثم موسى بن جعفر الكاظم.
 - ثم علي بن موسى الرضا.
 - ثم محمد بن علي الجواد.
 - ثم علي بن محمد الهادي.
 - ثم الحسن بن علي العسكري.
 - ثم محمد بن الحسن المهدي المنتظر الذي دخل سرداب سامراء بالعراق سنة ستين ومائتين ولم يخرج إلى الآن، وهي شخصية وهمية؛ لا وجود لها إلا في خيال الشيعة.
- قال شيخ الإسلام: مضى عليه أربع مائة سنة، ونحن نقول: مضى عليه في زماننا الآن ألف ومائتا سنة، ولم يخرج.
- فالمقدمون من الإمامية - جمهورهم - يشنون الرؤية، والمتأخرون

ينفوها.

مسألة: هلا أوضحتم الفرق بين ابن عربي وابن العربي الأشبيلي لما في ذلك من اللبس؟

الجواب: ابن عربي محمد بن علي بن محمد بن عربي الطائي الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٨هـ، صاحب «الفصوص»، و«الفتوحات المكية»، - بدون «أل» - هذا رئيس وحدة الوجود، وقدرتهم؛ زُندقة علماء عصره، وعملوا على إراقة دمه، وأخباره معروفة.

أما أبو بكر: محمد بن عبدالله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي: ابن العربي - المَعْرُوف بـ: «أل» - فمقدم الوفاة عن الأول؛ توفي سنة ٥٤٣هـ، وولادته بإشبيلية، وهو من حفاظ الحديث، وقد ولي القضاء، وله مصنفات مشهورة، منها: «عارضة الأحوذى في شرح الترمذي»، و«أحكام القرآن» و«العواصم من القواصم» وغيرها وكان ثقةً أشعرياً، وقد نقل علماً كثيراً من علماء المشرق إلى المغرب.

مسألة: هل ثبت عن أحد من السلف أنه رأى الله في المنام كما ذكرت ذلك بعض الكتب؟ وما مدى صحة ذلك؟

الجواب: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن رؤية الله في المنام ثابتة، وأن جميع الطوائف أثبتوا الرؤية في المنام إلا الجهمية؛ من شدة إنكارهم لرؤية الله، ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: إن جميع الطوائف يشنون الرؤية في المنام ولا شيء في ذلك، لكن لا يلزم من ذلك أن يكون ما رآه الإنسان مشابهاً لله، بل يقول: إن رؤية الله على حسب اعتقاد الرائي، فإذا كان اعتقاده صحيحاً رأى الله برؤية حسنة، وإذا كان اعتقاده غير صحيح رأى الله رؤية مناسبة لاعتقاده، ولما كان النبي | أصح الناس اعتقاداً، وأكمل

الناس عبودية؛ فقد رأى الله في أحسن صورة كما في حديث اختصام الملائكة الأعلى: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ قُوضِعَ كَفِّي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ النَّاسُ؟ قُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، قُوضِعَ بَيْنَ كَيْفَي حَتَّى وَجَدْتُ بَرَّةً أَنَا يَلُو فَعَلِمْتُ مَا بَعْدَ ذَلِكَ»^(١).

مسألة: ما الضابط الذي يفرق به بين الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة؟

الجواب: ما ورد إطلاقه على الله فهو اسم؛ مثل: العليم، الحكيم، السميع، البصير، أما الصفة فهي ما ورد على نص الصفة مثل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [التلاق: ١٢]، فما ورد على نص الصفة هكذا؛ نقول: إنه صفة، وما ورد إطلاقه على الله فهو اسم؛ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقَلَّمَ أَنَّهُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٦]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٢٨]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ كَلِيمًا غَثُرًا﴾ [الاسراء: ٤٤]؛ فهذه كلها أسماء أطلقت على الله، والأسماء ليست أسماء جامدة، وإنما هي مشتقة متضمنة للصفات؛ فكل اسم يتضمن صفة؛ فالعليم يتضمن: صفة العلم، والتقدير يتضمن: صفة القدرة، والحليم يتضمن: صفة الحلم، والرحيم يتضمن: صفة الرحمة، والله يتضمن: صفة الألوهية، وهكذا؛ كل اسم يتضمن صفة.

(١) الحديث مضى تخريجه (ص ٢٢٨)

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَالرُّؤْيَى حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ بِغَيْرِ إِحْاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ):

الشرح

سبق أن المؤمنين يرون ربهم أيضًا في موقف القيامة قبل دخولهم الجنة، وهذا متفق عليه، واختلف في غير المؤمنين هل يرون ربهم أم لا يرونه؟ على أقوال ثلاثة سبقت.

والأحاديث ثابتة في رؤية المؤمنين لربهم في موقف يوم القيامة، وأنهم يرونه أربع مرات، كما ثبت في بعض الأحاديث: يرونه في المرة الأولى، ثم في المرة الثانية يتحول في غير الصورة التي يعرفونه، فيكبرون ويقولون: نعوذ بالله منك هذا مكاننا، فيأتينا ربنا فإذا أنا ربنا عرفناه، ثم في المرة الثالثة يتحول في الصورة التي يعرفونه؛ فيسجدون له، حينما يجعل بينه وبينهم علامة، وهي كشف الساق، فإذا وقفوا رأوه في الصورة التي رأوه فيها أول مرة، فيرونه أربع مرات - سبحانه وتعالى - قبل أن يدخروا الجنة.

وأما بعد دخولهم الجنة، فهناك أحاديث متواترة سبقت في هذا.

الخلاصة في مبحث الرؤية:

أن رؤية الله - سبحانه وتعالى - بالابصار جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة؛ لأن كل موجود يجوز أنه يرى.

ومن الأدلة على جوازها عقلاً: سؤال موسى ربه أن ينظر إليه؛ ﴿قَالَ رَبِّ أَبْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الاعراف: ١٤٣]، فموسى لا يسأل إلا جائزاً في حق الله - تعالى -.

وأما شرعاً: فهي جائزة وواقعة في الآخرة وممتنعة في الدنيا، ومن

أصلح الأدلة على ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: «تعلّموا أنه لن يرى أحدٌ منكم ربّه - عز وجل - حتى يموت»^(١)، وجاء بنحوه أيضاً من حديث عبادة بن الصامت^(٢)، ورواه ابن خزيمة أيضاً في كتاب التوحيد أن النبي ﷺ قال: «وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا»^(٣)، والأحاديث في رؤية المؤمنين لربهم متواترة كما سبق ورد عن نحو ثلاثين صحابياً رضوان الله عليهم.

(١) صحيح مسلم (١٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣٢٤/٥) وعبدالله بن أحمد في «السنة» (١٠٠٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٧٦٤)، والطبراني في «مسنند الشاميين» (١١٥٧)، ومن طريقه الضياء في «المختارة» (٢٦٤/٨)، و(٢٦٥/٨)، وأخرجه أيضاً البزار في «المسنند» (١٢٩/٧)، والشافعي في «المسنند» (١٢٢٦)، واللالكائي في «السنة» (٨٤٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٢٨)، والآجري في «الشرعية» (٣/٣٦٠-١٣١١ - بتحقيق: الدميحي)، من حديث عبادة بن الصامت، وأعله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٤٨/٧) - بعد ما عزاه للبزار - بمنعنة بقية بن الوليد؛ وهو مدلس، لكن زال ما يخشى من تدليس؛ حديث صرح بالتحديث عند كل من: الإمام أحمد، واللالكائي، وابن أبي عاصم، وابن الإمام أحمد، والنسائي.

(٣) أخرجه من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ كل من: ابن ماجه (٤٠٧٧)، والحاكم في «المستدرک» (٥٨٠/٤)، وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم». وأخرجه أيضاً: ابن أبي عاصم في «الأحاد والمثاني» (١٢٤٩)، وفي «السنة» (٣٩١)، و(٤٢٩)، وابن الإمام أحمد في «السنة» (١٠٠٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/٤٥٩ - ٤٦٠)، وقوام السنة في «الحجة» (٢/٤٦٤ - ٤٦٥).

والحديث صححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٨٧/١)، والحاكم - كما تقدم، والله أعلم.

♦ وَقَوْلُ الْمُؤَلِّفِ كَلِمَةً: (يَعْتَرِ إِحَاطَةً وَلَا كَيْفِيَّةً):

الشرح

يعني أن الله سبحانه يُرى، ولكن لا يحاط به رؤية؛ لكمال عظمته، ولكونه أعظم وأكبر من كل شيء، كما قال - سبحانه - : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [النعام: ١٠٣] .

وإذا كانت بعض المخلوقات ترى ولا يحاط بها رؤية، فكيف بالخالق؟ فأنت ترى البستان، ولا تحيط به رؤية، وترى الجبل ولا تحيط به رؤية، وترى السماء ولا تحيط بها رؤية، وترى المدينة ولا تحيط بها رؤية، وهي كلها مخلوقات، فالخالق أولى ألا يحاط به رؤية، كما أنه - سبحانه وتعالى - يُعَلِّمُ، ولا يحاط به علماً، كما قال - سبحانه وتعالى - : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠]، وهذا المعنى سبق تقريره .

وقوله: (بلا كيفية): أي لا نكيف الصفات، فلا نقول: يُرى على كيفية كذا، وعلى كيفية كذا.

من أدلة رؤية المؤمنين لربهم

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا: ﴿وَجُوهٌ يُؤْخَذُ بِهَا نَصْرُهُ﴾) إِلَى رَبِّهَا تَابِعُهُ ۞ [الْقِيَامَةُ: ٢٢-٢٣]:

الشَّرح

الآية صريحة في النظر في رؤية المؤمنين لربهم؛ لأن الله أضاف النظر إلى الوجه الذي هو محله، وعدَّاه بـ«إلى» الصريحة في نظر العين، وأخلى الكلام عن قرينة تدل على أن المراد بالنظر هنا خلاف حقيقته. وموضوعه صريح في أن المراد: النظر؛ النظر بالعين؛ التي في الوجه؛ إلى الرب - جل جلاله - .

النهي عن الخوض في الصفات

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللَّهُ -تَعَالَى- وَعَلِمُهُ):

الشَّرح

يعني: الصفات لا تُكَيَّف، وعلمها يُرَدُّ إلى الله - سبحانه وتعالى - .

ما جاء في أحاديث الرسول مفسر لما أراد الله

◆ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَادَ):

نعم! كل ما جاء من الأحاديث؛ فهو مفسر على ما أراد الله، وعلى ما أرادته رسوله؛ كما جاء عن الإمام الشافعي ۞ أنه قال: «أمنت بالله، وبما جاء عن الله، وعلى مراد الله، وأمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، وعلى مراد رسول الله»^(١).

(١) أوردته شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٣٥٤/٦) وقال عفيه: «أما ما قاله الشافعي؛ فإنه حق على كل مسلم أن يعتقده، ومن اعتقده ولم يأت بقول يناقضه، فإنه سالك سبيل السلامة في الدنيا والآخرة».

النهي عن الخوض في كيفية الرؤية

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِأَرَائِنَا؛ وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا):

الشرح

يعني: لا ندخل في الكيفية؛ بأن نتوهم بأهوائنا وظنوننا كما توهمت المعتزلة بأهوائهم وظنونهم؛ أنه يلزم من رؤية الله أن يكون جسمًا، أو أن يكون متحيزًا، أو أن يكون محدودًا، وقالوا: لو ثبتت رؤية الله بالابصار للزم من ذلك أن يكون الله في جهة، وأن يكون محدودًا، وأن يكون جسمًا، وأن يكون متحيزًا، فلما توهموا ذلك نفوا الرؤية، وتناولوا بأرائهم؛ فقالوا: معنى الرؤية: العلم .

فالمقصود: ألا ندخل في الكيفية حتى لا نتوهم بأهوائنا وظنوننا كما توهمت المعتزلة، وغيرهم من أهل الضلال.

التسليم لله والرسول ورد المتشابه للعلماء

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى غَالِيهِ):

الشرح

فالأمر كما قال الشيخ ۞: فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل بنصوص الشرع - الكتاب والسنة -، فالواجب كمال التسليم لله ولرسوله ۞، ورد علم ما اشتبه إلى عالمه، ولا يُعترضُ عليهما - يعني الكتاب والسنة - بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة: كأن يقول مثلاً: العقل يشهد بحد ما دلَّ عليه النقل، أو: العقل أصل النقل؛ فإذا عارضه قدمنا العقل! وهذا من أبطل الباطل؛ فالواجب التسليم لله ولرسوله ۞، والتسليم لنصوص الوحيين.

التسليم والانقياد والإذعان لنصوص الوحيين

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَلَا تُنْبِتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهَرِ التَّسْلِيمِ وَالْإِسْلَامِ):

الشرح

أي: لا يثبت إسلام من لم يُسلم بنصوص الوحيين، وينقذ إليهما، ولا يعترض عليهما، ولا يعارضهما برأيه ومعقوله وقياسه، كما قال الإمام محمد بن شهاب الزهري فيما رواه البخاري عنه: «بين الله الرسالة، وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم»^(١)، وهذا كلام جامع نافع، ولا نجاة للعبد إلا بتوحيد الله عز وجل، وتوحيد متابعة الرسول، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهذين التوحيدين: توحيد المرسل، وهو الله - سبحانه وتعالى -، وتوحيد متابعة الرسول، فنؤخذ المرسل - وهو الله - بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، ونؤخذ الرسول ﷺ بالتحاكم إليه، فلا نتحاكم إلى غيره، ولا نرضى بحكم غير حكمه، بل نقاد لأمره - عليه الصلاة والسلام -، ونتلقى خبره بالقبول والتصديق؛ دون معارضة بخيال باطل؛ نسميه معقولاً، أو نحمله شبهة أو شكاً، أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، أو نتوقف في تنفيذ أمره وتصديق خبره؛ لعرضه على قول شيخ أو إمام أو مذهب أو طائفة؛ فإن أذنوا: نُقِّد وقيل خبره، وإلا فُوض؛ كما يفعل ذلك الذين لم يستسلموا لنصوص الوحيين، بل الواجب: التحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، ولا يمكن أن يكون العقل الصريح مخالفاً نقلاً صحيحاً؛ لأن ما جاءت به الشريعة:

(١) البخاري (٥٠٣/١٣) - فتح الباري

بوافق العقول الصحيحة، ولا يمكن أن يخالف نقلٌ صحيحٌ عقلاً صريحاً أبداً، لكن إذا جاء من ينكر ذلك مع كون النقل صحيحاً؛ فذلك الذي يدعي أنه معقول؛ ليس عقلاً صريحاً ولا بُدَّ، بل هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر له ذلك، أما إذا كان النقل غير صحيح فإنه لا يصلح للمعارضة أصلاً، وبعض الناس يقول: إذا تعارض العقل والنقل؛ وجب تقديم النقل؛ لأن كلاً من العقل والنقل مدلول، والجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممنوع؛ لأن العقل قد دل على صحة السمع، ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل، لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل؛ لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضته شيء من الأشياء؛ فكان تقديم العقل موجباً عدم تقديمه.

وأهل الكلام وأهل البدع من معتزلة وغيرهم، إنما أوتوا من تقديمهم العقل على النصوص. وتقديم العقل له آثار سيئة في نقصان التوحيد؛ فمن لم يسلم للرسول - عليه الصلاة والسلام - نقص توحيده، لأنه يقول برأيه وهو.

وتقديم العقل على النصوص؛ من أسباب الفساد في العالم؛ وذلك أن الفساد في العالم دخل من ثلاث فرق:

- من الملوك الجائرة.

- ومن علماء وأخبار ورهبان سوء.

- ومن عبثاء سوء الذين يتبعون على جهل وضلال.

فالملوك الجائرة: يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، ويعارضونها بها، ويقدمونها على حكم الله ورسوله.

وعلماء السوء: هم العلماء الخارجون عن الشريعة بأرائهم، وأقيستهم الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرّم الله ورسوله، أو تحريم ما أباحه الله ورسوله، هؤلاء يخرجون عن الشريعة، ويقدمون آراءهم ومقاصدهم الناقصة الفاسدة على نصوص الوحيين.

ورهبان السوء: وهم جهال المتصوفة الذين يعترضون على حقائق الإيمان والشرع، بالأذواق، والمواجيد، والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية.

فالملوك الجورة؛ الجاثرون، يقولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قلّمنا السياسة، وعلماء السوء يقولون: إذا تعارض العقل والنقل؛ قلّمنا العقل، ورهبان السوء، وعباد السوء يقولون: إذا تعارض الذوق والكشف، وظاهر الشرع؛ قلّمنا الذوق والكشف.

ولهذا قال عبد الله بن المبارك الإمام المعروف عليه السلام:

وهل أفسد الدين إلا الملوكة، وأحبأ سوء ورهبانها^(١)

والعلماء يضربون مثلاً للنقل مع العقل؛ وذلك أن العقل مع النقل كالعالم المقلد مع العالم المجتهد، فالعقل كأنه عامي مقلد، والنقل كالعالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالماً ويتعلم، ولا يمكن للعالم أن يكون نبياً أو رسولاً، فإذا عرف العامي المقلد عالماً فجاء عامي آخر يريد أن يستفتي فدلّه هذا العامي على العالم ليستفتي، ثم اختلف المفتي والداال - العامي - الذي دلّه، فإن المستفتي يجب أن يأخذ بقول العالم المفتي دون الداال، فلو قال العامي الدال:

(١) انظر: «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٢٤/٦)، و«إعلام الموقعين» (١٠/١)

الصواب معي دون المفتي؛ لأنني أنا الأصل في علمك بأنه مفتي، فإذا قدمت قوله على قلبي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفتي، فلزم القدح في الفرع دون الأصل، فيقول له المستفتي: أنت لما شهدت له بأنه مفتي، ودلت عليه، وشهدت له بوجوب تقديمه دونك، فموافقتي لك في هذا العلم المعين لا تستلزم موافقتي إياك في كل مسألة، وخطوك فيما خالف في المفتي الذي هو أعلم منك، لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفتي، هذا مع علمه بأن ذلك المفتي قد يخطئ، والعقل يعلم أن الرسول ﷺ معصوم في خبره عن الله - تعالى - لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له، والالتقاد لأمره.

النهي عن التكلم في أمور الدين بغير علم

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ، وَلَمْ يَفْتَحْ بِالتَّسْلِيمِ قَلْبَهُ؛ حَاجِبَهُ مَرَامُهُ عَنْ خَالِصِ التَّوَجُّيدِ وَصَافِيِ الْمَعْرِفَةِ وَصَحِيحِ الْإِيمَانِ):

الشرح

«من رام...»: يعني: من أراد وقصد أن يعلم علماً محظوراً عليه، ممنوعاً منه شرعاً، كأن يريد أن يعلم الكيفية؛ أي: كيفية الصفات، أو يريد أن يعلم حقائق الآخرة أو شيئاً مما مُنِعَ منه؛ حجبته ذلك عن صافي المعرفة، وصحيح الاعتقاد، وصحة الإيمان، فصار في إيمانه خلل، وفي تحقيقه للتوحيد دخن؛ لأنه طلب شيئاً ممنوعاً منه.

وسبب اختلال كثير من الناس؛ هو الإعراض عن كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، والاشتغال بكلام اليونان، والآراء المختلفة؛ ولهذا يُسمَّون: أهل الكلام، وإنما سُمُّوا: أهل كلام؛ لأنهم لم يشيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام لا يفيد، فهم يضربون من القياس لإيضاح ما غلِمَ من الحسن، وإن كان هذا القياس وأمثاله امتحنوا به في موضع آخر.

انتياب الحيرة من عدل عن الكتاب والسنة إلى غيرهما

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (فَيَتَذَبَّدُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالتَّضْيِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَالْإِفْرَارِ وَالْإِنْكَارِ، مُوسَّسًا تَائِهًا شَاكًا، لَا مُؤَمِّنًا مُصَدِّقًا، وَلَا جَاجِدًا مُكْذِّبًا):

الشرح

يعني هذا الإنسان الذي يريد أن يعلم أو يصل إلى العلم الذي مُنِعَ منه؛ يبقى في حيرة وشك، ويتذبذب ويضطرب بين الإيمان وبين الكفر، وبين التصديق أو التكذيب، وبين الإقرار وبين الإنكار، ويكون موسَّساً تائهاً ضالاً، بسبب عدم ثباته، وبسبب تجاوزه لحده؛ فإن الإنسان حده أن يعلم ما أمر الله بمعرفته من العلم النافع، كأن يعلم أسماء الرب وصفاته ومعانيها، ويعلم ما شرعه الله في كتابه، وفي سنة رسوله ﷺ من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، ويعلم ما يكون من الجزاء في يوم المعاد من أمور البرزخ وأمور الآخرة.

أما الحقائق والكيفية والكُنْه؛ فهذا لا ينبغي له أن يسعى في طلبها؛ لأنه إذا فعله فقد تجاوز حده وبقي بين الشك واليقين، وبين الإقرار والتكذيب، وبين الإيمان والتكذيب؛ موسَّساً تائهاً حائراً، - نسأل الله السلامة والعافية -.

الرد على من تأول رؤية الله

♦ قَالَ الْمُؤَلِّهُ ﷺ: (وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالرُّؤْيَى لِأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ لِمَنْ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ يَوْمَ أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ):

الشرح

• قوله: (ولا يصح الإيمان بالرؤية).

يعني: برؤية الله يوم القيامة، وقوله: (لمن اعتبرها منهم يومهم أو تأولها بفهم) يعني: أن من تأول أو توهم الرؤية بأنها تشبه رؤية المخلوقين، أو أن الله يشبه أحداً من خلقه، أو يماثل أحد من خلقه، أو أن الله يرى على صفة كذا؛ فهذا كله توهم يظنه؛ لأنه بعد هذا التوهم إن أثبت ما توهمه من الوصف: كان مشبهها، وإن نفى الرؤية من أصلها لأجل هذا التوهم: صار جاحداً معطلاً، فلا يصح الإيمان بالرؤية لمن توهمها يومهم، أو ادعى أن لها فهماً يخالف ظاهرها، أو يخالف ما يفهمه العرب، فحرّف الرؤية، وسمى تحريفه تأويلاً؛ كما فعلت المعتزلة؛ حيث تأولوا الرؤية بالعلم، وقالوا: إنه يلزم من إثبات رؤية الله في الآخرة أن يكون الله شبيهاً بالمخلوقين، فلذلك تأولناها!! فمثل هذا الإيمان لا يصح.

ومن أي إلا تحريف أدلة الرؤية؛ فإنه يكون بهذا قد فتح باباً للملاحدة الباطنية؛ حيث إنهم أولوا نصوص المعاد، والجنة والنار، والحساب؛ فقالوا: إن الجنة والنار، بل والمعاد: خيال، فلما قال لهم المعتزلة وأهل الكلام: نصوص المعاد والجنة والنار صحيحة ثابتة بالأدلة القطعية. ومعناها واضح، قال لهم الباطنية: أنتم أولتم نصوص الرؤية، ونصوص الرؤية أيضاً ثابتة، ومعناها ثابت، فما الذي يبيح لكم أن تتأولوا نصوص

الصفات، ويمنعنا من تأويل نصوص المعاد والجنة والنار؟! ففتحوا بذلك باب التأويل للملاحدة.

وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وقد حذرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم.

صفات الله

كل صفة تضاف إلى الرب تفسر بها بترك التأويل

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنَى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ بِتَرْكِ التَّأْوِيلِ وَلِزُومِ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينَ الْمُسْلِمِينَ):

الشرح

التأويل في قوله: (تأويل الرؤية) معناه: التفسير، والتأويل الثاني معناه: التحريف.

والمعنى: تفسير الرؤية، وتفسير كل معنى أو صفة تضاف إلى الرب؛ تفسيرها الصحيح: إنما يكون بترك التحريف، وجريان النصوص على ظاهرها، فالمعنى كما قال الإمام مالك ۞ تعالى - لما سُئِلَ عن الاستواء قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة^(١).

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٢٥-٣٢٦)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٦٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/٣٠٤-٣٠٦)، و«الاستذكار» لابن عبدالبير (٨/١٥١). وقال الذهبي في «العلو» (ص١٣٩): «هذا ثابت عن مالك»، وجوّد إسناده الحافظ في «الفتح» (١٣/٤٠٧) من رواية ابن وهب عن مالك. وانظر في هذا الأثر رواية ودراية رسالة الشيخ عبدالرزاق العباد «أثر مالك في الاستواء» فهي نفيسة جدًا.

النفي والتشبيه من أمراض القلوب

♦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ ۞: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ):

الشرح

أي: من لم يتوق النفي في الصفات، أو التشبيه؛ زل ولم يصب التنزيه، فلا بد من توقي هذين الأمرين؛ نفي الصفات وتعطيلها كما فعلت الجهمية والمعتزلة والأشاعرة فيما نفوا من الصفات، وكذلك يتوقى التشبيه كما فعلت المشبهة؛ فقالوا: إن صفات الخالق كصفات المخلوق، فلا بد أن تتوقى النفي في باب التنزيه، وتتوقى التشبيه والتثليل في باب الإثبات.

وهذا هو الذي فعله أهل السنة والجماعة؛ أثبتوا الصفات لله عز وجل، وتوقوا النفي في باب التنزيه؛ فلم يعطلوا ولم ينفوا الصفات، وتوقوا التشبيه في باب الإثبات؛ فلم يقولوا: إنها مماثلة لصفات المخلوقين بل أثبتوا الصفات ونفوا الكيفية.

وهذان النوعان - مرض النفي ومرض التعطيل والتشبيه - مرضان عظيمان؛ المرض الأول: مرض شبهة، والمرض الثاني: مرض شهوة.

وكلاهما - الشهوة والشبهة - مذكوران في القرآن؛ فمن الأدلة على مرض الشهوة قول الله - تعالى -: ﴿فَلَا تَحْضَنْ أَلْفًا يَفْطَمَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ومن الأدلة على مرض الشبهة قول الله - تعالى -: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قَرَأَتْهُمُ بُرُوحُ الْجَنَّةِ لَآتَيْنَهُم مِّنْهَا مَاءٌ يَّشْرَبُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢٥]، ومرض الشبهة أشد من مرض الشهوة؛ لأن مرض الشهوة

يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إلا أن ينداركة الله برحمته، والشبهة تكون في الصفات، وتكون في مسألة القدر، وأشد الشبهتين ما كان في أمر القدر.

تنزيه الرب هو: وَصَفَهُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ نَفِيًا وَإِبْثَانًا

◆ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (فَإِنْ رَبَّنَا - جَلَّ وَعَلَا - مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، مَتَعَوْتُ بِتَعَوُّتِ الْفَرْدَانِيَّةِ لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ).

الشرح

والمؤلف ۞ أتى بهذه الكلمات وهي من باب السجع، ولو لم يلتزم السجع لكان أحسن.

والمعنى: أن الله - سبحانه وتعالى - موصوف بما وصف به نفسه من النفي والإثبات؛ فهو موصوف بصفات الوحدانية، وهذا مأخوذ من قول الله - تعالى - في سورة «الإخلاص»: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٢]، ومنعوت بتعوت الفردانية، كما في قوله - تعالى - في السورة نفسها: ﴿اللَّهُ الْفَرْدُ﴾ [١] لَمْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ وَكَم يُؤَكِّدُ [٢] [الإخلاص: ٢-٣]، فالله تعالى ليس في معناه أحد من البرية؛ يعني: لا يماثله أحد من خلقه، كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [٣] [الإخلاص: ٤]، والوصف والنعت: متقاربان، فالوصف يُطلق على الذات، والنعت يطلق على الفعل، وهما إما مترادفان أو متقاربان.

وكذلك الوحدانية والفردانية: متقاربتان، فالوحدانية يُقصد بها الذات، والفردانية للصفات، فهو - سبحانه وتعالى - متوحد في ذاته، متفرد في صفاته، لا يشبه أحدًا من خلقه.

فقوله: (لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ) هو معنى قول الله - سبحانه - : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [٣] [الإخلاص: ٤]، وهو أيضًا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [التور: ١١]، وكان من الأحسن أن يسوق هاتين الآيتين، بدلاً من قوله هذا.

الله تعالى لا يحويه شيء ولا يحيط به شيء

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ۞: (وَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السَّتُّ كَسَائِرِ الْمُتَبَدَّعَاتِ):

الشرح

هذه العبارات التي أطلقها المؤلف ۞ فيها إجمال، وفيها احتمال وإيهام، ولهذا: فإن شُرَّح «الطحاوية» الذين شرحوها قبل ابن أبي العز، فسروها على ما يتأولونه من الصفات. فهذه العبارات موهمة، وإن كان ۞ أراد بها معنى حسناً، وهو: نفي التشبيه، وأن الله - تعالى - لا يماثل أحداً من خلقه، ولا يريد بها نفي العلو الإلهي .

ولكن بعضهم زعم بأن مراد الطحاوي: نفي العلو؛ بدليل قوله: (لا تحويه الجهات الست)؛ وهي: الفوقية، والتحتانية، والأمامية، والخلفية، واليمنية، والشمال؛ فهذا واضح بأن مراده: إنكار علو الله، وهذا ليس بصحيح كما سيأتي النقل عنه بذلك .

فهو ۞ قد أثبت الفوقية؛ فلا بد أن يُفسَّر كلامه المشتبه بكلامه الواضح، فهو لا يقصد ۞ نفي العلو، وإنما أراد تنزيه الرب - سبحانه وتعالى - عن مشابهة المخلوقات، لكن الأولى في مثل هذا ألا تُطلق هذه العبارات، وأن يلتزم بالنصوص .

فالواجب الوقوف في باب أسماء الله وصفاته عند ما جاء في الكتاب والسنة نفياً وإثباتاً والتقيّد بذلك، وأن يُنظر في هذا الباب: فما أثبت الله ورسوله؛ أثبتناه، وما نفاء الله ورسوله؛ نفينا، فالألفاظ التي ورد بها النص، يُعْتَصَمُ بها في الإثبات والنفي، فيثبت ما أثبتته الله ورسوله من

الألفاظ والمعاني، وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تُطلق حتى يُنظر في مقصود قائلها، فإن كان أراد معنى صحيحاً: فُيْلَ، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد، والحاجة: مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يُخاطَبَ بها، مثل هذه الألفاظ الذي ذكرها المصنف، ومثلها أيضاً: ألفاظ مثل: المركب، والجسم، والحيز، والجوهر، والجهة، والعرض، والحدود، والغايات، والأركان، والأعضاء، والأدوات، ولا تحويه الجهات الست؛ كل هذه الألفاظ: ألفاظ مجملة؛ تحتل حقاً وباطلاً .

والناس لهم في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال:

- طائفة من الناس تنفيها وتقول: ليس مركباً، ولا جسمًا، ولا حيزًا، ولا جوهرًا، ولا تحويه الجهات .

- وطائفة تثبتها، وتقول: هو جوهر؛ هو غرض.

- وطائفة تفصل، وهم المتبعون للسلف الصالح؛ فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبيّن أنَّ ما أثبت بها ثابت، وما نفي بها فهو منفي؛ لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وإيهام، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية؛ وهذه الألفاظ لم يرد بها نص من الكتاب ولا من السنة نفياً ولا إثباتاً، فمثلاً إذا قال: الله ليس مركباً، نقول: ما مرادك بـ«مركب»؟ فالتركيب له معاني:

أحدها: التركيب من متباينين فأكثر؛ ويسمى: تركيب مزج؛ كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء، وهذا المعنى منفي عن الله.

والثاني: تركيب الجوار؛ كمصراعي الباب ونحو ذلك، ولا يلزم من

ثبوت صفاته - تعالى - إثبات هذا النوع من التركيب .

الثالث: التركيب من الأجزاء المتماثلة - ويسمونها الجواهر المفردة -؛ وهذا يكون الجسم فيه مركباً من الجواهر المفردة، ولكن: هل يمكن التركيب من جزئين أو أكثر؟! كل هذا باطل، فلا يقال: إن صفات الله مركبة بهذا المعنى .

الرابع: التركيب من الهيولى؛ والصورة كالخاتم مثلاً؛ هيولاء: الفضة، وصورته: معروفة؛ وهذا التركيب ليس لازماً لثبوت صفات الله تعالى .

الخامس: التركيب من الذات والصفات؛ وهذا يسمونه تركيباً؛ لأجل أن ينفوا به الصفات، وهم يقولون بصفة ذلك في حق الله؛ فيقولون: الله مركب يعني: له ذات وصفات.

ونحن نقول: هذا صحيح؛ الله له ذات وصفات؛ لكن بتسمية غير تسميتكم؛ وهذا تركيب باطل، لا يُعرف في اللغة، ولا في استعمال الشرع، فلا نوافقكم على هذه التسمية .

السادس: التركيب من الماهية - الجسم - ووجودها، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران؛ واما في الخارج: فمن المُحال أن تكون ذات مجردة عن وجودها، ووجودها مجرد عنها، فإذا قالوا: الله ليس بجسم، فنقول: ما مرادكم بالجسم؟ فالجسم يُطلق على ما تركب من جزئين، أو ما تركب من ثلاثة أجزاء فصاعداً، ويقال أيضاً: الحق أن لفظ الجسم لفظ مجمل، لا يُثبت ولا يُنفي إلا بعد الاستفسار، فإن أردتم بنفي الجسم؛ نفي الصفات: فهذا باطل، وإن أردتم به: أن الله مستغنى عن غيره، عال على خلقه، بائن منهم؛ فهذا حق، لكن لا ينبغي التعبير بالجسمية؛ لأن هذه

الألفاظ لم تأت في النصوص بالمعنى الذي يريده أهل الاصطلاح .

وكذلك يعبرون بـ«الجوهر»؛ فيقولون: الله جوهر، أو: ليس بجوهر، يقال: فما مرادكم بالجوهر؟ الجوهر يطلق على ما يقابل العَرَضَ، ويطلق عند أهل الكلام على العين التي لا تقبل الانقسام، وكل هذه معان باطلة، فهي كغيرها من الألفاظ المجملة، ومثلها كذلك لفظ «التحيز، والتحيز»، ويراد بالتحيز: الوجود في محل أو مكان، والتحيز المكان والمحل، وبهذا الكلام اصطلاحوا على تسمية استواء الله على العرش وعلوه على خلقه: تحيزاً. فنقول: الله مستوٍ على عرشه، وأما تسميته التحيز تحيزاً بهذا الاصطلاح فهذا باطل .

ومن المعروف أن الموجود شيء ينسب إلى الوجود، فإن كان موجوداً هو أشرف الموجودات؛ فواجب أن ينتسب من الموجود المحسوس إلى الحيز الأشرف، وهي السماوات، ولشرف هذا الحيز قال الله - تعالى - : ﴿لَمَّا كُلِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْبَرَ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (صافات: ٢٧)، أما إذا أردتم بنفي التحيز والحيز أن الله مستغنى عن خلقه بائن منهم، عالي عليهم؛ فهذا حق، لكن ينبغي التعبير بألفاظ النصوص.

وكذلك القول: بأن الله له حَدٌّ، أو ليس له حد؛ وهو قول مجمل، ولا بد من الاستفصال عن هذا الإطلاق، نفياً وإثباتاً، فالشيخ الطحاوي رحمه الله أراد بلفظ الحد الرد على المشبهة؛ كداود الجوابي، وأمثالهم من القائلين بأن الله جسم، وأنه جثة، وله أعضاء، لكن أهل الكلام جروا الطحاوي وأدخلوا في عباراته معنى باطلاً، فنقول: ما مرادكم بالحد؟ إن أردتم بالحد: العلم والقول؛ والمعنى: أن العباد يحدون الله، ويعلمون الله

حَدًّا؛ فهذا منتفٍ بلا منازعة، لأن العباد لا يعلمون الله حَدًّا كما قال سهل بن عبد الله، وقد سئل عن ذات الله فقال^(١): «ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالابصار في دار الدين، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون في العقبى ظاهراً في ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كُنْه ذاته ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمن بالابصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية».

فإن أردتم بقولكم: إن الله له حد، وأن العباد قد يعلمون الله حَدًّا: فهذا باطل، وإن أردتم بنفي الحد، وقلتم: إن الله ليس له حد - يعني: أن البشر لا يعلمون له حَدًّا، ولا يحدون شيئاً من صفاته - فهذا حق؛ فإن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون الله حَدًّا، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته.

قال أبو داود الطيالسي: «كان سفيان، وشعبة، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وشريك، وأبو غوانة؛ لا يحدون، ولا يشبهون، ولا يمثلون؛ يروون الحديث ولا يقولون: كيف، وإذا سئلوا أجابوا بالأثر»^(٢).

فمراد الطحاوي كَلَّمَ - هنا أن الله سبحانه يتعالى عن الحدود، وأنه يتعالى عن أن يحيط أحد من خلقه بحده؛ وهذا معنى قوله: (وتعالى عن الحدود) أي: أن الله متميز عن خلقه، منفصل عنهم مباين لهم.

سئل عبد الله بن المبارك كَلَّمَ: «بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ص ٢١٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/٣).

العرش؛ بائن من خلقه. قيل: بحد؟ قال: بحد»^(١).

يعني: أنه متميز عن خلقه، منفصل عنهم، لم يدخل في ذاته شيء من ذواتهم، ولا في صفاته شيء من صفاتهم، ولا في خلقه شيء من ذاته، ومن نفى الحد بهذا المعنى وقال: ليس الله حد، يعني: أن الله منفصل عن مخلوقاته، بائن منهم؛ فقد جعل الله فوق المخلوقات؛ وهذا صحيح.

- وإذا قال: ليس الله حد وأراد بذلك: أن الله خَلَقَ من المخلوقات؛ فهذا باطل.

- وإذا قال: الله حد يعني: الله حد يعلمه هو؛ تعالى؛ فهذا صحيح.

- وإذا قال: ليس الله حد، يعني: أن العباد لا يعلمون الله حَدًّا؛ فهذا صحيح؛ فلا بد من التفسير، والتبيين؛ حتى يتضح المراد.

وكذلك قول الطحاوي: (يتعالى عن الحدود والغايات) فيه إجمال وإبهام، فإن نفاة الحكمة والتعليل من الجبرية والمعتزلة وغيرهم، اصطلاحاً على تسمية الحكم والغايات التي يفعل من أجلها أغراضاً: يسمونها الغاية، فيقولون: إن الله منزّه عن الغايات التي يتكلم ويفعل لأجلها ولتُسَوَّى على ضعفاء العقول. وقالوا لهم: اعلموا أن ربكم منزّه عن الأغراض، والأغراض، والأبعاض، والجهات، والتركيب، والتجسيم، والتشبيه، واستقر ذلك في قلوب المبلغين عنهم، فإذا صرحوا بذلك يبقى السامع متحيراً بين نفي هذه الحقائق التي أثبتتها الله لنفسه، وأثبتها له جميع رسله وسلف الأمة، وبين إثباتهم، فنقول لهم -حيثول-: أنتم قلتم: إن الله منزّه عن الغايات، فما مرادكم بالغايات؟ إن أردتم بالغايات أنه سبحانه لا يفعل

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١/٢٦٢، ٢٦٣).

ولا يتكلم لحكمة ومصلحة، ورحمة؛ فهذا باطل، فإن هؤلاء المتكلمين عندهم: أن الله لا يفعل شيئاً؛ لشيء، ولا يأمر بشيء؛ لحكمة، ولا جعل شيئاً من الأشياء سبباً لغيره، وما ثم إلا مشيئة محضة وقدره ترجع مثلاً على مثل؛ بلا سبب ولا علة^(١)، ثم يقال لهم: وإن أردتم بنفي الغايات: أن الله لا يحتاج إلى أحد، ولا يفعل لحاجة، ولا يفعل لمؤثر يؤثر فيه، وموجب يوجب عليه؛ فهذا حق، لكن ينبغي الاعتصام باللفاظ النصوص؛ لأنها أسلم.

فَقُولُ الطحاوي: (يَتَعَالَى عَنِ الْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ وَالْجَوَارِحِ):

فيه عبارات موهمة، وفيه من مصطلحات أهل الكلام الذين يسمون إثبات الصفات لله، تجسيماً، وتشبيهاً، وتمثيلاً، ويسمون العرش: حيزاً وجهه، ويسمون الصفات: أعضاء، ويسمون الأفعال: حوادث، ويسمون الحكم والغايات التي يفعل لأجلها: أغراضاً، ويسمون إثبات الوجه، واليدين: أبعاداً؛ فيقولون: الله منزّه عن الأعراض والأغراض، والأبعاد، والجهات، والتركيب، والتجسيم، والتشبيه؛ فيستدلون بهذه الألفاظ كالأركان، والأعضاء، والأدوات، والجوارح على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية: كاليد والوجه، وغيرهما.

ولكن لا يقال لهذه الصفات: إنها أعضاء، أو جوارح، أو أدوات، أو أركان؛ لأنها تحتل معاني باطلة؛ لأن الركن جزء الماهية، فيقال: إذا

(١) انظر: «شفاء العليل» لابن القيم (ص ١٨٥ ط: الأولى - الخانجي سنة ١٣٢٣هـ، نشر: مكتبة الرياض الحديثة).

سميتها أركاناً، فالحق - تعالى - هو الأحد الصمد؛ لا يتجزأ ولا يتفرق: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ [الإخلاص: ١-٢]، وقولكم: «الأعضاء»؛ فيه معنى التفرق والتغصية أي: التقطيع وجعل الشيء قطعاً، وهذا المعنى منفي عن الله، ومن هذا المعنى قول الله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِشِينَ ۚ﴾ [الحجر: ٩١]، وكذلك: لفظ الجوارح: فيها معنى الاكتساب والانفتاح، والأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة. فكل هذه المعاني متفية عن الله - تعالى -، ولهذا: لم يرد ذكرها في صفات الله. والذي ينبغي في هذا المقام التعبير بالألفاظ الشرعية؛ لأن الألفاظ الشرعية صحيحة المعاني، سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فلا يجوز العدول عنها نفياً ولا إثباتاً، لئلا يثبت بها معنى فاسد أو يُنفى معنى صحيح.

كذلك قد يستدل بعض النفاة بقول الطحاوي المتقدم، على نفي بعض الصفات الثابتة بالنصوص، فيقال: إن أريد بنفي الصفات نفي الصفات الثابتة، كالوجه، واليدين وغيرهما: فهذا باطل؛ لأنها ثابتة، كما قال أبو حنيفة رحمته في «الفرق الأكبر»^(١): «له يد ووجه ونفس كما ذكر الله - تعالى - في القرآن، فله صفة بلا كيف، ولا يقال: إن يده: قدرته ونعمته؛ لأن فيها إبطال الصفة».

وهذا الذي قاله الإمام أبو حنيفة ثابت بالأدلة القطعية قال الله - تعالى -: ﴿مَا نَنبَأُ أَنْ نَحْمَدَ لَكَ نَحْمَدُ بِكَ﴾ [م: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالشَّجَرَاتُ مُحَوَّيَّتُهَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال - تعالى -: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٢٨]، وقال: ﴿وَبَيْنَ يَدَيْهِ

(١) انظر: «الفرق الأكبر» مع شرحه للملا علي القاري (ص ٦٦، ٦٧).

رَبِّكَ ذُو الْمَلَكِ الْإِكْرَابِ ﴿٢٧﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿تَتْلُمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿كُنْتُ رَيْبَكُمْ عَنْ نَفْسِي أَرْحَمَهُ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال: ﴿وَأَسْطَنُتُكَ يُقْسِي﴾ [طه: ٤١]، وقال: ﴿وَيُؤَيِّنُكُمْ اللَّهُ تَتَسَكَّبُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال في حديث الشفاعة: لما يأتي الناس آدم فيقولون له: «خَلَقَكَ اللَّهُ يَدِي، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ»^(١)، وقال ﷺ: «جِبَابُهُ النَّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَجَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَتَتْهُ يَدُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٢)، فهذا كله ثابت.

وكذلك لفظ (الجهة) نفهم لها قول مجمل؛ فلا يجوز إطلاق نفيها، ولا إثباتها إلا مع البيان التفصيلي، كما سبق.

كذلك أيضاً: قول الطحاوي ﷺ: (وَلَا تُخَوِيهِ الْجِهَاتُ السُّتُ كَسَائِرِ الْمُتَبَدَّعَاتِ):

مراده ﷺ أن الله لا يشبه المخلوقات، لكن أهل الكلام قالوا: مراده نفي العلو؛ لأن العلو من الجهات الست، ولكن هذا ليس بصحيح؛ بل مراده أن الله ليس في جهة مخلوقة، بدليل أنه أثبت العلو فيما بعد، وقال: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَقُوَّةٌ).

لكن الطحاوي ﷺ يُتَّفَقُ؛ لكونه عبر بهذه العبارات التي تشتمل على حق وباطل، وكان الأولى ألا يعبر بها، ويكتفي بنصوص الكتاب والسنة^(٣)، ويعتصم بها.

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) واللفظ له، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وقد تقدم.

(٣) قال شيخ الإسلام: «التعبير عن حقائق الإيمان بعبارة القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد، =

ثم أيضاً في قول الطحاوي ﷺ: (لَا تُخَوِيهِ الْجِهَاتُ السُّتُ كَسَائِرِ الْمُتَبَدَّعَاتِ) إشكالات:

الإشكال الأول: أن إطلاق مثل هذا اللفظ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال كان تركه أولى، ولا تسلط عليه الخصوم، والزموه بالتناقض في إثبات الإحاطة والفوقية، ونفي جهة العلو، فيقولون: أنت متناقض حيث تقول: (لَا تُخَوِيهِ الْجِهَاتُ السُّتُ) فنفي العلو، ثم تقول: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَقُوَّةٌ) وثبت العلو؛ فالزموه لذلك بالتناقض.

لكن نقول: إن الطحاوي مقصوده أن الله منزّه عن الجهات الست المخلوقة؛ فهو يقصد معنى صحيحاً، لكن مع ذلك نقول: الأولى أن يعتصم الطحاوي وغيره بالألفاظ الشرعية حتى لا يتسلط عليه الخصوم.

الإشكال الثاني: أن قول الطحاوي: (كَسَائِرِ الْمُتَبَدَّعَاتِ) أي:

= والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه. والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع. انظر: «النبوات» (٨٧٦/٢).

وقال شيخ الإسلام: «الألفاظ التي تنازع فيها من ابتدعها من المتأخرين، مثل لفظ «الجسم» و«الجوهر» و«المتحيز» و«الجهة» ونحو ذلك، فلا تُطْلَقُ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا، حتى ينظر في مقصود قائلها، فإن كان قد أراد بالنفي والإثبات معنى صحيحاً موافقاً لما أخبر به الرسول، صُزِبَ المعنى الذي قصده بلفظه، ولكن ينبغي أن يعبر عنه بألفاظ النصوص، لا يُعَدَّلُ إلى هذه الألفاظ المبتدعة المائلة إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد بها، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، وأما إن أريد بها معنى باطل، نُفِيَ ذلك المعنى، وإن جُمِعَ بين حق وباطل، أثبت الحق وأبطل الباطل» انظر: «منهاج السنة» (٥٥٤/٢)، و(٢/٦١١). وانظر: «الدرء» (٢٢٣/١)، و(٢٤٢)، و«الفناري» (٢٢٩/٥)، و(٦/٣٦)، و(٤٢٦/١٦)، و(٣٠٤/١٧).

المخلوقات يفهم منه أنه ما من مخلوق إلا وهو محوي، وهذا فيه نظر، فإنه إن أراد أنه محوي بأمر وجودي؛ فممنوع؛ لأن العالم ليس في عالم آخر، وإلا لزم التسلسل؛ فلنأخذ نرى العالم ليس محويًا بعالم آخر، وإن أراد أمرًا عديمًا؛ فليس كل مبتدع في العدم، بل المبتدعات منها ما هو داخل في غيره كالسموات والأرض مع الكرسي، ومنها ما هو منتهى المخلوقات؛ كالعرش، فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات قطعًا للتسلسل. ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال بأن قول الطحاوي: (كسائر المبتدعات) بمعنى (البقية) لا بمعنى (الجميع)، ويؤيد هذا: أن أصل معنى «سائر» البقية، ومنه الشؤر؛ وهو ما يُتقيّه الشارب في الإناء، فيكون مقصوده: (غالب المخلوقات)، لا جميعها، إذ (السائر) على الغالب؛ أدل منه على الجميع، فيكون المعنى: أن الله - تعالى - غير محوي؛ كما يكون أكثر المخلوقات، بل هو غير محوي بشيء - سبحانه تعالى -.

والخلاصة: أن الطحاوي رحمه الله أراد بهذه الألفاظ معاني صحيحة، وأن الله منزّه عند الحدود، والغايات، والأركان، والأعضاء، فمراده: إثبات صفات الله - عز وجل -، وأن الله لا يشابه المخلوقين، وأن الله ليس فيه شيء من مخلوقاته؛ ليس مفتقرًا إلى شيء منها.

الإسراء والمعراج

ثبوت الإسراء والمعراج للنبي ﷺ بشخصه في البقعة

◆ قَالَ الرَّوْلَةُ ﷺ: (وَالْمِعْرَاجُ حَقٌّ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْبَقْعَةِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعُلَا، وَأُكْرِمَهُ اللَّهُ بِمَا شَاءَ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى، مَا كَذَبَ الْفُؤَادَ مَا رَأَى. فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى).

الشرح

هذا البحث في: إثبات الإسراء والمعراج للنبي ﷺ، والإسراء ثابت في كتاب الله عز وجل قال - تعالى -: ﴿شَهِدْنَا الْوَيْلَ لِمِثْلِهِ لَكُلِّ شَيْءٍ يُكَلِّفُ لَكُمْ الْإِسْرَاءَ: ٢١﴾ ومن أنكر الإسراء كفر؛ لأنه مكذب لله. والمعراج ثابت بالأحاديث الصحيحة التي تفيد العلم والقطع، فمن أنكره: تقام عليه الحجة ويبين له .

وأصل الإسراء لغة: السير ليلاً، يقال: أسرى يسري إسراء، ويأتي لازماً يقال: سرى الرجل، ويأتي متعدياً يقال: أسرى به^(١).

وأما الإسراء شرعاً واصطلاحاً: فهو السفر برسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ليلاً على البراق، والبراق دابة دون البغل وفوق الحمار، أبيض طويل .

(١) انظر: «لسان العرب» (١٤/٣٨١، ٣٨٢).

والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي: أنهما يشتركان في السير ليلاً؛ لكن المعنى اللغوي أوسع، ثم يأتي المعنى الاصطلاحي بقيود وشروط زائدة على المعنى اللغوي وهو: كونه سفرًا، وبرسول الله ﷺ وعلى البراق، ومن مكة إلى بيت المقدس.

أما المعراج لغة: فهو على وزن «فَعَّال»، مشتق من العروج وهي آلة العروج التي يُعْرَج فيها ويُصعد، فيشمل السلم، ويشمل الدرجة^(١).

والمعراج شرعًا واصطلاحًا: هو العروج برسول الله ﷺ ليلاً من بيت المقدس إلى السماء، والآلة التي عرج عليها - عليه الصلاة والسلام - هي بمنزلة السلم، ولا يُعلم كيفية هذه الآلة، وحكمه حكم غيره من المغيبات، نؤمن به، ولا نشغل بكيفيته.

والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي في المعراج: أنهما يشتركان في أن كلا منهما صعود وعروج من أسفل إلى أعلى، وهذا قدر مشترك، ثم يأتي المعنى الاصطلاحي بقيود وشروط زائدة على المعنى اللغوي؛ وهو أن العروج بألة خاصة، وغيبية، ومن مكان خاص، وإلى علو خاص؛ من بيت المقدس إلى السماء، فالمعنى اللغوي أوسع دائرة.

والعلماء لهم أقوال في الإسراء والمعراج: هل أُسْرِيَ به - عليه الصلاة والسلام - وعرج به وهو نائم أم في اليقظة؟ وهل أُسْرِيَ به بروحه، أو بروحه وجسده؟ فللعلماء في ذلك أقوال أربعة:

القول الأول: أن الإسراء كان منامًا، وهذا أضعفها.

القول الثاني: أن الإسراء كان بروحه ﷺ دون جسده، وهذا نقله ابنُ

(١) انظر: «النهاية في غريب الأثر» للجزي (٤/٣٢٣).

إسحاق^(١) عن عائشة رضي الله عنها، ونقل عن الحسن البصري نحوه.

القول الثالث: أن الإسراء كان مرارًا؛ مرة منامًا ومرة يقظة، وبعضهم قال: مرة قبل الوحي، ومرة بعد الوحي، وبعضهم قال: الإسراء ثلاث مرات: مرة قبل الوحي، ومرتان بعده، وهذا يقول به ضعفاء الرواة للحديث - كما سيأتي - وهؤلاء كلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة؛ فيقولون: مرة في المنام كالتوطئة والتمهيد لِمَرَّةِ اليقظة؛ كما حصل في الوحي، فإن النبي ﷺ في الوحي أول ما ابتدأ به: الرؤيا الصالحة؛ ستة أشهر، فكان لا يرى رؤيا إلا وقعت مثل فلق الصبح، فقالوا: كما أن الوحي كان في المنام ثم في اليقظة، فكذلك الإسراء والمعراج كان مرة منامًا كتوطئة؛ ثم كان يقظة!!

القول الرابع: أن الإسراء كان بروحه وجسده؛ مرة واحدة؛ بعد الوحي؛ يقظة لا منامًا، وهذا أرجح الأقوال وأصحها، بل هذا هو الصواب. وإلى هذا ذهب جمهور العلماء والمحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت على هذا القول ظاهراً الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، وليس في العقل ما يحيل ذلك حتى يحتاج إلى تأويل^(٢).

الفروق بين القول الأول - من قال: إن الإسراء كان منامًا - والثاني - من قال: إن الإسراء كان بروحه -:

أُنْ من قال: إن الإسراء كان منامًا قال: إن رسول الله ﷺ رأى في نومه أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة؛ من قبيل الحلم؛ فيرى كأنه قد عُرج به إلى السماء، وذهب به من مكة؛ وجسده باقي، وروحه باقية

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

انظر: «بدائع الفوائد» (٤/١٣٧٩)، و«زاد المعاد» (٣/٣٥-٣٦).

أيضاً؛ لم تصعد ولم تذهب، وإنما مَلَكَ الرؤيا ضرب له الأمثال. وهذا معنى الإسراء مناماً.

ومن قال: إن الإسراء كان بروحه يقول: إن الروح ذاتها أُسْرِى بها ففارقت الجسد ثم عادت إليه؛ قالوا: وهذا من خصائص النبي ﷺ إذ أن غيره لا تنال روحه الصعود الكامل إلى السماء، إلا بعد الموت.

والقدر المشترك الذي اتفق فيه القولان: هو: أن الجسد باقٍ، لكن من قال: إن الإسراء كان مناماً قال: الروح أيضاً باقية والملك هو الذي ضرب له الأمثال، ومن قال: الإسراء كان بروحه قال: الجسد باقٍ والروح هي التي صعدت، وأُسْرِى بها ثم رجعت.

أدلة الفريقين:

استدل أهل القول الأول القائلون بأن الإسراء كان مناماً بدليل شرعي، ودليل عقلي:

أما الدليل الشرعي:

فاستدلوا بحديث الإسراء والمعراج الذي رواه شريك بن أبي نمر فإنه نقل في بعض ألفاظ الحديث: في ختام القصة قَوْلُ الراوي: «واستيقظ وهو في مَسْجِدِ الحرام»^(١)، يعني: النبي ﷺ. قالوا: هذا دليل على أن الإسراء

(١) الحديث بطوله أخرجه البخاري (٧٥١٧)، وهو في مسلم (١٦٢) مختصر جداً، وقد قال الإمام مسلم عن رواية شريك هذه: «وقدّم فيه شيئاً وآخر، وزاد ونقص». وقال الإمام ابن كثير في «تفسيره» (٤/٣ - دار الفكر): «فإن شريك بن عبد الله بن أبي نمر اضطرب في هذا الحديث وساء حفظه». فشريك له في هذا الحديث تفردات وأوهام، وقد ذكر ابن حجر مجموع ما خالف فيه روايته غيره من المشهورين وهي عشرة. انظر: «فتح الباري» (٤٨٥/١٢٣) و (١٩٧/٧)، (١٩٨).

كان مناماً.

والجواب: ما أجاب به نقاد الحديث عن هذه اللفظة بأنها غير ثابتة، ولا سيما أن الأحاديث لم ترد بذكرها، وشريك بن عبد الله بن أبي نمر له أغلاط، وقد غلطه الحفاظ في ألفاظ حديث الإسراء، ولهذا قال الإمام مسلم رحمه الله بعدما روى حديث شريك: «قدّم وآخر، وزاد، ونقص».

وأيضاً: من أدلتهم التي استدلوا بها: قول عائشة رضي الله عنها: «مَا قُودَ جَسَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَكِنْ أُسْرِى بِرُوحِهِ»^(١).

نقول: وهذا إن صح عن عائشة، فهو اجتهاد منها لا تُعَارَضُ به النصوص.

وأما الدليل العقلي: فقالوا: إن الأجسام الأرضية من طبيعتها الثقل، فلا يعقل أن تصعد إلى السماء، وليست من الروحانيات؛ كالملائكة؛ فالأجسام ثقيلة بخلاف الروح والملائكة، فإن من طبيعتها الخفة.

والجواب: أن نقول: العقل لا يعارض النقل، فإذا صح النقل فلا يجوز لنا أن نعارضه، بل الواجب التسليم والخضوع لكلام الله وكلام رسوله، وأن نتلقاه بقبول وتسليم، ولا نعارضه بعقولنا.

وأيضاً نرد عليهم بدليل عقلي؛ من جنس استدلالهم؛ حتى نقارع الحجة بالحجة، فنقول: أنتم تقولون: الأجسام الأرضية من طبيعتها الثقل فلا يعقل أن تصعد إلى السماء، ونحن نقول لكم: الملائكة من طبيعتها

(١) رواه ابن إسحاق في «السيرة النبوية» (٢٧٥/٥) قال: «حدثني بعض آل أبي بكر عن عائشة» ثم ذكره، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الطبري في «التفسير» (٣٥٠/١٧)، وفي «تهذيب الآثار» مسند ابن عباس (٧٢٣)، وفي سند الخبر راوٍ مُهم.

العلو والخفة فلا يعقل أن تنزل إلى الأرض، فلو جاز استبعاد صعود البشر؛ لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة والوحي، وهذا كفر.

ويورد على هذا القول أيضاً: يقول الله سبحانه: ﴿شَبَّحْنَاهُ لَكِنَّهُ أَسْرَىٰ يَمْدُوهَ فَيَكَلِّمُهُمُ الْإِسْرَاءُ: ٢١﴾، والعبد يطلق على مجموع الروح والجسد.

ويُرد أيضاً على من قال: إن الإسراء كان مناماً أو كان بالروح: أنه لو كان الإسراء مناماً، وكان جسد النبي ﷺ وروحه باقيين في مكة: لما بادرت كفار قريش إلى تكذيب النبي ﷺ، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم كما ثبت ذلك؛ فإنهم أنكروا أن يسافر إلى بيت المقدس مسافة شهر، في ليلة واحدة، ثم يصعد إلى السموات - وبين كل سماء إلى سماء مسافة خمسمائة عام - ويرجع في ليلة واحدة؟! فارتدوا، فلو كان مناماً: لما أنكروه، ولما كان هناك كبير شيء أو شأن في النوم والله - تعالى - قال: ﴿شَبَّحْنَاهُ لَكِنَّهُ أَسْرَىٰ يَمْدُوهَ﴾ (الإسراء: ٢١)، والتسبيح إنما يكون في الأمور العظام.

وهذا يدل على أن الإسراء كان بروحه وجسده. وبهذا يبطل قول الذين قالوا: إن الإسراء كان بروحه - عليه الصلاة والسلام -.

أما أهل القول الثالث: الذين قالوا:

- كان الإسراء مرة مناماً ومرة يقظة.
- أو مرتين مرة قبل الوحي ومرة بعده.
- أو مرة قبل الوحي ومرتين بعده.

فقد أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله حين ختم القصة:

«واستيقظ وهو في مسجد الحرام»^(١)، وبين سائر روايات الحديث التي لم تذكر هذه الألفاظ، فقالوا: إن الإسراء كان مراراً مرة مناماً كما يفيد حديث شريك، ومرة يقظة كما تفيد سائر الروايات، وبعضهم قال: مرة قبل الوحي ومرة بعده، وبعضهم قال: ثلاث مرات: مرة قبل الوحي ومرتين بعده؛ جمعاً بين الأدلة في زعمهم، فكلما اشتهى عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق بين الأدلة - في نظرهم - وهذا يفعله ضعفاء رواة الحديث.

والجواب عن شبهتهم: أجاب عنها العلامة ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد»^(٢) قال: إنه ثبت في حديث الإسراء والمعراج أن الله فرض على نبينا محمد ﷺ الصلاة في أول الأمر خمسين صلاة في اليوم والليلة، ثم جعل النبي ﷺ يتردد بين ربه وبين موسى في السماء السادسة وفي كل مرة يأمره موسى - عليه الصلاة والسلام - بأن يسأل ربه التخفيف لأمته، فيحط الله - تبارك وتعالى - عنه خمساً وعشرين حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم قال: «ناداني مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ قَرِيضِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»^(٣)، فلو كان الإسراء والمعراج مناماً للزم من ذلك أن يعيد الله فرضية الصلاة مرة ثانية خمسين، ثم يحطها إلى خمس؛ وهذا فاسد. وبهذا يبطل هذا القول.

أما أهل القول الرابع: الذين قالوا: إن الإسراء كان مرة واحدة؛ بجسده وروحه؛ يقظة لا مناماً؛ في ليلة واحدة؛ قبل البعثة وبعدها وقبل الهجرة، فهذا القول هو الصواب وهو ما تؤيده النصوص من الكتاب والسنة.

(١) سبق تخريجها قبل قليل، وهي رواية شريك بن أبي نمر.

(٢) زاد المعاد (٣/٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

ومن أكلة هذا القول:

الدليل الأول: قول الله - تعالى - ﴿سَيَحْنُ الْبَرِّ لَمَرِّكَ بِمَدِينِهِ لَيْلًا يَرَى الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ٢١]، ووجه الدلالة: أن العبد إذا أطلق فهو عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح؛ إذا أطلق، وهذا يدل على أن الإسراء بروحه وجسده، ولهذا قال الطحاوي رحمه الله: (وُجِّهَ بِشَخْصِهِ فِي الْيَقْلَةِ) والشخص اسم للروح والجسد، فالطحاوي رحمه الله يثبت أن الإسراء بروحه وجسده كما عليه المحققون .

الدليل الثاني: ما ثبت في «الصحيحين» - رحم الله صاحبيهما - بروايات متعددة أنه أسري برسول الله ﷺ وخرج بشخصه إلى السماء، وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم إماماً، وأنه التقى بعدد من الأنبياء في كل سماء، وأن الله فرض عليه الصلاة خمسين، ثم خففها إلى خمس بترده بين ربه وبين موسى، وأنه رأى جبريل عند سدره المنتهى على صورته التي خلق عليها، وكل هذه الروايات ظاهرها أنه أسري بروحه وجسده - عليه الصلاة والسلام - . وبهذا يتبين أن الصواب أنه أسري بروحه وجسده - عليه الصلاة والسلام - ، وأنه لا بد للمسلم أن يؤمن بالإسراء والمعراج، ومن أنكر الإسراء كفر؛ لأنه مكذب لله، وللقرآن ومن أنكر المعراج فلا بد من إقامة الحجة عليه.

الفوائد المستنبطة من حديث الإسراء والمعراج:

أولاً: الفوائد الأصولية:

١- جواز النسخ قبل التمكن من الفعل؛ حيث فرضت الصلاة خمسين أولاً، ثم نسخت بأن خففت إلى خمس، وهذا كان في السماء قبل

تمكن العباد من الفعل .

٢- جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة، حيث أعلم النبي ﷺ الأمة بفرضية الصلاة إجمالاً بدون تفصيل لأركانها وشروطها وهيئاتها وأوقاتها، ثم لما جاء وقت الصلاة، نزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بذلك، وحدد له الأوقات .

ثانياً: الفوائد العامة:

١- إثبات علو الله عز وجل؛ من وجوه: حيث إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - عُرج به إلى ربه عز وجل، ثم جاوز السبع الطباق، ثم لما كان يتردد بين ربه وبين موسى في كل مرة؛ يعلو به جبرائيل إلى الجبار -تبارك وتعالى-: ففيه الرُّدُّ على من أنكر العلو، من الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، وغيرهم .

٢- إثبات الكلام لله عز وجل؛ حيث فرض الله - سبحانه - عليه الصلاة بدون واسطة؛ وفيه الرُّدُّ على من أنكر الكلام.

٣- فضيلة نبينا محمد ﷺ وعظم منزلته عند الله عز وجل؛ حيث جاوز الأنبياء كلهم، وجاوز السبع الطباق، وصلى بالأنبياء إماماً، وبعضهم استنبط أن رسول الله رآه بعين رأسه لكن هذا هذا ضعيف كما سبق.

٤- مشاركة نبينا محمد ﷺ لموسى - عليه الصلاة والسلام - في التكليم، وأن التكليم ليس خاصاً بموسى، كما أن الخلعة ليست خاصة بإبراهيم، بل يشاركه فيها نبينا أيضاً، فكما أن إبراهيم خليل الله؛ فمحمد خليل الله، وكما أن موسى كلّم الله؛ فمحمد كلّم الله؛ كلمه الله بدون واسطة؛ ليلة المعراج .

٥- شفقة موسى ورحمته بهذه الأمة؛ حيث أمر نبينا محمد ﷺ أن يسأل ربه التخفيف لأمة في شأن الصلاة .

٦- عظم مخلوقات الله - تعالى - وسعتها، وهذا يدل على عظمة الخالق .

٧- معجزة الرسول - عليه الصلاة والسلام - في الإسراء والمعراج؛ حيث كانا في ليلة واحدة.

٨- استشارة أهل الفضل والصلاح؛ حيث التفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير .

مسألة: ما الحكمة من تقديم الإسراء إلى بيت المقدس على المعراج؟

الجواب: الحكمة - والله أعلم - إظهار صدق دعوى النبي ﷺ المعراج، حيث سأله قريش عن نعت بيت المقدس، فَنَعَتْهُ لهم وأخبرهم عن غيرهم التي مرَّ عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة؛ لما حصل ذلك؛ إذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء، فلو أخبرهم عنه ما استطاعوا أن يحكموا بصدقه، وقد اطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته.

- وقيل: الحكمة أن يجمع ﷺ في تلك الليلة بين رؤية القبلتين.

- أو: لأن بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء قبله، وحصل له الرحيل إليه في الجملة ليجمع بين أشرف الفضائل.

- أو: لأنه محل الحشر وغالب ما اتفق له في تلك الليلة يناسب الأحوال الأخروية فكان المعراج منه أليق بذلك.

- أو: ليحصل التفاعل بحصول أنواع التقديس له حسًا ومعنى.

- أو: ليجتمع بالأنبياء جملة.

وذهب بعض العلماء إلى أن الحكمة هي تحصيل العروج مستويًا بغير تعويج^(١)؛ لأن كعب الأحبار روى أن باب السماء الذي يقال له «مصعد الملائكة» يقابل بيت المقدس، لكن هذا فيه نظر لورود أن في كل سماء بيتًا معمورًا، وأن الذي في السماء الدنيا حيال الكعبة^(٢)، فكان المناسب أن يصعد من مكة ليصعد إلى البيت المعمور بغير تعويج، وهذا ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»^(٣).

(١) انظر: «روح المعاني» للألوسي (١٢/١٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في «تفسير ابن كثير» (٤٢٨/٧)، والطبراني في «الكبير» (٤١٧/١١)، وعبدالرزاق (٨٨٧٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠١٥) قال ابن كثير - عما رواه ابن أبي حاتم: «هذا حديث غريب جدًا، تفرد به روح بن جناح هذا وهو القرشي الأموي مولاهم أبو سعيد الدمشقي، وقد أنكر عليه هذا الحديث جماعة من الحفاظ منهم الجوزجاني، والمقبلي، والحاكم، وغيرهم.

(٣) انظر: «فتح الباري» (١٩٦/٧ - ١٩٧).

♦ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَالْمِعْرَاجُ حَقٌّ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَغُرِجَ بِهِ):

الشرح

• قوله: (المِعْرَاجُ حَقٌّ):

يعني: ثابت، وكذلك قوله: (أُسْرِيَ بِشَخْصِيهِ) حق ثابت لا بد من الإيمان به .

♦ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (ثُمَّ إِلَىٰ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمَلَا وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا شَاءَ وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ مَا أَوْحَىٰ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [التنجيم: ١١]، فَصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ):

الشرح

لا شك أن الله أكرمه في ذلك العروج، وفي صلاته بالأنبياء ورفعته فوقهم، وأكرمه الله بكليمه له، وفرضه الصلاة عليه.

وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [التنجيم: ١١]، قال تعالى: ﴿مَا رَأَىٰ الْبَصَرُ وَكَانَ كَلِمًا﴾ [التنجيم: ١٧]، فلم يزل بصرة، ولم يكذب فؤاده عليه الصلاة والسلام، بل كل ما رآه فهو حق.

وقوله: (فَصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ): صلاة الله على عبده أحسن ما قيل فيها كما رواه البخاري عن أبي العالية - رحمه الله - وأخرجه عنه قال: «صَلَاةُ اللَّهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ تَنَالُهُ فِي الْمَلَا الْأَعْلَى»^(١).

(١) أورده البخاري (٥٣٢/٨) - فتح معلقا بصيغة الجزم عن أبي العالية - رحمه الله، وعزاه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٥٣٣/٨) لابن أبي حاتم رحمه الله، وساق سندَه عنه، وأخرجه أيضاً إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي» (٩٥).

سوق حديث الإسراء لإجمال ما سبق:

كان من حديث الإسراء أنه ﷺ: «أُسْرِيَ بِجَسَدِي فِي الْبَقَّةِ - عَلَى الصَّحِيح - مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى زَاكِبًا عَلَى الْبِرَاقِ بِصُخْبَةِ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، نَزَلَ هُنَاكَ، وَصَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا، وَرَبَّطَ الْبِرَاقَ بِخَلْقَةِ بَابِ الْمَسْجِدِ.

وقد قيل: إنه نزل بيت لحم فصلى فيه، ولا يصح عنه ذلك البتة، «ثُمَّ غُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ جِبْرِيلُ فَفُتِحَ لَهُ، فَرَأَى هُنَاكَ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَحَّبَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَأَقَرَّ بِبُيُوتِهِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ لَهُ، فَرَأَى فِيهَا يُحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا وَيَعْسَى ابْنَ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، فَلَقِيَهُمَا فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا فَرَدَّا عَلَيْهِ السَّلَامَ وَرَحَّبَا بِهِ وَأَقَرَّا بِبُيُوتِهِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِيَةِ فَرَأَى فِيهَا يُوسُفَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَرَحَّبَ بِهِ وَأَقَرَّ بِبُيُوتِهِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَرَأَى فِيهَا إِدْرِيسَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَحَّبَ بِهِ وَأَقَرَّ بِبُيُوتِهِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَرَأَى فِيهَا هَارُونَ ابْنَ عِمْرَانَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَحَّبَ بِهِ وَأَقَرَّ بِبُيُوتِهِ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَلَقِيَ فِيهَا مُوسَى فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَحَّبَ بِهِ وَأَقَرَّ بِبُيُوتِهِ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ بَكَى مُوسَى فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّهُ غُلَامٌ بَجَتْ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمِّيهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمِّي، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَلَقِيَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَحَّبَ بِهِ وَأَقَرَّ بِبُيُوتِهِ، ثُمَّ رُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى ثُمَّ رُفِعَ لَهُ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، ثُمَّ غُرِجَ بِهِ إِلَى الْجَبَّارِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ -، فَدَنَا مِنْهُ حَتَّى كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى، وَفُضِّضَ عَلَيْهِ خَمْسُونَ صَلَاةً، فَجَعَلَ حَتَّى مَرَّ عَلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتُ؟ قَالَ: بِخَمْسِينَ صَلَاةً، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَمَا

أعلم بالناس منك، عالجني بني إسرائيل أشد المعالجة، وإن أمتك لا تطيق، فارجع إلى ربك فسله، فرجع نسأله فجعلها أربعين، ولا زال يراجع حتى جعلها خمسا. فتودي: إني قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، وأجزى الحسنة عشرا.

هذا معنى ما ذكره البخاري في «صحيحه»^(١) من حديث مالك بن صعصعة.

وفيه أيضاً لكن من حديث أنس: «أنه لما مر على موسى، وسأله: يا محمد، ماذا عهد إليك ربك؟ قال: عهد إليّ خمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنه، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير في ذلك، فأشار إليه جبريل: أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار فقال وهو في مكانه: يا رب خفف عني فإن أمتي لا تستطيع هذا، فوضع عنه عشرا، ثم نزل حتى مر بموسى فأخبره فقال: ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله -تبارك وتعالى- حتى جعلها خمسا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استغفيت من ربي»^(٢).

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٣٢٠٧)، و(٣٨٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

الحوض

ثبوت الحوض

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ: (وَالْحَوْضُ الَّذِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ -تعالى- بِهِ عِبَادًا لِأُمِّيَّ حَقًّا):

الشرح

الحوض مما تواترت فيه الأحاديث الصحيحة.

وأصل الحوض في اللغة: مجمع الماء، أو ما يكون محلاً لجمع الماء في الحقل، - مشتق من السيلان - ومنه قولهم: حاض الوادي إذا سال.

وأما الحوض الوارد في الأحاديث فالمراد به شرعاً: الحوض المورود للنبي ﷺ في عرسات القيامة.

وقد أنكر الحوض بعض طوائف الخوارج، وبعض المعتزلة، وأما أهل الحق - أهل السنة -: فإنهم يؤمنون بالحوض، وهو حق يجب اعتقاده والإيمان به، والأدلة على ثبوته كثيرة، تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً؛ منها:

- حديث أنس ﷺ: «مَا بَيْنَ نَاحِيَتَيْ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَالْمَدِينَةِ»^(١).

(١) أخر: مسلم (٢٣٠٣) من حديث مؤتمر، عن أبيه، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بلفظ: «ما بين ناحيتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة»، وساقه أيضاً عن هشام، وأبي عوانة كلاهما عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بمله، لكنّ مسلماً قال: «غير أنهما شكّا فقالا: أو بثل ما بين المدينة وعُمان...»، ومن طريق هشام به أخرجه =

- وَعَمَّانَ - بفتح العين وتشديد الميم - هي مدينة معروفة، يقول ابن الأثير في «النهاية»: إنها مدينة قديمة بالشام من أرض البلقاء.
- ومنها: حديث أنس رضي الله عنه: «إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةٍ وَصَنْعَاءَ مَنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ يَوْمَ مِنَ الْأَيَّامِ كَعَدْوِ نَجُومِ السَّمَاءِ»^(١).
- ومنها: حديث يزيد الرقاشي عن أنس أيضاً: «إِنَّ لِي حَوْضًا عَرْضُهُ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةٍ إِلَى الْكَعْبَةِ - أَوْ قَالَ: - صَنْعَاءَ»^(٢).
- ومنها: حديث ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه: «حَوْضِي كَمَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى الْيَمَنِ»^(٣).
- ومنها: حديث ثوبان: «إِنَّ حَوْضِي مِنْ عَدَنَ إِلَى عَمَّانَ الْبَلَاءِ»^(٤).

- = ابن ماجه (٤٣٠٤)، باللفظ المزبور، وكذا أخرجه غيره من طريق هشام به. وهو في الصحيحين بلفظ الحديث التالي.
- (١) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣)، وليس في رواية مسلم قوله: «إِنَّ». وأخرجه أبو يعلى الموصلي في «مسنده» (٤٠٩٩) من حديث أنس بن مالك. وفي سننه عكرمة بن عمار العجلي، قال الحافظ في «التقريب» (٤٦٧٢): «... صدوق يغلط...». وفيه أيضاً: يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف.
- (٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٥٤/٥)، وقال محمد طاهر المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (١٢٥٠/٣): «رواه عائد بن نسير العجلي، عن علقمة بن مرثد، عن ابن بريدة، عن أبيه. وهذا برويه عائد، وعنه يحيى بن يمان. ويحيى في جملة أهل الصدق إلا أنه بهم ويغلط، وعائد ضعيف».
- (٣) أخرجه الترمذي (٢٤٤٤)، وأحمد في «المستدرک» (٢٧٥/٥)، والحاكم في «المستدرک» (٢٠٤/٤) -تحقيق: مصطفى عبدالقادر، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٦) -تحقيق: طارق عوض الله، وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٠٦)، وصححه الحاكم في «المستدرک» (٢٠٤/٤)، والألباني في «ظلال الجنة» (٧٠٦)، (٧٠٧)، والحديث له عن ثوبان طرق وألفاظ أخرى، في الصحيح، وفي السنن.

- ومنها: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «حَوْضِي مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَوُزَانُهُ سَوَاءٌ»^(١).
- ومنها: عند ابن ماجه: «حَوْضِي مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ»^(٢).
- ومنها في رواية الدارقطني: «مَا بَيْنَ تَاجِيَّتِي حَوْضِي كَمَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَجَرَبَاءَ وَأَذْرَحَ»^(٣). وهما قريتان بالشام قيل: بينهما مسيرة ثلاثة أيام.
- فهذه ثمانية أحاديث، وهي أحاديث مختلفة في تحديد المسافة، واختلف العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث على أقوال؛ منها:
- ١- أن اختلافها إنما هو على وجه التقريب لا التحديد.
- ٢- ومنها: أن اختلافها إنما هو بالنسبة للطول والعرض.
- ٣- ومنها: أن اختلافها بحسب ما يعرفه السائل من حجازي أو يمني أو شامي.
- ٤- ومنها: أن اختلافها إنما هو بالنسبة للمُجِدِّ في السير والبطيء فيه.
- ٥- ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بالمسافة القريبة أولاً ثم أعلمه الله بالزيادة فضلاً منه ورحمة.

- (١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) واللفظ له.
- (٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠١)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٢٣)، بسند ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه (الكعبة) بدل (المدينة)، وصححه الألباني، رحمته الله في «ظلال الجنة» (٧٢٣).
- (٣) هو في الصحيحين وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه، نحوه، وليس فيه ذكر المدينة. وانظر: «البخاري» (٦٥٧٧)، و«مسلم» (٢٢٩٩)، ورواية الدارقطني المشار إليها، عزاهما إليه الحافظ في «الفتح» (٤٧٢/١١).

أما القول الأول من هذا الاختلاف: وهو أنها على وجه التقريب لا التحديد: فالمعنى: أنه يقرب في كل منها؛ لبعد أقطار الحوض وسعته بما تسع له العبارة - عليه الصلاة والسلام -، فهو يقرب ذلك؛ للعلم ببعد ما بين البلاد الثانية بعضها من بعض، لا على إرادة المسافة من حيث هي.

لكن يجاب عن هذا القول بأن ضرب المثل والتقدير إنما يكون فيما يتقارب، وأما هذا الاختلاف المتباعد الذي يزيد تارة على ثلاثين يوماً وينقص إلى ثلاثة أيام فلا يتأتى.

وأما القول الثاني: وهو أن الاختلاف بالنسبة إلى الطول والعرض، فبرده حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَوُزَانُهُ سَوَاءٌ»^(١).

وبهذا يكون هذان القولان ضعيفين، وأرجح هذه الأقوال: الثلاث الأخيرة؛ وهي: أن الاختلاف بالنسبة إلى المجد في السير والبطيء، أو أن النبي ﷺ أخبر بالمسافة القريبة أولاً، ثم أعلمه الله بالزيادة، أو أن الاختلاف بحسب ما يعرفه السائل، لكن أرجحها الرابع؛ وهو أن النبي ﷺ أخبر بالمسافة القريبة أولاً، ثم الثالث؛ وهو بحسب ما يعرفه السائل، ثم الرابع؛ وهو أن اختلافه بالنسبة إلى المجد في السير^(٢).

مسألة: هل في العرصات أحواض أخرى غير حوض النبي؟

الجواب: ورد في الأحاديث أن هناك أحواضاً أخرى للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وأن لكل نبي حوضاً، لكن حوض نبينا محمد ﷺ

(١) سبق قبل قليل.

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٤٧١/١١)، ٤٧٢.

أعظمها، وأوسعها، وأحلاها، وأكثرها وروداً - جعلنا الله ممن يرده بمنه وكرمه -.

ومع الإجماع على أن لكل نبي حوضاً:

حديث الحسن عن سمرة الذي أخرجه الترمذي في «جامعه»: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا يَتَبَاهَوْنَ أَهْلُهُمْ أَكْثَرُ وَارِدًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدًا»^(١)، لكن هذا من رواية الحسن عن سمرة، وسماع الحسن من سمرة اختلفوا فيه؛ والأرجح أنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة.

ومنها: حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «إِنَّ لِي حَوْضًا طَوَّلُهُ مَا بَيْنَ الْكَعْبَةِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، أَشَدُّ بِنَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، آتِيئُهُ عَذْدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، وَكُلُّ نَبِيٍّ يَدْعُو أَهْلَهُ، وَلِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْفَقَامُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْغَضْبَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ النَّقَرُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الرَّجْلَانِ وَالرَّجُلُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَأْتِيهِ أَحَدٌ فَيَقَالُ: لَقَدْ بَلَّغْتُ، وَإِنِّي لَأَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ نَبْعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤٤/١)، والطبراني في «الكبير» (٢١٢/٧)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٣٤)، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً، ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح». قال الألباني: «إن الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح. انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٩)، و«فتح الباري» (٤٦٧/١١).

(٢) أخرجه مطولاً أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١١٠/١)، وابن أبي الدنيا في «كتاب الأحوال» كما ذكره ابن كثير في «النهاية» في الفتن والملاحم (٣٦٣/١)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢١١٨)، وأخرجه مختصراً بدون ذكر موضع الشاهد ابن ماجه (٢٧٩/٢)، وابن أبي شيبه في «المصنف» (٣١٦٨١)، و(٣٤١٠٤)، وأبو يعلى (١٠٢٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٩٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٢٣). قال الترمذي: «وقد روى =

مسألة: الحوض قبل الصراط أم بعد الصراط؟

الجواب في هذه المسألة للسلف قولان:

أحدهما: أن الحوض يورد بعد الصراط؛ فيكون المرور على الصراط أولاً ثم يورد الحوض، واختار هذا الحافظ ابن حجر والسيوطي -رحمهما الله-، واحتج هؤلاء بحديث النضر بن أنس؛ فإن ظاهره يقتضي ذلك، وذلك أن أنساً قال: «سألت النبي ﷺ أن يُشَفِّعَ لي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: أَنَا قَاعِلٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَأَيُّ أَطْلُبُنِي؟ قَالَ: أَطْلُبُنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصَّرَاطِ، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصَّرَاطِ؟ قَالَ: فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ؟ قَالَ: فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْحَوْضِ، فَإِنِّي لَا أَخْطِي هَذِهِ الثَّلَاثَ الْمَوَاطِنَ»^(١).

- وكذلك أيضاً من أدلتهم حديث لقيط وافد بني المنتفق فإن فيه أنه قال في آخر الحديث: «فَتَطْلُبُونَهُ عَلَى حَوْضِ الرَّسُولِ»^(٢)، يعني: بعد

= الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلًا. انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٩)، وضح الرواية المرسلة وضعت الموصولة الحافظ في «الفتح» (٤٦٧/١١)، والرواية المختصرة مع أن في سندها عطية العوفي، فقد صحح الحديث الألباني في «إتقان الجنب» (٧٢٣) لشواهد كثيرة، وأشار إلى أن أصل الحديث من رواية أبي سعيد في الصحيحين وغيرهما؛ من طرق عنه.

(١) أخرجه الترمذي: (٢٤٣٣) والسياق له، وأحمد: (١٧٨/٣)، واللائكاني في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٢٢٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٦٠/٩-٣٦١)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وضححه الألباني. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٣٠).

(٢) الحديث بطوله أخرجه ابن الإمام أحمد في «زوائد المسند» (١٣/٤)، وفي «السنة» (١١٢٠)، والحاكم (٦٠٥/٤-٦٠٧)، والطبراني في «الكبير» (٤٧٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٣٦)، وابن خزيمة في «المجتبى» (٤٦٠/٢-٤٧٠)، =

المرور على الصراط .

القول الثاني: أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط وهذا هو الصواب؛ لما يأتي من الأدلة الشرعية والعقلية.

فقد الإجابة الشرعية:

الأحاديث التي تدل على منع المرتدين على أعقابهم وأنهم يُدَادُون عن الحوض:

- كحديث أنس ﷺ: «لَيَرَدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الْحَوْضَ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: لَا تُذَرِّي مَا أَخَذْتُوا بِعَذَّتْ»^(١).

- ومنها حديث سهل بن سعد الأنصاري ﷺ: «إِنِّي فَرَطْتُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْلَمَ أَبَدًا، لَيَرَدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ - وزاد أبو سعيد الخدري: ﷺ - فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تُذَرِّي مَا أَخَذْتُوا بِعَذَّتْ، فَأَقُولُ: سَخَطًا سَخَطًا لِمَنْ عَزَّ بَعْدِي»^(٢).

فهذه الأحاديث تدل على أن الحوض يورد قبل الصراط من وجهين:

= والحديث قَوْلُ الإمام ابن القيم في «زاد المعاد» (٦٧٧/٣-٦٧٨)، وفي «حادي الأرواح» (ص ١٧٠)، وضححه الحاكم في «المستدرک» (٦٠٧/٤). لكن قال الحافظ ابن كثير في «البداية» -بعد أن ساقه من رواية ابن الإمام أحمد- (٨٢/٥): «هذا حديث غريب جداً والفاظه في بعضها نكارة...».

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٦٥٨٢)، ومسلم (٢٣٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٣)، و(٦٥٨٤) واللفظ له، ومسلم (٢٢٩٠)، و(٢٢٩١)، وفي الصحيح عن غيرهم من الصحابة ﷺ.

الأول: لو كان الورد على الصراط قبل الحوض لكان مثل هؤلاء المذاين الذين يذاون عن الحوض ويطردون لا يجاوزون الصراط؛ لأنهم إن كانوا كفارًا فالكافر لا يجاوز الصراط بل يكب على وجهه في النار قبل أن يجاوز، وإن كانوا عصاة وهم من المسلمين فجازوا الصراط لم يشفع لهم في دخول النار أو عفا الله عنهم بدون شفاعته، وإن لم يكن شفاعته ولا عفو دخلوا النار ولبثوا فيها بقدر عصيانهم، وحينئذ يلزم حجبهم عن الحوض مع أنهم من المسلمين، وهذا لاسيما أن عليهم سيما الوضوء كما جاء في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَرُدُّ عَلَيَّ أُمَّتِي الْحَوْضَ وَأَنَا أَفْوُذُ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِهِ. قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَتَعْرِفُنَا؟ قَالَ: نَعَمْ لَكُمْ سِيْمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ؛ تَرُدُّونَ عَلَيَّ غَرًّا مُحْجَلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ...»^(١).

الثاني: لو كان الورد على الصراط قبل الحوض، للزم ألا يحجب عن الحوض أحد؛ لأن من جاوز الصراط؛ لا يكون إلا ناجيًا مسلمًا؛ ومثل هذا لا يحجب عن الحوض.

ومن الأدلة العقلية:

- أن الناس يردون الموقف عطاشى، فمن المناسب ورود المؤمنين الحوض قبل مرورهم على الصراط.
- وأما حديث النضر بن أنس الذي استدلل به أهل القول الأول على أن الصراط يكون قبل الحوض؛ فيجانب عنه بأجوبة؛ منها:

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه أيضاً (٢٤٩) عن أبي هريرة بسياق آخر، وفيه موضع الشاهد بلفظ مقارب. وأخرجه أيضاً (٢٤٨) من حديث حذيفة وفيه موضع الشاهد بسياق مقارب أيضاً.

أولاً: أن المراد بالحوض في الحديث؛ حوض آخر يكون بعد الجواز على الصراط، لا يذاد عنه أحد، كما جاء في بعض الأحاديث؛ كحديث لقيط بن عامر وفيه: «ثُمَّ يَنْصَرِفُ بَيْتُكُمْ وَيَنْصَرِفُ عَلَى أَثَرِهِ الصَّالِحُونَ، فَيَسْلُكُونَ جِسْرًا مِنَ النَّارِ، فَيَقْطَعُونَ أَحَدُكُمْ الْجَمْرَ يَقُولُ: حَسَنَ يَقُولُ رُبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ: أَوْ أَنَّهُ لَا تَقْطَعُونَ عَلَى حَوْضٍ بَيْنَكُمْ عَلَى أَظْمَأَ - وَاللَّهِ - نَاهِلَةٌ عَلَيْهَا قَطْرٌ مَا رَأَيْتُهَا، فَلَمَعَمَرُ إِلَيْكَ مَا يَسْطُ أَخَذَ مِنْكُمْ يَدَهُ إِلَّا وَضِعَ عَلَيْهَا قَدَحٌ يُظْهِرُهُ مِنَ الظُّلُمِ وَالْيَوْلِ وَالْأَذَى»^(١).

ثانياً: أن الحوض نفسه يمتد إلى ما وراء الجسر كما يفيد حديث لقيط هذا، وأن المؤمنين إذا جاوزوا الصراط وقطعوه دنا لهم الحوض فشربوا منه، فإنه ورد أن طوله شهر وعرضه شهر، فإذا كان بهذا الطول والسعة فما الذي يحيل امتداده إلى ما وراء الجسر؟ وعلى هذا: فَيَرُدُّهُ الْمُؤْمِنُونَ مَرَّتَيْنِ؛ مرة قبل الصراط، ومرة بعده؛ جمعاً بين الأدلة، وهذا ما في حيز الإمكان، ووقوعه موقوف على خبر الصادق .

وهذا كلام العلامة ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» يقول^(٢): إذا كان الحوض بهذه السعة مسافته شهر، فهذا يدل على أنه يمتد، وأنه طويل، وأنه يكون ما وراء الجسر، وأن الناس يردونه مرة قبل الصراط، ومرة بعد المرور على الصراط.

وسلك بعض أهل العلم طريقاً للجمع آخر، فقالوا: إن للنبي ﷺ حوضين: أحدهما في الموقف قبل الصراط، والآخر داخل الجنة وهو

(١) الحديث سبق تفريجه.

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/٥٨٨).

الكوثر، وكل منهما يسمى كوثرًا^(١). ولكن هذا لا يصلح جوابًا عن حديث النضر؛ لأنه صرح أنه يوم القيامة. وأجاب الحافظ ابن حجر بكلمة عن هذا فقال: وفيه نظر؛ لأن الكوثر نهر داخل الجنة، وماؤه يصب في الحوض، ويطلق على الحوض كوثرًا؛ لكونه يُمدُّ من نهر الكوثر^(٢).

وقال الحافظ أيضًا: ظاهر الأحاديث أن الحوض بجانب الجنة لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها، وهذا يدل على أن الحوض بعد الصراط؛ إذ لو كان قبل الصراط لحالت النار بينه وبين الماء الذي يصب من الكوثر فيه.

وأجاب الحافظ عن الأحاديث التي تدل على منع المرتدين على أعقابهم من الشرب من الحوض، فقال ما مفاده: وأما ما أورد عليه من أن جماعة يُدفعون عن الحوض بعد أن يروه ويُذهب بهم إلى النار، فجوابه أنهم يقربون من الحوض بحيث يرونه ويرون الجنة، فيُدفعون في النار قبل أن يخلصوا من بقية الصراط.

قلت: وهذا تأويل بعيد.

وأجاب السيوطي عن إشكال يَرُدُّ على القول بأن الحوض يورد بعد الصراط؛ قال: فإذا قيل: إذا خُلصوا من الموقف دخلوا الجنة فلا يحتاجون إلى الشرب من الحوض، فالجواب: بل هم محتاجون إلى ذلك؛ لأنهم محبسون هناك لأجل المظالم؛ فكان الشرب في موقف القصاص، - يعني: يكون الشرب على ما ذكر السيوطي بعد المرور على الصراط؛ لأنه ثبت أن المؤمنين إذا تجاوزوا الصراط حَبِسوا على قنطرة بين الجنة

(١) انظر: «الذكرة» للقرطبي (ص ٣٤٧).

(٢) (١١/ ٤٦٦).

والنار قيل: إنها طرف الصراط، وقيل: إن الصراط خاص بالمؤمنين حتى يقتصر بعضهم من بعض المظالم التي بينهم، فإذا هُذِّبُوا ونُقُوا دخلوا الجنة.

قال السيوطي بكلمة: يكون الحوض في هذا المكان.

قلت: ولكن هذا أيضًا بعيد؛ لأن هذا التأويل تركه الأحاديث الكثيرة التي صرحت بأنه يُزاد عن الحوض أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، وهذا يدل على أن الحوض في موقف الحساب لا في موقف قصاص المؤمنين بعضهم من بعض.

وجمع بعض العلماء بين الأحاديث، بجمع آخر وهو: أنه يقع الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم ويتأخر الشرب بعد الصراط لآخرين؛ بحسب ما عليهم من الذنوب والأوزار حتى يُهذَّبوا منها على الصراط. قال بعض أهل العلم: وهو جمع حسن القول، وعلى هذا الجمع؛ يكون هناك حوضان: أحدهما: حوض قبل الصراط، والآخر: حوض بعده، أو أن الحوض نفسه يمتد إلى ما وراء الجسر، كما سبق هذا في الجواب عن حديث النضر.

هذه أقوال العلماء في الحوض هل قبل الصراط أو بعد الصراط؟ لكن سماحة شيخنا: الشيخ عبد العزيز بن باز - غفر الله له ورحمه وجمعتا به في الفردوس الأعلى - تنبه لأمر لم ينتبه له هؤلاء العلماء الذين قالوا: إن الحوض قبل الصراط فقال سماحة شيخنا بكلمة: إن صحت الأخبار أنهم يَرُدُّون بعد الصراط؛ فهذا نهر يردونه في الجنة؛ لأن الصراط ممدود على متن جهنم؛ يصعد الناس عليه إلى الجنة، فمن جاوز الصراط وصل إلى الجنة، والحوض في الأرض؛ فلا يرجعون إلى الأرض مرة ثانية بعد صعودهم إلى الجنة، وهذا هو الذي تدل عليه الأحاديث، ويدل على ذلك

أنه يذاد أقوام قد غيروا وبدلوا، وهذا يكون في موقف القيامة، أما بعد المرور على الصراط؛ يكون الأمر قد انتهى؛ فمن سقط في النار فقد سقط، ومن تجاوز الصراط وصل إلى الجنة .

مسألة: هل الحوض قبل الميزان أو بعده؟

الجواب: في المسألة قولان لأهل العلم:

أحدهما: أن الميزان أسبق من الحوض، وحجة هذا القول؛ ظاهر حديث النضر بن أنس؛ فإنه قدّم الميزان على الحوض.

الثاني: أن الحوض قبل الميزان، وهذا هو الراجح، وحجة هذا القول؛ الأحاديث التي تدل على أنه يزداد عن الحوض أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، فلو كان ورود الحوض بعد الميزان: لما حُجب عنه أقوام؛ لأن هؤلاء الذين خفت موازينهم، يعرفون أنه لا سبيل لهم إلى الشرب من الحوض، فلا يردونه إطلاقاً .

ويدل على ذلك أيضاً العقل؛ لأن المعنى يقتضيه؛ فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً؛ فمن المناسب أن يكون الورد على الحوض قبل الميزان؛ للحاجة الشديدة إلى الشرب، فيقدم قبل الميزان^(١).

(١) انظر: «التذكرة للقرطبي (ص ٣٤٧)، وفتح الباري (١١/٤٦٦)

صفة الحوض

الشرح

الذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وأنه في غاية الاتساع، وأن عرضه وطوله سواء، وأن كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، وكلما شرب منه؛ فهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في خلاله من المسك، والرضراض من اللؤلؤ، وقضبان الذهب، ويشمر ألوان الجواهر، - فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء - .

مكان الحوض

الشرح

بين القرطبي رحمه الله في «التذكرة» أن مكان الحوض لا يكون على هذه الأرض، وإنما يكون في الأرض المبدلة التي قال الله فيها: «يَوْمَ نَبْدِلُ الْأَرْضَ عَرْضَ الْأَرْضِ» [إبراهيم: ٤٨]، والأرض المبدلة تظهر لنزول الجبار - تعالى - لفصل القضاء، قال القرطبي رحمه الله: «ولا يخطر ببالك أو يذهب وهمك، إلى أن الحوض يكون على وجه هذه الأرض، وإنما يكون وجوده في الأرض المبدلة على مسامتة هذه الأقطار أو في المواضع التي تكون بدلاً من هذه المواضع في هذه الأرض. وهي أرض بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم، ولم يُظلم على ظهرها أحد، تظهر لنزول الجبار جلّ جلاله؛ لفصل القضاء»^(١).

(١) انظر: «المفهم» (٩٠/٦)

شبهة المنكرين للحوض

الشرح

قال القرطبي تباً للقاضي عياض^(١) - رحمهما الله - : مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله قد خص نبيه محمداً ﷺ بالحوض المصروح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي؛ إذ قد روي ذلك عن النبي ﷺ من الصحابة ما ينيف على الثلاثين، منهم في «الصحيحين» ما ينيف على العشرين، وفي غيرها بقية ذلك مما صح نقله، واشتهرت روايته، ثم رواه من التابعين أمثالهم، ومن بعدهم أضعاف أضعافهم، وهلم جراً.

وأجمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف، وأنكر ذلك طائفة من المبتدعة وأحاليه على ظاهره، وغلوا في تأويله، من غير استحالة عقلية ولا عادية تلزم من حمله على ظاهره وحقيقته، ولا حاجة إلى تأويله، فخرق من خرقه إجماع السلف، وفارق مذهب أئمة الخلف.

والذي أنكره: الخوارج وبعض المعتزلة، ومن كان ينكر الحوض عبيد الله بن زياد - أحد أمراء العراق لمعاوية^(٢) -، وولده الذي يطرد من الحوض ويذاد عنه، فقد دلت الأحاديث على أن الذين ارتدوا؛ كالأعراب الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ؛ يطردون ويذادون، ولهذا أخبرنا هذا الحديث أنه: «يُذَادُ أَقْوَامٌ يَقُولُ النَّبِيُّ: أَصْحَابِي أَصْحَابِي»، وفي لفظ:

(١) انظر: «التذكرة» (ص ٣٥٠ - ط: دار الريان).

(٢) نقل هذا الإنكار عنه الحافظ في «الفتح» (٤٦٧/١١)، ثم نقل ما يدل على رجوعه عنه.

(٣) انظر البخاري عقب (٦٥٨٥)، ومسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة ؓ.

«يَا رَبِّ أَصْحَابِي، قِيلَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَخَذُوا بِعَدِّكَ... إِنَّ هَؤُلَاءِ إِنْهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَغْيَابِهِمْ مُنْذُ قَارَعْتَهُمْ»^(١).

قال السفاريني^(٢) ؓ: إنه يطرد عن الحوض أقوام، أنواع جنس المفتريين على الله وعلى رسوله من المخالفين في الدين؛ كالخوارج وسائر أهل الأهواء والبدع المضلة.

وثانياً: كل من يرتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به، وأشدهم من خالف جماعة المسلمين: كالخوارج، والروافض، والمعتزلة.

وثالثاً: الظلمة المسرفون في الظلم والجور وطمس معالم الحق، وإذلال أهله.

ورابعاً: المتهتكون في ارتكاب المناهي، والمعلنون في اقتراف المعاصي، المستخفون بها.

هذا قول السفاريني ؓ: يرى أن كل هؤلاء يطردون عن الحوض، لكن ظاهر الأحاديث الصحيحة أن الذين يذادون إنما هم الكفرة المرتدون على أعقابهم عن الديانة؛ هذا هو ظاهر الأحاديث، أما هذه الأنواع التي ذكرها - وهم: المفترون على الله الكذب، وعلى رسوله الكفرة - فلا بأس ولا غبار على هذا القول، أما كون العصاة يذادون، فهذا محل نظر ويحتاج إلى دليل، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس ؓ.

(٢) انظر: «لوامع الأنوار» للسفاريني (١٩٧/٢)، و«التذكرة» للقرطبي (٣٥٢).

الشفاعة

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رحمته: (وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي ادَّخَرَهَا لَهُمْ حَقٌّ كَمَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ):

الشرح

الشفاعة في اللغة: قيل: الوسيلة والطلب، والحق أنها مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر، فهي إذاً في اللغة: ضم الشيء إلى الشيء به يصير الشيء زوجاً بعد إذ كان منفرداً؛ فكان الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له.

واصطلاحاً: قيل: سؤال الخير للغير، وقيل: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم، وقيل: هي مساعدة ذي الحاجة عند من يملك الحاجة، والمشفّع والمشفّع اسم فاعل من شفع يشفع فهو شافع وشفع، وهو الذي يقبل الشفاعة، والمشفّع اسم مفعول من شفع يشفع، وهو الذي تقبل شفاعته.

أقسام الشفاعة:

مُتَّبِعَةٌ: وهي لأهل التوحيد: وهي لا تكون إلا للموحدين الذين ماتوا على التوحيد.

ومنفية: وهي لأهل الشرك الأصلي كما قال الله: ﴿فَمَا تَتْمَتُوهَ شَفَعَةُ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٤٨].

أنواع الشفاعة المُنْتَبِهة:

النوع الأول: الشفاعة العظمى: وهي التي تكون في موقف القيامة

لإراحة الناس من الموقف، وهي خاصة بنبيينا محمد صلى الله عليه وسلم، ودليها حديث الصور الطويل وفيه: «أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ أَكْثَرُ، ثُمَّ نَوْحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ يَأْتُونَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم، يَذْهَبُ فَيَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: الْفَحْصُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: مَا شَأْنُكَ - وَهُوَ أَعْلَمُ؟ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: فَأَقُولُ: يَا رَبِّي؛ وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ فَشَفِّعْنِي فِي خَلْقِكَ، فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ الرَّبُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - شَفِّعْتُكَ، أَنَا أَنْتَ فَيَقْضِي بَيْنَهُمْ قَالَ: فَأَرْجِعْ فَأَقِمْ مَعَ النَّاسِ»^(١).

ولكن الأئمة حينما يوردون حديث الشفاعة من طرق متعددة لا يذكرون

(١) أخرجه اسحاق ابن راهويه في «مسنده» (١٠)، والطبراني في «التفسير» (١٢/٥٧٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣/٨٢٢-٨٢٧)، والطبراني في الأحاديث الطوال (ص ٢٦٦-٢٧٧) كلهم من طريق إسماعيل بن رافع المدني، عن يزيد بن أبي زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة مرفوعاً في حديث طويل، قال ابن كثير في «التفسير» (٢/١٩٦) بعد إيراد الحديث من طريق الطبراني: «ثم ذكره بطوله ثم قال: هذا حديث مشهور وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل ابن رافع قاضي أهل المدينة، وقد اختلف فيه فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك، وقال ابن عدي: أحاديث كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. قلت: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة وأما سياقه فغريب جداً. ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأكثر عليه بسبب ذلك، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث، فالله أعلم، وأصل حديث الشفاعة في الصحيحين: أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

فيه الشفاعة العظمى، في أن الرب يأتي لفصل القضاء، كما ورد في حديث الصور، مع أن فصل القضاء هو المقصود في هذا المقام، وهو مقتضى سياق أول الحديث؛ فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى الجزء، إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة، وإخراجهم من النار، فما الحكمة من ذلك؟

الجواب: أن مقصود السلف في الاختصار على هذا المقدار من الحديث؛ هو الرد على الخوارج، والمعتزلة، والزيدية، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم في بدعتهم هذه المخالفة للأحاديث.

النوع الثاني: الشفاعة لأهل الجنة في الإذن لهم في دخولها؛ ودليلهم ما في «صحيح مسلم» عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

النوع الثالث: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب؛ ودليله حديث عكاشة بن محصن حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب وهو في «الصحيحين»^(٢).

ومن الأدلة أيضاً قول الله - تعالى - في جواب قول النبي ﷺ لما قال: «أُمِّي أُمِّي» قال: «أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ أُمِّيكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ الْأَيْمَنِ»^(٣)، والذين يدخلون الجنة بغير حساب هم شركاء الناس في

(١) أخرجه مسلم (١٩٦).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (٥٧٠٥)، وصحيح مسلم (٢١٨، ٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بقية الأبواب.

النوع الرابع: الشفاعة في رفع درجات قوم من أهل الجنة فوق ما كان يقتضيه ثوابهم ومن دليل ذلك حديث أنس: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

فهذه أربعة أنواع لم يخالف فيها أحد، بل إن الخوارج والمعتزلة وافقوا فيها.

النوع الخامس: الشفاعة في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ليدخلوا الجنة؛ ودليلها ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «السَّائِقُ بِالْخَيْرَاتِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»، وَالْمُقْتَصِدُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرُخْمَةِ اللَّهِ، وَالظَّالِمُ نَفْسُهُ وَأَصْحَابُ الْأَعْرَافِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٢).

النوع السادس: الشفاعة في قوم قد أمر بهم إلى النار ألا يدخلونها؛ ودليلها حديث حذيفة عند مسلم وفيه: «وَنَبِيَّتُهُمْ تَأْتِي عَلَى الشَّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ»^(٣).

(١) سبق قبل حديث قال الحافظ في «الفتح» (٤٢٨/١١) - بعد أن سرد أدلة بعض أنواع الشفاعات -: «ودليل الخامسة: قوله في حديث أنس عند مسلم: (أنا أول شفيع في الجنة)، كذا قاله بعض من لقيناه؛ وقال: وجه الدلالة منه: أنه جعل الجنة ظرفاً لشفاعته. قلت: وفيه نظر؛ لأنني سأبين أنها ظرف في شفاعته الأولى المختصة به، والذي يطلب هنا أن يشفع لمن لم يبلغ عمله درجة عالية؛ أن يبلغها بشفاعته. وأشار النووي في «الروضة» إلى أن هذه الشفاعة من خصائصه، مع أنه لم يذكر مستنداً».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨٩/١١) حديث (١١٤٥٤) قال الهيثمي في «المجمع» (٦٨٦/١٠): «فيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو وضاع»، وينحوه عن أبي الدرداء مرفوعاً، وانظر كلام الهيثمي حول هذا الحديث في «مجمع الزوائد» (٩٥/٧-٩٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥).

النوع السابع: الشفاعة في تخفيف العذاب عن يستحقه: وهي خاصة بأبي طالب عم النبي ﷺ، وخاصة بالنبي ﷺ، ودليلها ما ورد من طرق متعددة أن النبي ﷺ قيل له: إن أبا طالب يحميك ويؤدك عنك ويؤويك فهل نفعته؟ قال: «نعم، وجدته في عَمَرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى صَحْصَاحٍ»^(١) وفي رواية: «لعلَّ تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في صَحْصَاحٍ مِنَ النَّارِ يبلغ كعبه يغلي منه وماعه»^(٢)، نسأل الله السلامة والعافية.

النوع الثامن: الشفاعة في أهل الكباير من أمة محمد ﷺ ممن دخلوا النار ليخرجوا منها: وهذا أدلته متواترة؛ فمن ذلك حديث أنس ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَايِرِ مِنْ أُمَّتِي»^(٣)، وهذه شفاعته تتكرر من النبي ﷺ أربع مرات كما ثبت في حديث أنس، وأنه في المرة الأولى يقال: «انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان»، وفي الثانية يقال له: «انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان»، وفي الثالثة يقال له: «انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) واللفظ له من حديث العباس ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠)؛ من حديث أبي سعيد الخدري إلا أن مسلماً قال في روايته: «من نار».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٣٥)، وأبو داود (٤٧٣٩) من حديث أنس ﷺ، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه ابن حبان (٦٤٦٨)، وقال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٤٨٨/١): «وقد روى ابن مردويه من طرق عن أنس، وعن جابر مرفوعاً: (شفاعتي لأهل الكباير من أمتي)، ولكن في إسناده من جميع طرقه ضعف، إلا ما رواه عبدالرزاق أخيراً معمر، عن ثابت، عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكباير من أمتي»؛ فإنه إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقد رواه أبو عيسى الترمذي منفرداً به من هذا الوجه، عن عباس العبدي، عن عبدالرزاق».

من خردل من إيمان»، وفي الرابعة يقول: «أَخْرَجْتُ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

فهذه ثمانية أنواع للشفاعة المثبتة، المتفق عليها من الأمة، الأربعة الأولى، وهذه الأربعة الأخيرة مختلف فيها: خالف فيها الخوارج والمعتزلة، وأنكروها جهلاً منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك، واستمر على بدعته الوعيدية.

والفائدة والحكمة من الشفاعة هي: إكرام الشفيع في قبول شفاعته كما في الحديث: «اسْتَفْعُوا تُجْرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّ ﷺ مَا شَاءَ»^(٢)، والحكمة في إلهام الناس التردد إلى غير النبي ﷺ في موقف القيامة؛ يسألون الأنبياء أن يشفعوا لهم، ولم يلهموا لمجيء النبي ﷺ من أول وهلة؛ هو لإظهار فضله وشرفه ﷺ.

أقسام الناس في الشفاعة:

القسم الأول: وهم الذين غلوا في إثباتها، فأثبتوها مطلقة؛ وهم المشركون والنصارى، والمبتدعون من الغلاة في المشايخ، وبعض الصوفية؛ فأثبتوا شفاعته الأصنام والأوثان، ويجعلون شفاعته من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

القسم الثاني: وهم الذين غلوا في نفيها، فنفوا شفاعته نبينا محمد ﷺ وغيره في أهل الكباير، وهم الخوارج والمعتزلة.

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) واللفظ له، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٢) وهذا سياقه، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

القسم الثالث: وهم الذين توسطوا، وهم أهل السنة والجماعة، فيقرون بشفاعته نبينا ﷺ في أهل الكبائر، وبشفاعة غيره، ويشترطون لها شرطين أخذوهما من النصوص:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، ودليله قول الله - تعالى - : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

والشرط الثاني: رضا الله عن المشفوع له، ودليله قول الله - تعالى - : ﴿وَلَا يَنْفَعُوكَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى﴾ (الأنبياء: ٢٨).

وهذا القسم أيضاً: ينفون الشفاعة عن المشركين؛ عملاً بقول الله - تعالى - : ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الْغَائِبِينَ﴾ (المائدة: ٤٨).

الأعمال الموعود عليها الشفاعة:

قال السفاريني رحمه الله إن الأعمال الموعود عليها الشفاعة خمسة^(١):

الأول: إخلاص التوحيد، فمن قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه؛ استحقتها، ودليله حديث أبي هريرة أنه سأل النبي ﷺ فقال: «مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»^(٢).

الثاني: الدعاء بما ورد بعد سماع النداء - يعني: إجابة المؤذن - والدعاء بالدعاء الوارد في ذلك، ودليله حديث جابر: «مَنْ قَالَ جِبْنَ يَسْمَعُ النَّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الثَّامَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ؛ أَبَتْ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثَهُ مَقَامًا سَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ؛ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ

(١) لوامع الأنوار (٢/ ٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩).

الْقِيَامَةُ^(١)

الثالث: الصبر على لأواء المدينة وجدبها، ودليله حديث سعد بن أبي وقاص: «وَلَا يَنْبَغُ أَحَدٌ عَلَى لُؤَائِهَا وَجْهٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

الرابع: الموت في أحد الحرمين، ودليله حديث سلمان: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ اسْتَوْجِبَ شَفَاعَتِي وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَوْبَيْنِ»^(٣).

الخامس: الصلاة على الرسول ﷺ عشراً في الصباح وعشراً في المساء، ودليله حديث أبي الدرداء: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ جِبْنَ يُضْبِحُ عَشْرًا وَجِبْنَ يُمِيزُ عَشْرًا أَذْرَكَتُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

هذا هو الذي ذكره السفاريني رحمه الله لكن هذه الأنواع فيها نظر.

(١) أخرجه البخاري (٦١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٦٣) بهذا السياق، وأخرجه بنحوه (١٣٧٨) من حديث أبي هريرة، رحمه الله.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦١٠٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٨٠)، وقال الزيلعي في كتاب «تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف» (١/ ١٩٧): «رُوي من حديث جابر، وأنس، وسلمان، وعمر، وحاطب؛ وكلها ضعيفة». ثم عزّاها إلى مُخرّجها، وبين عللها؛ حديثاً حديثاً. وانظر: «مجمع الزوائد» (٥٨/ ٣)، وانظر: للأهمية «الفوائد المجموعة» للشوكاني (١/ ١١٤).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» - كما في «جلاء الأفهام» (١٤٣)، (٤٤٩)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٢٠): «رواه الطبراني بإسنادين وإسناد أحدهما جيد ورجاله وثقوا».

لكن أشار العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣١٤) إلى انقطاعه، وكذا السخاوي في «القول البدیع» (ص ١٧٩)، وضَمُّهُ الْأَلْبَانِي فِي «ضَعِيفِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ» (٣٩٦ - الطبعة الجديدة).

أما النوع الأول: وهو إخلاص التوحيد: فهذا لا شك فيه أن من أخلص التوحيد لله فهو من أهل الشفاعة، وهذا في الحديث في «الصحيحين» قال: «مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قُلُوبِهِ»^(١).

أما النوع الثاني: إجابة نداء المؤذن: فهذا مقيد بإخلاص التوحيد.

وأما الثالث: الصبر على لأواء المدينة وجديها: فالحديث فيه محمول على الموحد الذي اجتنب الكبائر؛ جمعًا بين الأحاديث؛ لأن النبي ﷺ قال: «الضَّلَواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ ورمضانُ إلى رمضانَ مُكْفَرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»^(٢)، فلا بد من اجتناب الكبائر، قال - تعالى -: «إِنْ تَحْسَبُوا كِتَابِيَّ مَا لَيْسَ بِهِ نَبَأٌ عَنْهُ تُكْفِرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتُدْخِلُكُمْ ثُلُثًا كَرِيمًا»^(٣) [البقرة: ٢٣١].

وأما النوع الرابع: الموت في أحد الحرمين: وهو في حديث سلمان: «مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ اسْتَوْجِبَ شَفَاعَتِي وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمِينِينَ»^(٤)، فلا أظن الحديث يصح، فالموت في أحد الحرمين ليس باختيار الإنسان، قال تعالى: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» [لقمان: ٢٣٤]، ولكن الحديث لو صح فهو محمول على المؤمن الموحد، والمؤمن الموحد لا شك أنه من أهل الشفاعة.

النوع الخامس: الصلاة على الرسول عشرًا في الصباح وعشرًا في

(١) سبق قبل قليل.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، وفي الباب عن ابن مسعود، وأنس، وأبي بكر، لكن بأسانيد واهية. انظر: «مجمع الزوائد» (١/٢٩٨-٣٠٠).

(٣) سبق قبل قليل، وأنه لم يصح عن سلمان ولا عن غيره.

المساء: إن صح الحديث؛ فهو محمول على مَنْ فعل ذلك وكان من المؤمنين الموحدين.

شبهة المنكرين للشفاعة:

وهم المعتزلة والخوارج الذين أنكروا الشفاعة، وأنكروا أن يخرج أحد من النار بعد دخولها، واستدلوا:

أولاً: يقول الله - تعالى -: «وَأَقْبُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ» [البقرة: ٢٥٨]، وقول الله - تعالى -: «أَقْبُوا يَوْمًا تَرْفَعُكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ» [البقرة: ٢٥٤]، وقول الله - تعالى -: «وَأَقْبُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ» [البقرة: ٢٥٨]؛ قالوا: دلت هذه الآيات على أن من دخل جهنم من أهل الكبائر يُخَلَّد فيها، ولا تُقبل فيه الشفاعة.

والجواب: أن هذه الآيات مخصصة بالكفار، ويؤيد هذا سياق الخطاب في الآية الأولى والثالثة، فإن الآية نزلت ردًا على اليهود في زعمهم أن آباهم يشفعون لهم.

الدليل الثاني: استدلووا بقول الله - تعالى -: «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّيَاطِينِ»^(١) [المائدة: ٤٨]، ووجه الدلالة أنها دلت على أن صاحب الكبيرة لا تنفعه الشفاعة.

والجواب: أن الآية في الكفار، بدليل وصفهم في الآيات السابقة لها في قوله - تعالى -: «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّيَاطِينِ»^(٢) [المائدة: ٤٨]، إلى قوله: «وَكَاذِبٌ كَذِبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣) [المائدة: ٤٩].

الدليل الثالث: استدلووا بقول الله - تعالى -: «فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَاجٍ

وَلَا شَفِيعَ يَطْلَعُ ﴿عائش: ٢١٨﴾، ووجه الدلالة أن الآية دلت على أن الظالم ليس له شفيع يطاع، والعاصي ظالم.

والجواب: أن المراد بالظالمين الكفار؛ لأن الظلم إذا أطلق انصرف إلى الكفر؛ إذ الكفر أعظم الظلم؛ بدليل قول الله - تعالى - ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [فصل: ١٣] .

الدليل الرابع: استدلووا بقول الله - تعالى - ﴿إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ووجه الدلالة: أن الآية دلت على أن من دخل النار فهو هالك لا تنفعه الشفاعة، بل هو مُعَذَّبٌ مِمَّقُوتٌ؛ غير مرضي عنه: فلا يدخل في قول الله - تعالى - ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ لأن من أخزاء الله: لا يُرْتَضَى.

الجواب: أن المراد بقوله ﴿تَدْخِلُ النَّارَ﴾ [آل عمران: ١٩٣] يعني: تُخَلَّدُ، والمخلَّد في النار: هالك، لا تنفعه الشفاعة؛ إذ الخلود في النار خاص بمن مات على الكفر.

ويجيب عن الشبه الثلاث الأولى: بجواب آخر؛ وهو أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة المعروفة عند الناس على الإطلاق؛ وهي أن يشفع الشفيع إلى غيره ابتداءً بدون إذن فيقبل شفاعته، أما إذا أذن له في أن يشفع فشفيع؛ لم يكن مستقلاً بالشفاعة، بل يكون مطيعاً له؛ تابعاً له في الشفاعة، وتكون شفاعته مقبولة، ويكون الأمر كله للأمر المسؤول، كما قال الله - تعالى - ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] .

والذي يبين أن هذه هي الشفاعة المنفية قول الله - تعالى - ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَحْفَافُونَ أَنْ يُخْسِرُوا إِلَىٰ رَيْبِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ بَيْنَ دُيُوتِهِمْ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقوله - سبحانه - ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾

[الشجدة: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

والخلاصة: أن المنفَع: الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع، من أهل الكتاب، والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض، فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة، فالكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين في الآخرة، ولكن قد يُخَفَّفُ العذابُ عن بعضهم؛ بسبب نصرتهم ومعونته، فإنه تنفعه الشفاعة في تخفيف العذاب، لا في إسقاط العذاب بالكلية، وهذا خاص بأبي طالب. وبهذا يتبين أن أدلة الخوارج والمعتزلة التي يستدلون بها في نفي بعض أنواع الشفاعات؛ إنما هي الأدلة التي يُستدل بها كلها في الكفرة.

مسألة: التوسل طلب الشفاعة، والاستشفاع طلب الشفاعة؛ وهي انضمام الأدنى إلى الأعلى ليستعين به على ما يطلبه ويرجوه، والاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا إلى الله في الدعاء -بمعنى التوسل به- فإذا قال إنسان: أنا أتوسل بالنبي ﷺ، أو أنا أستشفع بالنبي ﷺ في الدنيا، فما المراد بالتوسل والاستشفاع؟ وهل هو جائز أو غير جائز؟

الجواب: أن هذا مجمل فيه تفصيل؛ لأن التوسل والاستشفاع بالنبي ﷺ يراد به ثلاثة أمور؛ أمران متفق عليهما بين المسلمين، والثالث مختلف فيه.

أما الأمور المتفق عليهما:

فالأول: التوسل بالرسول ﷺ؛ بمعنى: التوسل بالإيمان به وطاقته؛

فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به، وهو أصل الإيمان والإسلام.

والثاني: التوسل بالنبي ﷺ؛ بمعنى: التوسل بدعائه وشفاعته، وهذا أيضًا جائز ونافع، وهذا كان في حياة النبي ﷺ، ويكون يوم القيامة حيث يتوسلون بشفاعته. فمن أنكر التوسل بالرسول ﷺ بأحد هذين المعنيين: فهو كافر مرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل مرتدًا، وإن كان الثاني أخفى من الأول.

الثالث: التوسل بمعنى الإقسام على الله بذاته ﷻ والسؤال بذاته؛ فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه لا في الاستسقاء ولا في غيره؛ لا في حياته ولا بعد مماته؛ لا عند قبره ولا غير ذلك، ولا يُعرف هذا في شيء من الأدعية.

وأما حديث الأعمى الذي فيه قل: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ، نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لَتُقْضَى لِي، اللَّهُمَّ فَفُضِّعْهُ فِيَّ»^(١)؛ فالصواب أن الأعمى توسل بدعاء النبي ﷺ فكان النبي ﷺ يدعو، وهو يؤمن.

إذا: فالتوسل بالذات ممنوع، وكذلك التوسل بالجاه؛ كان يقول: أتوسل بجاه فلان، أو بحق فلان، أو بخرمة فلان؛ فهذا ممنوع ومبتدع^(٢).

ولكن التوسل الشرعي يكون: إما بدعاء الحي الحاضر؛ كأن يدعو

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٨) والملفظ له، وابن ماجه (١٣٨٥) من حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب»، وصححه ابن خزيمة (١٢١٩)، والحاكم (١١٨٠)، وانظر رسالة: «التوسل: أنواعه، وأحكامه» للآباني.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢٣/١) وما بعدها.

وأنت تؤمن، أو توسل بإيمانك بالله ورسوله وتوحيده، أو توسل بعملك الصالح، كما توسل الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة، فتوسل أحدهم بیره لوالديه، والثاني توسل بعقته عن الزنا، والثالث توسل بأمانته؛ فهذا لا بأس به ومنه قول موسى عليه السلام: «إِنِّي لَيَأْتِيَنَّكَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ قَوِيْرٌ» [النقص: ٢٢٤]، فلك أن توسل بفكرك وحاجتك إلى الله، أو توسل بأسماء الله وصفاته.

وفي «الصحيحين» وغيرهما عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في حديث الشفاعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَحْمٍ، قُرِفَ إِلَى الدَّرَاخِ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَتَهَسَّ مِنْهَا تَهَسُّةً ثُمَّ قَالَ: أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يُجَمِّعُ اللَّهُ النَّاسَ: الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي ضَعِيذٍ وَاجِدٍ يُسَمِّعُهُمُ الدَّاعِي، وَتُنْفَذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَذَنُّو السَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْقَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يَطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ.

فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟

فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بَادِمٌ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِبَيْدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِنْهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِنْهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَمَضَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي أَضْمُوا إِلَى عَثْرِي؛ اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ؛ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَحُورًا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا

نَحْنُ فِيهِ؟ يَقُولُ: إِنَّ رَبِّي -عز وجل- قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي؛ اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اسْمَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذِبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ... نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَصَلِّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اسْمَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قُلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى.

فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْبِّهِمْ وَرُوحُ بَنِيهِ، وَكَلِمَتُ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اسْمَعْ لَنَا، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا -، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اسْمَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ: تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقُومُ سَاجِدًا لِزُبُرِي -عز وجل-، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَخَابِدِهِ وَخَسَنِ السَّاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ

قَبْلِي، ثُمَّ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، اذْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ نَعْمَتَهُ، وَاسْمَعْ نُسْنَعَهُ، فَارْفَعْ رَأْسِي فَأَقُولُ: أَتُنْبِئِي، يَا رَبِّ، أَتُنْبِئِي، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ: أَدْخُلْ مِنْ أَمْتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا يَسُوْى ذِكْرُكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَجَدِمْ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُضْرَى^(١)، اخرجاء في «الصحيحين»، ومسند أحمد، واللفظ للبخاري.

وقد جاء في حديث الصور التصريح بالشغاعة العظمى، ومن مضمونه أنهم يأتون آدم، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم يأتون رسول الله محمد ﷺ، فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له: «الفحص» فيقول الله: «مَا شَأْنُكَ؟» -وهو أعلم- قال رسول الله ﷺ: «فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشَّعَاعَةَ فَشَقَعْتَنِي فِي خَلْقِكَ فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: شَقَعْتُكَ، أَنَا أَيْتُكُمْ فَأَقْضِي بَيْنَكُمْ، قَالَ: فَأَرْجِعْ فَأَقِفْ مَعَ النَّاسِ»، ثم ذكر انشقاق السموات، وتنزل الملائكة في الغمام، ثم يجيء الرب - سبحانه وتعالى - لفصل القضاء، والكروبيون والملائكة المقربون يسبحونه بأنواع التسبيح قال: «فَيَضَعُ اللَّهُ كُرْسِيَّهُ حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَرْضِهِ ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي أَنْصَتُ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا أَسْمَعُ أَقْوَالَكُمْ وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ، فَأَنْصِتُوا لِي؛ فَإِنَّمَا جِيءَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

إلى أن قال: «فَإِذَا أَقْضَى أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ قَالُوا: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ فَيَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ آبَائِكُمْ؟ إِنَّهُ خَلَقَهُ اللَّهُ بِبِيَدِهِ

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢) وهذا سبأه، ومسلم (١٩٤)، وأحمد (٤٣٥/٢)، ووقع عند مسلم وأحمد: «كما بين مكة وبُضْرَى».

وَنَفَعَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَكَلَّمَهُ ثَبَلًا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَطْلُبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وذكر نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدًا ﷺ إلى أن قال: قال رسول الله ﷺ: «فَأَتَى الْجَنَّةَ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ ثُمَّ اسْتَفْتَحَ فَيُفْتَحُ لِي فَأُخْبِرُ وَيُرْحَبُ بِي، فَإِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَتَنْظُرُ إِلَى رَبِّي - عز وجل - فَمَحَرَزْتُ لَهُ سَاجِدًا فَيَأْتِدُنِي لِي مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ بِسْمِ مَا أَقْنَى بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ - تَعَالَى - لِي: ارْقُصْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَاسْتَفْعُ تَضَمُّعُ وَاسْلُ تَغَطُّهُ، فَإِذَا رَقَعْتَ رَأْسِي قَالَ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ -: مَا سَأَلْتُكَ؟ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ؛ وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ فَشَفَعَنِي فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ اللَّهُ - عز وجل -: قَدْ شَفَعْتُكَ وَأَدْخَلْتُ لَكُمُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ^(١)، الحديث رواه الأئمة ابن جرير في «تفسيره»، والطبراني، وأبو يعلى الموصلي، والبيهقي وغيرهما - والله أعلم -.

الميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته^(١)

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ):

الشرح

الميثاق لغة: العهد. والميثاق شرعًا واصطلاحًا: هو العهد الذي أخذه الله - تعالى - من آدم وذريته، والأصل في ذلك قوله - تعالى -: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى سَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَكْرَمْنَا مَكَانَنَا مِنْ قَبْلِ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٥٧﴾»

[الاعراف: ١٥٦-١٥٧]

فما هو هذا العهد؟

اختلف العلماء في هذا العهد؛ ما هو؟ على قولين مشهورين:

القول الأول: أن الله - تعالى - استخرج ذرية آدم من صلبه؛ من ظهره، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال؛ بأن الله ربهم، ثم عاهدهم ثم إنَّ الله مَيَّرَهُمْ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ؛ وإلى أصحاب الشمال؛ فيكون المقصود بالعهد: أنَّ الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها ربُّها؛ فشهدت، ونطقت.

القول الثاني: أن الله استخرج ذرية بني آدم بعضهم من بعض من أصلاهم بعد الولادة؛ شاهدين على أنفسهم: أن الله ربهم ومليكنهم، وأنه

(١) سبق تخريجه تحت القسم الأول من أقسام الشفاعة

(١) انظر: «معارج القبول» (١/١٨)

لا إله إلا هو؛ فالإخراجُ: من ظهور بني آدم؛ بعضهم من بعض، ومعنى أشهدهم على أنفسهم أي: بلسان الحال لا بلسان المقال؛ أي: دلهم على توحيدهم، وفطرهم عليه؛ بأن بسط لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم، فكل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً .

فالمراد بالإشهاد: فطرهم على التوحيد؛ فكل مولود يولد على الفطرة، فقام ذلك مقام الإشهاد.

والأدلة التي استدل بها أهل القول الأول؛ -بأن الميثاق هو استجراؤه ذرية آدم من ظهوره - أي: أرواحهم - وإنطاقها، حتى نطقت، وشهدت، ثم أعادها - كالاتي:

أولاً: حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رواه الإمام أحمد: أن النبي ﷺ سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِمِصْبَاحٍ وَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةَ فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَيَعْمَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةَ فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَيَعْمَلُ أَهْلُ النَّارِ يَعْمَلُونَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَيَقِيمُ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ - عز وجل - إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلُهُ فِي النَّارِ»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٤٤/١)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: «هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار، =

الدليل الثاني: ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِضًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّي؟ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِضٌ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ؟ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ؟ كَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟ قَالَ: سِتِينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ؟ زِدْهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ، فَلَمَّا قَضَى عُمُرُ آدَمَ الْمُدَّةَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ: أَوْلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ؟ قَالَ: أَوْلَمْ تُعْطَ الْإِنْسَانُ دَاوُدَ؟ قَالَ: فجدح آدم فحدثت ذريته، ونسي آدم فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتَهُ، وَخَطِئَ آدَمَ فَخَوَّلَتْ ذُرِّيَّتَهُ»^(١).

هكذا جاء في الحديث، والذي فيه الإشهاد على الصفة التي قالها أهل

= وبين عمر، رجلاً مجهولاً.
والحديث أخرجه أيضاً: مالك في «الموطأ» (٨٩٨/٢) -تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقى)، ومن طريقه أخرجه كل من: النسائي في «الكبرى» (١١١٩٠)، وأبي داود (٤٧٠٣)، والحاكم في «المستدرک» (٨٠/١) -بتحقيق: مصطفى عبدالقادر)، و(٣٥٤/٢)، و(٥٩٤)، وصححه!! وابن حبان (٦١٦٦)، والبيهقي في «شرح السنة» (١٣٨/١)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٨٨٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٩٦). والحديث ضعه الألباني في «ظلال الجنة» (٨٧/١)، وفي «السلسلة الضعيفة» (٣٠٧٣). بهذا الإسناد، لكنه صححه لغيره في تخريج «شرح الطحاوية» (٢٦٦) فقال: «صحيح لغيره إلا مسح الظهر؛ فلم أجد له شاهداً، وانظر أيضاً: «السلسلة الصحيحة» (١٥٩/٤).

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وانظر: «ظلال الجنة» للألباني (٩١-٩٠).

هذا القول، وردت في أحاديث عن ابن عباس، وابن عمر وتكلم فيها بعضهم، ومن الأدلة حديث ابن عباس الذي رواه الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - بنعمان وهو واد إلى جنب عرفة - يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾» [الأعراف: ١٧٢] (١) إلى آخر الآية... وحديث عبد الله بن عمرو الذي

(١) (صحيح): أخرجه أحمد (١ / ٢٧٢)، وابن جرير في «التفسير» (٩/ ١١٠- ١١١)، دار الفكر، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٠٢)، والحاكم (٢/ ٥٩٣) -تحقيق: مصطفى عبد القادر، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٣٢٦ - ٣٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١٩١)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٨٨٩)، وابن منده «في الرد على الجهمية» (ص ٢٨- ٢٩). كلهم من طريق الحسين بن محمد المروزي، حدثنا جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: ... فذكره.

قال الحاكم: «صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي». وقد تابع الحسين، وهب بن جرير عن أبيه، به، كما عند الحاكم (١/ ٨٠) -تحقيق: مصطفى عبد القادر، فلم يتفرّد به حسين كما قال الحافظ ابن منده في «الرد على الجهمية» ص (٢٩). وقال الألباني -رحمه الله-: «وحقهما أن يقيداه بأنه على شرط مسلم، فإن كلثوم بن جبر من رجاله، وسأله من رجال الشيعين، لكن قال النسائي عقب إخرجه هذه الرواية (٦/ ٣٤٧): «وكلثوم هذا ليس بالقوي وحديثه ليس بالمحفوظ»، ورجح الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٥٠١) وقفه على ابن عباس، وتعقبه الألباني بأن هذا الموقوف في حكم المرفوع، لسببين:

الأول: أنه في تفسير القرآن، وما كان كذلك فهو في حكم المرفوع، ولذلك اشترط الحاكم في كتابه «المستدرک» أن يخرج فيه التفسير عن الصحابة كما ذكر ذلك في (١/ ٥٥).

الأخر: أن له شواهد مرفوعة عن النبي ﷺ عن جمع من الصحابة، وهم: عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو، وأبو هريرة، وأبو أمامة، وهشام بن حكيم أو =

يرويه مجاهد عنه قال: قال رسول الله: ﴿وَلَا تَحْذَرُوا رُؤُسَكُمْ مِنْ بَيْتِ كَادَمَ بْنِ طُحَيِّفٍ يُرِيكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. قال: أخذوا من ظهره كما يؤخذ المشط من الرأس فقال لهم: ألسن بربكم قالوا: بلى قالت الملائكة: شهدنا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] (١).

وأقوى ما يشهد لصحة هذا القول حديث أنس المخزج في الصحيحين عن النبي أن الله تعالى يقول لأهل النار عذاباً: «لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ

= عبد الرحمن بن قتادة السلمي على خلاف عنهما - معاوية بن أبي سفيان، وأبو الدرداء، وأبو موسى، وهي إن كان غالبها لا تخلوا أسانيداً من مقال، فإن بعضها يتقوى بعضها. بل قال الشيخ صالح المنجلي في «الأبحاث المسددة» - كما نقله الألباني عن «فتح البيان» (٣/ ٤٠٦) لصديق حسن خان: «ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الأحاديث والروايات في ذلك». ثم قال الألباني: ولا سيما وقد تلقاهما أو تلقى ما انفقت عليه من إخراج الذرية من ظهر آدم وإشهادهم على أنفسهم، السلف الصالح من الصحابة والتابعين دون اختلاف بينهم، منهم عبد الله ابن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وناس من الصحابة، وأبي بن كعب، وسلمان الفارسي، ومحمد بن كعب، والضحاك بن مزاحم، والحسن البصري، وقتادة، وفاقمة بنت الحسين، وأبو جعفر الباقر، وغيرهم. وقد أخرج هذه الآثار الموقوفة، وتلك الأحاديث المرفوعة الحافظ السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٤١ - ١٤٥)، وأخرج بعضها الشوكاني في «فتح القدير» (٢/ ٢١٥ - ٢١٥٢). انتهى كلام الألباني. وانظر: «الصحيحة» (١٦٢٣)، و«شرح الطحاوية» (ص ٢٦٦).

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩/ ١١٣ - دار الفكر)، وذكره السيوطي مرفوعاً في «الدر المنثور» (١/ ١٤٢)، وعزاه لابن منده في كتاب الرد على الجهمية، ولكن في المطبوع (ص ٦٣) -تحقيق: الفقهي، ذكره ابن منده من رواية مجاهد عن ابن عمر ولم يسنده. وكذا وقع تسمية الصحابي عنده، وأخشى أن يكون تصحيحاً، أو خطأً طباعياً، وقد رواه موقوفاً على عبد الله بن عمرو ابن جرير في «التفسير» (٩/ ١١٢ - دار الفكر)، ورجح ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٢٦٣) الرواية الموقوفة.

من هذا وأنت في صلب آدم ألا تشرك بي فأبیت إلا الشرك^(١)، وقد روي من طريق أخرى «قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فُئِرُ إلى النار»^(٢)، وليس فيه قوله: «في ظهر آدم».

أدلة القول الثاني الذين يقولون: إن الله - تعالى - نصب الأدلة على ربوبيته، ووجدانيته، وأن الإشهاد كان بلسان الحال، قالوا: آية سورة الأعراف تدل على هذا القول من وجوه:

أحدها: أنه قال في الآية: (من بني آدم) ولم يقل: من آدم.

الثاني: أنه قال: (من ظهورهم) ولم يقل: من ظهره، وهو يدل بعض، أو يدل اشتمالاً؛ وهو أحسن.

الثالث: أنه قال: (ذريتهم) ولم يقل: ذريته.

الرابع: أنه قال: (وأشهدهم على أنفسهم)، ولا بد أن يكون الشاهد ذاكرةً لنا شهد به، وهو لا يذكر شهادته إلا بعد خروجه إلى هذه الدار؛ لا يذكر شهادته قبل ذلك.

الخامس: أنه سبحانه أخبر أن جُكَمَتَه بهذا الإشهاد؛ إقامة الحجة عليهم؛ لتلا يقولوا يوم القيامة: (إنا كنا عن هذا غافلين)؛ والحجة إنما قامت عليهم بالرسول والفترة، التي فُطِرُوا عليها بدليل قول الله - تعالى - : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٣٤) واللفظ له، ومسلم: صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٠٥)، وأحمد (١٢٧/٣)، (١٢٩).
(٢) أخرجه أحمد (٢٠٧/٣).

سادساً: تذكيرهم بذلك؛ لتلا يقولوا يوم القيامة: (إنا كنا عن هذا غافلين)؛ ولا شك أنهم غافلون عن ذلك الإخراج لهم من صلب آدم؛ كلهم غافل عن هذا، وغافلون أيضاً عن إشهادهم جميعاً ذلك الوقت إذ هذا لا يذكره أحد منهم.

سابعاً: أن هناك حكمتين في هذا الإشهاد؛ وهما: لتلا يدعوا الغفلة؛ أو يدعوا التقليد كما في قوله: ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣] ذ الغافل لا شعور له والمقلد متبع في تقليده لغيره، ولا ترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفترة.

الثامن: أن الله توعدهم بجحودهم وشركهم في ادعائهم التقليد في قوله: ﴿أَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ أَلْهَيْتُمْ عَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، والله - سبحانه - إنما يهلكهم بمخالفة رسلهم وتكذيبهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل؛ إذ أخبر أنه لم يكن يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون.

التاسع: أنه سبحانه أخبر أنه أشهد كل واحد على نفسه، واحتج عليه بهذا في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [نعمان: ٢٥]، وإنما ذلك بالفترة؛ وهي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها، وذكرتهم بها رسله بقولهم: ﴿إِنِّي اللَّهُ شَافِعُ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

العاشر: أنه جعل الإشهاد آية وهي الدلالة الواضحة المبينة المستلزمة لمدلولها وإنما يتضح ذلك بالفترة التي فطر الناس عليها لا تبدل لخلق الله، وهذا شأن آيات الرب تكون واضحة بينة مستلزمة لمدلولها قال - تعالى - : ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤].

ويؤيد هذا القول: أحاديث منها: رواية الحسن، عن الأسود بن سريع - من بني سعد - قال: «غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال: فتناول قوم الذرية بعدما قتلوا المُقَاتِلَةَ فبلغ ذلك رسول الله فقال: ألا ما بال أقوام قتلوا المُقَاتِلَةَ حتى تناولوا الذرية قال: فقال رجل يا رسول الله أوليس أبناء المشركين؟ قال: فقال رسول الله: إن خياركم أبناء المشركين إنها ليست نسمة تُؤَلَّدُ إلا وُلِدَتْ على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها»^(١).

قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿وَلَوْلَا إِحْدَ رَيْكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ طُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، ومنها حديث أبي هريرة ؓ في الصحيحين قال: قال رسول الله: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ»^(٢) وفي رواية لمسلم: «على هذه الملة»^(٣). وفي رواية له أيضاً: «إلا على

(١) (صحيح): أخرجه أحمد (٢٤/٤) وهذا لفظه، وأخرجه أيضاً في (٤٣٥/٣) بنحوه، وقال الهيثمي (٣١٦/٥): «رواه أحمد بأسانيد وبعضها رجاله رجال الصحيح». وأخرجه أيضاً: النسائي في الكبرى (١٨٤/٥)، رقم ٨٦١٦، والدارمي (٢٩٤/٢)، رقم ٢٤٦٣، وابن جرير (١١٢/٩-١١٣)، والبيهقي (٧٧/٩)، رقم ١٧٨٦٨، و (١٣٠/٩)، رقم ١٨١١٤. وصححه ابن حبان (٣٤١/١)، رقم ١٣٢، والحاكم (١٣٣/٢-١٣٤)، رقم ٢٥٦٦، ٢٥٦٧، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وقال أبو نعيم في الحلية (٢٦٣/٨) «حديث الأسود مشهور ثابت». وقال ابن عبد البر في «التمهيد» (٦٨/١٨): «... وهو حديث بصري صحيح». وانظر «الصحيحة» (٤٠٢)، و«صحيح الجامع» (٥٥٧١).

(٢) أخرجه البخاري الجناز (١٣٨٥)، ومسلم: القدر (٢٦٥٨)، وأبو داود: السنة (٤٧١٤)، وأحمد (٢٣٣/٢)، وفي مواضع أخرى من مسنده، ومالك: الجناز (٢٤١/١) - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم: القدر (٢٦٥٨).

هذه الملة، حتى يُبَيِّنَ عنه لسانه»^(١).

ومنها حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم قال رسول الله «إني خلقت عبادي حنفاء مُخْلِئُهُمْ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(٢).

قالوا: والقول الأول يضعفه أمران؛ إذ هو متضمن لها:

أحدهما: كون الناس تكلموا حينئذ وأقروا بالإيمان وأنه بهذا تقوم عليهم الحجة يوم القيامة. الثاني: أن الآية دلت على هذا، والآية لا تدل عليه بالوجوه العشرة السابقة.

أما الآثار التي استدلت بها أهل القول الأول، فأجاب عنها أهل القول الثاني بأنها تدل على أن الله - سبحانه - صور النسمة وقدر خلقها وأجلها وعملها، واستخرج تلك الصور من مادتها ثم أعادها إليها وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له، ولا تدل على أنها خلقت خلقت مستقراً، واستمرت موجودة ناطقة كلها في موضع واحد، ثم يوصل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قاله ابن حزم. فهذا لا تدل الآثار عليه كما أنها لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً، كما قال من قال: إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد بل الرب يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الذي سبق به التقدير أولاً فيجيء الخلق الخارجي مطابقاً للتقدير السابق كشأنه - سبحانه - في جميع مخلوقاته؛ فإنه قدّر لها أقداراً وآجالاً، وصفات، وهيات، ثم أخرجها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير

(١) أخرجه مسلم: (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم: (الْجَنَّةُ وَمِنْهُنَّ أَهْلِهَا) (٢٨٦٥) واللفظ له، وأحمد (٤/١٦٢).

السابق.

فالآثار المروية إنما تدل على هذا المقدار، وبعضها يدل على أن الله استخرج أمثالهم وصورهم، وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة عليهم هناك، وأما الآثار التي في بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم إلى الجنة، وبعضهم إلى النار، كما في حديث عمر^(١)، وفي بعضها الأخذ وإراء آدم إياهم من غير قضاء ولا إشهد كما في حديث أبي هريرة السابق^(٢)، والذي فيه الإشهد على الصفة التي قالها أهل الأول قالوا: إنه موقوف على ابن عباس وعمر، وتكلم فيه أهل الحديث، ولم يخرج أحد من أهل الصحيح غير الحاكم في المستدرک على الصحيحين وهو معروف بتساهله رحمه الله لكن قال المحقق الشيخ أحمد محمد شاكر حديث ابن عباس وعمر صحيحان

(١) يشير إلى ما رواه مسلم بن يسار، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله فقيم العمل؟ قال: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فَيُدْخِلُهُ به الجنة، وإذا خلق العبد للنار اسْتَعْمَلَهُ بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أهل النار فَيُدْخِلُهُ به النار» أخرجه مالك (٨٩٨/٢)، رقم (١٥٩٣)، وأحمد (٤٤/١)، رقم (٣١١)، والبخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وقال: حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً. وقال ابن كثير: مسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة. وانظر «الأسماء والصفات» للبيهقي (ص ٣٢٥)، «الضعيفة» للألباني (٣٠٧١)، وقد تقدّم أنه صحيحه لشواهده، إلا مسح الظهر؛ فلم يجد له شاهداً.

(٢) تقدم ذكره قريباً.

مرفوعان وتعليقهما بالوقف على ابن عباس وعمر غير سديد كما بين ذلك عند شرحه لهما في المسند^(١).

بعد هذا: هل بين هذين القولين تناقض؟ أو هل يمكن الجمع بين هذين القولين؟ قال شيخنا سماحة الشيخ عبد العزيز رحمه الله: لا تنافي بين القولين؛ فإن الأخذ للذرية من ظهر آدم والإشهد عليهم: كان تقدمةً لبيعة الرسل، والحيجة إنما قامت ببيعة الرسل؛ فهم الذين ذكروهم بتلك الشهادة؛ فقامت للرسل الحجة على الناس، كما لو كان عند الإنسان شهادة ثم نسيها ثم ذكّر أحداً بإياها، وقال له: يا فلان اذكر أن عندك شهادة في وقت كذا على كذا. وأيضاً: فإن الأخذ من ظهور بني آدم أخذ من ظهر آدم؛ فإن ظهورهم ظهر له؛ وعلى هذا: فلا منافاة بين الأقوال وظاهر هذه الأحاديث، فهذه الأحاديث ظاهرة في أن الله - تعالى - استخرج ذرية آدم أمثال الدّر - الأرواح - وأشهدهم ثم أعادهم - سبحانه وتعالى - وَكَوّنَ الإنسان لا يذكر الشهادة؛ لا يستلزم أن يكون ذلك لم يقع؛ فقد جاءت الرسل بعد ذلك، وذكّرتهم بالشهادة، والحجة إنما قامت ببيعة الرسل، وعلى ذلك فلا منافاة بين القولين.

(١) انظر: «المسند» (١٥٧/١) رقم (٣١١) بتعليق الشيخ أحمد شاكر.

القدر

منزلته، وحقيقته الإيمان بالقدر

♦ قَالَ - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: (وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه).

هذا المبحث في القدر، وأن الله - سبحانه وتعالى - عَلِمَ كل شيء، ولا يخفى عليه - سبحانه - شيء.

والمؤلف رحمه الله بحث القدر في مواضع من هذا المتن. والقَدَرُ بالفتح، والسكون؛ لغة: وهو مصدر قدرت الشيء؛ إذا أحطت بمقداره^(١)، واصطلاحاً: تعلّق علم الله وإرادته أزلّاً بالكائنات قبل وجودها، فلا أمر إلا وقدره الله أزلّاً، أي: سبق به علمُ الله، وتعلّقت به إرادته.

منزلة الإيمان بالقدر من الدين: الإيمان بالقدر أحد أصول الإيمان الستة، ودليله حديث جبريل، وفيه لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان قال له: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(٢) فجعله سادس أصول الإيمان، فمن لم يؤمن بالقدر؛ فقد ترك أصلاً من أصول الإيمان، وجحد، فيشبه من قال الله فيهم: «أَفَتُؤْمِنُونَ

(١) انظر: «لسان العرب» (٧٤/٥)، والصحاح (٧٤/٢) مادة (قدر).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (٨)، والترمذي: الإيمان (٢٦١٠)، والنسائي: الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، وأبو داود: السنة (٤٦٩٥)، وابن ماجه: المقدمة (٦٣)، وأحمد (٥١/١)، والسيأى لمسلم وأبي داود.

يَسْتَفِيزُ الْكَاتِبُ وَتَكْفُرُونَ بِمَنْعِهِمْ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا جِزَاءُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٨٥﴾ [التكوير: ١٨٥].

فإذا: من أنكر القدر؛ فليس بمؤمن، بل ولا مسلم، فلا يقبل عمله. قال العلامة ابن القيم رحمه الله بعد ذكر آثار الإيمان بالقدر: «وهذه الآثار كلها تحقق هذا المقام، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر؛ فقد انسلخ من التوحيد، وليس جلياب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه، وهذا في كل كتاب أنزله على رسله». انتهى كلامه رحمه الله وهو كلام عظيم للإمام ابن القيم يقول رحمه الله: هذه الآثار كلها تحقق هذا المقام، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر؛ فقد انسلخ من التوحيد، وليس جلياب الشرك، بل لم يؤمن بالله، ولم يعرفه، وهذا في كل كتاب أنزله على رسله؛ فهو يوضح أن مثل هذا لم يؤمن بالقدر ولم يؤمن بالله بل إنه ليس مؤمناً، ولم يصح إيمانه.

فالإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، ومن أنكر أو جحد أصلاً من هذه الأصول: فقد خرج عن دائرة الإسلام، وصار من الكافرين -نسأل الله السلامة والعافية - ؛ لأن هذه الأصول نزلت بها الكتب، وجاءت بها الرسل، وأجمع عليها المسلمون؛ فمن جحد واحداً منها؛ فقد خرج عن دائرة المسلمين، ودخل في دائرة الكافرين. وهناك آثار وأحاديث جاءت في مقت القدرية^(١) لكنها ضعيفة عند أهل العلم، وبعضها موقوف على الصحابة، والموقوف أصح؛

(١) قال البيهقي في «الاعتقاد» (ص ٣١٦): «وإنما سماوا قدرية؛ لأنهم أثبتوا القدر لأنفسهم ونفوه عن الله سبحانه وتعالى، ونفوا عنه خلق أفعالهم، وأثبتوه لأنفسهم».

ومن ذلك: ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي، أنه قال: «القدريّة مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»^(١)، وقال ابن عمر رضي الله عنه: «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم - يعني: القدريّة الذين ينكرون القدر - لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر».

ثم استدل بالحديث السابق؛ حديث ابن عمر: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» إلى آخره^(٢).

(١) أخرجه أبو داود: السنة (٤٦٩١) ومن طريقه الحاكم (١٥٩/١)، رقم (٢٨٦)، والبيهقي (٢٠٣/١٠)، رقم (٢٠٦٥٨)، كلهم من طريق عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال... فذكره، وهذا إسناده منقطع، فأبو حازم وهو سلمة بن دينار لم يسمع من ابن عمر رضي الله عنه -.

وأخرجه أحمد: (٨٦/٢) من طريق أنس بن عياض، ثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة، عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: ... فذكره بنحوه. وهذا إسناده ضعيف؛ لضعف عمر بن عبد الله، ضعفه النسائي، ويحيى بن معين، وقال يحيى بن معين: لم يسمع من أحد من أصحاب النبي ﷺ.

ورواه الطبراني في «الأوسط» (٢٤٩٤)، والأجري في «الشرعية» (٤١٩)، وابن عدي في «الكامل» (٢١٢/٣)، والقرطبي في «القدر» (٢١٦) كلهم من طريق زكريا بن منظور عن أبي حازم به، -إسناده ضعيف منكر.

ورواه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢٢٥)، وقال: هذا حديث لا يصح، لكن حسنه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٣٨)، و (٣٣٩). وورد بمعناه أيضاً من حديث أبي هريرة عند ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٤٢)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٤٢)، وورد بمعناه أيضاً من حديث جابر بن عبد الله عند ابن ماجه (٩٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٢٨)، وغيرهما. وحسّنه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٢٨).

(٢) سبق تخريجه.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» يا بني سمعت رسول الله يقول: «من مات على غير هذا ليس مني»^(١) وفي رواية لابن وهب قال رسول الله «من لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله عز وجل بالنار»^(٢) وهذا ذكره الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد.

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: لقيتُ أبيّ بن كعب فقلت: يا أبا المنذر، إنه قد وُقِعَ في نفسي شيء من هذا القدر فحدثني بشيء - لعلّه يذهب من قلبي - قال: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه؛ لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ولو أنفقت جبل أحد ذهباً في سبيل الله عز وجل ما قبله الله منك

(١) (صحيح): أخرجه: أحمد (٣١٧/٥)، رقم (٢٢٧٥٧)، وابن أبي شيبة (٢١٤/٧)، رقم (٣٥٩٢٢)، والطائلي (٥٧٧)، والبخاري في «مسنده» (٢٦٨٧)، وابن جرير في تفسيره (١٧/٢٩)، والترمذي: (٢١٥٥) باب إعظام أمر الإيمان بالقدر، وفي تفسير القرآن (٣٣١٩)، وأبو داود: السنة (٤٧٠٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٢) و (١٠٣) و (١٠٤) و (١٠٥)، والطبراني في «مسنده الشاميين» (٥٨) و (٥٩) و (١٩٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٤٨/٥)، والبيهقي (٢٠٤/١٠). وصححه الألباني في «الطحاوية» (٢٣٢)، (٢٧١)، وفي «المشكاة» (٩٤)، وفي «ظلال الجنة» (١٠٢ - ١٠٧).

(٢) أخرجه ابن وهب في القدر (٢٦)، وفيه انقطاع، بين سليمان بن مهران (الأعمش)، وعبادة بن الصامت، فإنه لم يدركه، ويعني عنه مما وقع في بعض روايات الحديث السابق: «فإن مت على غير هذا دخلت النار».

حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لدخلت النار. فأتيت حذيفة فقال لي مثل ذلك، وأتيت ابن مسعود فقال لي مثل ذلك، وأتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك^(١) حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه، قد ذكر هذا الحديث، الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد.

فحقيقة الإيمان بالقدر: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. والقدر - كما سيأتي - سنة الله في خلقه؛ وهو: أن الله - سبحانه - أوجد أفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وهدى وأضل، فالقدر شامل لكل شيء في هذا الكون؛ للذوات، والصفات، والحركات، والأفعال، ولكن من أهم ما يجب الإيمان به: أن يعلم المسلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه.

ولكن متى خرجت القدرية؟ وما زمن خروجهم؟ ومن أول من تكلم بالقدر؟ خرجت القدرية في أواخر عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وأول

(١) (صحيح): أخرجه أحمد (١٨٢/٥)، رقم (٢١٦٢٩) والسياق له، وابن حبان (٢/٥٠٥-٥٠٦)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، والطبراني في الكبير (٤٩٤٠)، والخطيب في الموضح (١٧٩/١)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٤٥)، والبيهقي السنن الكبرى (٢٠٤/١٠)، وفي شعب الإيمان (٢٠٣/١)، رقم (١٨٢) كلهم من طريق أبي سنان، عن وهب بن خالد الحميري، عن ابن الديلمي... به، وتابعه سفيان عن أبي سنان. وصححه ابن حبان (٥٠٥/٢)، (٧٢٧)، والالباني في الظلال (٢٤٥)، وفي المشكاة (١١٥)، وفي شرح الطحاوية (٦٢٩)، وقع في بعض طرق هذا الحديث من رواية سفيان، عن أبي سنان، عن وهب بن خالد الحميري، عن ابن الديلمي، عن أبي ابن كعب، وفي بعض الطرق من رواية إسحاق بن سليمان الرازي، عن أبي سنان، عن وهب بن خالد عن ابن الديلمي، عن زيد بن ثابت.

من تكلم في القدر شخص يقال له: معبد الجهني بالبصرة^(١).

مراتب الإيمان بالقدر: مراتب الإيمان أربع:

الأولى: مرتبة العلم، وصفة العلم من الصفات الذاتية لله - تعالى -، وهي تناول الموجود والمعدوم، والواجب، والممكن، والمبتدع؛ وذلك: أن علم الله محيط بالأشياء؛ على ما هي عليه لا محو فيه، ولا تغيير، ولا زيادة، ولا نقص؛ فإن الله يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف يكون؛ إذا فَعَلَهُمُ الله يتناول الموجود، والمعدوم، والواجب، والممكن، والمبتدع، والأدلة على القدر من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى، وانفق على إثبات القدر الصحابة والتابعون، ولم يخالف فيها إلا مجوس هذه الأمة، وهم القدرية المعتزلة ومن وافقهم.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة: وهي أن الله كتب مقادير الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، والأدلة على إثباتها قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي فَسْطَاطٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [الحديد: ٢٢]، وفي الحديث: «أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب قال: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»^(٢)، ومن الأدلة على المرتبتين الأوليين قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠].

(١) قال ابن تيمية رحمه الله: «أما فتنة القدر فأول من تكلم بها معبد الجهني رجل من البصرة، وكان عنده حظ من العلم يقال له: معبد بن خالد، ويقال: معبد بن عبدالله ابن عويمر مات بعد الهزيمة، وكان يومئذ مع الأشعث وأصابته جراحة وهو أول من تكلم بالقدر وهو الذي تراء منه عبدالله بن عمر بن الخطاب». وانظر: «بيان تلبس الجهمية» (٢٧٤/١)، ومجموع الفتاوى (٣٨٤/٧).

(٢) (صحيح): وتقدم تخريجه قريباً.

المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة: وهي إثبات مشيئة الله النافذة الماضية وإثبات نفوذ قدرته ومشيئته، وشمول قدرته، ومن الأدلة على إثباتها قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَتَتْهُ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقول الله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى﴾ [الشعنة: ٢١٣].

الرابعة: مرتبة الخلق والإيجاد: وهي إثبات خلق الله وإيجاده لكل شيء. ومن الأدلة على إثباتها قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦١]، وقوله: ﴿وَمَا يَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا رِجْءٌ مُعْجَنٌ لَدُنَّ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فهذه مراتب القدر: العلم، والكتاب، والإرادة، والخلق، وقد نظمها بعضهم فقال:

علم كتابه مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاده وتقدير
مذاهب الناس في القدر ثلاثة:

المذهب الأول: مذهب أهل السنة؛ أن كل شيء بقضاء الله وقدره؛ حتى العجز والكيس يعني: حتى العجز والجد والنشاط كله بقدر؛ فكل شيء بقضاء الله وقدره، ويدخل في ذلك عندهم: خلق أفعال العباد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الأنعام: ٢٤٩]، وقال: ﴿وَمَا يَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ قَدَرَهُ إِلَّا بَعْدَ إِعْرَافِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ - يَرِيدُ الْكَفَرَ مِنَ الْكَافِرِ، وَشَاوَهُ، وَلَا يَرْضَاهُ وَلَا يَجِبُهُ؛ فيشأوه: كوناً ولا يرضاه: ديناً، وأنه لا حادث إلا وقد قدره الله أولاً؛ أي: سبق به علمه.

ويعتقد أهل السنة: أن الإرادة قسمان: كونية قدرية خلقية؛ ترادف المشيئة، ودينية شرعية أمرية؛ ترادف المحبة، ويثبتون أن العبد فاعل حقيقة، ولكنه مخلوق لله، ومفعول له، ولا يقولون: هو نفس فعل الله؛

يفرقون بين الخالق والمخلوق، والفعل والمفعول، ويعتقدون أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله؛ في كل شيء؛ مما يوافق ما شرعه، وما يخالفه؛ من أفعال العبد وأقواله، فالكُل بمشيئة الله، فما وافق ما شرعه: رضى به وأحبّه، وما خالفه: كرهه؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَلَكُمْ أَلَهٌ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَرَحْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

المذهب الثاني: مذهب القدرية؛ ومن أصولهم: نفي خلق الفعل مطلقاً فيقولون: أفعال العباد ليست مخلوقة لله يعنون: أفعالهم من خير وشر وطاعة ومعصية؛ لم يقدرها الله ولم يشأها ولم يخلقها^(١)، وغلاة القدرية والرافضة أنكروا أن الله عالم بالأزل، فالقدرية قسمان: غلاة ومتوسطون، فالغلاة أنكروا المرتبتين الأوليين؛ علم الله وكتابه، والمتوسطون أنكروا عموم المرتبتين الأخريين فأمنوا بالعلم والكتابة، واعترفوا وصدقوا بالمرتبتين الأوليين، ولكن جحدوا عموم المرتبتين الأخريين كما سيأتي؛ وغلاة القدرية القدامى: كمعبد الجهني - الذي سأل ابن عمر عن مقالته - وكعمرو بن عبيد؛ فإنهم ينكرون علم الله المتقدم، وكتابه السابقة، ويزعمون أن الله أمر ونهى وهو لا يعلم مَنْ يطيعه ممن يعصيه، بل الأمر أنف أي: مُستأنف، وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين، وكان أول من أظهر ذلك بالبصرة، معبد الجهني، وأخذ عنه هذا المذهب غيلان الدمشقي، فردّ عليه بقية الصحابة كعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، ووائلته بن الأسقع، وغيرهم.

فالقدرية ينقسمون إلى فرقتين:

(١) قال ابن تيمية رحمه الله: «وقد نص الأئمة كمالك، والشافعي، وأحمد على تكفير قائل هذه المقالة». وانظر «تحقيق مسألة علم الله» (ص ١٧٦-١٧٨).

الأولى: تنكر أن الله سبق علمه بالأشياء مطلقا، وتزعم أن الله لم يقدر الأمور أزلا، ولم يتقدم علمه بها، وإنما يعلمها إذا وقعت، وهؤلاء هم الغلاة. قال العلماء: وهؤلاء الطائفة انقضوا، وهم الذين كفرهم الأئمة؛ مالك، والشافعي، وأحمد، وهم الذين قال فيهم الإمام الشافعي رحمه الله: ناظروا القدرة بالعلم، فإن أقروا به: خُصموا، وإن أنكروه: كفروا.

الفرقة الثانية: المتوسطون أو عامة القدرة؛ الذين أقروا بالعلم والكتاب المقرون بالعلم، وإنما خالفوا السلف في زعمهم أن أفعال العباد مقدورة لهم، وواقعة منهم على جهة الاستقلال يعني: يقولون: أفعال الله لم يشأها الله، ولا خلقها؛ فيقولون: إن مشيئة الله عامة إلا أفعال العباد، وخلق الله عامًّا لكل شيء إلا أفعال العباد، وهذا المذهب مع كونه مذهباً باطلاً؛ أخفّ من المذهب الأول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهؤلاء مبتدعة ضالون لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك. وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد» يعني: يوجد من العلماء من اعتنق هذا المذهب، ومنهم من أخرج له البخاري ومسلم في صحيحهما^(١)، لكن من كان داعية إلى بدعته لم يخرجوا له، وهذا مذهب فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أن من كان داعية إلى بدعته فإنه يستحق التعزير لدفع ضرره عن الناس، وإن كان في الباطن مجتهدا، فأقل عقوبته أن يهجر فلا يكون له مرتبة في الدين، فلا يُستقصى ولا تُقبل شهادته.

(١) قلت: ممن أخرج له الشيخان ممن رمي بالقدر: قتادة بن دعامة السدوسي، وتلميذه سعيد بن أبي عروبة، وشريك بن عبدالله بن أبي نمر، وعبدالله بن أبي نجيح المكي، والحسن بن ذكوان، وغيرهم. وانظر اهدي الساري (٤٥٩-٤٦٠). وانظر في حكم رواية المبتدع «التقييد والإيضاح» (ص ١٤٨-١٥٠).

انتهى كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

فالقدرة والمعتزلة؛ نفاة القدر: يثبتون للعبد مشيئة تخالف مشيئة الله، أي: تخالف ما أَرَادَهُ الله من العبد وشأه، ويزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه استقلالا، بدون مشيئة الله وإرادته وشبهتهم أنهم قالوا: لتلا يلزم على ذلك أن يخلق المعاصي ويعذب عليها وذلك بناء على أصلهم وهو: أنه يجب على الله فعل الأصلح للعبد، وفعل الأصلح للعبد هو في أن يقدر لهم الطاعة لا المعصية؛ فلو قدر المعصية وعذب عليها؛ للزم عليه أن يخلق المعاصي ويعذب عليها.

وللرد عليهم نقول: أنتم في قولكم هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار فإنهم هربوا من شيء فوقعوا في شر منه، فإنه يلزم على قولهم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله، فإن الله قد شاء الإيمان منه -على قولهم- والكافر شاء الكفر، فوَقَعَتْ مشيئة الكافر دون مشيئة الله! وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه بل هو مخالف للدليل النقلي والعقلي، وهل أضل ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله؟!.

ثانياً: أنه يلزم على قولهم أنه يقع في ملك الله ما لا يريد.

ثالثاً: يلزم على قولهم: الإشراك في الربوبية، وأن الله ليس ربا لأفعال الحيوانات؛ ولأفعال العباد؛ فإن مذهب هؤلاء القدرة: أن الله - سبحانه - ليس على كل شيء قدير، وأن العباد يقدرون على ما لا يقدر عليه، وأن الله - سبحانه - لا يقدر أن يهدي ضالاً، ولا يضل مهتدياً، وهذا كما قال بعض العلماء: شرك في الربوبية مختصر؛ ولهذا ورد: أن القدرة مجوس هذه الأمة؛ لمشابهة قولهم لقول المجوس، فالقدرة يثبتون مع الله خالقين

للأفعال فليست أفعالهم مقدورة لله، بل هي واقعة بغير مشيئة الله وإرادته، ولا قدرة له عليها أصلاً، بل العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله، فإله تعالى عن زعمهم - لم يخلق أفعالهم ولم يقدر ذلك عليهم، ولم يكتبه، ولا شاء؛ فشابهوا المجوس في كونهم أثبتوا خالقاً مع الله؛ ولهذا سُموا: مجوس هذه الأمة، وسُموا قدرية: لإنكارهم القدر^(١).

والرد عليهم: بأن ربوبية الله - سبحانه - الكاملة المطلقة تبطل قول هؤلاء؛ لأن مقتضى ربوبية الله شاملة لجميع ما في هذا الكون من الذوات، والصفات، والحركات، والأفعال، وحقيقة قول هؤلاء: أن الله ليس رباً لأفعال الحيوانات، ولا تناولها ربوبيته، وكيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرة الله ومشيتته وخلقه؟ وهذا قول عامتهم ومتصوفتهم، وهذا القول شائع في القدرية، يعني: هذا المذهب إنما هو مذهب عامة القدرية.

المذهب الثالث: مذهب الجبرية^(٢) هم يقولون: إن العبد ليس بفاعل أصلاً، بل هو مجبور على أفعاله، وأفعاله واقعة بغير اختياره، وأن الفاعل منه سواء، والمحرك له غيره؛ فهو آلة محضة، وحركاته بمنزلة هيوب

(١) قال الخطابي رحمه الله: «إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مجوساً في قولهم بالأصلين وهما: النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره، والله سبحانه خالق الخير والشر لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته. وخلقه الشرُّ شراً في الحكمة كخلقه الخير خيراً». وانظر: «القضاء والقدر» للبيهقي (ص ٢٨٣-٢٨٤).

(٢) الجبرية: هم أتباع الجهم بن صفوان الترمذي، وسموا جبرية؛ لأن مذهبهم: أن العبد مجبور على فعله وحركاته، وأفعاله اضطرابية، فالجبرية يزعمون أن العباد لا يفعلون شيئاً ألبتة، وأن الفاعل عندهم هو الله حقيقة، وإضافة أفعال العباد إليهم عند الجبرية مجاز. وانظر «بيان تلبس الجهمية» (١/ ٢٧٧)، و«الواسطية» (ص ١٠).

الرياح، وحركات المرتعش؛ هذا قول عامة الجبرية، وأما متصوفتهم - ممن يزعمون الترفي في مقام الشهود للحقيقة الكونية والربوبية الشاملة - فيرون أن كل ما يصدر من العبد؛ من ظلم، وكفر، وفسوق: هو طاعة محضة؛ لأنها إنما تجري وفق ما قضاء الله وقدره؛ فهو محبوب لديه، مرضي عنه، فإنه وإن خالف أمر الشرع؛ فقد أطاع إرادته ونفذ مشيئته، وهؤلاء شر من القدرية النفاة وأشد عداوة لله، ومناقضة لكتابه، ورسله ودينه. وتُسَمَّى الجبرية قدرية؛ لاحتجاجهم بالقدر وخوضهم فيه، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب. والجبرية والقدرية في طرفي نقيض؛ فالقدرية غلوا في نفي القدر، حتى أخرجوا أفعال العباد عن خلق الله ومشيتته، والجبرية غلوا في الإثبات حتى سلبوا العباد قدرتهم واختيارهم، وزعموا أنهم لا يفعلون شيئاً ألبتة، وإنما الله هو فاعل تلك الأفعال حقيقة، فهي نفس فعله، لأفعالهم والعبد ليس لهم قدرة ولا إرادة ولا فعل ألبتة وأن أفعالهم بمنزلة حركات الجماد لا قدرة لهم عليها، وإمامهم في هذا المذهب، هو: الجهم بن صفوان^(١).

والرد عليهم: أن هذا المذهب باطل ضرورة؛ لأننا نفرق - بالضرورة

(١) هو جهم بن صفوان أبو محرر الراسي، مولاهم، السمرقندي، الكاتب المتكلم، أسن الضلالة، ورأس الجهمية، كان صاحب ذكاء وجدال، كتب للأمير حارث بن سريح التميمي. وكان ينكر الصفات، وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن، ويقول: إن الله في الأمكنة كلها. وقُتل سنة ١٢٨ هـ مع الحارث بن سريح ضد بني أمية.

وانظر: «تاريخ الطبري» (٧ / ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٢٧)، و«تاريخ الجهمية والمعتزلة» (ص ١٠) وما بعدها للقاسمي، و«ميزان الاعتدال» (١ / ٤٢٦)، و«الملل والنحل» (١ / ١٩٩ - ٢٠٠)، و«الفصل» (٤ / ٢٠٤)، و«الكامل» لابن الأثير (٥ / ٣٤٢ - ٣٤٤).

ومذهب أهل السنة أن المشيئة والمحبة ليس مدلولهما واحدا، ولا هما متلازمان، بل قد يشاء الله ما لا يحبه، ويحب ما لا يشاء كونه، فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه، والثاني: كمحبته لإيمان الكفار، وطاعات الفجار، ولو شاء ذلك لوجد ذلك كله؛ فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ويؤيد على الطائفتين بقول الله - تعالى - : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تُمْلِكُونَ﴾ (الناس: ٩٦) أي: خلقكم والذي تعملون^(١)؛ فدللت على أن أفعال العباد مخلوقة لله، وعلى أنها أفعالهم حقيقة، ففيها الرد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد لا فعل له، وفيها الرد على القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه استقلالاً. ويؤيد عليهم كذلك بحديث حذيفة: «إن الله يَبْضَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَمُصَنِّعَةٍ»^(٢)، فالله سبحانه خلق الإنسان بجميع أغراضه

(١) قال ابن كثير تلمذ في «التفسير» (٢٦/٧): «يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب «أفعال العباد»، عن علي بن المديني، عن مروان بن معاوية، عن أبي مالك، عن ربيع بن خراش، عن حذيفة مرفوعاً قال: «إن الله يصنع كل صانع ومصنعة».

(٢) (صحيح): أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٤٦/١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٥٨/١) رقم (٣٥٧) ورقم (٣٥٨) وصححه، والبزار في «مسنده» (٢٨٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٩/١) رقم (١٩٠)، وفي «الأسماء والصفات» (ص ٢٦ و ٣٨٨) من طرق عن أبي مالك الأشجعي عن ربيع بن خراش عن حذيفة مرفوعاً به. ووقع في بعض روايات هذا الحديث: «إن الله خالق» بدل «يُبْضَعُ»، وفي بعضهما: «صانع». والحديث صححه الحاكم (٨٥/١)، رقم ٨٥، وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: «تلمذ» وهو كما قال، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩٧/٧): «رواه البزار ورجاله رجال =

وحركاته.

وهؤلاء الجبرية والجهمية يُخْرِجُونَ عن أفعال الله وأحكامه؛ جَكمَهَا ومُصَالِحَهَا؛ فيزعمون أن الله - تعالى - يفعل لا لعل ولا لحكمة، وإنما هو محض مشيئة، وصِرْفُ إرادَةٍ، وكان شيخهم الجهم بن صفوان -قبحه الله- يقف على الجذمي - يعني: المصاب بالجدام فيقول - : أرحم الراحمين يفعل هذا إنكاراً للرحمة والحكمة^(١).

ولهذا الأصل الذي أصْلُوهُ لوازم وفروع كثيرة فاسدة ذكرها ابن القيم تلمذ من تسعين وجهاً. والذي عليه أهل السنة والجماعة هو: إثبات العلة والحكمة في أفعال الله وشرعه وقدره، فما خلق شيئاً ولا قضاء ولا شرعه، إلا لحكمة بالغة وإن قصرت عنها عقول البشر.

والأدلة الدالة على إثبات هذا الأصل كثيرة، وأنه سبحانه حكيم شَرَعَ الأحكام لحكمة ومصلحة؛ فما خلق شيئاً عبثاً، ولا خلق شيئاً سدى؛ فمن ذلك قول الله - تعالى - : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ٢١٥] وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَن لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ لَّكُمْ﴾ [النبي: ٣٦] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعبَةٍ﴾ [ما خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِأَلْحَقٍ] [الأنعام: ٣٨-٣٩] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [النبي: ١٠٧] وقال: ﴿يَكُونُ لِّلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وأما أهل السنة فقد توسطوا؛ فائتوا أن العباد فاعلون حقيقة، ولهم قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة ومشية، وأن الله

= الصحيح غير أحمد بن عبد الله أبو الحسين بن الكري، وهو ثقة. وصححه الحافظ في «الفتح» (٤٩٨/١٣).
وانظر: «الصحيح» (١٦٣٧)، و«صحيح الجامع» (١٧٧٧).
(١) انظر: «إغاثة اللفهان» (١٧٧/٢).

خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم؛ فأفعال العبد تضاف إليه على جهة الحقيقة، والله خلقه وخلق فعله كما قال - سبحانه - ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشافات: ٩٦] فأخبر أن العباد يعملون ويصنعون، ويؤمنون ويكفرون، ويفسقون ويكذبون، فللعبد مشيئة ولا تكون إلا بمشيئة الله كما قال - سبحانه - ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، والله أعلم.

♦ قَالَ - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: (وقد علم الله - تعالى - فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار جملة واحدة).

هذه الإرادة التي أشار إليها الشيخ، هي المرتبة الأولى من مراتب القدر، وهي: أن الله علم ما يعمل العباد، وأنه يعلم كل شيء سبحانه كما ثبت ذلك في النصوص، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، فهو يعلم أفعال عبادهم، وحركاتهم، وسكناتهم، وأفعالهم؛ علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ قبل خلقه، كما ثبت في الحديث الصحيح عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء»^(١). فالله علم أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وخلق ذلك قبل أن يُخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء.

ثم قال بكلمته: (فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه).

(١) مسلم: القدر (٢٦٥٣) واللفظ له، والترمذي: القدر (٢١٥٦)، وأحمد (١٦٩/٢).

قوله: (لا يزداد ولا ينقص منه) لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال - سبحانه - ﴿...وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفْرًا شَيْءٌ أَنْصَبْتُهُ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [نور: ١٢] والإمام المبين هو اللوح المحفوظ وقال - سبحانه - ﴿الَّذِي تَتَمَنَّوْنَ أَنْ تَكُونَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [النجم: ٧٠] والكتاب هو: اللوح المحفوظ، وقال - سبحانه - ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُبِينٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] فقوله سبحانه ﴿فِي كِتَابٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] يعني: اللوح المحفوظ.

● وقول الطحاوي: (وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه).

معناه: أن أفعالهم وغير أفعالهم؛ فحركاتهم وسكناتهم؛ كلها مكتوبة.

● وقوله بكلمته: (وكل ميسر لما خلق له).

معناه: أنه تعالى ييسر أهل السعادة للسعادة، وَييسرُ أهل الجنة للسعادة؛ فيعملون بعمل أهل الجنة ويموتون على التوحيد والإيمان ويعملون بعملهم، وَييسر الكفرة للكفر فيعملون بعمل أهل النار فيموتون على الكفر؛ فيدخلون النار. فالْمُؤْمِنُونَ ييسرهم للإيمان والتوحيد والعمل الصالح، فيموتون على التوحيد؛ فيدخلون الجنة، والكفار ييسرهم للكفر وللمعاصي؛ فيموتون على الكفر؛ فيدخلون النار - نسأل الله السلامة والعافية -.

● وقوله بكلمته -: (والأعمال بالخواتيم).

معناه: أن من حُتم له بالتوحيد والإيمان؛ صار من أهل الجنة، ومن حُتم له بالكفر؛ صار من أهل النار، كما في الأحاديث الصحيحة كحديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً - وهو من أحاديث الأربعين النووية - «إن أحدكم يُحْتَمُّ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ

يَكُونُ مَضْعُومًا مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيَقَالَ لَهُ: أَكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ وَشَقِيَّ أَوْ سَعِيدَ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ^(١).

فهذا الحديث يدل على أن الأعمال بالخواتيم ومثل ذلك أيضاً: قول الرسول ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مقعده من النار ومقعده من الجنة» قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا ونندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(٢).

أما مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُسَبِّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُسَبِّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ - تَعَالَى - : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَكُنْهُ ﴿١﴾ صَدَقَ الْيَقِينُ ﴿٢﴾﴾ [الزَّيْل: ٥-٦].

فالسعادة والشقاوة مكتوبة في اللوح المحفوظ.

ثم قال الشيخ: (والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله).

والمعنى: لأن السعادة مكتوبة والشقاوة مكتوبة؛ في اللوح المحفوظ - كما سبق - وكذلك أيضاً: فَإِنَّ كُلَّ شَخْصٍ - كما في حديث ابن مسعود

(١) أخرجه البخاري: بدء الخلق (٣٢٠٨) واللفظ له، ومسلم: القدر (٢٦٤٣)، والترمذي: القدر (٢١٣٧)، وأبو داود: السنة (٤٧٠٨)، وابن ماجه: المقدمة (٧٦)، وأحمد (٣٨٢/١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧)، وأبو داود (٤٦٩٤)، والترمذي (٣٣٤٤)، وأحمد (١٢٩/١)، رقم ١٠٦٧ من حديث علي عليه السلام.

المتقدم - وهو في بطن أمه يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ وَكُتِبَ سَعَادَتُهُ وَشَقَاوَتُهُ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ تَوَافَقَ مَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ هُوَ مَا دُوِّنَ وَكُتِبَ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ؛ فَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ كُلُّهُمَا مَكْتُوبٌ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ؛ هَذَا فِي التَّقْدِيرِ الْعَامِ الَّذِي فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ وَالَّذِي هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ ﴿...وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [نور: ٢١٢].

ثم هناك تقدير عمري: لكل شخص وهو في بطن أمه؛ تُكْتُبُ لَهُ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ، وَالْعَمَلُ، وَالرِّزْقُ، وَالْأَجَلُ، ثُمَّ هُنَاكَ تَقْدِيرٌ سَنَوِيٌّ: يَكُونُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ؛ يَكْتُبُ اللَّهُ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِنْ مَوْتٍ وَحَيَاةٍ، وَإِذْلَالٍ وَإِعْزَازٍ، وَإِسْقَاءٍ وَإِسْعَادٍ، ثُمَّ هُنَاكَ تَقْدِيرٌ يَوْمِيٌّ: وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ وَ- تَعَالَى - يُقَدِّرُ مَا يَكُونُ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَمَا قَالَ - سَبِّحَانَهُ -: ﴿...كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿١٦﴾﴾ [الزُّمَر: ٢٢٩]؛ فَيُعْزِزُ، وَيُذِلُّ، وَيَخْلُقُ، وَيَحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُسَعِّدُ وَيُشْقِي، وَيُقَرِّرُ وَيُغَيِّرُ^(١) - سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى -.

(١) وروي حديث حسن في هذا الباب رواه ابن ماجه برقم (٢٠٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره - كما في تفسير ابن كثير (٢٧٤/٤) -، وابن حبان في «الصحیح» (٦٨٩)، وأبو نعيم في «الحلیة» (٢٥٢-٢٥٣/٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١) كلهم: عن هشام بن عمار، ثنا الوزير بن صبيح، حدثنا يونس بن مسيرة بن حليس، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الزُّمَر: ٢٢٩] قال: «في شأنه أن يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويجيب داعياً ويرفع قوماً ويضع آخرين». قال البوصيري في الزوائد (٨٨/١): «هذا إسناد حسن لتفاضل الوزير عن درجة الحفظ والإنقاذ». وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٠١)، وجاء بمعنى حديث الباب عن عبدالله بن منبج، وابن عمر، لكن بأسانيد واهية. وانظر: «تغليق التعليل» (٣٣٢-٣٣٣)، و«تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣٩٧/٣-٣٩٨)، وراجع الدارقطني في «العلل» (٢٢٩/٦) وقفه.

◆ ثم قال - رَجَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه)^(١).

أصل القدر؛ سرُّ الله في خلقه؛ وهو كونه أَفْقَر وأَغْنَى، وأوجد وأَفْنَى، وأَمَات وأَحْيَا، وهَدَى وأَضَلَّ، فهذا سرُّ الله في خلقه لم يُطْلَعْ عليه أحدٌ من خَلْقِهِ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ فكما تَقَرَّرَ؛ القَدْرُ سرُّ الله في خلقه يعني: ما أَطْلُعَ عليه أحدٌ منهم؛ فلا يعرفون لماذا أفقر هذا؟ ولماذا أغنى هذا؟ ولماذا أضل هذا؟ ولماذا هدى هذا؟ ولماذا أحيا هذا؟ ولماذا أَمَاتَ هذا؟ ولماذا أوجد هذا؟ ولماذا أفنى هذا؟ هذا سرُّ الله، وله الحكمة البالغة في ذلك، وهو مَجْنِيٌّ على علمه وحكمته، وَلَيْسَ للعبد أن يسأل، ولا أن يعترض، بل يُسَلَّم الأمر لله؛ كما قيل: القَدْرُ سرُّ الله؛ فلا تكشفه .

◆ ثم قال الطحاوي: (والتمعن والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان).

يعني: أنْ ذَاتَ التعمق والغوص والبحث في هذا وفي حكمته، والاعتراض على الله: وسيلةٌ إلى الحرمان ووسيلة إلى الطغيان. والذريعة،

(١) جاء هذا المعنى في حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٨٢/٦) من طريق الهيثم بن جمار، عن أبي بكر عمران القصير، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكلموا في القدر فإنه سر الله، فلا تفتشوا له سره. وهو حديث ضعيف جداً أفته الهيثم بن جمار وهو متروك. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤١٣١). وجاء نحوه من حديث عائشة عند ابن عدي في «الكامل» (١٩٠/٧)، وضعفه وحديث ابن عمر معاً، الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١١٦١/٢). وضعف حديث عائشة ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٥/١)، وجاء بمعناه أيضاً من حديث أنس، كما عند الخطيب في «التاريخ» (٣٨٨/٢)، وفي سنن محمد بن عبد بن عامر، وهو وضعاف.

والوسيلة، والدرجة؛ متقاربة؛ لكن الطغيان يكون في مقابلة الاستقامة. والحرمان في مقابلة الظفر، والخذلان في مقابلة النصر فالحرمان يكون في مقابلة الحصول على الظفر، والطغيان في مقابلة الاستقامة، فالخذلان هو الهزيمة في مقابلة النصر؛ فهذه معاني متقاربة، وحاصل المعنى: أن التعمق والبحث والغوص والسؤال عن سر الله في خلقه؛ وسيلة إلى حرمان الشخص، وخذلانه ومجاوزة الحد، أي: هو وسيلة إلى حرمانه من التوحيد والإيمان الخالص، ووسيلة إلى طغيانه وتجاوزه الحد؛ فأنت عبد مأمور بأن تسلم ولا تعترض، فإذا اعترضت وتعمقت؛ صار ذلك وسيلة إلى طغيانك ومجاوزتك لحد العبودية، فَتَذَكَّرْ أَنَّكَ عَبْدٌ مأمور؛ فلا تتجاوز حدك، ولا تسأل، ولا تُقَلِّ في قدر الله: لماذا فعل كذا؟ فلا يقال: لماذا؟ ولا يُعترض على أفعال الله ولا على جُكَمَتِهِ، فلا يقال: كيف؟ فإِنَّكَ أَنْ تعترض على الله بـ (لماذا؟) ولا بكيف؟ لأنَّ مَنْ اعترض على حكمة الله وقدر الله وقال: لماذا فعل كذا؟ أو قال: كيف فعل كذا؟ فقد تجاوز حدَّه ولم يكن موحِّداً، ويخشى عليه الانحراف والهلاك. ولهذا قال المؤلف: «التمعن في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان الحرمان».

◆ ثم قال ﷺ (فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً، ووسوسةً).

والمعنى: أنه ينبغي للإنسان أن يحذر كل الحذر؛ بالتفكير، والنظر، والوسوسة، والاعتراض على الله، فلا يُقَلِّ لماذا خلق هذا؟ ولماذا أوجد هذا؟ ولماذا هدى هذا؟ ولماذا أضل هذا؟ ولماذا أفقر هذا؟ ولماذا أغنى ذلك؟، فلا تعترض عليه تعالى؛ فإذا أفقر أحداً فلا تقل مثل ما يقوله بعض

العامة: (هذا ما يستحق؛ فلان ما يستحق، فلان ليس كفناً لذلك)؛ لأنَّ هذا نوعٌ اعتراضٍ على الله! والله حكيمٌ عليمٌ وهو الذي قَدَّرَ أن يكون هذا غنياً أو فقيراً فلا تعترض على الله؛ فله الحكمة في ذلك؛ فهو الذي قَدَّرَ أن يكون هذا فقيراً، وأن يكون هذا مؤمناً، وهذا كافراً أو يكون هذا مطيعاً وهذا عاصياً، فلا تعترض، فهذا سر الله في خلقه له الحكمة البالغة وسَلَّمَ الأمرُ لهُ فإن لم تفعل: كان هذا سبباً وذريعة، ووسيلةً إلى حرمانك من التوحيد الخالص، وسبباً في طغيانك ومجاوزتك الحد.

● ثم قال الطحاوي: (فإن الله - تعالى - طوى علم القدر عن أنامه).

أي: طوى علم القدر عن أنامه. والأنام هم الناس أي: الخلق، والمعنى أنه تعالى: طوى عِلْمَ القدر عنهم يعني: أخفاه - سبحانه وتعالى - عن الناس؛ لأنه مما اختص به - سبحانه - نَفْسُهُ؛ فلا يعلم ذلك لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما لا يعلمون الحكمة في خلق هذا، وإيجاد هذا، وإغناء هذا، وإفقار هذا، وإضلال هذا وإماتة هذا؟ ولماذا هذا يعيش لمدة طويلة، ربما مائة وعشرين، وهذا يموت وهو ابن أربعين، أو دون ذلك، وهذا يموت طفلاً، وآخر يموت في بطن أمه؛ فليس لك أن تعترض وتقول: لم؟ ولماذا؟ وكيف؟ لأنه سرٌّ قد طواه الله عنك، وأخفاه عن الأنام، والناس؛ فله الحكمة البالغة - سبحانه - يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد.

● ثم قال كَلْبَةُ: (ونهاهم عن مرامه).

ومُرَّاهُ بقوله: ونهاهم عن مرامه: أي: طلبه، وعن السؤال عنه والبحث عنه.

♦ وقول المؤلف: (كما قال - تعالى - في كتابه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾) (الأنبياء: ٢٣).

معناه: أنه سبحانه لا يُسأل عما يفعل؛ لحكمته البالغة ورحمته وعَدْلِهِ لا لمجرد قهره وقدرته، كما يقول الجبرية، فهو - سبحانه - لا يُسأل عَمَّا يفعل لكمال حكمته؛ لأنه حكيم وأما العباد فإنهم يسألون؛ لأنهم مأمورون؛ منهيون؛ مكلفون؛ فإله - سبحانه وتعالى - هو: الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو الحكيم فيما يقدره، وفيما يشرعه فلا يُسأل عما يفعل - سبحانه -، وأما العباد فهم يسألون.

● وقول الطحاوي: (فمن سأل لم يفعل؟ فقد ردَّ حكم الكتاب، ومن ردَّ حكم الكتاب: كان من الكافرين).

معناه: أن من سأل فقال: لم فعل كذا؟ ولماذا؟ فقال: لم أغنى هذا؟ ولم أفقر هذا؟ ولم هدى هذا؟ ولم أضلَّ هذا؟ فقد ردَّ حكم الكتاب؛ يعني: عارض قول الله في قوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ (الأنبياء: ٢٣)؛ فالله - تعالى - يقول هذا، وأنت تقول: لماذا فعل؟! فلا شك أنه ردَّ لحكم الكتاب، ومن ردَّ حكم الكتاب كان من الكافرين.

● ثم قال كَلْبَةُ: (فهذا جملة من يحتاج إليه من هو مؤثِّر قلبه من أولياء الله - تعالى -).

أي: أنَّ هذه الأمور التي ذكرها المؤلف كَلْبَةُ في القدر، وهي: عدم الاعتراض على الله، والتسليم له، وعدم التعمق؛ هذا الذي يحتاجه من نور الله قلبه من أوليائه، يعني: من أحبابه المؤمنين؛ فأولياء الله هم المؤمنون، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الزُّمَرُ: ١٧) وَأَمَّا وَكَأَنَّا يُتَّقُونَ (الزُّمَرُ: ١٦-١٧).

• وقوله: (وهي درجة الراسخين في العلم).

لأن الراسخين في العلم، هم الذين يسلمون لقضاء الله وقدره، ويعلمون أن الله - تعالى - حكيم في شرعه، وقدره، وفي أمره ونهيه.

• ثم قال ﷺ: (لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود).

أي أن: العلم علمان: علم في الخلق موجود وهو علم الشريعة وتفاصيلها، وعلم في خلقه مفقود، وهو علم الغيب وعلم القدر الذي غاب وطواه الله عن أنامه؛ فلا تسأل عن العلم المفقود، فعلم الغيب لا يعلمه إلا الله؛ قال - سبحانه -: ﴿عَلَّمَ الْقَلَمَ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ٢٦] وقال ﴿يَسْأَلُ مَنَّانٌ الْغَيْبَ لَا يَلْمُهُمْ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] فلا يعلم الأنبياء شيئاً من الغيب إلا ما أعلمهم الله وأطلعهم عليه؛ فالعلم المفقود لا تسأله ولا تطلبه؛ وهو علم الغيب، ومن ذلك علم القدر والعلم الموجود علم الشريعة وتفاصيلها، كما تقدّم.

• وقوله: (فإنكار العلم الموجود كفر وادعاء العلم المفقود كفر).

معناه: أن من أنكر العلم الموجود، وهو علم الشريعة: فقد كفر، وعلم الشريعة هو ما جاء في كتاب الله، وسنة رسول الله، فمن أنكرها كفر، ومن ادعى العلم المفقود، وهو علم الغيب: كفر أيضاً^(١).

• وقوله: (ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب العلم المفقود).

معناه: أنه لا يثبت الإيمان إلا بأن تطلب العلم الشرعي، والمقصود به: الكتاب والسنة، وترك طلب العلم المفقود، وهو: علم الغيب.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/٢٣٠-٢٤٨)، و«مدارج السالكين» (٢/٤٧٥-٤٧٧).

اللوح والقلم

تعريف اللوح والقلم وآراء العلماء فيهما

• قال الإمام الطحاوي - رحمه الله تعالى -: (ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رُقم).

هذا مبحث فيما يتعلق باللوح والقلم. وقوله: (ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رُقم) يعني: نؤمن بجميع ما كُتِبَ به القلم، وللمقادير أقلام؛ سيتأتى تفصيل القول فيها. والقلم في اللغة: ما يُكتب به، والمراد به هنا شرعاً: القلم الذي خلقه الله، وكتب به المقادير في اللوح المحفوظ، واللوح في اللغة: ما يُكتب عليه، والمراد به شرعاً: اللوح الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه، والأدلة على ثبوت اللوح والقلم كثيرة، منها: قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ هُوَ يُرِيدُ نَجْدًا﴾ [١١] في تَجْزِئَةِ عَشْرِ [١٢] [البزج: ٢١-٢٢]، وفي الحديث الذي رواه الطبراني بسنده أن النبي أنه قال: «إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء كفتاه ياقوتة حمراء قلمه النور وعرضه ما بين السماء والأرض ينظر الله فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة يخلق في كل نظرة ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء»^(١) الحديث

(١) هذا الحديث روي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً وموقوفاً:

أما حديث ابن عباس المرفوع: فأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٦٠/١٠)، رقم (١٠٦٠٥)، وعنه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٣٠٥)، من طريق زياد بن عبد الله، عن ليث، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس، أن نبي الله ﷺ قدّره.

وهذا إسناد ضعيف لضعف ليث وهو ابن أبي سليم، قال يحيى بن معين: ليث بن أبي سليم ضعيف إلا أنه يكتب حديثه، وقال أحمد بن حنبل: ليث بن أبي سليم =

رواه الطبراني بسند ضعيف.

ولكن قول الله - تعالى - : ﴿لَوْ هُوَ ثَمَرًا يُحْدِثُ ۖ فِي ثَرَجٍ مَحْمُولٍ﴾ [الزُّرُّوع: ٢٢-٢٣] يُعْنِي عَنْ ذَلِكَ الْحَدِيث - عَلَى الْقَوْلِ بضعفه - وكذلك: قول الله - تعالى - : ﴿هَٰذَا صَاحِبٌ مِنْ مُوسَىٰ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهُ ۚ إِنَّ دَلَالَتَكَ عَلَى اللَّهِ يُبَيِّرُ ۖ﴾ [التَّحْدِيد: ٢٢] وقوله - سبحانه - : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ دَلَالَتَكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ دَلَالَتَكَ عَلَى اللَّهِ يُبَيِّرُ ۖ﴾ [التَّحْدِيد: ٧٠] وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ. ومن الأدلة من السنة: حديثُ عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال سمعت رسول الله يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. قال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»^(١)

= مضطرب الحديث، ولكن حدث عنه الناس.

وأما حديث ابن عباس الموقوف: فأخرجه ١ الشيخ في المعظمة (٤٩٢/٢)، رقم (٤٤)، والحاكم (٥١٦/٢)، رقم ٣٧٧١ و (٥٦٥/٢)، رقم ٣٩١٧، والطبري في «التفسير» (١٣٥/٢٧)، واللالكائي في «الاعتقاد» (١٢٣٥) كلهم من طريق أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به موقوف وهذا إسناد ضعيف فأبو حمزة الثمالي، رافضي ضعفه أحمد ويحيى بن معين، وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: واهي الحديث، وتابعه عن سعيد بن جبير به، يُكْثِرُ بن شهاب، عند الطبراني في «الكبير» (٢٦٠/١٠)، رقم ١٠٦٠٥، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩١/٧): «رواه الطبراني من طريقين، ورجال هذه ثقاة». ويكرر هذا قال عنه الذهبي في «المغني» (٩٩٥): «... فعرافتي صدوق»، وكذا في «الميزان» (٦٧/٢)، أما ابن حجر فقال: «مقبول». انظر: «التقريب» (٧٥٧)، وقال الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ٩٣ - ط: السابعة): «وإسناده يَحْتَمِلُ التحسين».

(١) سبق تخريجه.

والحديث صحيح ثابت.

واختلف العلماء في القلم والعرش أيهما أسبق في الوجود؟ على قولين ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمداني^(١) أحصهما: أن العرش كان قبل القلم.

والدليل على ذلك: ما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»^(٢). ووجه الدلالة: أن الحديث صريح أن التقدير إنما وقع بعد خلق العرش؛ فدل على أن العرش مخلوق قبل القلم، والتقدير وقع عند أول خلق القلم بلا مهلة، يعني: أن الله أول ما خلق القلم كتب به المقادير؛ لما رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب»^(٣) الحديث. يعني: أنه عند أول خلقه القلم

(١) هو الإمام الحافظ المقرئ العلامة شيخ الإسلام: أبو العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد الهمداني العطار، شيخ همدان. مولده في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وأربع مئة.

وله التصانيف في الحديث، وفي الزهد والرقائق، وقد صنف كتاب «زاد المسافر» في خمسين مجلدا، وكان إماما في الحديث وعلموه. وكان عالما إماما في القراءات، والنحو، واللغة.

وتوفي بكتفه في جمادى الأولى سنة تسع وستين وخمس مئة، وله نيف وثمانون سنة. وانظر: «المنتظم» (٢٤٨/ ١٠)، و«الكامل»: (١١ / ١٦٧) لابن الأثير، و«العبر» (٢٠٦/ ٤)، و«البداية والنهاية» (٢٨/ ٢)، و«الشنرات»: (٤ / ١٣١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) (صحيح): وتقدم تخريجه.

قال له اكتب بدليل الرواية الأخرى «أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب»^(١) بنصب (أول) على الظرفية، ونصب (القلم) على المفعولية؛ فيكون قوله: «إن أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب» جملة واحدة؛ وأما على رواية رفع (أول) و(القلم) فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم المحسوس المشاهد، ويكون قوله: «أول ما خلق الله القلم وقال له: اكتب» جملةً ليشق الحديثان.

إذا: حديث عبد الله بن عمرو؛ أفاد أن العرش سابق على التقدير، وحديث عبادة بن الصامت أفاد أن التقدير مقارن لخلق القلم؛ يوضحه اللفظ الآخر: (لما خلق الله القلم قال له اكتب فجري القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة) فهو يوضح أن الأولوية بالنسبة للكتابة. وقد ذكر العلامة ابن القيم ثلاثة في الكافية الشافية الخلاف في العرش والقلم؛ أيهما خلق أولاً؟ واختار أن العرش مخلوق أولاً، فقال بثلاثة:

والناس مختلفون في القلم الذي كتب القضاء به من الديان

هل كان قبل العرش أو هو بعده؟ قولان عند أبي العلا الهمداني

والحق أن العرش قبل؛ لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان

فرجح أن العرش مخلوق قبل القلم؛ لأنه قبل الكتابة.

وقوله: والعرش كان ذا أركان؛ يعني: كان موجوداً.

وأقلام المقادير التي وردت في السنة

أولاً: القلم العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي كتب به في اللوح المحفوظ المقادير هذا القلم العام الشامل لجميع المخلوقات، وما بعده من الأقلام كلها مأخوذة منه وتوافقه^(١).

القلم الثاني: خبر خلق آدم، وهو قلم عام أيضاً، لكن لبني آدم، وورد فيه آثار تدل على أن الله قدر أعمال بني آدم، وأرزاقهم، وأجالهم، وسعادتهم عقيب أبيهم^(٢).

القلم الثالث: حين يُرسل المَلَكُ إلى الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة^(٣).

(١) كما في حديث عبادة بن الصامت السابق.

(٢) منها ما رواه مسلم بن يسار، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره يمينه فاستخرج منه ذُرِّيَّةً فقال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: يا رسول الله فَيُقيمُ العمل؟ قال: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله يعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة يُدْخِلُهُ به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله يعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أهل النار يُدْخِلُهُ به النار». وقد سبق تخريجه.

(٣) منها حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحكمكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً ويؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح؛ فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون =

القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه، الذي بأيدي الكرام الكاتبين، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة.

فحاصل معنى قوله: (ونؤمن باللوح والقلم ويجمع ما فيه قد رُقم)؛ أنه: لا بد من الإيمان باللوح المحفوظ؛ المذكور في الكتاب العظيم، وأن الله كتب فيه مقادير كل شيء، وما هو مكتوب فيه شامل؛ عام. لا يخرج عنه أي شيء، والمقادير الأخرى كلها مأخوذة منه؛ راجعة إليه كما تقدمت الأدلة على ذلك. وكذلك: الإيمان بالقلم؛ قال بعض العلماء إنه هو القلم الذي أقسم الله به في قوله - سبحانه - : ﴿هَذَا الْقُرْآنُ وَمَا يُنْطَوُّونَ﴾ [القلم: ١].

• قال الطحاوي رحمه الله: (فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله - تعالى - فيه أنه كائن، ليجعلوه غير كائن: لم يقدروا عليه. ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله - تعالى - فيه ليجعلوه كائناً: لم يقدروا عليه).

يعني: أن ما قدره الله وكتبه؛ لا يُغيّر ولا يبطل، ولا يستطيع أحد أن يغيّره أو يبدله؛ كما قال الله: ﴿يَوْمَ يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَتِهِ فَلَا مُمْسِكَ لَهُمْ وَمَا يُمِيتُكَ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَوْمَ يَخْرُجُ﴾ [فاطر: ١٢].

وثبت في حديث ابن عباس حين ما علمه وقال له: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك - إلى أن قال - : واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا

= بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة. وقد تقدم تخريجه.

بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفعت الأقاليم، وجفت الصحف»^(١) أي: أقاليم المقادير؛ قد رُفعت وجفت الصحف فلا تُغيّر، ولا تُبدل، ولو اجتمع الكون كلهم على أن يغيروا شيئاً مما كتبه الله: ما استطاعوا أن يغيروا ما كتب ليحمله غير مكتوب، ولما استطاعوا أن يزيدوا فيه شيئاً لم يكتب فيه.

• ثم قال رحمه الله: (جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة).

وهذا قد دلّ عليه حديث ابن عباس السابق، في قوله عليه الصلاة والسلام: (رُفعت الأقاليم وجفت الصحف).

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه).

وهذا لأن المقدور كائن لا محالة فلا بُدَّ من الإيمان بهذا؟ وأن تعلم أن الذي أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك؛ لأن كل شيء قد كُتب في اللوح المحفوظ؛ حتى العجز والكيس؛ فحركات العبد، وسكناته، وأفعاله، وتصرفاته كلها مكتوبة؛ كما في حديث

(١) (صحيح): أخرجه أحمد (٢٩٣/١)، رقم ٢٦٦٩، والترمذي (٢٥١٦) والسياق له وقال: «حسن صحيح»، وصححه الحاكم (٦٢٣/٣ - ٦٢٤، ٦٣٠٣ - ٦٣٠٤)، والالباني في «المشكاة» (٥٣٠٢)، وفي «ظلال الجنة» (٣١٦ - ٣١٨)، وله عن ابن عباس طرق، قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ١٨٥): «وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة؛ من رواية ابنه علي، ومولاه عكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وعبيد الله بن عبد الله، وعمر مولى غفرة، وابن أبي ملكية وغيرهم، وأصح الطرق كلها طريق حشش الصنعاني التي خرجها الترمذي، كذا قال ابن منده وغيره...».

ابن عباس السابق أن النبي قال له: «واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك»^(١).

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه).

هذا بناءً على ما سبق، والأدلة على هذا واضحة، فعلى العبد أن يعلم أن كل شيء قد سبق به علم الله الشامل لكل شيء، والسابق لكل شيء؛ فالله تعالى يعلم ما كان في الماضي وما يكون في المستقبل وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما قال - سبحانه - : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الاحزاب: ٤٠] وقال سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْغَيْبُ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ تُرْبٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] والكتاب المبين: هو اللوح المحفوظ - كما تقدم -.

فمن لم يؤمن بعلم الله الشامل؛ فليس بمسلم؛ ولهذا لما أنكر القدرية الأولى، الغلاة علم الله الشامل كُفِّرهم العلماء، كمالك، والشافعي، وأحمد^(٢).

وقال فيهم الإمام الشافعي رحمه الله: ناظروا القدرية بالعلم؛ فإن أقروا به:

(١) انظر: التخريج السابق.

(٢) انظر: «تحقيق مسألة علم الله» (ص ١٧٦-١٧٨)، و«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٤١/٧).

خُصِّمُوا، وإن أنكروه كفروا^(١).
فمن أنكر العلم؛ نسب الله للجهل، ومن نسب الله إلى الجهل؛ كفر؛ فلا بد من الإيمان بعلم الله الشامل.

◆ قال المؤلف رحمه الله: (فقدّر ذلك تقديرًا مُحْكَمًا، مُبَرِّمًا).

قوله: (قدّر ذلك تقديرًا مُحْكَمًا مبرمًا).
يعني: لا يُغَيَّرُ، ولا يُبَدَّلُ ذلك التقدير المبرم المُحْكَم؛ الذي لا خلل فيه، فلا يمكن أن يُنْقَضَ.

● ثم قال رحمه الله: (ليس فيه ناقض ولا معقب).

قوله: "ليس فيه ناقض؛ من (الانتقاض)"؛ يعني: لا يستطيع أحد أن ينقض حكم الله، وما قدره، وما كتبه في اللوح المحفوظ، ولا يستطيع أحد أن يغيره بزيادة أو نقصان، أو يؤخره أو يقدمه، فلا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه.

● وقوله رحمه الله: (ولا مزيل ولا مغير).

يعني: لا أحد يزيل، ولا ينقض، ولا يغير، بالزيادة أو النقصان، شيئاً مما كتبه في اللوح المحفوظ أو يُمَحْوَى.

● ثم قال رحمه الله: (ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه).

ومراد: لا يستطيع أحد أن ينقص، ولا أن يزيد مما قضاه وقدر في خلقه السماوات والأرض - سبحانه وتعالى -.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٤٩/٢٣).

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة).

• قوله: (من عقد الإيمان).

يعني أن هذا: من اعتقاد الإيمان وأصل المعرفة، فعلى المسلم أن يعتقد أن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، وأنه لا يستطيع أحد أن يغير ما كتبه الله، ولا أن ينقصه، ولا أن يقدمه أو يؤخره، ولا أن يزيد فيه ولا أن ينقص منه. كما سبق تفصيله قريباً.

• وقوله رحمه الله: (وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته).

تقدم شرح بعضه. ومراؤه هنا: الإشارة إلى أنه لا يتم الإيمان برؤية الله، وأن الله رب المخلوق، ومالكهم، ومتصرف فيهم: إلا بأن تؤمن بأن قضاء الله وقدره، وما كتبه في اللوح المحفوظ: نافذ، ولا يستطيع أحد أن يغيره ولا أن يبدله، ولا أن يزيد منه، ولا أن ينقص منه، ولا أن يمحوه، وإلا فمن لم يؤمن بذلك، لم يؤمن برؤية الله، ومن لم يؤمن برؤية الله: لم يوحد الله؛ فيكون كافراً.

♦ قال المؤلف رحمه الله: (كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَحَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٢]).

قوله تعالى: ﴿وَحَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٢]؛ كل من صيغ العموم؛ فكل شيء في هذا الكون مخلوق لله، فمعنى: (فقدرة تقدير) أنه سبحانه وتعالى خلقه بتقدير وإحكام؛ لأنه - سبحانه - هو الحكيم فيما يخلقه، وفيما يقدره وفيما يشرعه فخلقُه، مبني على الحكمة وكذا: شرعه، وأمره، ونهيه، فمن صفاته: الحكمة، ومن أسمائه: الحكيم، خالقاً

للجبرية نعاء الحكمة عن الله، القائلين: إن الرب يخطط يخطط عشواء؛ فيجمع بين المختلفين، ويفرق بين المتماثلين - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -، بل الله حكيم؛ خلق كل شيء فقدره تقديراً.

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَوَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]).

أي: أن أمر الله الديني الشرعي، مُقدَّرٌ تقديراً؛ فهو مبني على الحكمة؛ فكما أن الآية الأولى أفادت أن خلق الله مبني على الحكمة؛ فكذلك الآية الثانية أفادت أن أمر الله وشرعه ودينه مبني على الحكمة؛ فهو حكيم - سبحانه وتعالى -، وتقدم معنا أن الجبرية - قبحهم الله - من دون الجهمية وغيرهم، يقولون: الإرادة الإلهية تخطط يخطط عشواء؛ من دون تقدير ومن دون حكمة، فتجمع بين المتفرقات والمختلفات، وتفرق بين المتماثلات، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآيات ردٌ عليهم فقوله: ﴿وَحَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٢]؛ هذا في المخلوقات، وقوله: ﴿وَوَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] هذا في الشرعيات في الأوامر والنواهي؛ أي فيما يأمره الله ويشرعه.

♦ قال المؤلف رحمه الله: (فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً).

الويل: شدة العذاب والهلاك، وقيل: وادٍ في جهنم^(١)، فهذا الوعيد

(١) جاءت هذه التسمية في حديث ضعيف يروى عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره». أخرجه الترمذي (٣١٦٤) وأحمد (٧٥٠/٣)، والحاكم (٥٥١/٢)، (٥٨٣)، و (٤/٦٣٩)، وصححه، وأبو يعلى (١٣٨/٣)، وتبني بن حميد في «المسند» (٩٢٤)، وابن المبارك في «الزهدة» (٩٦/٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧٩٨)، =

◆ ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: (وأحضر للنظر فيه قلما سقيما).

وابن جرير في "التفسير" (٣٧٨/١)، وابن حبان (٧٤٦٧)، عن دراج عن أبي الهيثم عنه، به، وقال الترمذي: حديث غريب لا ينفرد مرفوعاً إلى ابن حنبل في لهجته. وأورد هذا في الترمذي الحافظ ابن كثير في "تفسيره" (١١٨١)، ثم تبعه قتالاً: "لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى، ولكن الآفة من بعده. وهذا الحديث بهذا الإسناد مرفوعاً منكراً، والله أعلم. يعني: أنه تابع ابن لهيعة عن دراج به، عمرو بن الحارث كما في رواية الحكماء، وابن المبارك، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهم. وهذا إسناد ضعيف فدرجوا فيه إسعاباً إلى السبع القرشي ضعيف صاحب منكر، قال أبو حاتم: في حديثه ضعف. وقال الدارقطني: ضعيف، وقال في موضع آخر: ترك. وقال أحمد بن حنبل: أحاديث دراج، عن أبي الهيثم عن أبي سعيد هياض ضعف. وانظر "ضعيف الجامع" (٦١٤٨). وثمة آثار أخرى أوردتها السيوطي في "الدرر المنثور" (٢٠٢/١)، (٤٥٥/٥)، عن الضميمة وغيرهم.

والمرض نوعان: مرض شبيهة، ومرض شهوة. فمرضُ الشبهة: مرضُ الشكوك؛ كمرضِ النفاق؛ كما في قوله سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ تَرَسُّدٌ فَذَاكُمْ اللَّهُ مُضْطَرِبِينَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٠]. ومرضُ الشهوة: شهواتُ المعاصي؛ كقوله سبحانه: ﴿لَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي لَيْثِهِ مَرْءٌ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وأسوأُ الشبهة ما كانت الشبهة فيه في الصفات، فالشبهة إذاً أن تكون في الصفات، أو أن تكون في القدر أو فيهما، وهذا الذي أشار إليه الشيخ، داؤه مرضه من جهة القدر، وأيضاً: القلب قد يموت، كما قال عليه السَّخِ، «أَوَلَمْ يَكُنْ مَيْتًا فَحَيَّيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَنُورُ بَيْنَهُ فِي النَّاسِ كَمَنْ تَنُورُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا» [الناسم: ١٢٢]؛ «أَوَلَمْ يَكُنْ مَيْتًا» [الناسم: ١٢٢] بالكفر، «فَحَيَّيْنَاهُ» [الناسم: ١٢٢] بالإيمان. ومن علامة مرض القلب أن لا يشعر بالمعاصي والمكررات، فضلاً عن أن يُشْكِرَ المنكر، ولا يؤلمه كونه مقيماً على الجهل، وأعظمُهُ: الجهل بالله وبأسماؤه وصفاته، وكونه جاهلاً بحقائق الإيمان، وبما يجب عليه تجاه ربه، من القيام بوظائف العبودية؛ فلا يتعلم العلم الذي يذبح به عن قلبه مِرَّةً بعد مِرَّةٍ. وهذا دليل استحكام داء الجهل من قلب، لكن من الناس من يشعر بمرضه، لكن لا يستطيع تحمل مرارة الدواء، مكرهه أن يدواء في طلب

العلم وسؤال العلماء ومزاحمة الطلبة بالرُّكب على مرارة الدواء، فيبقى قلبه مريضاً - نسأل الله السلامة والعافية -.

فالحاصل: أن خصماء الله في القدر، وأصحاب الشُّبه في هذا الباب، هم مرضى القلوب؛ كهؤلاء الذين يعترضون على الله، وينفون حكمته من الجبرية وغيرهم.

◆ ثم قال المؤلف رحمه الله: (لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرّاً كتيماً).

التمس يعني: طلب بوهمه وبترهه وظنونه وشكوكه في الفحص والبحث عن الغيب؛ لأنَّ القدر سر الله؛ غيَّبهُ عن المخلوقين، لا يعلمه إلا هو - سبحانه - فلا تعترض أيها العبد المأمور على ربك، فلا تقل: لم؟ وكيف؟ لأنك إن كنت تريد أن تبحث عن هذا السر، فإنك ببحتك هذا سرا كتيماً، وكتيم؛ فعيل بمعنى مفعول يعني: مكتوماً؛ فقدَّرُ الله سر لم يُفْلَغ عليه أحداً، فكيف تريد أن تلتبس بظنونك وشكوك وشبهاتك وقلبك المريض البحث عن هذا السر الكتيمة؟!

إنهم من تكلم في الغيب

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَفَّاكَ أَتَيْمًا):

الشَّيْءُ

● قوله: (وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ):

أي: في القدر؛ يعني: بظنونه وتوهمه، فأصبح كذاباً أتيماً، هذه هي النتيجة؛ لأنه لما تعدى حدوده، وطفى وتجاوز الحد، وطلب معرفة الغيب، وسر الله في خلقه بوهمه وظنونه، عاد بما قال أفَّاكَ كذاباً أتيماً، وقد يكون كافراً بسبب تجاوزه الحد وطفئانه، كما سبق أن قال المؤلف: (هَلْوَ ذَرِيعَةُ الْخُلْدَانِ وَسَلْمُ الْجُرْمَانِ وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ).

العرش والكرسي

الله سبحانه غني عن العالمين محيط بكل شيء

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رحمته: (وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ حَقٌّ، وَهُوَ مُسْتَعْنٍ عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ، مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَقَوْفُهُ، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقُهُ).

الشرح

في هذا بيان أن الله - سبحانه وتعالى - غني عن العالمين، وأنه - سبحانه وتعالى - محيط بكل شيء فهو - سبحانه - متصف بالغنى، فلا يحتاج إلى أحد، لا إلى العرش، ولا إلى الكرسي، ولا إلى السماوات، ولا إلى الخلائق أجمعين؛ لأنه - سبحانه وتعالى - له وصف الغنى، فهو غني بالذات، كما قال - سبحانه -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [النمل: ٢٦] وهو - سبحانه وتعالى - محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء من المخلوقات، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي السَّمَوَاتِ فِي السَّحَابِ﴾ [البقرة: ٢٤٠] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِثْلُ مَثْوٍ جِئْتُكُمْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٦]، وليس المراد من إحاطته بخلقه - سبحانه - أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وهذا معنى فاسد قد يفهمه البعض، كبعض الملاحدة الحلولية الذين يقولون: إن الله حالٌ في المخلوقات، فيُفسَّرُون: معنى إحاطة الله بخلقه؛ أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخله، وهذا باطل كما مضى.

والصحيح أن المراد بالإحاطة: عظمته، وسعة علمه وقدرته، وأن

المخلوقات بالنسبة إلى عظمته حبة صغيرة؛ كالخردلة، كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيها في يد الله - عز وجل - إلا كخردلة في يد أحدكم»^(١)، ومعلوم - والله المثل الأعلى - أن الواحد منا إذا كانت عنده خردلة؛ إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو في الحالين مبين لها؛ عالي عليها؛ فوقها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وُضِفَ واصفٌ؛ لو شاء سبحانه لقيض السماوات والأرض اليوم، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة، فهو سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، وهو محيط بكل شيء.

والعرش والكرسي مخلوقان عظيمان من مخلوقات الله تعالى وفي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره إلا الذي خلقه»^(٢)، وأصل العرش في اللغة: السرير الذي

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في «السنن» بهذا السياق (٤٧٦/٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٤-٢٥)، وابن أبي حاتم في التفسير، ونقله عنه بسنده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣٨٥/٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ج ١٣٥) جميعاً من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: فذكره.

وفي إسناده عن أبي الجوزاء، وهو ثقة، لكنه يرسل كثيراً. ويشهد لمعنى هذا الأثر الآية القرآنية: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٢١].

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه «تفسير الطبري» (٤٠١/٥): الصحيح عن ابن عباس ما رواه عمار الدقني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره إلا الذي خلقه». قال: وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها. اهـ، والأثر في «العظمة» لأبي الشيخ (ج ٧)، و«السنن» لعبدالله بن الإمام أحمد (٥٩٠)، وانظره في «فتح الباري» (١٩٩/٨)، وصححه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (ج ٤).

لِلْمَلِكِ كما قال تعالى عن بلقيس مَلِكَةَ سَبَأَ: ﴿وَلَمَّا عَرَّشُ عَظِيمٌ﴾ [اشمل: ٢٢٣، وَسُمِّيَ عَرْشًا؛ لارتفاعه عليه، -: والاشتقاق يشهد لذلك، كقول الله تعالى: ﴿مَنْزُوتٌ وَبَعْدَ مَنَازِلَةٍ﴾ [النعام: ١٤١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانُوا بِعَرْشِكَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، المعروشات: الشجر المعروش الذي قام على ساق؛ وغير المعروش: المنبسط على الأرض؛ فالعين والراء والشين؛ تدل على الارتفاع؛ قال الله تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَمَّا عَرَّشُ عَظِيمٌ﴾ [اشمل: ٢٢٣]، وقال عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

والمراد بالعرش في النصوص: العرش الذي أضافه الله لنفسه - سبحانه وتعالى - في مثل قوله: ﴿وَكُنَّا عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [مرد: ٢٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَجْلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَبْهِي غَنِيَّةً﴾ [الحاقة: ١٧]، وهو سرير عظيم؛ ذو قوائم؛ تحمله الملائكة؛ وهو كالقبة على العالم، وهو سقف هذه المخلوقات، وهذا العرش وصفه الله بالعظمة؛ كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَنْ رُبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرُبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، ووصفه بأنه كريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَكَلَّمَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وكما تمدح - سبحانه - نفسه بأنه ذو العرش، كما في قوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّ مَعَهُ مَلَكَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَسُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيحًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقال سبحانه: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [التأخر: ١٥] [سورة غافر آية: ١٥]، كما أخبر - سبحانه - أن للعرش حملة؛ فقال: ﴿الَّذِينَ يَجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [التأخر: ٢٧]، وقال: ﴿وَيَجْلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَبْهِي غَنِيَّةً﴾ [الحاقة: ١٧]، فأخبر أن للعرش حملة؛ اليوم ويوم القيامة، وأن حملته ومن حوله يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون

للمؤمنين كما أخبر - سبحانه - أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، فقال - سبحانه -: ﴿وَمَنْ أَلْهَىٰ حَقَّقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [مرد: ٢٧]، وأخبر النبي أن للعرش قوائم؛ ففي «الصحاح» عنه أنه قال: «لَا تُخَيَّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَيَّامِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصَعِّفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُبْقِي، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ أَخَذَ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَذْرِي أَفَأَقِ قَبْلِي أَمْ جَزِي بِصُفْقَةِ الطُّورِ»^(١)، كما أخبر النبي أن العرش فوق الفردوس، الذي هو أوسط الجنة وأعلاها، وأن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها، وفوقه عرش الرحمن، ففي الحديث: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاَسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ وَسْطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَيَنْتَهِي تَقَعُّرُ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»^(٢)، كما أخبر النبي ﷺ أن العرش مقبب على هذا العالم كما في حديث الأعرابي: «أُنْذِرِي مَا اللَّهُ؟ إِنْ عَرْشُهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ هَكَذَا وَأَشَارَ

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٨) والسياق له، ورواه في مواضع أخرى من الصحيح، ومسلم مختصراً (٢٣٧٤/ ١٦٢، ١٦٣) من حديث أبي سعيد، وأخرجه البخاري بنحوه (٢٤١١، ٣٤٠٨، ٣٤١٤، ٤٨١٣، ٦٥١٨، ٦٥١٩، ٧٤٢٨، ٧٤٧٢)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة، ولفظه -كما في الموضع الأول- قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ جَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جُلَسَ فِي أَرْضِهَا وَلَدَ فِيهَا، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: إِنْ فِي الْجَنَّةِ مِائَةٌ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاَسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أَرَأَاهُ؟ قَالَ: وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَقَعُّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» قال محمد بن فليح عن أبيه: «وفوقه عرش الرحمن».

يَكُونُ مِثْلَ الْقَبْرِ^(١).

كما أخبر النبي ﷺ أن التقدير بعد وجود العرش، وقبل خلق السماوات والأرض، ففي حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦) فقال: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، ومحمد بن المثنى، ومحمد بن بشار، وأحمد بن سعيد الرباطي، قالوا حدثنا وهب بن جرير، قال أحمد: كُتِبَ مِنْ نَسْخَتِهِ، وَهَذَا لَفْظُهُ. قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ يَحْدُثُ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عَتْبَةَ، عَنْ جَبْرِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ جَبْرِ بْنِ مَطْعَمٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: «أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُكَ الْآنَ وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنَهَكَتِ الْأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقَى اللَّهُ لَنَا فَنَانَا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَيَحْكُ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟ وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يَسْبِيحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيَحْكُ إِنَّهُ لَا يَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَحْكُ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنْ عَرِثَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا. وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقَبْرِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَيَنْطَبِئُ بِهِ أَطِيطُ الرُّخْلُ بِالرَّاكِبِ». قَالَ ابْنُ بَشَّارٍ فِي حَدِيثِهِ: «إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ». وَسَاقَ الْحَدِيثَ. وَقَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى وَابْنُ الْمُنْثَى وَابْنُ بَشَّارٍ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عَتْبَةَ، وَجَبْرِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ جَبْرِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَالحديث بإسناد أحمد بن سعيد هو الصحيح، وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن معين وعلي بن المديني، ورواه جماعة عن ابن إسحاق كما قال أحمد أيضاً وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار من نسخة واحدة فيما بلغني. اهـ. وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢/ ٣٦٥): حديث ابن إسحاق في «المسند» وغيره، وفي آخره: «إِنَّ عَرْشَهُ لَعَلَى سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضُهُ هَكَذَا مِثْلَ الْقَبْرِ، وَإِنَّهُ لَيَنْطَبِئُ بِهِ أَطِيطُ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ». وَابْنُ إِسْحَاقَ مَدْلَسٌ، وَلَمْ يَصْرَحْ بِالسَّمَاعِ فِي شَيْءٍ مِنْ الطَّرِيقِ عَنْهُ، وَلِلَّذَلِكَ قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «العلو» (ص ٢٣): «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جَدًّا فَرَدَّ، وَابْنُ إِسْحَاقَ حُجَّةٌ فِي الْمَغَازِي إِذَا أَسْنَدَ، وَلَهُ مَنَاقِيرُ وَعَجَائِبُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَعَلَقَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «خَلْقِ أَعْمَالِ الْعِبَادَةِ» (١/ ١٧): قَالَ: وَقَالَ جَبْرِ بْنِ مَطْعَمٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، وَسَمَاوَاتُهُ فَوْقَ أَرَاغِيهِ مِثْلَ الْقَبْرِ».

أَلَفَ سَنَةً وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ^(١).

فتلخص من مجموع هذه النصوص في أوصاف العرش ما يأتي:
أولاً: أن الله مدح نفسه بأنه رب العرش وذو العرش، مما يدل على أهمية العرش وميزته على المخلوقات.

ثانياً: وُصِفَ العرشُ بأنه عظيم، وأنه كريم، وأنه مجيد.

ثالثاً: وُصِفَ العرشُ بأن له حَمَلَةً، وأن الملائكة تحف به؛ من حوله.

رابعاً: أن العرش هو أعلى المخلوقات وسقفها، فهو فوق الفردوس؛ الذي هو وسط الجنة، وأعلى الجنة.

خامساً: أن للعرش قوائم.

سادساً: أن العرش مُقَبَّبٌ عَلَى الْعَالَمِ.

سابعاً: أن العرش سابق وجوده على تقدير المقادير، وأن تقدير المقادير سابق خلق السماوات والأرض؛ هذا هو الصواب، وذهب بعض أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس.

فقول بعض أهل الكلام: إن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، يعني: أن العرش مُعَلَّقٌ لَجَمِيعِ الْعَالَمِ، فَالْعَالَمُ كُلُّهُ - السَّمَاوَاتُ، وَالْأَرْضُ كُلُّهَا - فِي جَوْفِ الْعَرْشِ، هَذَا قَالَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْكَلَامِ كَمَا سَبَقَ، لَكِنْ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبِتَ فِي النَّصُوصِ أَنَّ لَهُ قَوَائِمَ، كَمَا سَبَقَ فِي حَدِيثِ «الصَّحِيحِينَ»^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٢) من حديث أبي سعيد، وقد تقدم تخريجه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢٨١) رحمه الله: العرش مقبب، ولم يثبت أنه مستدير مطلقاً، بل ثبت أنه فوق الأفلاك، وأن له قوائم، وصح في علوه - أي: العرش - قوله: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ وَسْطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا، وَقَعْدَةُ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ^(٢)»، وعلى كل تقدير، فالعرش فوق المخلوقات؛ سواء أكان محيطاً بالأفلاك أو غير ذلك، وهو فوق الكرسي، والكرسي فوق الأفلاك كلها، ونسبة الأفلاك وما فيها إلى الكرسي، كحلقه في فلاة، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، إذاً: العرش أعظم المخلوقات، ثم يليه في العظم الكرسي، وقد نقل بعضهم أن الكرسي هو علم الله، لكن هذا قول ضعيف، ونسبته إلى ابن عباس لم تثبت^(٤)، فإن علم الله وسع كل شيء؛

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٥٠/٥)، (١٥١) (٥٥٦/٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥٤٦/٦).

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩/٣)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (ص٢١)، من طريق: جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال ابن منده، واللائكاثي في «اعتقاد أهل السنة» (٦٧٩): «ولم يتابع عليه جعفر، وليس هو بالقوي في سعيد بن جبير». وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩). وعلقه البخاري لكن من قول سعيد بن جبير، وقال الحافظ في «فتح الباري» (٨/١٩٩): «وصله سفيان الثوري في تفسيره في رواية أبي حنيفة عنه بإسناد صحيح».

وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من وجه آخر عن سعيد بن جبير فزاد فيه عن ابن عباس.

وأخرجه العقيلي من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وهو عند الطبراني في كتاب السنة من هذا الوجه مرفوعاً، وكذا رويناه في فرائد أبي الحسن علي بن عمر الحربي مرفوعاً، والموقوف أشبه.

= وقال العقيلي إن رفعه خطأ ثم هذا التفسير غريب. وقد روى ابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس أن الكرسي موضع القدمين. وروى ابن المنذر بإسناد صحيح عن أبي موسى مثله. وأخرجنا عن السدي «أن الكرسي بين يدي العرش وليس ذلك مغايراً لما قبله والله أعلم». اهـ كلام الحافظ ابن حجر، وانظر: «تغليق التعليق» (١٨٥/٤ - ١٨٦). قال ابن جرير الطبري في «تفسيره» تفسير الطبري (٥/٤٠١): أما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن فقول ابن عباس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عنه أنه قال: «هو علمه». اهـ. وتعبه الشيخ محمود محمد شاكر في تحقيقه فقال: «العجب لأبي جعفر، كيف تناقض قوله في هذا الموضع! فإنه بدأ فقال: إن الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ، من الحديث في صفة الكرسي، ثم عاد في هذا الموضع يقول: وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن، فقول ابن عباس أنه علم الله سبحانه. فإما هذا وإما هذا، وغير ممكن أن يكون أولى التأويلات في معنى «الكرسي» هو الذي جاء في الحديث الأول، ويكون معناه أيضاً «العلم»، كما زعم أنه دل على صحته ظاهر القرآن. وكيف يجمع في تأويل واحد، معنيين مختلفان في الصفة والجوهر؟! وإذا كان خبر جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد، فإن الخبر الآخر الذي رواه مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد على شرط الشيخين، كما قال الحاكم، وكما في «مجمع الزوائد» (٢٢٣/٦) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، كما بيته في التعليق على الأثر (٥٧٩٢). ومهما قيل فيها، فلن يكون أحدهما أرجح من الآخر إلا بمرجح يجب التسليم له. وأما أبو منصور الأزهري فقد قال في ذكر الكرسي: «والصحيح عن ابن عباس ما رواه عمار الدعني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره. قال: وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها. قال: ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم، فقد أبطل»، وهذا هو قول أهل الحق إن شاء الله. وقد أراد الطبري أن يستدل بعد بأن الكرسي هو «العلم»، بقوله تعالى: «وبنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً»، فلم لم يجعل «الكرسي» هو «الرحمة»، وهما في =

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [عنبر: ٧]، والله يعلم نفسه، ويعلم ما كان وما لم يكن، ولو فُسر الكرسي بالعلم في الآية؛ لقيل: وسع علمه السماوات والأرض، وهذا المعنى لا يكون مناسباً، لاسيما وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُ جَنْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ أي: لا يثقله، وهذا يناسب القدرة، لا العلم. وقال بعضهم: إن الكرسي هو العرش، لكن الأكثرون أنهما شيان، إذاً فالأقوال ثلاثة.

والصواب: أن الكرسي مخلوق آخر غير العرش، وهو موضع قدسي الرحمن - جل جلاله -.

قال الإمام عثمان بن سعيد الدرامي^(١)

= آية واحدة؛ ولم يجعلها كذلك لقوله تعالى في [سورة الأعراف: ١٥٦]: ﴿قَالَ عَذَابُهُ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَكْثَرُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؟ واستخراج معنى الكرسي من هذه الآية كما فعل الطبري، ضعيف جداً، يجعل عنه من كان مثله حذراً ولطفاً ودقة.

وأما ما ساقه بعد من الشواهد في معنى «الكرسي»، فإن أكثره لا يقوم على شيء، وبعضه منكرو التأويل، كما سأبينه بعد إن شاء الله. وكان يحسبه شاهداً ودليلاً أنه لم يأت في القرآن في غير هذا الموضع، بالمعنى الذي قالوه، وأنه جاء في الآية الأخرى بما ثبت في صحيح اللغة من معنى «الكرسي»، وذلك قوله تعالى في «سورة ص»: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا لِمُوسَىٰ وَآلِهَةٍ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٥٨٤/٦): «وقد نقل عن بعضهم أن كرسية علمه، وهو قول ضعيف».

(١) قال الذهبي في «مسير أعلام النبلاء» (٣١٩/١٣) عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد: الإمام، العلامة، الحافظ، الناقد، شيخ تلك الديار، أبو سعيد، التميمي، الدارمي، السجستاني، صاحب «المسند» الكبير والتصانيف. ولد قبل المئتين ببسبر، وطوف الأقاليم في طلب الحديث. وسمع: أبا اليمان، ويحيى بن صالح الزخاقي، وسعيد بن أبي مريم... وخلقاً كثيراً؛ بالحرمين، والشام، ومصر، والمراق، =

(١) كُتِبَ: هذا الذي عرفناه عن ابن عباس، صحيحاً مشهوراً، فالكرسي مخلوق عظيم، وهو موضع القدمين لله - سبحانه - كما روى ابن أبي شيبة والحاكم وقال: على شرط الشيخين، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله»^(٢)، وذكر ابن جرير عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

= والجزيرة، وبلاد العجم. وصنف كتاباً في «الرد على بشر المريسي»، وكتاباً في «الرد على الجهمية»، ورويناها. وأخذ علم الحديث وعنه علي، ويحيى، وأحمد، وفاق أهل زمانه، وكان لهجا بالسنة، بصيراً بالمناظرة.

حدث عنه: أبو عمرو: أحمد بن محمد الجبري، ومحمد بن إبراهيم الصرام، وموئل بن الحسين...، وخلق كثير. قال الحاكم: سمعت محمد بن العباس الضبي، سمعت أبا الفضل يعقوب بن إسحاق القراب يقول: ما رأينا مثل عثمان بن سعيد، ولا رأى عثمان مثل نفسه، أخذ الأدب عن ابن الأعرابي، والفقه عن أبي يعقوب البوطي، والحديث عن ابن معين وابن المديني، وتقدم في هذه العلوم رضي الله عنه.

قلت: كان عثمان الدارمي جذعاً في أعين المتبذعة، وهو الذي قام على محمد بن كرام، وطرده عن هراة، فيما قيل. وقال محمد بن المنذر: شكر: سمعت أبا زرعة الرازي، وسألته عن عثمان بن سعيد، فقال: ذاك رُزِقَ حسن التصنيف. وقال أبو الفضل الجارودي: كان عثمان بن سعيد إماماً يقتدى به في حياته وبعد مماته.

قال محمد بن إبراهيم الصرام: سمعت عثمان بن سعيد يقول: لا تكيف هذه الصفات، ولا تكذب بها، ولا تفسرها. ومن كلام عثمان رضي الله عنه في كتاب «النقض» له: «اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله تعالى فوق عرشه، فوق سماواته». اهـ مختصر.

(١) انظر: «الرد على بشر المريسي» (٤١٤/١).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب «العرش» (٦١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٦٤٥)، وعبدلرزاق في «التفسير» (٢٥١/٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/٢٥١)، والهيروفي في «الأربعين» (ص ٥٦-٥٧)، والدارمي في «الرد على =

سمعت رسول الله يقول: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَبِيبِ أَلْبَنِي فِي ظَهْرِ سَلَامِلٍ مِنَ الْأَرْضِ»^(١).

= الميرسي (٣٩٩/١) و (٤١٢/١) و (٤٢٣/١)، وعبدالله بن أحمد في «السنة» (٥٨٦، ١٠٢٠، ١٠٢١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٧، ٢٨)، والدارقطني في «الصفات» (٣٦)، والحاكم في «المستدرک» (٣١٠/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي في «العلو» (ص ٧٦): «رواه ثقات»، وصححه الألباني في مختصر العلو (ص: ٧٥)، وقال الحافظ في «الفتح» (١٩٩/٨): «ورد أبو المنذر بإسناد صحيح عن أبي موسى مثله»، وأخرجه عن أبي موسى أيضاً، ابن جرير في «التفسير» (٩/٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥٦)، وابن أبي شبة في «العرش» (٦٠)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (ص ٤٦)، وعبدالله بن أحمد في «السنة» (٥٨٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥٩) تحقيق الحاشدي.

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٣٩٩/٥) تعليقاً، وأسند ابن أبي شبة في «العرش» (٥٨)، وابن بطة الإبانة الكبرى (٢٥٤٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٧٠/٦٤٨/٢) من طريق المختار بن غسان العبدي، عن إسماعيل بن مسلم، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري مرفوعاً بلفظ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة». وفيه المختار وهو مجهول. ورواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٧٠/٢)، وذكره في «العلو للعلی الغفار» (٣٠٧) من طريق ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن أبي ذر رضي الله عنه، نحوه مرفوعاً بلفظ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة». قال الذهبي في «العلو» ص ١١٥: «والخير منك» اهـ.

أسند أبو الشيخ في «العظمة» (٣١/٥٨٧/٢)، وابن جرير في «التفسير» (١٠/٣) كلاهما من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول عن أبيه «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم مبعقة ألقيت في ترس قال ابن زيد فقال أبو ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض والكرسي موضع القدمين». =

والله - سبحانه وتعالى - استوى على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته، وجاء ذكر استواء الله - سبحانه - على عرشه في سبعة مواضع من القرآن:

الموضع الأول: في سورة «الأعراف»: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْثِ بِعِشْرِ أَلْفِ الْبَارِئِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الموضع الثاني: في سورة «يونس»: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْثِ بِعِشْرِ أَلْفِ الْبَارِئِ﴾ [يونس: ٣].

الموضع الثالث: في سورة «الرعد»، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِعِشْرِ أَلْفِ الْبَارِئِ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْفَرْثِ﴾ [الرعد: ٢٢].

= وقال الشيخ الحاشدي في التعليق على «الأسماء والصفات» للبيهقي (٣٠١/٢): «وهذا مرسل، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف جداً».

وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٦٢)، وابن حبان - (٣٦١) مطولاً، وذكره الذهبي في «العلو للعلی الغفار» (٢٣٣)، عن يحيى بن يحيى الغساني، وقال: «إبراهيم ليس بشيء»، وقد وثق.

وأخرجه ابن ماجه (٤٢١٨) عن القاسم بن محمد، مختصراً وليس فيه محل الشاهد، وابن مردويه (٦٨١/١) - تفسير ابن كثير - عن القاسم بن محمد لكن ذكر فيه محل الشاهد.

كلاهما (يحيى بن يحيى الغساني، والقاسم بن محمد) عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر مرفوعاً، وفيه «ما السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة». وقد استوفى الشيخ الحاشدي الكلام على طرق هذا الحديث في «تعليقه على كتاب الأسماء والصفات» للبيهقي (٢٩٩/٢ - ٣٠١)، ثم قال: «وبالجملة: فطرق هذا الحديث كلها وأهية، لا تصلح للاعتداد...».

الموضع الرابع: في سورة «طه»؛ قال تعالى: ﴿أَرْجَعُنْ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي﴾ (طه: ٤٥).

الموضع الخامس: في سورة «الفرقان»؛ قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ (الفرقان: ٥٩).

الموضع السادس: في سورة «الم سجدة»؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الم سجدة: ٢٤).

الموضع السابع: في سورة «الحديد»؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الحديد: ٢٤).

والعلو صفة من صفات الله، والاستواء صفة من صفات الله، لكن ما الفرق بين الصفتين؟ يبين الفرق واضحاً بين هاتين الصفتين من وجهين:

الوجه الأول: أن العلو من صفات الذات، فهو ملازم للرب؛ فالرب لا يكون إلا عاليًا، والاستواء من صفات الأفعال، وكان بعد خلق السماوات والأرض، كما أخبر الله بذلك في كتابه؛ فدل على أنه - سبحانه - تارة كان مستويًا على العرش، وتارة لم يكن مستويًا عليه، فاستواؤه على العرش كان بعد خلق السماوات والأرض، فالاستواء - على هذا - مُلَوٌّ خاص؛ فكل مستوي على شيء عالي عليه، وليس كل عالي على شيء مستويًا عليه.

فالأصل: أن علوه سبحانه على المخلوقات؛ وُصِفَ لازم له، كما أن عظمته وكبريائه وقدرته؛ كذلك، وأما الاستواء: فهو فِعْلٌ يفعلُه سبحانه؛ بمشيئته وقدرته، ولهذا قال: «ثم استوى».

الوجه الثاني: أن العلو من الصفات المعلومة بالسمع والعقل، أما

الاستواء على العرش: فهو من الصفات المعلومة بالسمع لا بالعقل؛ فكل الناس يثبتون ويدركون أن الله في العلو؛ حتى البهائم، أما الاستواء على العرش: فهذا ما عُرف إلا من جهة الشرع.

والعلو من الصفات التي اشتد فيها النزاع بين أهل السنة وبين المخالفين لهم من أهل البدع، فهي من الصفات العظيمة التي نفاها أهل الكلام والبدع.

وسبق أن هناك ثلاث صفات مَنُ أثبتها؛ فهو من أهل السنة، ومن نفاها؛ فهو من أهل البدعة: الكلام، والرؤية، والعلو، فهذه الصفات هي العلامات الفارقة بين أهل السنة وبين أهل البدعة، كالأشعرية والجهمية والمعتزلة الذين نفوا العلو، ونفوا الكلام؛ فالكلام عند الأشاعرة: معنى قائم بالنفس، لكنهم أثبتوا الرؤية ولمَّا كانوا من نُفاة العلو والفوقية، قالوا: يرى لا في مكان وبلا مقابلة؛ فأضحكوا منهم المُقْلَاء.

والعلو في اللغة معناه الارتفاع، والمراد به شرعًا: وَصِفَ ذاتيَّ الله - سبحانه -، وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: علو الذات.

النوع الثاني: علو القدر.

النوع الثالث: علو الفهر والغلبة والسلطان.

وله - سبحانه - العلو المطلق بأنواعه الثلاثة، كما قال العلامة ابن القيم رحمته في «الكافية الشافية»^(١):

(١) انظر: «الكافية الشافية» (١/٥١).

والفوق أنواع ثلاث كلها لله ثابتة بلا نكران ومذاهب الناس في العلو أربعة:

المذهب الأول: مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء، وهو: أن الله فوق سمواته، مستقر على عرشه، بائن من خلقه^(١).

المذهب الثاني: مذهب معطلة الجهمية ونفاتهم، وهو: أن الله ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا مباين له ولا محايث له، ولا فوقه ولا تحته؛ فينفون عنه الوصفين المتقابلين اللذين لا يخلو موجود عن أحدهما، وهذا يقوله أكثر المعتزلة ومن وافقهم من متأخري الأشاعرة^(٢)، وهذا الذي وصفوه، ليس سوى العدم - نموذ بالله - .

المذهب الثالث: مذهب حلولية الجهمية الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان كما يقوله النجارية^(٣).

فعلى هذا يكون الجهمية لهم مذهبان: مذهب النفاة: وهم الذين ينفون الوصفين، والحلولية الذين يقولون: إنه - تعالى عن قولهم - حال في كل

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» المجلد السادس بأكمله والسابع حتى (ص/ ١٤٠)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (٣/ ١٠٦٠-١١٠٠) ط. أضواء السلف.

(٢) انظر: «شرح الأصول الخمسة» (ص/ ٢١٩-٢٢١)، و«شرح جوهرة التوحيد» (ص/ ١٦٣-١٦٥)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ١٢٢-١٢٣)، (٥/ ٢٧٢-٢٧٣)، و«درء التعارض» (٥/ ١٦٩).

(٣) هم أصحاب الحسين بن محمد التجار، ذهبوا إلى القول بخلق أفعال العباد، ووافقوا القدرية الغلاة في نفي العلم، وقالوا بحدوث الكلام له تعالى، وهم فرق منهم: البرغوثية، والزعفرانية. انظر: «مقالات الإسلاميين» (١/ ٣٤٠-٣٤٢)، و«الملل والنحل» (١/ ٨٨-٩٠).

مكان^(١).

المذهب الرابع: مذهب طوائف من أهل الكلام والتصوف، القائلين بأن الله فوق العرش، وهو في كل مكان، فهم يقولون: هو بذاته فوق العرش، وهو بذاته في كل مكان^(٢).

أدلة السلف والأئمة وأهل السنة على علو الله على خلقه بذاته:

استدلوا بالنقل الصحيح، والعقل الصحيح، والفتوة السليمة. يقول العلماء: أدلة العلو تزيد على ثلاثة آلاف دليل، فالأدلة على علو الله تعالى، أنواع وهي كالقواعد في هذا الباب؛ يندرج تحتها أفراد كثيرة وهي:

(النقل الصحيح): حيث ورد في سبعة مواضع من كتاب الله، بلفظ (على)؛ وهي تدل على العلو والارتفاع، وهذا نص لا يقبل الاحتمال، ولا الاشتباه في المعنى.

(أما التصريح بلفظ العلو): فقد تكرر في الكتاب وضف الله بالعلي والأعلى، كقوله: ﴿وَهُوَ أَلْفُ الْمِائَةِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ أَكْبَرُ﴾ [الاعلى: ٢١]، وهذا يدل على ثبوت العلو لله بجميع أنواعه.

(أما التصريح بالفوقية): لله تعالى فتارة يكون مقروناً بأداة: من، كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [التحل: ٥٠]، وتارة غير مقرون، كقوله: ﴿وَهُوَ أَلْفُ الْمِائَةِ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]؛ فالمقرون بمن نص في معناه؛ لا

(١) انظر: «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٨٩٢-٨٩٣)، و«بيان تلبس الجهمية» (١/ ٥٥٦-٥٥٧) الطبعة القديمة.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣١٨).

يقبل التأويل. وغير المقرون: ظاهر في المراد، ولا يقبل تأويله ممن ادعاه؛ لأن الأصل الحقيقة، ودعوى المجاز لا تقبل بغير دليل، ولا دليل هنا.

(أما التصريح بالصعود إليه): فقولوه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]؛ والصعود إنما يكون إلى أعلى.

(أما التصريح برفع بعض المخلوقات إليه): فقولوه في المسيح - عليه الصلاة والسلام -: ﴿بَلِّغْ رُفْعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [التبت: ١٥٨]، وقوله: ﴿إِنِّي مُنَوِّدُكَ وَرَافِقُكَ إِلًا﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله في العمل الصالح: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وثبت في الأحاديث والآثار ارتفاع دعوات المضطرين والمظلومين إلى الله، وذلك كله صريح في علو الله وفوقيته.

(أما التصريح بتنزيل الكتاب منه): فقولوه: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْغَيْزِ الْمَكِينِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعرا: ١٩٣]، وقوله: ﴿وَيَلْقَى أَنْزَلَهُ وَيَلْقَى زَلَّ﴾ [الاسراء: ١٠٥]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [التحل: ١٠٢]، والنزول إنما يكون ممن هو فوق، وممن هو عالٍ، وهذا يدل على علو الله وارتفاعه.

(أما التصريح بأنه في السماء): فقولوه: ﴿وَأَنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَهُوُّ﴾ [آل عمران: ١٠]، أم أنتم مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَلْمِزُونَهُ كَيْفَ تَلْمِزُونَ [الملك: ١٦-١٧]، وقول النبي في دعائه: «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ...»

الحديث^(١)، وفي: قوله «في السما» إذا قُسرَتْ «السما» بمعنى العلو؛

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٧٦)، والطبراني في «الأوسط» (٨٦٣٦ - تحقيق: طارق عوض الله)، والحاكم (٤٩٤/١)، (٢٤٣/٤)، وابن عدي في «الكامل» (١٩٧/٣)، واللاكاوي في «السنن» (٦٤٨)، وغيرهم. من طريق الليث بن سعد، عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا، أَوْ اشْتَكَاهُ أَحَدٌ لَهُ، فَلْيَقُلْ: رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحِمْتُكَ فِي السَّمَاءِ، فَاجْعَلْ رَحِمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا خُزُونَنَا وَخَطَايَانَا أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحِمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجْعِ فَيَبْرَأَ.

وزيادة بن محمد قال عنه البخاري في «التاريخ الكبير» (٤٤٦/٣): «منكر الحديث»، وكذا قال النسائي في كتاب «الضعفاء» (٢٢١). وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٢١١٣): «منكر الحديث». وقال الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٨٠/٨): «نفرد به الليث بن سعد». وقال الذهبي: «بعد أن عزاه إلى أبي داود - في «العلو» (ص ٢٩): «وزيادة لِيَنَّ الحديث». اهـ.

ورواه أحمد في مسنده (٢٠/٦) من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن الأشياخ عن عبيد بن عمير. وأبو بكر ضعيف كما في ترجمته في التهذيبين، وفيه الأشياخ «مهمون». فالحديث ضعيف.

وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٨٧٤) من طريق مخلد قال حدثنا سفيان عن منصور عن طلق عن أبيه: «أنه كان به الأسر فانطلق إلى المدينة والشام يطلب من يداويه فلقي رجلاً فقال ألا أعلمك كلمات سمعتن من رسول الله ﷺ ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أملك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفاائك على هذا الوجع فَيَبْرَأَ». والحديث فيه مخلد بن يزيد، قال عنه الحافظ في «التقريب» (٦٥٤٠): «صدوق له أوهام». وطلق هو ابن حبيب قال عنه الحافظ في «التقريب» (٣٠٤٠): «صدوق عابد رمى بالإرجاء»، وأبو حبيب العنزي قال عنه في «التقريب» (١١١٤): «مجهول»، وإن كانت جهالة =

فهي للظرفية، وإذا نُسِرت بالطباق المبنية؛ فهي بمعنى (على)، كقوله تعالى: ﴿وَأَمْلَيْنَاكُمْ فِي حُجُوجِ الْبَيْتِ﴾ [ط: ٢٧١] وقوله: ﴿فَلْيَبْشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٢١١]، لأن الله سبحانه لا يحصره ولا يحيط به شيء من خلقه.

(أما الإخبار عن رفعة وعظمته بأنه رفيع الدرجات): فكقوله: تعالى في سورة «غافر»: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]، فقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر: ١٥] فعيل بمعنى: مفعول، أي مرفوعة درجاته برفعته وارتفاعه وعلو شأنه، وليس (رفيع) هنا بمعنى رافع درجات المؤمنين، فيكون فعل بمعنى فاعل، كما يقوله المعطلة؛ لأن السياق يأبى هذا القول؛ وذلك أن الله - سبحانه - وصف نفسه قبل هذا بالعلو في قوله: ﴿كَلَّمَكُم مِّنَ الْكَلِمِ الْأَكْبَرِ﴾ [غافر: ١٢]، ثم وصف نفسه بأنه رفيع الدرجات ذو العرش، فالأوصاف كلها راجعة إلى رفعة هو، وارتفاعه على الخلق، لا إلى رُفْعِهِ بعض خلقه، ونظير هذا: قول الله - تعالى - في سورة «المعارج»: ﴿مَنْ أَلَّهَ ذِي الْمَنَاجِزِ﴾ [المعارج: ٢٣]؛ أي: المصاعد التي تصعد فيها الملائكة إليه - جل سلطانه -، وهي الدرجات الرفيعة، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

(أما التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده): فكقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١٩] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الاحزاب: ٢٠٦]، وقوله: ﴿فَإِنْ اسْتَغْفَرُوا فَإِنَّكَ عِندَ رَبِّكَ تَسْتَجِيبُ لَهُمْ بِأَلْسِنٍ وَأَلْسِنٍ وَأَلْسِنٍ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [التكوير: ٢٨].

= الذي حدثه لا نفيد؛ لأنه يظن به الصبغة، والصحابة كلهم عدول، لكن الإسناد لا يقوم هكذا لما بيناه؛ فالحديث ضعيف أيضاً من هذا الطريق والله أعلم.

وردى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ قَوْقُ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»^(١)، واختصاص هذه المخلوقات بأنها عنده؛ دليل على علو الله على خلقه، وإلا لم يكن لتخصيص هذه الأشياء بأنها عنده؛ فائدة؛ ولكن أشرف المخلوقات وأدناها في القرب منه والعندية؛ سواء.

(أما الإخبار بأن من أسمائه «الظاهر»، وتفسير أعلم الخلق به له بنفي فوقية شيء عليه): فكقوله تعالى: ﴿مَعُوذُ الْآذِلِّ وَالْآجِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] مع قوله في دعائه واستفتاحه: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»^(٢) فتفسير الصادق المصدق لـ «الظاهر» بنفي ضده؛ تقرير لإثبات العلو؛ إذ الظهور والعلو: متلازمان؛ فكل ما علا الشيء: ظَهَرَ وَبَانَ، كما أنه كلما سفل الشيء: خَفِيَ وَاسْتَر.

(أما إشارة النبي بأصبغه إلى السماء): فذلك حين خطب الناس يوم عرفة، مخاطباً ربه بقوله: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -»^(٣) فذلك يدل على علو الله على خلقه، وإلا لم يكن لتخصيص السماء بالإشارة فائدة.

(ما ثبت في القرآن والسنة المتواترة من رؤية أهل الجنة لربهم ﷻ): كقوله تعالى: ﴿يُتِمُّونَ صِدْقَهُمْ وَأَتِيتُهَا نَاقِرَةٌ﴾ [الأنبياء: ٢٢-٢٣]، وقوله: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ وَجْهَكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤُوسِهِ»^(٤)،

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، في صفة حج النبي ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

فالروية قطعية الثبوت بالأدلة المتواترة، والروية المعقولة عند جميع بني آدم تقتضي مقابلة الراي للمرئي ومواجهته له.

(سؤال النبي عن الله بأين): كقوله للجارية: «أَيْنَ اللهُ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ قَالَ: أَغَيَّبَهَا عَنْهَا مُؤَيِّنَةً»، وهذا الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه^(١).

والسؤال عن الله بأين، وإقرار الجارية على أن الله في السماء؛ يدل دلالة قطعية على إثبات علو الله على خلقه. والرسول منزّه عن أن يسأل سؤالاً فاسداً، ومنزّه - أيضاً - عن أن يقر الجارية على جواب فاسد، ويلزم من قول مَنْ يقول: إن الرسول خاطب الجارية بما تعرف - وإن كان على خلاف الحقيقة - أن يكون النبي لم يبين الحق في هذه المسألة، وأن يكون قد أقر الجارية على الخطأ، وحاشاه من ذلك.

وعند الجهمي والمعتزلي، لو أنك رفعت إصبعك إلى السماء؛ لقطع أصبعك وقال: لا تشر إليه هكذا؛ لأنه في كل مكان، ف قيل لهم: الرسول قال: أين الله؟ و«أين» يسأل عنها في المكان؛ قالوا: الرسول سأل سؤالاً فاسداً، وإنما كان قصده أن يخاطبها بقدر عقلها، ومقصوده أيضاً أن يقول لها: مَنْ اللهُ؟ ولما قالت: في السماء، قال الرسول: «أَغَيَّبَهَا عَنْهَا مُؤَيِّنَةً»^(٢) فقالوا: أفرها على جواب فاسد موافقة لعقلها!!

هذه أربعة عشر نوعاً من الأدلة، وكل نوع منها تحته أفراد، وقد اعترض المبتدعة على هذه الأدلة، وأجاب أهل السنة على اعتراضهم،

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٢) هو الحديث السابق.

وهناك أدلة عقلية لأهل السنة واعتراضات للنفاة وأجوبة لأهل السنة عليها، وهناك أيضاً أدلة من الفطرة لأهل السنة، واعتراضات من النفاة وجواب عليها لأهل السنة، وهناك أدلة أيضاً عقلية لأهل البدع النفاة، وأجوبة لأهل السنة عليها، وجواب عليهم.

وقد اعترض نفاة العلو على الأدلة التي استدلت بها أهل السنة والجماعة على علو الله على خلقه، وتأولوها: بأن المراد بها: علو وفوقية القدر والعظمة والشأن، وعلو وفوقية القهر والغلبة والسلطان؛ لأن النفاة يثبتون هذين النوعين من العلو، وهو علو القهر وعلو القدر، والخلاف بينهم وبين أهل السنة في إثبات علو الذات؛ ولذلك قالوا: قوله سبحانه: ﴿فَوْقَ عَرْشِهِ﴾ [الأنعام: ٢١٨]: يعني: خير من عبادته وأفضل، ومعنى كونه فوق العرش: أنه خير من العرش وأفضل؛ قالوا: ونظير ذلك قول العرب: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم، والذهب فوق الفضة، فهذا يدل على أن المراد بالفوقية: الخيرية.

فأجاب أهل الحق هذا الاعتراض بأجوبة^(١):

الجواب الأول: أن صرف الفوقية إلى فوقية الرتبة، أو إلى فوقية القهر، حُمِلَ لللفظ على مجازة؛ وهذا خلاف الأصل، إذ الأصل: الحقيقة، وحقيقة الفوقية: عُلُوُّ ذَاتِ الشَّيْءِ على غيره، والمجازُ على خلاف الأصل؛ لأنه خلاف الظاهر، فلا يُقبل إلا بدليل يخرجُه عن حقيقته، كما في قوله تعالى حكاية عن فرعون، أنه قال: ﴿وَأَيُّكَ فَوْقَهُدْ فَهَرُوتَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فهذه فوقية قهرٍ وغلبة؛ لأنه قد علم أنهم جميعاً مستقرون على الأرض، ولا يلزم مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَعَهُ الْكَافِرُ

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (١٠٦٢-١٠٦٥).

الجواب الثالث: أن تأويل الفوقية بالخيرية والافضلية، تأويل باطل تنفر منه العقول الصحيحة، وتشتم من القلوب السليمة، إذ ليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح، والرّب - سبحانه - لم يتمدح في كتابه ولا على لسان رسوله بأنه أفضل من العرش، وأن رتبته فوق رتبة العرش، وأنه خير من السماوات والعرش والكروسي، ولو تكلم أحد بمثل هذا الكلام في حق المخلوق؛ لكان مستهجنًا جدًا، فلو قال شخص: الشمس أضوء من السراج، والسماء أكبر من الرغيف، أو أعلى من سقف الدار، والجبل أثقل من الحمصى، ورسول الله أفضل من اليهود؛ لُذِّ ذلك من ساقط القول، بل هو من أزدل الكلام وأسمجه وأهجنه؛ لما فيه من التنقص، كما قيل في المثل السائر:

الدليل الأول: دليل العقل؛ بطريقة السبر والتقسيم، وطريقة السبر والتقسيم عند المناطقة وأهل الأصول؛ هو: أن يحصر المستدلّ الأقسام التي يتصورها العقل، ثم يبيّنها واحداً بعد واحد، ويُبيّن ما قام عليه الدليل. وصياغة الدليل هكذا: أن يقال: إن الله لما خلق الخلق لا يخلو إما أن يكون خَلَقَهُمْ داخل ذاته، أو خَلَقَهُمْ خارج ذاته، أو خَلَقَهُمْ لا

داخلها ولا خارجها؛ هذه هي الأقسام التي يتصورها العقل.

أما الأول: وهو كونه خلقهم داخل ذاته؛ فباطل بالاتفاق بيننا وبين خصومنا؛ لأنه يلزم عليه: أن يكون الرب محلاً للحوادث، والخسائس، والقاذورات، وهذا قول الحلولية، وهو كفرٌ، تعالى الله عن ذلك.

وأما الثالث: وهو كونه خلقهم لا داخل ذاته ولا خارجه، فهو ممتنع عقلاً؛ لأنه يلزم عليه نفيه تعالى وعدم وجوده بالكلية؛ لأنه وُصف له بارتفاع النقيضين، وهو وصف له بالعدم، وهو قول معطلة الجهمية ونفاتهم، وهو كفرٌ أيضاً.

فتعين الثاني؛ وهو: كونه خلقهم خارج ذاته الكريمة، فلزمَت المباشرة، ويلزم حينئذ أن يكون عاليًا على خلقه، مستويًا على عرشه؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون مباينًا لهم من فوقهم، أو من تحتهم، أو أمامهم، أو خلفهم، أو عن إيمانهم، أو عن شمائلهم، وأليقها بالله: صفة العلو؛ لأنها من صفات المدح والكمال.

واعترض نفاة العلو المعطلة على هذا الدليل، فقالوا: نحن ننكر بدايته، لأنه أنكره جمهور العقلاء، فلو كان بديهيًا لما كان مختلفًا فيه بين العقلاء، بل هو قضية وهمية خيالية.

والجواب عن هذا الاعتراض أن يقال: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أعظم قبولًا، وإن رد العقل قولنا، فلقولكم أعظم ردًا، فإن كان قولنا باطلًا في العقل، فقولكم أشد بطلانًا، وإن كان قولكم حقًا مقبولًا في العقل، فقولنا أولى بأن يكون مقبولًا في العقل، فإن دعوى الضرورة مشتركة، فإننا نقول: نعلم بالضرورة بطلان قولكم، وأنتم تقولون كذلك، فإذا قلتم: تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا: هي من حكم الوهم لا

من حكم العقل؛ قابلتكم بنظير قولكم، وعامة فطر الناس -ليسوا منا ولا منكم- موافقون لنا على هذا.

فإن كان حكم فطر بني آدم مقبولًا؛ ترجحنا عليكم، وإن كان مردودًا غير مقبول؛ بطل قولكم بالكلية، فإنكم إنما بينتم قولكم على ما تدعون أنه مقدمات معلومة بالفطرة الأدمية، وبطلت عقليتنا أيضًا، وكان السمع الذي جاءت به الأنبياء معنا لا معكم، فنحن مختصون بالسمع دونكم، والعقل مشترك بيننا وبينكم، والمراد بالسمع: الأدلة الشرعية، أي: الكتاب والسنة. وقولكم: إن أكثر العقلاء يقولون بقولنا، وينكرون بدهاة دليلكم؛ يقال: ليس الأمر كذلك، فإن الذين يصرحون بأن صانع العالم شيء موجود، ليس هو فوق العالم، وأنه لا مباين له ولا حال في العالم، طائفة من النظار، وهم قلة، وأول من عُرف عنه ذلك في الإسلام: الجهم بن صفوان وأتباعه.

الدليل الثاني من الأدلة العقلية لأهل السنة على علو الله على خلقه: يسمى دليل بطريق الملازمة والاستثنائية، وهو أن نقول: لو كان كذا؛ لكان كذا، لكنه لا يكون كذا؛ فيكون كذا، وصياغة الدليل هكذا: لو لم يتصف الرب بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه غير مخالف للعالم؛ لكان متصفًا بضدها؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وضد الفوقية: السفول، وهو مذموم على الإطلاق، وهو مستقر إبليس وجنوده؛ فدل على أنه متصف بالفوقية.

واعترض نفاة العلو على هذا الدليل العقلي، فقالوا: لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها.

وأجيب على هذا الاعتراض بجوابين:

الجواب الأول: لو لم يكن قابلاً للفوقية والعلو لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها، فمتى أقررت بأنه ذات قائم بنفسه، غير مخالط للعالم، وأنه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنياً فقط؛ لزم إثبات علوه وفوقيته.

الجواب الثاني: لو لم يقبل الرب العلو والفوقية، لكان كل عال على غيره أسفل منه، وما يقبل العلو أكمل مما لا يقبله، والعلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه، ولا يستلزم نقضاً، ولا يوجب محذوراً، ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً، فنفى حقيقته؛ عين الباطل.

أدلة السلف والأئمة وأهل السنة على إثبات العلو من الفطرة:

الدليل القطري أن يقال: إن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة، يرفعون أيديهم عند الدعاء إلى السماء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى، وهذا أمر فطر الله عليه عباده، فهم من غير أن يتلقوه من الرسل، يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً لطلبه في العلو، فالجارية الأعجمية التي قال لها النبي: «أَتَيْنَ اللَّهَ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ»^(١)؛ إنما أخبرت عن الفطرة التي فطرها الله عليها، وأقرها النبي على ذلك، وشهد لها بالإيمان.

واعترض نفاة العلو على هذا الدليل باعتراضين:

الاعتراض الأول: قالوا: إن رفع الإنسان يديه عند الدعاء؛ إنما كان لكون السماء قبلة للدعاء، كما أن الكعبة قبلة للصلاة، لا لأن الله في العلو.

(١) سبق تخريجه قبل قليل.

وأجيب عنه بأجوبة^(١):

الجواب الأول: أن ادعاءكم أن السماء قبلة للدعاء، لم يرد بذلك كتاب ولا سنة، ولم يقله أحد من سلف الأمة، وهذا من الأمور الشرعية الدينية، فلا يجوز أن يخفى على سلف الأمة وعلمائها.

ثانياً: أن قبلة الدعاء؛ هي قبلة الصلاة بدليل أن النبي كان يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة^(٢)، فمن ادّعى أن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة؛ فهو مبتدع في الدين، ومخالف لجماعة المسلمين.

ثالثاً: أن القبلة هي ما يستقبلها العابد بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح، أما الموضع الذي ترفع الأيدي إليه فلا يسمى قبلة؛ لا حقيقة ولا مجازاً.

رابعاً: لو كانت السماء قبلة للدعاء، لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها، وهذا لم يشرع.

خامساً: أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل، كما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وأمر التوحيد في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر، لا يقبل التحويل.

سادساً: أن المستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك، بخلاف الداعي فإنه يتوجه إلى ربه وخالفه ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده.

الاعتراض الثاني للنفاة: قالوا: إن دليلكم منقوض بوضع المصلي جبهته على الأرض، مع أن الله ليس في جهة الأرض، فكما أن المصلي

(١) انظر: «بيان تلبس الجهمية - الطبعة القديمة» (٢/٤٣١-٥٠٢).

(٢) انظر على سبيل المثال البخاري (١٠١٢) بأطرافه، ومسلم (٨٩٤).

يضع جبهته على الأرض، والله ليس في جهة الأرض، فكذلك يرفع يديه في الدعاء، والله ليس في العلو.

وأجيب عنه بأن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه، بالذلل له والخشوع، وليس قصده بأن يميل إليه لأنه تحته، فهذا لا يخطر في قلب ساجد، إلا ما حكى عن بشر المريسي -قبحه الله- أنه سَمِعَ وهو يقول في سجوده: سبحان ربي الأسفل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

شبهة نفاة العلو: نفاة العلو لهم شبه عقلية، وليس عندهم أدلة شرعية: الشبهة الأولى: قالوا: إن إثبات العلو يلزم منه أن يكون الله في جهة، وإذا كان في جهة؛ كان محتاجاً إلى تلك الجهة، وكان محدوداً ومتحيزاً، والله منزّه عن الجهة، ومنزّه عن أن يحتاج إلى شيء، ومنزّه عن كونه محدوداً متحيزاً.

وأجاب أهل الحق عن هذه الشبهة بجوابين؛ جواب إجمالي، وجواب تفصيلي:

الجواب الإجمالي: أن يقال: تنزيهكم الله عن الجهة، إن أردتم أنه منزّه عن جهة وجودية تحيط به وتحصره؛ إحاطة الظرف بالمظروف. فنعم؛ هو أعظم من ذلك وأكبر وأعلى، فليس هو داخل المخلوقات، وإن أردتم بالجهة: ما وراء العالم؛ فلا ريب أن الله فوق العالم، مبين للمخلوقات.

الجواب التفصيلي:

أولاً: إن لفظ الجهة يراد به أمرٌ موجود، ويراد به أمرٌ معدوم، فإن أريد بالجهة جهةٌ وجودية، وأن الله داخل السماوات، أو داخل العرش،

فهذا باطل؛ لأن الله لا يدخل في ذاته شيء من مخلوقاته، ولم يدخل في مخلوقاته شيء من ذاته، بل هو مبين للمخلوقات، منفصل عنها، وإن أردتم بالجهة: أمراً عدميةً، أو بكونه في السماء، أي: على السماء، وهو ما فوق العالم، فذاك ليس بشيء، ولا هو أمر وجودي حتى يقال: إنه محتاج إليه، أو غير محتاج إليه.

ثانياً: أن يقال: إنما يكون محتاجاً إلى الجهة لو كان في جهة مخلوقة؛ تحويه وتحصره وتحيط به، أما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم: لم يلزم ذلك، بل لا يلزم من كون المخلوق فوق مخلوق آخر؛ أن يكون محتاجاً إليه، فإن الله خلق هذا العالم بعضه فوق بعض، ولم يجعل عاليه محتاجاً إلى سافله؛ فالهواء فوق الأرض وليس محتاجاً إليها؛ والسحاب فوقها، وليس محتاجاً إليها؛ والسماوات فوق السحاب والهواء والأرض؛ وليست محتاجة إلى ذلك، والعرش فوق السماوات والأرض؛ وليس محتاجاً إليها، فكيف يكون العلي الأعلى خالق كل شيء - سبحانه وتعالى - محتاجاً إلى مخلوقاته، لكونه فوقها، عالياً عليها؟! -

وثالثاً: أن لفظ الجهة، والحيز، والحد، والجسم، والجوهر، والعرض؛ ألفاظٌ اصطلاحية؛ فيها إجمال وإبهام، قد يراد بها: معانٍ متعددة، ولم تُردّ هذه الألفاظ في الكتاب والسنة؛ بنفي ولا إثبات، ولا جاء عن أحد من سلف الأمة وأئمتها فيها، نفي ولا إثبات، فالمعارضة بها ليست معارضةً بدلالة شرعية^(١)، بل الأئمة الكبار أنكروا على المتكلمين،

(١) قال شيخ الإسلام: (التعبير عن حقائق الإيمان ببارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد، والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم، وفيها من الحكم والمعاني =

وجعلوهم من أهل الكلام الباطل المبتدع، ومعروف موقف الإمام الشافعي رحمه الله وحكمه على أهل الكلام؛ من أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب، والسنة وأقبل على الكلام.

وصح عن إمام الأئمة في زمانه محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه قال: من لم يؤمن بأن الله فوق سمواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، وجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وطرح على مزبلة.

الشبهة الثانية لنفاة العلو: هذه الشبهة جاءت على لسان أبي عبدالله الرازي^(١)، يقول أبو عبدالله الرازي: هذا الدليل مكون من مقدمتين

= ما لا تنقضي عجائبه، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع. انظر: «النبوات» (٨٧٦/٢).

وقال: (إن معرفة ما جاء به الرسول وما أراد به ألفاظ القرآن والحديث، هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة، ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب؛ لينظر المعاني الموافقة للرسول، والمعاني المخالفة لها).

والألفاظ نوعان: نوع يوجد في كلام الله ورسوله، ونوع لا يوجد في كلام الله ورسوله، فيعرف المعنى الأول، ويجعل ذلك المعنى هو الأصل، ويعرف ما يعنيه الناس بالثاني، ويرد إلى الأول، هذا طريق أهل الهدى والسنة، وطريق أهل الضلال والبلع والعكس، ويجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل، ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعاً لهم. انظر: «تفسير سورة الإخلاص»، و«مجموع الفتاوى» (٣٥٥ / ١٧)، وانظر: «الفرقان بين الحق والباطل»، و«مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٤٥).

(١) هو فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري الرازي المفسر صاحب تفسير «مفاتيح الغيب»، وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له ابن خطيب الري، رحل إلى خوارزم، وما وراء النهر، =

ونتيجة؛ يقول: لو كان الله تعالى في جهة فوق؛ لكان سماء، ولو كان سماء؛ لكان مخلوقاً لنفسه؛ وذلك محال.

المقدمة الأولى: (لو كان الله تعالى في جهة فوق؛ لكان سماء) أثبت الرازي هذه المقدمة بدليلين أو بأمرين:

الأمر الأول: أن الاشتقاق اللغوي للسماء من السمو، وكل شيء سَمًاكٌ؛ فهو: سماء، فهذا هو الاشتقاق الأصلي اللغوي، وعرف القرآن مقرر عليه^(١).

الثاني: لو كان الله فوق العرش؛ لكان من جلس في العرش ونظر إلى فوق، لم يرَ إلا نهاية ذات الله تعالى، فكانت نسبة نهاية السطح الأخير من ذات الله، إلى سكان العرش؛ كنسبة السطح الأخير من السماوات إلى سكان الأرض، وذلك يقتضي - بالقطع - بأنه لو كان فوق العرش لكان ذاته كالسماء لسكان العرش، فثبت أنه تعالى لو كان مختصاً بجهة فوق لكان ذاته سماء، وإنما قلنا: أنه لو كان سماء لكان ذاته مخلوقاً؛ لقوله

= وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها. وكان يحسن الفارسية.

من أشهر تصانيفه: «مفاتيح الغيب»، ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و«لوامع البينات» في شرح أسماء الله تعالى والصفات، و«معالم أصول الدين»، و«محصول أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين»، و«المطالب العالية» في علم الكلام، و«المحصول في علم الأصول». وله شعر بالعربية والفارسية، وكان واعظاً بارعاً باللغتين... توفي سنة ٦٠٦ هـ، تكلّموا في اعتقاده، انظر «الأعلام» للزركلي - (ج ٦ / ص ٣١٣)، و«طبقات النسابين» للشيخ بكر أبي زيد (٢٢/١).

(١) انظر: «أساس التقيديس» للرازي (ص ٣١ - طبع مؤسسة الكتب الثقافية، الأولى: ١٤١٤هـ).

تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي مَخْلَقَ الْأَرْضَ وَكَانَ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ غَافِقًا﴾ [طه: ٤٤]، وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَأَنْتَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [المرج: ٥٤]، فلو كان سماء لكان مخلوقاً لنفسه، وذلك محال، فوجب أن لا يكون مختصاً بجهة فوق^(١).

أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه الشبهة بقوله^(٢): لما كان قد استقر في نفوس المخاطبين أن الله هو العلي الأعلى، وأنه فوق كل شيء؛ كان مفهومًا من قوله: إنه في السماء، أنه في العلو، وأنه فوق كل شيء، وكذلك الجارية لما قال لها: «أَيْنَ اللَّهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ»^(٣) إنما أرادت العلو مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها، وإذا قيل العلو، فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء، ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظرف وجودي يحيط به؛ إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله، كما لو قيل: العرش في السماء؛ فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شيء آخر؛ موجود؛ مخلوق، وإن قدر أن السماء المراد بها الأفلاك؛ كان المراد: أنه عليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فِي الْمُجْزِ الْأَنْفَلُ﴾ [طه: ٧١]، وكما قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [المرج: ١٣٧]، وكما قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [المرج: ١٣٧]، ويقال: فلان في الجبل وفي السطح، وإن كان على أعلى شيء منه.

ثانيًا: من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به، فهو كاذب إن نقله عن غيره، وضال إن اعتقده في ربه، وما سمعنا أحدًا

يفهمه من اللفظ، ولا رأينا أحدًا نقله عن واحد، ولو سُئل سائر المسلمين: هل يفهمون من قوله - سبحانه - ومن قول رسوله: إن الله في السماء أن السماء تحويه؟ لبادر كل أحد منهم أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا، وإذا كان الأمر هكذا، فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئًا محالًا لا يفهمه الناس منه، ثم يريد أن يتأوله، بل عند المسلمين: أن الله في السماء، وهو على العرش: واحد؛ إذ السماء إنما يراد به العلو، بمعنى: أن الله في العلو، لا في السفلى، وقد علم المسلمون أن كرسية سبحانه وسع السماوات والأرض، وأن الكرسي في العرش، كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن العرش خلق من مخلوقات الله، لا نسبة له إلى قدرة الله وعظمته، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقًا يحصره ويحويه؟!

ثالثًا: ما في الكتاب والسنة كقوله سبحانه: ﴿وَأَيْنَ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [النمل: ٢٦] ونحو ذلك؛ قد يفهم منه بعضهم أن السماء هي نفس المخلوق العالي؛ العرش فما دونه، فيقولون: قوله: «فِي السَّمَاءِ»؛ يعني على السماء، كما قال: ﴿وَأَصْبَحَ فِي الْمُجْزِ الْأَنْفَلُ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوع النخل، وكما قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [المرج: ١٣٧]؛ أي: على وجه الأرض، ولا حاجة إلى هذا، بل السماء اسم جنس للعالي، لا يخص شيئًا، نقوله: في السماء، أي في العلو دون السفلى، وهو العلي الأعلى، فله أعلى العلو، وهو ما فوق العرش، وليس هناك غيره سبحانه وتعالى.



(١) انظر: «أساس التقييد» (ص ٣١-٣٢).

(٢) بيان تلبس الجهمية (١/٥٥٩).

(٣) سبق تخريجه.

الله اتخذ إبراهيم خليلًا، وكلم موسى تكليمًا

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُ: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا إِيْمَانًا وَتَضَرُّعًا وَتَسْلِيمًا):

الشرح

في هذا ثبوت الخلّة لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، والدليل على إثبات صفة الخلّة من الكتاب: قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وليست الخلّة خاصة بإبراهيم كما قد يوهم البعض كلام المؤلف، فالصواب أنها ثابتة لنبيينا ﷺ أيضاً، كما في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(١)، فالخلّة ثابتة لإبراهيم ولمحمد - عليهما الصلاة والسلام -، والخلّة بالنسبة للرب صفة تليق بجلاله وعظمته^(٢)، كسائر صفاته.

كما أن التكليم ثابت لموسى - عليه الصلاة والسلام -، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، فهو أيضاً ليس خاصاً بموسى، بل شارك نبيّنا ﷺ موسى في صفة التكليم؛ فإن الله كلم نبيينا محمداً ليلة المعراج من دون واسطة كما ثبت هذا في الإسراء. ومن الأدلة على ثبوت الخلّة لنبيينا محمد ﷺ حديث: «لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا؛ لَاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلَ اللَّهِ»^(٣)،

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن جنادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. في الباب عن عبدالله بن مسعود عند مسلم (٢٣٨٣).

(٢) انظر: «منهاج السنة» (٣٥١/٥)، و«إزاد المعاد» (٧٠/١)، و«مدارج السالكين» (٣٠/٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث السابق: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(١)، فهذان الحديثان يطلان قول من قال: الخلّة لإبراهيم، والمحبة لمحمد - عليهما الصلاة والسلام -، وثبتان لنبيينا ﷺ أعلى مراتب المحبة؛ وهي الخلّة، بل الخلّة خاصة بالخليلين؛ محمد وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام -.

أما المحبة فهي عامة كحُبّه - تعالى - للمؤمنين، كما في قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وكحبه للمحسنين، كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. والخلّة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب، ومن كمالها: أنها لا تقبل الشركة ولا المزاحمة، وسميت خلّة لتخللها شغاف القلب كما قيل:-

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سُمي خليل خليل
والنسبة بين الخلّة والمحبة: العموم والخصوص؛ فالخلّة أخص من مطلق المحبة، والمحبوب بها لكمالها يكون محبوباً لذاته لا لشيء آخر؛ إذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير، ففيها كمال التوحيد، وكمال الحب، فنبتنا له كمال التوحيد، وكمال الحب، وكذلك إبراهيم.

والمحبة والخلّة بالنسبة للرب - سبحانه وتعالى - كسائر صفات الله الثابتة له كما يليق بجلال الله وعظمته، والجهمية أنكروا حقيقة المحبة، والخلّة من الجانبين؛ من جانب الله ومن جانب العبد، وشبهتهم في ذلك أنهم قالوا: المحبة لا تكون إلا لمشاكلة ومناسبة بين المحب والمحبوب، ولا مناسبة بين القديم والمُتَحَدِّث توجب المحبة؛ فلا مناسبة بين الخالق

(١) سبق تخريجه في الذي قبله.

والمخلوق، وهذا باطل؛ فالرب - سبحانه وتعالى - مربى خلقه بنعمه، والعبد يعبد الله لذاته؛ وهذه مناسبة، فقولهم: لا مناسبة: قولٌ فاسد.

والجهمية يقولون: ليس معنى الخليل المحب، بل معنى الخليل: الفقير المحتاج، ولا شك في فساد هذا التأويل؛ إذ لا يكون حينئذ لتخصيص إبراهيم بالخلة معنى، فإن الفقر والاحتياج؛ وصف لازم لجميع الخلق؛ لزوماً ذاتياً؛ لا يمكن الانفكاك عنه، ولو كان معنى الخلة: الفقر؛ كان كل الناس فقراء إلى الله، وبذلك يكون وصف الخلة متناولاً لجميع الناس، حتى عبدة الأوثان الذين هم ألد أعداء الرحمن؛ فقراء إلى الله!!

وكذلك مما أنكرت الجهمية حقيقة تكليم الله لبعض عباده من وراء حجاب؛ كما ثبت لموسى - عليه الصلاة والسلام -، وكما ثبت لنبينا محمد ليلة الإسراء، وزعموا أن تكليم الله لموسى، إنما هو تكليم خلقه في الشجر أو في الهواء، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .



أصول الإيمان

أصول الإيمان عند أهل السنة

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَتُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَكُتُبِ الْمَسْرُورَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَتَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ الْمُسِيئِ).

الشرح

هذه هي أصول الإيمان، وهي: الإيمان بالله، وبالملائكة، وبالكتب، وبالرسل، والإيمان باليوم الآخر، وبالقدر؛ هذه أصول الدين، وأركان الإيمان، فهي داخلة في حقيقة الإيمان وماهيته، فمن لم يؤمن بهذه الأركان الستة؛ فليس بمؤمن، والأدلة على هذه الأصول من كتاب الله، كثيرة؛ منها: قول الله تعالى: ﴿عَامَرَ رَسُولٌ يَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فسمى الله من آمن بهذه الجملة: مؤمناً، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْآلِمَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَتَيْكُمُ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فجعل الإيمان هو: الإيمان بهذه الجملة، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ فجعل الكافرين: من كفر بهذه الجملة.

ومن السنة: حديث جبرائيل حينما سأل النبي عن الإيمان فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١).

أما الإيمان بالملائكة:

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فنؤمن بهم جملة وتفصيلاً، فنؤمن بمن سَمَى الله في كتابه منهم؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ورضوان، ومالك: خازن النار، ونؤمن إجمالاً بأن الله ملائكة سواهم، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله قال تعالى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ جُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المنثر: ٣١]؛ لأنه لم يأت في عددهم نص، فنؤمن بهم جملة^(١).

وأما الأنبياء والمرسلون:

فنؤمن بهم جملة وتفصيلاً، فنؤمن بمن سَمَى الله في كتابه من رسله، وهم خمسة وعشرون رسولاً، ذُكروا في آية «النساء» في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلَامًا فَاحْصِنَا إِلَى نُوحٍ وَالْحُثُوتِ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ عَلَى قَوْمِهِمْ رَفَعْنَا دَرَجَاتِهِمْ مِنْكُمْ إِنَّ رَبَّكَ كَرِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وَقَالَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى آخر الآيات.

ونؤمن بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم إلا الله. وورد في حديث أبي ذر أن عدد الأنبياء مائة ألف، وعدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر^(٢)، لكن الحديث الوارد بذلك، لا يخلو من مقال،

(١) انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٤٠٥/٢-٤٢٣).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٦١)، والحاكم (٤١٦٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٦٦-١٦٨)، وابن عساکر في «تاريخ دمشق» (٢٧٣/٢٣-٢٧٧)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٧٤٦/٢)، نسبته إلى عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في «نوارد الأصول»، وثم ساقه، ثم قال: «أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، وابن الجوزي في «الموضوعات»، وهما في طرفي نقض، والصواب أنه ضعيف لا صحيح، ولا موضوع، كما بينته في مختصر الموضوعات». اهـ. وحديث أبي ذر تقدم تخريجه قريباً، وفي هذا الباب أيضاً عن أبي أمامة، وأنس بن مالك، بأسانيد ضعيفة. انظر: «تفسير ابن كثير» (٥٨٧/١).

وعلى كل حال؛ فلا بد من أن نؤمن بهم جملة، قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وأما أولو العزم من الرسل، فأحسن الأقوال فيهم: أنهم المذكورون في آية «الأحزاب» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ يُوحِى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ١٧]، وفي قوله سبحانه في سورة «الشورى»: ﴿شَرَعْنَا لَكُمْ مِنْ أَلْيَنَ مَا وَضَعْنَا يَدَ نُوْحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا إِنَّا كَرَّمْنَاكُمْ بِمَنْزِلِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنَّ أَعْيُنَ النَّاسِ لَنَافِرُوهُ فِي ذَٰلِكَ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما الإيمان بمحمد: فلا بد من الإيمان به تفصيلاً؛ زائداً على الإيمان بتلك الرسل؛ من تصديقه، واتباع ما جاء به من الشرائع، إجمالاً وتفصيلاً^(١).

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين:

فنؤمن بها جملة وتفصيلاً؛ فنؤمن تفصيلاً بما سَمَى الله منها في كتابه، من التوراة، والإنجيل، والزيور، والقرآن، وصحف إبراهيم، وصحف موسى، ونؤمن بأن الله تعالى - سوى ذلك - كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله؛ لأنه لم يأت في عددها نص، فنؤمن بها جملة، وأنها حق وهدى ونور وشفاء.

وأما الإيمان بالقرآن؛ فالإقرار به واتباع ما فيه وتحكيمه في كل شيء؛ في المنشط والمكره، واليسر والعسر، مع اعتقاد بأنه أفضل الكتب، وأنه

(١) انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٤٢٤/٢).

ناسخ لها، ومهين عليها، وذلك أمر زائد على غيره من الكتب^(١).

كذلك أيضاً نؤمن باليوم الآخر:

وبما يكون قبل ذلك في البرزخ من سؤال منكر ونكير، ومن نعيم القبر وعذابه، وكذلك نؤمن ببعث الأجساد وإعادة الأرواح إليها، والحشر والنشر، والوقوف بين يدي الله، وتطهير الصحف، ووزن الأعمال، والحوض والصراط، والجنة والنار، كل هذا نؤمن به، ويؤمن به أهل الحق^(٢).

أما أعداء الله من الفلاسفة وغيرهم، فلمهم تفصيلات في هذه الأصول الستة، وحقيقتهم: أنهم لم يؤمنوا بالله ولا بالملائكة ولا بالكتب ولا بالرسول ولا باليوم الآخر ولا بالقدر خيره وشره، وسيأتي الكلام لاحقاً على معتقدتهم في ذلك وتفصيلاته.

وأصول الإيمان هذه جاءت بها الرسل، والكتب المنزل، وأجمع عليها المسلمون، فمن أنكر شيئاً منها فهو خارج عن ملة الإسلام؛ وليس في عداد المسلمين بإجماع المسلمين، أما الفلاسفة المتأخرون؛ أرسطو وأتباعه وابن سينا^(٣)؛ فملاحدة زنادقة، ينتسبون إلى الإسلام وهو منهم

(١) انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٢/٤٢٣).

(٢) للتوسع في مباحث أشراف الساعة راجع: «لوامع الأنوار» للسفاريني (٢/٧٠-١٥١).

(٣) الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي أبو علي الرئيس المشهور بابن سينا، صاحب التصانيف الكثيرة، في الفلسفة والطب، ومن له الذكاء الخارق، والذهن الثاقب، أصله بلخي، ومولده بخاري، وكان أبوه من دعاة الإسماعيلية، فأشغله في الصغر، وحُطِّل عدة علوم قبل أن يحتلم، وتنقل في مدائن خراسان والجبيل وجرجان، ونال حشمة وجاهاً.

= وفي «لسان الميزان» قال: ما أعلمه روى شيئاً من العلم ولو روى لما حلت الرواية عنه لأنه فلسفي النحلة ضال لا عليه السلام انتهى.

واسم جده الحسن بن علي بن سينا، حكى عن نفسه قال: كان أبي من أهل بلخ فسكن بخارى وتولى التصرف فلما أكملت عشر سنين أتيت على القرآن وكثير من الأدب، وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين وكان يعد من الإسماعيلية، فكانوا ربما أجروا ذكر ذلك فلا تقبله نفسي ووجهني إلى من يعلمني الحساب، وترددت في الفقه إلى الشيخ إسماعيل الزاهد ثم قدم أبو عبد الله الثاني الفيلسوف فبدأت عليه بكتاب إيساغوجي حتى قرأت عليه ظواهر المنطق، فأما ديانته فلم يكن عنده منها خبر، ثم أخذت أقرأ على نفسي حتى أحكمت المنطق وإقليدس والمجسطي، ثم سافر الشيخ وأخذت في الطبيعي والإلهي ورغبت في الطب وبرزت فيه في مدينة حتى بدأ الأطباء يقرأون علي وتعاملت العرضى فافتتح علي من أبواب المعالجات النفيسة من التجربة ما لا يوصف وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر فيه، ولازمت العلم سنة ونصفاً ما نمت ليلة واحدة بطولها، وكنت كلما تحيرت في مسألة ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح لي المغلق منه، وكنت أرجع بالليل إلى داري فمهما غلبني النوم عدلت إلى شرب قح من الشراب ريثما تعود إلي قوتي إلى أن قال: سألني جارنا أبو الحسن العروضي أن أصنف له جامعاً في هذا العلم فصنفت له «المجموع» وسميته به وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضي ولي إذ ذاك إحدى وعشرون سنة. وصفت «الحاصل والمحصل» في عشرين مجلدة و«البر والإثم»، ثم مات الوالد وتقلدت شيئاً من الأعمال، وذكر من تصانيفه شيئاً كثيراً منها «لسان العرب» عشر مجلدات، وكتاب «المبدأ والمعاد» وغير ذلك، وهي تنيف على مائة مجلد، ثم ولي الوزارة مرتين لشمس الدولة بهمدان، ثم حبس في ولاية ابنه تاج الملك بالقلمنة، ثم قصد علاء الدولة همدان وأخذها، ثم أطلق ابن سينا، ورحل إلى علاء الدولة قبائع في إكرامه، قال تلميذه أبو عبيد الجوزجاني: وكان سبب تصنيفه كتاب «لسان العرب» أنه كان في حضرة الأمير وقد امتلا المجلس من أكابر العلماء فتكلم الشيخ فناظرهم وقطعهم إلى أن جاءت مسألة في اللغة فتكلم فيها فقال له الشيخ أبو منصور اللغوي: أنت حكيم ولو قرأت في اللغة ما نرضى من كلامك فيها =

فوجم وعكف بعد هذا على كتب اللغة مدة إلى أن صنف ثلاث رسائل وضمنها من الألفاظ الحوشية ما لا عهد به وعقها وأرسلها مع رسول من الأمير إلى الشيخ أبي منصور بأنه وجدها في الفلاة ملقاة لما كان في الصيد فتظر فيها فوقف عليه بها أشياء وذلك بحضرة الشيخ فكان كلما وقف في كلمة قال له: هي مذكرة في الباب الفلاني من الكتاب الفلاني فلما فطن لذلك اعتذر إليه انتهى.

وذكره تاج الدين محمد بن عبدالكريم الشهرستاني في كتاب «الملل والنحل» لما سرد أسامي فلاسفة الإسلام فقال: وعلامة القوم أبو علي بن سينا كان طريقته أدق ونظرة في الحقائق أغوص وكل الصيد في جوف الفرا.

[سبب تكفير العلماء لابن سينا]

وقال ابن أبي الدم الحموي الفقيه الشافعي شارح الوسيط في كتابه «الملل والنحل»: لم يبق أحد من هؤلاء يعني فلاسفة الإسلام مقام أبي نصر الفارابي، وأبي علي بن سينا، وكان أبو علي أقوم الرجلين وأعلمهم.

إلى أن قال: وقد اتفق العلماء على أن ابن سينا كان يقول بقدوم العالم، ونفي المعاد الجسماني، ولا ينكر المعاد النفساني.

ونقل عنه أنه قال: إن الله لا يعلم الجزئيات بعلم جزئي، بل يعلم كلي فقطع علماء زمانه ومن بعدهم من الأئمة ممن يعتبر قولهم أصولاً وفروعاً بكفره، ويكفر أبي نصر الفارابي من أجل اعتقاد هذه المسائل، وأنها خلاف اعتقاد المسلمين.

وقد أطلق الغزالي وغيره القول بتكفير ابن سينا وقال ابن سينا في الكلام على بعض الأدوية وهو كما قال صاحب شريعتنا صلى الله عليه وسلم.

[توبة ابن سينا قبل وفاته وكيف توفي]

قال أبو عبيد الجوزجاني في آخر الجزء الذي جمعه في أخبار ابن سينا: وكان يعتمد على قوة مزاجه، حتى صار أمره إلى أن أخذه القولنج، حتى حفر نفسه في يوم ثمان مرات، فظهر به سحج ثم صرع، فنقل إلى أصبهان واشتد ضعفه، ثم اغتسل وتاب وتصدق ورد كثيراً من المظالم، ولزم التلاوة، ومات بهمدان في يوم الجمعة في رمضان سنة (٤٢٨) هـ، وله (٥٨) سنة ومن شعره:

نعود بك اللهم من شر فتنة تطرق من حلت به عيشه ضنكا
رجعنا إليك الآن فاقبل رجوعنا وقلب قلوبنا طال إعراضها عنك
فإن أنت لم تبرئ خليل نفوسنا وتبني عمایاها إذا فلنمن يشكها
انظر: «اللسان الميزان» (٣٢٦/١)، و«العبر في خبر من غير» (١٩٦/١).

براء، وتأثر بهم كثير من أهل الكلام، من المبتدعة وغيرهم، حتى إن ابن سينا يقدسه ويعظمه كثير من الناس، ويسمونه الفيلسوف الإسلامي، وهو كما قال - كما نقل عنه شيخ الإسلام ^(٢١) رحمه في غزل الأحوال أنه قال:

أنا وأبي من دعوة الحاكم العبيدي. والحاكم العبيدي رافضي خبيث، لا يؤمن بالله ولا ملائكته ولا كتبه، ولا رسله، ولا اليوم الآخر، ولا القدر.

والفلاسفة لم يجرؤوا على إنكار أصول الدين والإيمان صراحة؛ لأنهم لو أنكروا أصول الإيمان؛ لعرف الناس كفرهم ولوضح ذلك للناس، لكنهم سلكوا سبيل التلبيس؛ لأنهم منافقون زنادقة يستترون بالإسلام، فهم يثبتون هذه الأصول باللفظ فقط، لكنهم في الحقيقة لا يثبتونها؛ فهم لم يؤمنوا في الحقيقة بالله ولا ملائكته، ولا كتبه، ولا رسله، ولا باليوم الآخر.

أما إيمانهم بالله؛ وهو أصل الدين، فمذهبيهم: أن الله - سبحانه - موجود وجوداً مطلقاً؛ يعني: أنه موجود في الذهن؛ لا ماهية له، ولا حقيقة؛ فلا يُعَلِّمُ جزئيات بأعيانها؛ إذ لو عَلِّمَ جزئيات، لَلَجَعُ الكُلُّ والتعَبُ من تصوّر تلك المعلومات؛ وكان كاملاً بنفسه، لا بغيره، بل يعلم الكليات؛ والكليات أمر ذهني، ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيتته، وليس له عندهم صفة البتة؛ فلا يثبتون له السمع ولا البصر ولا العلم ولا القدرة، وليس العالم مخلوقاً لله بمشيئته وقدرته، بل العالم عندهم لازم لله أزلاً وأبداً، لا يستطيع انفكاكاً عنه؛ صَدَرَ عنه صدوراً ضرورياً، بل هو مقارنٌ لله، ليس متقدماً عليه، والله هو العلة المحرك لهذا العالم، وهو أول هذا

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨٦/٣٥)، و«الفتاوى الكبرى» (٥٦/١) (٤٥٩/٣)، و«فرد المعارض» (١٥٧/١).

(٢) انظر: «الرد على المنطقيين» (١٤٤/١).

العالم، والعالم ملازم لله أزلاً وأبداً؛ فهو لازم له كلزوم النور للسراج. هذا مذهبهم في الإيمان بالله^(١). هذا رب الفلاسفة؛ رب معدوم لا وجود له على التحقيق؛ لأن الموجود لا بد أن يتصف بصفة، ولا بد أن يكون له اسم، وهؤلاء يسلبون عنه جميع الأسماء والصفات؛ فتبين بهذا: أنه لا وجود له إلا في الذهن، وفي اللفظ.

وأما الملائكة، فإنهم لا يشبهونها على أنهم أشخاص محسوسة؛ تنزل، وتذهب، وترى، وتجيء، وتخاطب الرسول، وتُصَفُّ عند ربها، وتكتب أعمال العباد، ولها وظائف؛ كما جاء في الكتاب والسنة، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان، بل يقولون: إنها هي العقول، وهي مجردات ليست داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، وإذا تقرب بعضهم إلى أهل الإسلام قالوا: الملائكة هي القوى الخيرة الفاضلة التي في العبد، والشياطين هي القوى الشريرة الرديئة، هذا إذا تقربوا إلى أهل الإسلام، وإلا فإنهم يقررون أن الملائكة عبارة عن أشكال نورانية، يتصورها النبي، وإذا تقربوا إلى أهل الإسلام قالوا: هي أمور عقلية، فالأمور العقلية تبعث على الخير وعلى الإحسان وعلى الشجاعة وعلى الإيثار، والشياطين هي القوى الشريرة الرديئة، التي تبعث على الإيذاء، وعلى الظلم، وعلى الطغيان، وعلى العدوان^(٢).

وأما الإيمان بالكتب فإنهم لا يشبهون الكلام لله ﷻ، ولا يشبهون أن الله تكلم بكلام أنزله على أنبيائه ورسله، ولا يصفون الله بالكلام؛ فلا يكلم

(١) انظر: «الملل والنحل» (١٨١/٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤٦/٤)، و«الإشارات والتنبيهات» لابن سينا (٧/٣).

ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر، زائل، طاهر متميز عن النوع الإنساني بخصائص؛ وهذا هو الرسول عندهم.

ولا يؤمنون بأن الله تعالى اصطفى أنبياءه ورسله، بل يقولون: إن الرسالة ليست هبة من الله وليست منحة، بل هي صنعة من الصناعات، وكسب يكسبه الإنسان، وسياسة من السياسات، ولها ثلاث خصائص من توافرت فيه فهو نبي، فالنبي رجل عبقري متميز عن غيره بهذه الخصائص:

الخصيصة الأولى: قوة الإدراك وسرعته؛ لينال من العلم أعظم مما يناله غيره.

الخصيصة الثانية: قوة النفس أو قوة التأثير، ليؤثر بها في سيول العلم بقلب صورة إلى صورة، فهو يشبه الساحر بحيث يقلب ما ارتسم في ذهنك من صورة إلى صورة وأنت لا .

الخصيصة الثالثة: قوة التخيل، حتى يتخيل الملائكة - الذين هم العقول - في صورة شيء محسوس أمامه، كأن أمامه رجل يخاطبه، فيتخيل أن الملائكة أشخاص، وقد يقوى الوهم فيسمع أصواتاً تخاطبه.

فإذا وجدت هذه الخصائص، فهو نبي^(١)

وقالوا: إن النبوة لكل أحد يستطيع أن يدركها بالمراس والكسب والخبرة، وقالوا: إن النبوة ليست بالدرجة العالية، بل هناك ما هو أعلى منها؛ لأن النبوة سياسة العامة، والفلسفة أعلى منها؛ لأنها سياسة الخاصة، ولهذا فإن بعض الفلاسفة لا يرضون بالنبوة، ويقولون: هي مرتبة

(١) انظر: «النبوات» (١٩٦/١)، (٨٣٧-٨٣٩).

أذون من الفلسفة، ولهذا طلب النبوة من تصوف على مذهب ابن هود وابن سبعين وغيرهما، هذا هو إيمانهم بالرسول.

وأما الإيمان باليوم الآخر، فهم من أشد الناس تكذيباً وإنكاراً له في الأعيان وفي الخارج، فعندهم أن هذا العالم لا يخرب، ولا تنشق السماوات، ولا تنفطر، ولا تنكدر النجوم، ولا تكور الشمس والقمر، ولا يقوم الناس من قبورهم، ولا يبعثون إلى جنة أو نار، فكل هذا عندهم لا حقيقة له، بل هي أمثال مضروبة لتفهيم العوام، لا حقيقة لها في الخارج^(١)؛ كما يفهم منها أتباع الرسل، بل هذه من تخیلات هذا العقري وسياسته، فيسوس الناس ويخبرهم أن هناك بعثاً وجزاء، وجنة وناراً؛ حتى يتعاش الناس بسلام، وحتى لا يعتدي أحد على أحد، فهو يكذب، لكن يكذب لهم لا عليهم، قالوا: ولا بأس في ذلك.

هذا مذهب الفلاسفة في أصول الإيمان، وبهذا يتبين أنهم ملاحدة زنادقة، ينتسبون إلى الإسلام نفاقاً، فهم في الدرك الأسفل من النار إذا ماتوا على ذلك، نسأل الله السلامة والعافية.



(١) انظر: «دواء التعارض» (١/٨-١١).

أهل القبلة مسلمون مؤمنون

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وُسَمِيَ أَهْلُ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مُعْتَرِفِينَ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَهُ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ):

الشرح

نؤمن بأن أهل القبلة من أهل الإسلام، ولا نخرجهم منه، وأهل القبلة هم كل من يدعي الإسلام، ويستقبل القبلة في الصلاة وفي الذبح وفي الدعاء وإن كان من أهل البدع أو من أهل المعاصي؛ ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول؛ فنسميهم مسلمين، ونسميهم مؤمنين، إلا من فعل ناقضاً من نواقض الإسلام فارتد، كمن أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة، أو سب الله أو سب الرسول، أو استهزأ بالله - كما سيأتي -، أما إذا لم يفعل شيئاً من ذلك؛ فنسميه مسلماً مؤمناً ولا نكفره، والدليل على هذا قول النبي: «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَيْحَتَنَا؛ فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ...»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٩١) من حديث أنس رضي الله عنه.

الكف عن كلام المتكلمين الباطل ودم علمهم

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَا نَحْضُ فِي اللَّهِ، وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ).

الشرح

أي: لا نخوض في ذات الله، أو في كيفية ذاته؛ لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا هو، قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، فلا نخوض في كنه الصفات؛ فنقول: ما كيفية الاستواء؟ ما كيفية العلو؟ ما كيفية العلم؟ ما كيفية السمع؟ ما كيفية البصر؟ ما كيفية المحبة؟ وهكذا، ولهذا لما قيل للإمام مالك في الاستواء، قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهذه قاعدة عامة، تقال في جميع الصفات.

كذلك لا نجادل ولا نخاصم، ولا نورد الشبه في دين الله وشرعه، ولا نعترض على الله في تشريعه ولا في أوامره ولا في نواهيه، بل نسلم الأمر لله، فنحن عبيد مأمورون، نعلم أن الله حكيم، وأنه ما شرع ذلك إلا لما فيه من الحكمة والمصلحة والرحمة للعباد.

النهي عن الجدل في القرآن

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ).

الشرح

هذا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: يحتمل أنه أراد: أننا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ: إن القرآن مخلوق، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول: إن القرآن كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين محمد.

المعنى الثاني: يحتمل أنه أراد: أننا لا نجادل في القراءة الثابتة، بل نقروه بكل ما ثبت وصح. وكل من المعنيين المذكورين حق، ويشهد لصحة المعنى الثاني حديث عبد الله بن مسعود رحمه الله أنه قال: «سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقْرَأُ بِخِلَافِهَا، فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهَةَ، وَقَالَ: كَلَّا كُنَّا مُخْبِرِينَ، فَلَا تَخْتَلِفُوا؛ فَإِنْ مَنَ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلْ كُنُوا»^(١).

وللفائدة نقول: هناك فرق بين ترتيب سور القرآن وترتيب آياته؛ فترتيب سور القرآن لم يكن واجباً منصوحاً عليه؛ على الصحيح، بل كان بالاجتهاد من الصحابة، ولهذا: كان ترتيب مصحف ابن مسعود رحمه الله، على غير ترتيب المصحف العثماني، وأما ترتيب الآيات، فهو ترتيب منصوح عليه؛ فليس لأحد أن يقدم آية على آية، وجمع عثمان رحمه الله الناس

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٦) من حديث عبد الله بن مسعود رحمه الله.

على حرف واحد اجتماعًا سائغًا جائزًا، وقيل واجبًا.

واختلف العلماء في الأحرف السبعة ما هي؟ فقال جمهور السلف من العلماء والقراء: إن قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة رخصة من الله، وقد جعل الاختيار إليه في أي حرف اختاره، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفرق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد؛ جمعهم الصحابة وعثمان على حرف واحد اجتماعًا سائغًا لا واجبًا، فهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة، ولم يكن في جمعهم له ترك لواجب ولا فعل لمحذور.

والقول الثاني: أن الترخيص في الأحرف السبعة صار منسوخًا؛ إذ أن الترخيص كان في أول الإسلام لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولًا، فلما تذلت الستهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرًا عليهم، وهو أوفق لهم وأرفق بهم؛ أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة -عرضة جبريل القرآن-، وترك ما سواه، فكان اجتماعهم واجبًا.

وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف مشتمل على الأحرف السبعة، وذهب الجمهور على أن المصحف مشتمل على حرف واحد، وأما ما روي عن ابن مسعود أنه يجوز القراءة بالمعنى فغير صحيح؛ لأنه إنما قال: قد نظرت إلى القرآن، فأريت قراءتهم متقاربة، وإنما هو كقول أحدكم: هلم وأقبل وتعال واقرا^(١).

(١) انظر: «فتح الباري» (٢٧/١٩) وما بعدها. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمته الله-: «ولا يوزع بين المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تنضم تنافض المتنى وتضاد؛ بل قد يكون متغايرًا متفقًا أو متقاربًا كذا كان =

القرآن كلام الله

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَتَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، فَعَلَّمَهُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-):

الشرح

سبق أن القرآن كلام الله، وأن الله تكلم به، وسمعه جبرائيل وألقاه إلى محمد، كما قال - تعالى -: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٣﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، والروح الأمين هو جبريل -عليه السلام-.

= عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه-: (إِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحَدِكُمْ أَقْبَلُ وَغَدُمُ وَتَعَالَى). وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَى أَحَدِكُمْ لَا يَسُ مَعْنَى الْآخَرِ، لَكِنْ كَلَامُ الْمَعْنَيْنِ حَقٌّ وَغَدَا اختلاف تَنَوُّعٍ وَتَعَابُرٍ لَا اخْتِلَافٍ تَضَادٍّ وَتَنَافُضٍ، وَغَدَا كَمَا نَجَاءُ فِي الْخَبِيثِ الْمُرْتَوِعِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَافٍ»، إِنْ قُلْتَ: غَفُورًا رَحِيمًا أَوْ قُلْتَ: عَزِيزًا حَكِيمًا؛ فَإِنَّكَ كَذَلِكَ مَا لَمْ تُخَيِّمْ آيَةَ رَحْمَتِهِ بِآيَةِ عَذَابٍ أَوْ آيَةَ عَذَابٍ بِآيَةِ رَحْمَتِهِ. اهـ، من كلامه من «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٨٩).

القرآن كلام الله لا يساويه شيء من البشر

♦ قال المؤلف رحمته: (وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ):

الشرح

هذا هو الحق، وهو معتقد الصحابة والتابعين وأهل السنة؛ أن القرآن كلام الله، وأنه لا يساويه شيء من كلام البشر، وقد روي في الحديث: «فَضَّلَ كَلَامُ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ»^(١).

ولا نقول: إنه مخلوق؛ لَفُظِهِ ومعناه؛ كما تقوله المعتزلة. والأشاعر يقولون: الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وأما الحروف والألفاظ فهي مخلوقة، والعلماء يقولون: من قال: القرآن مخلوق؛ فهو كافر؛ على العموم، أما الشخص المعين إذا قال: القرآن مخلوق؛ فلا نكفره حتى تقوم عليه الحجة؛ لأنه قد يكون له شبهة، فإذا كُشِفَتْ

(١) الترمذي: فضائل القرآن (٢٩٢٦)، والدارمي (٣٣٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ورواه عبدالله بن أحمد في «السنن» (١٤٩/١، ١٥٠)، ومحمد بن نصر في «قيام الليل» (ص ١٢٢)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص ١٠١)، وفي «الأسماء والصفات» (٥٠٧، ٥٠٨)، وضمّنه الشيخ الحاشدي في تعليقه على «الأسماء والصفات» للبيهقي (٥٨١/١)، وقد روي من حديث عثمان، وأبي هريرة، ولا يصح عنهما. انظر: تعليق الشيخ الحاشدي على «الأسماء والصفات» للبيهقي (٥٧٨/١ - ٥٨٠)، و(٥٨٣/١).

الشبهة، وأصرّ بعد البيان، فإنه يكفر، هكذا قال أهل العلم، كالإمام أحمد وغيره^(١).

(١) قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٥٠٧/٧ - ٥٠٨): (أحمد لم يكفر أعيان الجهمية ولا كل من قال: إنه جهمي كفره ولا كل من وافق الجهمية في بعض بدعهم بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم وامتنحوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالمعقوبات الغليظة، لم يكفرهم أحمد وأمثاله، بل كان يعتق إيمانهم وإمامتهم ويدعو لهم، ويرى الانتماء بهم في الصلوات خلفهم، والحج والغزو معهم، والمنع من الخروج عليهم ما يراه لأمثالهم من الأئمة، وينكر ما أحدثوا من القول الباطل الذي هو كفر عظيم، وإن لم يعلموا هم أنه كفر، وكان ينكره ويجادلهم على رده بحسب الإمكان، فيجمع بين طاعة الله ورسوله في إظهار السنة والدين، وإنكار بدع الجهمية الملحدين، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأمة، وإن كانوا جهالاً مبتدعين، وظلمة فاسقين).

مخالفة من قال بخلق القرآن جماعة المسلمين

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ، وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ):

الشرح

من قال: إن القرآن مخلوق، فقد خالف جماعة المسلمين، والجماعة هم: الصحابة، والتابعون، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لا يجوز تكفير المسلم بذهب ما لم يستحلله

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَا نُكْفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ):

الشرح

هذا معتقد أهل السنة والجماعة؛ أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة، ما لم يفعلوا شيئاً من نواقض الإسلام، ولو زنا، أو سرق، أو عقى والديه، أو قطع الرحم؛ نقول: هذا عاص مرتكب لكبيرة، ناقض الإيمان، ضعيفه، إلا إذا استحل شيئاً من ذلك؛ فإنه يكفر؛ لأنه مكذب لله في تحريم الزنا، وفي تحريم عقوق الوالدين، وهكذا.

ولا بد أن يكون ما استحلله أمراً قطعياً ليس فيه خلاف بين أهل العلم؛ إما واجباً أنكره، أو حراماً استحلّه، كمن أنكر وجوب الصلاة، أو وجوب الزكاة، أو وجوب الحج، أو استحل الزنا، أو شرب الخمر، أو الربا، أو عقوق الوالدين؛ فمن فعل شيئاً من ذلك مستحلاً له: كفر، أما إذا فعله مقراً بوجوبه أو تحريمه -إذا كان محرمًا-، فهو عاص ضعيف الإيمان، مرتكب لكبيرة، هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة.

والناس لهم في هذه المسألة أربعة مذاهب:

المذهب الأول: مذهب أهل السنة والجماعة؛ وهو الذي سبق.

المذهب الثاني: مذهب المرجئة الغلاة، وهم ينفون التكفير نفياً عاماً، فيعممون النفي والسلب، فيقولون: لا نكفر من أهل القبلة أحداً، بل الزاني

والسارق وشارب الخمر؛ إيمانه كامل، ويدخل الجنة من أول وهلة^(١).

المذهب الثالث: مذهب الخوارج؛ وهو عكس مذهب المرجئة؛ يقولون: يكفر المسلم بكل ذنب كبير، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب - بزعمهم -، وإن كانت متواترة، ويكفرون من خالفهم، ويستحلون منه ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي، فيقولون: الزاني كافر، وشارب الخمر كافر، والمرايبي كافر، والعاق لوالديه كافر، ومن تكلم بكلمة الكفر أو فعل كبيرة من الكبائر: كفر^(٢).

المذهب الرابع: مذهب طوائف من أهل الكلام والفقه، يقولون: نترك بين العمل وبين القول والابتداء، فيقولون: إن مرتكب الكبيرة لا يكفر، كما يقول أهل السنة، فيوافقونهم على هذا القول، لكن المبتدع الذي ابتدع وتكلم بكلام كفرى فإنما تكفره.

ودليلهم: يقولون: إن البدع مظنة الردة، فتعطى حكمها، وهم يفرقون بين الأعمال وبين الاعتقادات البدعية، فلا يكفرون الذين يعملون الكبائر، ويكفرون أصحاب الاعتقادات البدعية، وإن كان صاحبها متأولاً، وحملوا النصص على هذا.

(١) قال شيخ الإسلام في «الفتاوى» (١٩٦/١٦): (و القول بأن أحداً لا يدخلها من أهل التوحيد ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه لكن حكى عن مقاتل بن سليمان).

وقال في «منهاج السنة» (٢٨٦/٥): (وقد حكى عن بعض غلاة المرجئة أن أحداً من أهل التوحيد لا يدخل النار ولكن هذا لا أعرف به فأنزل معنى فأحكيه عنه، ومن الناس من يحكيه عن مقاتل بن سليمان والظاهر: أنه غلط عليه).

(٢) انظر: «مقالات الإسلاميين» (١٧٠/١)، و«مجموع الفتاوى» (٢٩٧/٣)، (٧/ ٤٨٣، ٤٨٤-٤٨٥)، و«الاستقامة» (٤٣١/١).

أما أهل السنة والجماعة: فقد خالفوا هذه الطوائف كلها، قالوا: من ارتكب الكبيرة - سواء كانت الكبيرة عملية، أو بدعية أو قولية - فهذا لا يكفر إلا إذا استحلها، ولكن نصفه بأنه ضعيف الإيمان، وناقص الإيمان، فلا يسلبون عنه اسم الإيمان مطلقاً، ولا يعطونه اسم الإيمان مطلقاً، فهو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أما الأدلة والمناقشات والردود، فسيأتي الكلام عليها فيما بعد - إن شاء الله -.

حكم أهل الكبائر والفساق والعصاة وأهل البدع من أهل القبلة ومذاهب الناس فيهم:

قلنا: إن للناس في هذا مذاهب وقد سبق استعراض هذه المذاهب.

ونعود إلى المذهب الأول: مذهب المرجئة التي تنفي التكفير نفيًا عامًا، فتعمم النفي والسلب، فمن شبههم وأدلتهم عمومًا نصوص الوعد؛ مثل قول النبي: «ما مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ قَلِيلًا: وَإِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَا وَإِنْ سَرَقَ»^(١)، ومثل حديث: «أَمُرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ غَضَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَجَسَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ»^(٢).

ومثل حديث البطاقة، وفيه: «يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيُخْرَجُ لَهُ بَطَاقَةٌ وَتُسْعَوْنَ بِحِجْلًا، كُلُّ بِيحْلٍ مَدُّ الْبَصَرِ سِتًّا، ثُمَّ يُخْرَجُ لَهُ بَطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَيُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كَفِّهِ وَالبَطَاقَةُ فِي كَفِّهِ،

(١) أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وفي الصحيحين أيضًا بنحو حديث ابن عمر، عن أنس، وأبي هريرة، وجابر بن عبد الله.

فَقَاتَسَتْ السَّجَّلَاتُ وَتَقَلَّبَتِ السَّطَافَةُ^(١)، ومنها أحاديث الشفاعة كحديث: «أَخْرَجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»^(٢)، وحديث أبي هريرة: «أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ: مِنْ أَسْعَدُ النَّاسِ يَشْفَاعُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟... قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد في «المسند» (٢١٣/٢)، واللالكائي في «السنه» (٢٢٠٤)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٢٥)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٥)، والحاكم في «المستدرک» (٩)، و (١٩٣٧) -صحيحه-: جميعاً من طريق الليث بن سعد، عن عامر بن يحيى المعافري، عن أبي عبد الرحمن الحلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال الحاكم: المستدرک على الصحيحين للحاكم (٤٦/١) -بتحقيق: مصطفى عبدالقادر: «هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم فقد احتج بأبي عبد الرحمن الحلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعامر بن يحيى مصري ثقة، والليث بن سعد؛ إمام، ويونس المؤدب؛ ثقة، متفق على إخرجه في الصحيحين». وقال الطبراني: «لا يروى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد، نفرد به: عامر بن يحيى».

قال ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود (٧٠/١٣) -دار الكتب العلمية، ط ثانية: قال حمزة الكشاني: لا أعلم روى هذا الحديث غير الليث بن سعد، وهو من أحسن الحديث. اهـ. كذا قالوا!!! مع أنه روي نحوه مختصراً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رواه عنه عبد الله بن يزيد، وهو أبو عبد الرحمن الحلي، وعنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وأخرجه من هذا الوجه: عبّ بن حميد في «المنتخب من المسند» (٣٣٩)، والخطيب في «الموضح» (٢٠٣/٢ - ٢٠٤)، والأجري في «الشرعية» (٩٠٢) -بتحقيق: الدميحي).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه نحوه. وقد تقدم تخريجه.

ﷺ: أسعد الناس بشفّاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نقيبه»^(١).

ويناقش المرجئة في قولهم: لا تكفر أحداً من أهل القبلة بذنوب، فنقول: قولكم هذا يُرد عليه بأمرين:

الأمر الأول: أن في أهل القبلة منافقين يتظاهرون بالشهادتين، ويتجهون إلى القبلة في الصلاة والذبح، ويتظاهرون ببعض ما يمكنهم إظهاره من شعائر الإسلام، وفيهم من هو أكثر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ فِي الذُّلُوكِ الْأَشْمَلِ مِنَ الْكُفْرِ﴾ [التيس: ١٤٥]، فقولكم: لا تكفر من أهل القبلة أحداً بذنوب؛ يلزمكم أن لا تكفروا المنافقين، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، وهم من أهل القبلة.

ثانياً: أنه لا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة، أو المحرمات الظاهرة المتواترة، ونحو ذلك؛ فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافراً؛ لأنه أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة.

ويُردُّ أيضاً عليهم بنصوص الوعيد، فإن نصوص الوعد تدل على بقاء الإيمان معهم، ونصوص الوعيد تدل على أن الإيمان يضعف وينقص، فقولكم: لا يتأثر إيمانه وأنه هو كامل الإيمان، باطل تردّه نصوص الوعيد.

أما المذهب الثاني: مذهب الخوارج والمعتزلة الذين يطلقون التكفير، فيكفرون بالذنوب، فإنهم يقولون: يكفر المسلم بكل ذنب، أو بكل ذنب

كبير، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب، وإن كانت متواترة، ويكفرون من خالفهم، ويستحلون منه ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي، كما قال النبي: «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأُوثَانِ»^(١) ولهذا كفروا عثمان وعليًا وشيعتهم، وكفروا أهل صفين - من الطائفتين -، في نحو ذلك من المقالات الخبيثة لهم، ومستندهم وشبهتهم في هذا التكفير نصوص الوعيد، مثل حديث: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٢).

ويرد عليهم أولًا: بنصوص الوعد التي استدلت بها المرجئة؛ فإنها تدل على بقاء الإيمان، كما أنه يُرَدُّ على المرجئة القائلين بأنه: مؤمن كامل الإيمان، بنصوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج؛ وهي تدل على أن الإيمان يضعف وينقص، وكذلك نقول: إن الله أمر بقطع يد السارق دون قتله، ولو كان كافرًا مرتدًا؛ لوجب قتله، ولا يقام عليه الحد؛ لأن النبي قال: «مَنْ بَدَّلَ يَدَهُ فَقَاتِلُوهُ»^(٣) وقال: «لَا يَجْلُ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِخْدَى ثَلَاثٍ: كُفْرٍ بَعْدَ إِسْلَامٍ، وَزَنًا بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ بغير نَفْسٍ»^(٤)، وأمر الله بجلد الزانين وجلد القاذف، وكان النبي يجلد شارب الخمر ولم

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٥٨)، والنسائي (٤٠١٩) و (٤٠٥٧)، وأبو داود (٤٥٠٢) واللفظ له، وابن ماجه (٢٥٣٣)، وأحمد (٦١/١) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، والفاظهم متقاربة. وأخرج نحوه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفي الباب عن غيرهما، وانظر: «نصب الرأية» (٣/٣١٧-٣١٨).

يقتله، فلو كان من ارتكب الكبيرة كافرًا؛ لوجب قتله، ولا تقام عليه الحدود.

ويُرَدُّ عليهم أيضًا بالإجماع على تورث الزاني والسارق وشارب الخمر، إذا صلوا إلى القبلة، وانتحلوا دعوة الإسلام؛ من قرايباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الأحوال، فلو كان الزاني والسارق وشارب الخمر كافرًا؛ لما ورث من أقاربهم المستقيمين، فكونهم يرثون، يدل على أنهم ليسوا كافرًا.

ويُرَدُّ عليهم أيضًا: أنه ثبت أن النبي نهى عن لعن رجل يشرب الخمر، وكان اسمه حمارًا، وكان النبي يضحك منه، وكان كلما أتى به إليه: جلده، فأُتِيَ به إليه مرة فامر به فجلد، فلعنه رجل، فقال النبي: «لَا تُلْعَنُ قَائِدُ يَجِبُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»^(١) فنهى عن لعنه بعينه، وشهد له بحب الله ورسوله، مع أنه قد لعن شارب الخمر عمومًا بقوله: «لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَائِرَهَا»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولفظه: «أن رجلا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارًا وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتِيَ به يومًا فامر به فجلد فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه! فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله».

(٢) أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنه. قال الحافظ في «التلخيص الحبير» (١٩٣/٥): «رواه أبو داود، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله العافقي، وصححه ابن السكن، ورواه ابن ماجه وزاد: (وأكمل ثمنها). وفي الباب عن أنس بن مالك به وزاد: (وعاصرها، والمشتري لها، والمشتري له). رواه الترمذي وابن ماجه ورواه ثقات. اهـ. وانظر: «البلد المنير» (٨/٦٩٧-٧٠١). فقد ذكر له رواة آخرين من الصحابة، بمعنى حديث السابق. والله أعلم.

ويرد عليهم أيضًا: بأن الله - تعالى - قال: ﴿وَلَا يَلْبِسْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعَثَ إِلَيْكُمَا غَافِلًا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِخْوَةِ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، فقد وصفهم الله بالإيمان والإخوة، وأمر بالإصلاح بينهم؛ مع أنهم يقتتلون؛ والقتال من الكبار؛ فدل على أن الكبيرة لا تخرجه من الإسلام.

المذهب الثالث: الذي يفرق أصحابه بين البدعة في الأقوال والاعتقادات وبين الأعمال التي هي من كبائر الذنوب، فيفرقون بينهما ويقولون: إذا ارتكب بدعة، أو قال قولاً مبتدعاً، فإنه يكفر، أما إذا فعل كبيرة من كبائر الذنوب فإنه لا يكفر، وهذا يُنسب إلى طوائف من أهل الكلام والفقه والحديث، كما مضى.

فهم لا يكفرون الذين يعملون الكبائر، ويكفرون أصحاب الاعتقادات البدعية، وإن كان صاحبها متأولاً، فيقولون: من قال هذا القول: يكفر، ولا يفرقون بين مجتهد مخطئ وغيره، أو يقولون: كل مبتدع يكفر، وشبهتهم؛ قالوا: إن البدعة مطلتها النفاق والردة؛ وهي أصل البدع.

ويرد عليهم:

أولاً: أن البدع الاعتقادية من جنس الأعمال، لا فرق بينهما، فإن الرجل يكون مؤمناً باطناً وظاهراً، لكن تأويله أخطأ فيه، إما مجتهداً وإما مفرطاً مذنباً، فلا يقال: إن إيمانه يحبط بمجرد ذلك الاعتقاد أو العمل، بغير دليل شرعي، بل هذا يوافق قول الخوارج والمعتزلة، ولا يقال: لا يكفر، بل يُفرَّق بين المقالة والقائل.

ثانياً: أن نصوصاً كثيرة قد دلت على أنه يخرج من النار من كان في

قلبه متقال ذرة من إيمان، وهذا يشمل الاعتقادات والأعمال، ولهذا: فإن مذهب أهل السنة: ألا يقال لا تكفر أحداً بذنوب، ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول: بأننا لا تكفر أحداً بذنوب، بل يقال: لا تكفر أحداً من أهل القبلة بكل ذنب، مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب، ويعممون السلب، فيقولون: يكفر بكل ذنب، أو بكل ذنب كبير.

ثالثاً: سلك أهل السنة مسلماً عدلاً هو الوسط، وهو التفريق بين الأقوال، والقائل المعين؛ فالأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبتته الله، أو نفي ما أثبتته الرسول، أو إثبات ما نفيه، أو الأمر بما نهى عنه، أو النهي عما أمر به: يُقال فيها الحق، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص، ويبين أنها كفر، ويقال: من قالها فهو كافر، وهذا عام لا يعين شخصاً بعينه؛ كالقول بخلق القرآن، والوعيد في الظلم في النفس والأموال، فيقال: من قال بخلق القرآن فهو كافر، وأما الشخص المعين، فلا تشهد عليه أنه من أهل الوعيد وأنه كافر إلا بأمر تجوز معه الشهادة، كأن يُعلم بأنه منافق، أو يُذكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة، ويُستتاب فلا يتوب؛ لأن الحكم عليه بالكفر بدون دليل؛ من أعظم البغي، لأن هذا حكم الكافر بعد الموت، كما بوب أبو داود في «سننه»: باب النهي عن البغي^(١)، وذكر فيه قصة الرجلين المتواخيين من بني إسرائيل أحدهما مذهب والآخر مجتهد في العبادة...، وأن المجتهد كان يأتي المذهب، ويقول: «أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يُؤْمِنُ عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلَيْتِي وَرَبِّي، أُبْعِثْتُ عَلَى رَقِيبٍ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ: لَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، فَتَقْبِضَ أَرْوَاحُهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ: لِهَذَا الْمُجْتَهِدُ:

(١) سنن أبي داود (٦٩٢/٢).

أُكُنْتُ بي عالمًا، أو كنت على ما في يدي قاذرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذهب فادخل الجنة بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخِر: اذهبوا به إلى النار. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: والذي نفسي بيده لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْ بَيِّنَتْ دُنْيَاهُ وَأَخْرَجَتْهُ^(١).

فالشهادة على المعين بالكفر من البغي.

ثانيًا: أن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدًا مخطئًا مغفورًا له.

ثالثًا: يمكن أن يكون لم يبلغه ما وراء ذلك القول من النصوص، فيكون معذورًا لجبهله.

رابعًا: يمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله، كما غفر الله للذي قال: «لبيته: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح؛ فوالله لئن قَدَّرَ الله عَلَيَّ لِبَعْدِي عَذَابًا ما عَذَّبَهُ أَحَدًا»^(٢)، فغفر الله له من خشيته، وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته، أو شكَّ في ذلك، وهذا الحديث في «الصحيحين».

وفي بعض ألفاظ الحديث أنهم سحقوه وأحرقوه: «وَأَذْرُوا نَضْفَةً فِي الْبَرِّ، وَنَضْفَةً فِي الْبَحْرِ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتُمْ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَفَعَلْنَاهُ»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١) واللفظ له، وأحمد (٢٣٢٢/٢)، وابن حبان (٥٧١٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٨٩). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وخسنه الألباني رحمته الله في «تخريج الطحاوية» ص (٣٥٨) - ط السابعة.

وأخرجه مسلم (٢٦٢١) عن جندب أن رسول الله ﷺ: «حدث أن رجلا قال والله لا يغفر الله لفلان وإن الله تعالى قال من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان فإني قد غفرت لفلان وأحيطت عملك».

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. (٣) هي رواية البخاري (٧٥٠٦).

وقال في حديث أبي سعيد في قصة أخرى، لكنها بنحو القصة الأولى: «فَمَا تَلَاؤُهُ أَنْ رَجِمَهُ عِنْدَهَا» أو: «فَمَا تَلَاؤُهُ غَيْرُهَا»^(١)، قال العلماء: إن هذا الرجل إنما فعل ذلك عن جهل ليس معاندًا ولا مكذبًا ولا متعننًا، ولكن فعله عن جهل، وإلا فهو معترف ومصدق بأنه لو ترك على حاله لبعثه الله.

لكن هذه المسألة دقيقة فخفيت عليه، ولهذا قال العلماء: من أنكر أمرًا دقيقًا مثله يجمله؛ يكون معذورًا فلا يكفر في هذه الحالة، أما لو أنكر البعث متمددًا؛ عن عناد وعن تكذيب، فهذا لا شك في كفره، فلهذا: لا يحكم على الشخص المعين بالكفر إلا بعد التثبت ومعرفة حاله.

وخامسًا: أنه قد يكون حديث عهد بالإسلام، أو قد يكون نشأ في بادية بعيدة عن الإسلام.

ولكن التوقف في أمر الآخرة؛ في أهل البدع: لا يمنعنا أن نعاقبه في الدنيا، لمنع بدعته، وأن نستنبيه، فإن تاب وإلا قتلناه، إذا كان مستحقًا للقتل، ثم إذا كان القول في نفسه كفرًا، قيل: إنه كفر، والقاتل له يكفر إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٨) باللفظين المذكورين، وأخرجه مسلم (٢٧٥٧) باللفظ الثاني.

(٢) قال شيخ الإسلام: (والتكفير هو من الوعيد فإنه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام أو نشأ بادية بعيدة ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحد حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئًا). «الفتاوى» (٢٣١/٣).

ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله

◆ قال المؤلف رحمته الله: (وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ):

الشرح

لا نقول ذلك، لأن هذا قول المرجئة الجهمية؛ يقولون: لو ارتكب جميع الكبائر والمنكرات فلا يضره ذلك، ولا يُنْقِصُ من إيمانه؛ فإيمانه كامل، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فإذا قال الإنسان: أشهد أن لا إله إلا الله وأمن، فلا يضره أي ذنب ولو ارتكب جميع الجرائم والكبائر، حتى قالوا: لو هدم المساجد، وقتل الأنبياء والرسل، وداس المصحف بقدميه فلا يكون كافراً حتى يكذب بقلبه، أمّا ما دام قلبه مصدّقاً: فلا وهذا من أبطل الباطل. والمقصود: أنّ لا نقول كما تقول المرجئة، ولا نقول بقول الخوارج فنكفر بالذنب.

وقال: (بل يضل عن الحق من قصد الحق وقد اجتهد في طلبه فعجز عنه فلا يُعاقَب، وقد يفعل بعض ما أمر به فيكون له أجر على اجتجاهه، وخطؤه الذي ضل فيه عن حقيقة الأمر مغفور له، وكثير من مجتهد السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها، وإما لرأي رآوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم (١٩/١٩١)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/١٢، ١١٣)، (٤/٥٠١)، (٥/٣٠٦)، و«جامع المسائل» (١٥١/٣)، و«الدرر السنية» (٩٣-٩٥).

ما ينبغي على المؤمن اعتقاده في حق نفسه وحق غيره

◆ قال المؤلف رحمته الله: (نَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ):

الشرح

هذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ يرجون للمحسنين أن يغفو الله عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم.

يرجون من الله أن يدخل المحسنين الجنة

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ بِرَحْمَتِهِ):

الشرح

هكذا نرجو للمؤمن، فإذا رأينا الشخص مستقيماً محافظاً على ما أوجب الله عليه؛ نرجو له المغفرة، ونرجو أن يدخله الله الجنة، لكن لا نشهد بالجنة إلا لمن شهدت له النصوص؛ كالعشرة المبشرين، والحسن والحسين، وغيرهم، لكن نشهد بالجنة للعموم، فنقول: كل مؤمن في الجنة، وإذا رأيت رجلاً منحرفاً فلا تشهد له بالنار، لكن نشهد بالنار للكفرة على العموم، فنقول: كل كافر في النار، إلا إذا علمت أنه مات على الكفر، وعلى الردة، وقامت عليه الحجة، فهذا لا بأس أن نقول: هو في النار.

فنحن نرجو للخير للشخص المستقيم، ونخاف على المتحرف؛ فالرجاء للمحسنين، والخوف على المسيئين من معتقد أهل السنة، ولهذا روي عن الإمام أحمد أنه سُمع وهو يقول عند الموت: بُعْدُ بُعْدُ، ثم أفاق فُسئل فقبل له: يا إمام، تقول: بعد بعد؟! فقال: إن الشيطان جاء إليّ، وقال: فُتني يا أحمد، فنتي يا أحمد، فنتي يا أحمد، فقلت: بعد بعد، أي: ما دام أن الروح ما خرجت، فما فتك بعد. فإذا كان هذا الإمام أحمد رحمه الله فكيف بغيره؟ فالحي ما تؤمن عليه الفتنة حتى تخرج روحه، وأما المسيئون؛ فأهل السنة يستغفرون لهم، ويخافون عليهم النار، ولا يقتلونهم من رحمة الله، قال أبو علي الروزباري رحمه الله: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه

النقص، وإذا ذهب صار الطائر في حد الموت.

وقالوا: ينبغي للعبد أن يكون رجاءه في مرضه أرجح من خوفه؛ حتى لا يموت الإنسان إلا وهو حسن الظن بالله، بخلافه في زمن الصحة؛ فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه؛ حتى يحمله الخوف على العمل الصالح والبعد عن السيئات؛ عملاً بالأحاديث، ومنها الحديث القدسي، وهو في «الصحيح» عن النبي: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي يَوْمَ يَلْقَاهُ مَا شَاءَ»^(١)، وما ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول قبل موته بثلاث: «لَا يُمَوَّنُ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»^(٢).

وقال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده؛ فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده؛ فهو خارجي، ومن عبده بالرجاء وحده؛ فهو مرجئي، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء؛ فهو مؤمن موحد^(٣).

والله - سبحانه وتعالى - قد أثنى على المؤمنين الذين يعبدونه بالخوف والرجاء، فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ يَدْعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ إِلَهُمْ أَوْفَرًا وَهُمْ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٢٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٥٧]، وقال الله تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَبْلُ مَا كَانُوا سَاهِبًا وَمَا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَرَجُوا رَحْمَةً رَّبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِ يَدْعُونَ نَرَهُمْ حُوقًا وَطَمَعًا﴾ [الشجدة: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْأَنْزِلَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خُنُوفًا﴾

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠٧/١٠).

[الأنبياء: ٩٠]

وقد دلت الأدلة على مدح أهل الخوف والخشية والرهبة، والثناء عليهم، فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُهُمْ وَخَافُوا إِيَّاهُ إِنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأَيُّ قَوْمٍ قَاتِلُونَ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال: ﴿وَأَيُّ قَوْمٍ قَاتِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَحْزَنْهُمْ وَخَافُوا إِيَّاهُ إِنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقد مدح الله - سبحانه وتعالى - أهل الإحسان مع الخشية والخوف، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُخْفَفُونَ﴾ [٢٧] وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ [٢٨] وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ [٢٩] وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهٌ أَنَّهُمْ إِنْ رُبِّمْ رَجِعُونَ [٣٠] أُولَئِكَ يَتْرَعُونَ فِي الْحَرِّزِ وَيُحْمَلُ مَا سَيَقُونَ [٣١] [المؤمنون: ٥٧-٦١].

ومن السنة ما في المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاؤُا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أَهْوَى الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ يَا بِنْتَ الْمُصَلِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَصَلَّى وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَلَ مِنْهُ» (١).

أخرجه الحميدي (٢٧٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨) واللفظ له، وأحمد (١٥٩/٦)، والحاكم في «المستدرک» (٤٢٧/٢)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، والطبري في «التفسير» (٣٣/١٨-٣٤)، والبيهقي في «معركة السنن والآثار» (٥٧٨/٧)، وإسحاق بن راهويه في «المسند» (١٦٤٣).

جميعاً من طريق مالك بن مغول، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني عن عائشة رضي الله عنها به - ورجاله ثقات، لكن قيل: لم يدرك عبدالرحمن عائشة، =

قال الحسن رضي الله عنه: عملوا والله بالطاعة واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمتناق جمع إساءة وأماً (١).

= ونقل في «جامع التحصيل» (ص ٢٢٢)، عن أبي حاتم أن عبدالرحمن لم يلق عائشة، وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (٣٤/١٨)، عن جرير، عن ليث بن أبي سليم، وهشيم، عن العوام بن حوشب جميعاً عن عائشة بنحوه، وأخرجه أيضاً ابن جرير (٣٤/١٨)، وأبو يعلى (٤٩١٧) من طريق ليث، عن رجل، عن عائشة، وأخرجه الطبري كذلك (٣٣/١٨)، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٦٥)، كلاهما من طريق الحكم بن بشير بن سليمان، عن عمرو بن قيس الملائي، عن عبدالرحمن بن سعيد بن وهب، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن عائشة، بنحوه. (١) عزاه في «الدر المنثور» (٢١٢/٧) لابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المتناق جمع إساءة ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُخْفَفُونَ﴾ [٢٧] [المؤمنون: ٥٧] إلى قوله: ﴿أَنَّهُمْ إِنْ رُبِّمْ رَجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقال المتناق: ﴿إِنَّمَا أَلِيتُهُ عَلَىٰ نَعَمٍ وَغِيظٍ﴾ [الفص: ١٧٨] وهو في تفسير الطبري (٣٢/١٨).

الأسباب التي تسقط بها عقوبة جهنم عن فاعل السيئات

♦ قال المؤلف رحمته الله: (وَلَا تَأْمَنُ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَشْهَدُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَتَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ، وَتَحَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَقْطَعُهُمْ):

الشرح

هناك أحد عشر سبباً تسقط به عقوبة جهنم عن فاعل السيئات، عُرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة^(١):

الأول: التوبة: والتوبة النصوح هي: المخالصة التي لا يختص بها ذنب دون ذنب، وكون التوبة سبباً لغفران الذنوب وعدم المؤاخذه بها فهذا لا خلاف فيه بين الأمة، وليس شيء يكون سبباً لغفران جميع الذنوب إلا التوبة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَتُوبُوا إِلَىٰ آثَرِهِمْ عَلَىٰ أَن يُحْسِنَ وَلَا تَقْطَعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الرؤس: ٥٣]، وقد أجمع العلماء على أن هذه الآية نزلت في التائبين، ولهذا قال بعدها: ﴿لَا تَقْطَعُوا﴾ [الرؤس: ٥٣] ثم قال بعدها: ﴿وَأُتِيْبُوا إِلَيْكُمْ﴾ [الرؤس: ٥٤].

الثاني: الاستغفار، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَن يَهْتَمُّ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، لكن الاستغفار تارة يُذكر وحده، وتارة يُقرن بالتوبة، فإن ذكر وحده؛ دخلت معه التوبة، كما إذا ذكرت التوبة وحدها؛ شملت الاستغفار. فالتوبة تتضمن الاستغفار، والاستغفار يتضمن التوبة، فكل واحد منهما يدخل في مسمى

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥٠١-٤٨٧/٧)، و«منهاج السنة» (٣٢٥/٤)، (٢٠٦/٦-٢٣٨)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٤٥١-٤٥٥).

الآخر عند الإطلاق، أما عند الاقتران، فيفسر الاستغفار؛ بطلب وقاية شر ما مضى، والتوبة تفسر بالرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، فهما إذا اجتمعا: ائفراق، وإذا افتراقا: اجتماعاً.

ونظير هذا: الفقير والممسكين، والإثم والعدوان، والبر والتقوى، والفسوق والعصيان، والكفر والنفاق، والإيمان والإسلام، كل هذه الأمور إذا أطلق أحدهما؛ دخل في الآخر، وإذا اجتمعا: صار لكل واحد منهما معنى يخصه.

الثالث: الحسنات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُؤْتِيْنَ أَثَرَاتِ﴾ [مؤد: ١١٤]، وقال: ﴿وَأُتِيْعَ السَّيِّئَةُ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا﴾^(١).

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، والدارمي (٢٧٩١)، وأحمد (١٥٣/٥)، وابن أبي شيبة (١٢١/١) -تحقيق: مصطفى عبدالقادر-، وابن أبي شبة (٢٥٣٢٤)، والبيهقي (٤٠٢٢)، والقضاة في «مسند الشهاب» (٦٥٢)، وابن عبد البر في «المتهجد» (٨٤/٢٤)، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وقال الحاكم -بعد أن أسنده-: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وقال الحافظ ابن حجر في «الإمامي المطلق» (ص ١٣١): «هذا حديث حسن»، وحسنه أيضاً الألباني في «صحيح الجامع» (٩٦)، وكل من سبقوا أخرجه من حديث أبي ذر، لكن أخرجه من حديث معاذ بن جبل، الترمذي (١٩٨٧)، ولم يسق لفظه، وإنما ساق إسناده وأحال بلفظه على حديث أبي ذر، وأسند أيضاً عن معاذ، الطبراني في «الكبير» (٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨)، وفي «الصغير» -الروض الداني» (٥٣٠)، والشاشي في «المسنند» (١٣٦٧)، وابن عبد البر في «المتهجد» (٣٠٠-٣٠١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/١٧)، والخليل البغدادي في «الفتاوى والمتفق» (٤٧/٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠٢٣، ٨٠٢٤، ٨٠٢٥)، وقد أشار الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» (ص ١٥٧)، إلى الانقطاع الواقع في هذا الحديث؛ بأن ميمون بن شبيب -راوي عن أبي ذر، ومعاذ- لم يسمع عن أحد من الصحابة، وثبته على =

رابعاً: المصائب الدنيوية، وفي الحديث: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا حَزَنٍ وَلَا حَزْنٍ، وَلَا أذى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى السَّوَكَةِ يَشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(١).

خامساً: عذاب القبر، فقد يُعَذَّبُ الإنسانُ في قبره، ثم تسقط عنه عقوبة جهنم.

سادساً: دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات.

سابعاً: ما يُهْدَى إليه بعد الموت؛ من ثواب صدقة، أو قراءة، أو حج، أو نحو ذلك.

ثامناً: أهوال يوم القيامة وشدائده، قد تُسْقَطُ عنه عقوبة جهنم.

تاسعاً: اقتصاص المؤمنين بعضهم من بعض، حينما يوقفون على نقطة بين الجنة والنار^(٢) بعد عبور الصراط، فإذا كان لأحدهم مظلمة على

= هذا الانقطاع أيضاً الحافظ ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (ص ١٣١)، وساق له من حديث معاذ شواهد يتقوى بها. انظر: «الأمالي المطلقة» (ص ١٣٢-١٣٣)، وانظر تفاصيل أوفى متعلقة بهذا الحديث في كتاب «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب (ص ١٥٧-١٥٨)، وقد ساق له شواهد من حديث أبي ذر أيضاً. والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة -رضي الله عنهما- وفيهما بنحوه من حديث عائشة، وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٥) عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال قال رسول الله ﷺ: «يُخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هَضَبُوا وَنَقَرُوا، أَذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحْدَهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا».

شخص، ثم أخذها قبل دخول الجنة؛ سقطت عنه عقوبة جهنم.

عاشراً: شفاعة الشافعين، فقد يشفع له فلا يدخل جهنم.

الحادي عشر: عفو أرحم الراحمين، فقد يعفو الله عن بعض الناس من غير شفاعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُتْرَكَ يَوْمَهُ وَيُغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (التوبة: ٤٨)، فَيُغْفَى لصاحب الإحسان العظيم ما لا يُغْفَى لغيره.

فالخلاصة: أن مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يرجون للمحسنين أن يعفو الله عنهم، ويدخلهم الجنة برحمته، ولا يؤمنونه من مكر الله، ولا يشهدون لمعين بالجنة إلا من شهد له النص، ونخاف على المسي، ونستغفر له، ولا نقنطه من رحمة الله.

مسألة: يكثّر السؤال عن رؤية الملائكة ربهم في الدنيا، فهل هذا صحيح؟

الجواب: لا يرى الله أحد في الدنيا لا الملائكة ولا غيرهم، كما مر في حديث أبي ذر: «جِئْتُهُ النَّوْرُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَجَتْ سُبْحَاتٍ وَجْهَهُ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١)، فالملائكة خلق من خلقه، فلو كشف الحجاب لأحرقت سبحات وجهه الملائكة وغيرهم، فلا يراه أحد في الدنيا في البقعة، أما في النوم فيمكن، فلا يستطيع أحد أن يثبت لرؤية الله؛ فالله تعالى لما تجلى للجبل تدكك وهو صخر، فكيف بالمخلوق الضعيف؟!

مسألة: هل ثبت في الكرسي حديث صحيح؛ لأن بعض العلماء يقول: إن أثر ابن عباس أخذه عن بني إسرائيل؟

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-

الجواب: قوله في الحديث: «الْكُرْسِيُّ هُوَ عِلْمُهُ» ليس في الصحيح^(١)، أما قوله: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ»^(٢) فيحتمل نقله ولكنه ليس بصحيح، والعلماء قد اعتمدوه، ولكن سماحة شيخنا الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله كان يرى أنه يحتمل أن يكون أخذه من بني إسرائيل، وعلى هذا نقول: العرش مخلوق والكُرسي مخلوق، والكُرسي دون العرش، أما العلماء كالدارمي وغيره، فهم اعتمدوا ما ثبت عن ابن عباس أنه قال: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يَقْدُرُ قُدْرُهُ إِلَّا اللَّهُ»^(٣).

مسألة: التفكر في عظم خلق العرش والكُرسي يورث الخشية لله تعالى، فهل يصح أن يجعل الإنسان في ذهنه صورة تخيلية لهما؟

الجواب: ما دام الكُرسي والعرش مخلوقين؛ فلا يضر ذلك، أما التفكر في كنه ذات الرب أو كنه صفاته: فهذا ممنوع.

مسألة: هل محبة الرسول لذاته أم لله تعالى؟

الجواب: الذي يُحِبُّ لذاته هو الله سبحانه وتعالى، أما محبة الرسول ﷺ فهي تابعة لمحبة الله، ومحبة المؤمنين كذلك، لكن محبة الرسول ﷺ ينبغي أن تكون فوق محبة الأولاد وفوق محبة النفس التي بين جنبيك، هذا هو الأكمل، وهو الأفضل، أما إذا قدم محبة غير الرسول على محبة الرسول ﷺ، فهذا يكون نقضاً وضعفاً في الإيمان، وقد توعد الله من قدم شيئاً من ذلك على محبته ومحبة رسوله فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ

(١) تقدم تخريجه وكلام الحافظ ابن حجر، وكلام الطبري وتعقيب الشيخ محمود شاكر عليه فأنظره للقائلة.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِعْرَاقُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَأَنْزُلُ الْقُرْآنُكُمْ وَتَحْرُكُ قُلُوبُكُمْ كَسَادَكُمْ وَتَسْكُنُ رُءُوسُكُمْ أَهْبَ إِلَيْكُمْ يَزَكُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَجَهَا فِي سَبِيلِهِ. فَتَرَوْا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٤] فمن قدم محبة الأبناء أو الآباء أو التجارة أو المساكن على محبة الله ورسوله؛ فهو فاسق ضعيف الإيمان، فالكمال أن تقدم محبة الله ورسوله على كل شيء.

مسألة: العلو يختلف في الاتجاه بحسب كل إنسان على سطح الأرض، فتكون جهة العلو في كل اتجاه، فما هو توجيهكم لهذا القول؟

الجواب: العلو ما كان فوق السماوات والأرضين، بل الأفلاك كلها ما لها إلا جهتان مثل الأرض، فالأرض كروية الشكل، فجهة العلو لها من جميع الجهات، فإذا كنت في مكان وشخص في مكان آخر؛ فهو يتصور أنك تحته، وأنت تتصور أنك تحته، وكلكم في العلو على وجه الأرض، أما السفلى فهو المركز في وسط الأرض، بحيث لو انخرق من هنا خرق وانخرق من هنا خرق، ونزل من هنا شخص ونزل من هنا آخر، لالتقت رجليهما في المركز، ثم لو فرضنا أنهما استمررا في خرق الأرض، وتجاوزا المركز، فإنهما يكونان صاعدتين والحالة هذه. إذا: الأرض والسماوات لهما إلا جهتان؛ جهة العلو والسفل، أما أنا وأنت والمخلوقات المتحركة فلها ست جهات، أمام، وخلف، ويمين، وشمال، وفوق، وتحت.

أما المخلوقات الثابتة كالسماوات والأرضين والأفلاك كلها: فما لها إلا جهتان؛ العلو والسفل، فالعلم ما كان على سطحها، والسفل: مَحْطُّ الأُنْقَال.

الجمع بين الخوف والرجاء

♦ قال الإمام الطحاوي - رحمه الله تعالى -: (وَالْأَمْنُ وَالْإِيَّاسُ يَتَقْلَانِ عَنِ الْمَلَّةِ وَسَبِيلِ الْحَقِّ بَيْنَهُمَا لِأَهْلِ الْقِيَلَةِ):

الشرح

المراد بالأمن: الأمن من مكر الله، والمراد بالإيَّاس: اليأس من رُوح الله، والمراد بالملَّة: ملَّة الإسلام، والمقصود: أن الأمن من مكر الله واليأس من روح الله كل منهما كفر ينقل عن الملَّة، وأما سبيل الحق فيبين الأمن والإيَّاس؛ وهو: الخوف والرجاء.

وكما رُوي في الحديث عن النبي أنه قال: «أَلَا أُتْبِخُكُمْ بِأَخْبَرِ الْكُتَابِ؟ الْإِسْرَاقُ بِاللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ»^(١)، وقد قال تعالى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥٢٠١)، والبخاري - كما في تفسير ابن كثير (١/٤٨٥)، عن ابن عباس مرفوعاً، وحسن إسناده السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥٠٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٤/١): «ورجاله موثقون»، لكن قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٤٨٥/١): «وفي إسناده نظر، والأشبه أن يكون مرفوعاً»، والموقوف هذا أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٠٢٣)، والبيهقي (١/٣٢٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٦/٧): «رواه الطبراني، وإسناده حسن».

ورد بنحوه عن ابن مسعود مرفوعاً عليه؛ وأخرجه: عبدالرزاق في «المصنف» (١٩٧٠١)، وابن جرير في «التفسير» (٤٠/٥)، و (٤١/٥)، من طريق الطبراني في «الكبير» (٨٧٨٣، ٨٧٨٤، ٨٧٨٥)، والبيهقي في «شعر الإيمان» (١٠٥٠)، وصحح إسناده الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٤٨٥/١)، والهيتمي في «مجمع الزوائد» (١٠٤/١).

في الأمن من مكر الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ مَشَوا وَتَقَرَّوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾ فَأَمَّا مَكْرُ اللَّهِ فَلَا يَأْمُرُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ [الأعراف: ٩٦] يعني: أهل القرى الكافرة، والمراد بالخسران في قوله: ﴿فَأَمَّا مَكْرُ اللَّهِ فَلَا يَأْمُرُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] خسران كفر؛ لأن هذه الآيات في بيان القرى الكافرة، وقد جاء فيها التعبير بـ(الخاصرون)، و (أل) لاستغراق أنواع الخسران، فالأمن من مكر الله؛ هو الذي لا يخاف الله؛ ليس عنده شيء من الخوف، فيأمن مكر الله لذلك، ويستمرسل في المعاصي ولا يبالي، وأما اليأس من رُوح الله؛ فقد قال الله تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال لبنيه: ﴿يَبْنَئِي أَدْمَتِي فَمَمْسَحُوا بِنَاصِيَتِي وَأَجِيبُوا وَلَا تَأْتِسُوا مِن رُّوحِ أَفْوٍ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِن رُّوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ١٨٧]، فبين أن اليأس من رحمة الله كافر، لأنه ليس عنده رجاء ولا عمل لرحمة الله، بل هو متشائم، قانط، مسيء الظن بالله.

والكفر هنا جاء بـ(أل) التي تفيد الاستغراق، والمعنى: أن اليأس كافر كفرًا أكبر، فأخبر الله ذلك عن يعقوب عليه الصلاة والسلام، وجاء شرعنا بإقراره، ولم يقل النبي أن اليأس دون ذلك، أو ليس كذلك.

وفي سورة «الحجر» أخبر الله تعالى عن إبراهيم فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْنُتُونَ رُءُوسَهُمْ لِرُبُوبِهِمْ إِلَّا الصَّالِحِينَ﴾ [الحجر: ٥٦]، والقانط هو اليأس، فهو ضال ضلالٌ كُفْرٌ؛ لأن (أل) أيضًا للاستغراق، وما ذلك إلا لأن اليأس من رحمة الله متشائم قانط، ليس عنده شيء من الرجاء ولا الأمل في رحمة الله وعفوه، يرى أنه هالك، مسيء للظن بالله.

وكذلك الآمن من مكر الله، لا يفيد التصديق بالقلب وحده؛ لأنه لا بد لهذا التصديق من عمل يتحقق به، وإلا صار كليمان إبليس وفرعون، فإبليس مصدق: كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي...﴾ [الحجر: ٣٦]، وفرعون مصدق كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَحْمَدُوا بِهَا وَاسْتَغْفَرَتَهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [الشمل: ١٤]، لكن إبليس لم يعمل بل امتنع عن السجود، وفرعون ليس عنده عمل، فكونه يعرف ربه بقلبه ولا يعمل، فهذا لا يكون إيماناً؛ لأن الإيمان والتصديق بالقلب، لا بد له من انقياد بالجوارح حتى يتحقق هذا الإيمان، كما أن الذي يعمل؛ كمن يصلي ويصوم ويحج، لا بد لهذا العمل من تصديق في الباطن؛ يصحح هذه الأعمال، وإلا صار كإسلام المنافقين.

ولذلك صار اليائس من روح الله لا يعمل؛ لأنه يرى أنه هالك، ولهذا أثنى الله - سبحانه وتعالى - على عباده؛ لأنهم يعبدونه بالخوف والرجاء، قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ حُدُودًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشجدة: ١٦]، وقال سبحانه لما ذكر الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل واليسع وهود، قال بعد ذلك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْتَعْتَبُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَجَاءً وَوَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، الرغبة هو: الرجاء، والرهبة هو: الخوف، فإذا فقد الخوف، وفقد الرجاء؛ لم يكن هناك إيمان، ولا يكون هناك توحيد، فالتوحيد لا بد فيه من ثلاثة أركان:

الركن الأول: المحبة في القلب، والمحبة لا تكون إلا عن تصديق.

الركن الثاني: الخوف الذي يحجب الإنسان عن محارم الله، وعن الشرك.

الركن الثالث: الرجاء الذي يحمل الإنسان على الطمع في ثواب الله وفي رحمته.

ولهذا قال العلماء: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، -وهذه طريقة الصوفية-، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، -يعني: أنه خارجي-، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجعي، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء؛ فهو مؤمن موحد.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في «الكافية الشافية»^(١):

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى دارت القطبان

فعبادة الرحمن هي: غاية الحب، مع غاية الذل، يعني: أن يتعبد الله بغاية الذل، مع غاية الحب، فالذليل هو: الخائف، الخاضع لله، والآمن من مكر الله ليس عنده ذل، كما أن اليائس من رحمة الله أيضاً؛ ليس عنده طمع في ثواب الله، فكيف يكون مؤمناً؟

(١) انظر «الكافية الشافية» (٢٩/١).

الإيمان: ما يخرج العبد من الإيمان

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَا يَخْرُجُ الْعَبْدُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِخُحُودٍ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ):

الشرح

المؤلف أتى بصيغة الحصر، والمعنى: أنه لا يخرج العبد من الإيمان إلا إذا جحد الأمر الذي أدخله في الإيمان، وهو التصديق! هكذا قال المؤلف، وهذا غلط عظيم مخالف لقول أهل السنة والجماعة؛ لأن معنى ذلك: أن الإنسان لا يكفر إلا بالجهود، كما أنه لا يكون مؤمناً إلا بالتصديق، وعلى ذلك يكون الإيمان هو التصديق في القلب، والكفر هو: الجحود في القلب، فإذا صدّق؛ صار مؤمناً، وإذا جحد: صار كافراً.

وهذا خطأ؛ لأن الكفر يكون أيضاً بالنطق باللسان، ويكون الكفر أيضاً بالعمل؛ أي بالجوارح، ويكون الكفر أيضاً بالشك، ويكون أيضاً بالترك والإعراض، ولهذا بوب العلماء -في كل مذهب- من الحنابلة والمالكية والشافعية والأحناف-، بوبوا باباً في كتب الفقه يسمونه «باب حكم المرتد»، قالوا: والمرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه نطقاً أو اعتقاداً أو شكاً أو فعلاً، أو تركاً.

إذا فالكفر خمسة أنواع:

النوع الأول: يكون باعتقاد القلب وجحوده، كما ذكر المؤلف، كما لو اعتقد أن الله صاحبة أو ولداً، وكما لو جحد ربوبية الله، أو جحد أسماء الله، أو صفاته، أو أولوحيته وعبادته واستحقاقه للعبادة، أو أمراً معلوماً وجوبه من الدين بالضرورة؛ كأن جحد وجوب الصلاة، أو وجوب الزكاة،

أو وجوب الصوم، أو وجوب الحج، أو جحد أمراً معلوماً تحريمه من الدين بالضرورة؛ كأن يجحد تحريم الزنا، أو تحريم الربا، أو تحريم شرب الخمر، أو تحريم عقوق الوالدين، أو تحريم قطيعة الرحم، فإذا أنكر شيئاً من ذلك فإنه يكون كافراً؛ لأنه جحد بقلبه.

النوع الثاني: يكون بالقول؛ مثل: لو سب الله، أو سب الرسول، أو سب دين الإسلام؛ فإنه يكفر بهذا النطق والقول، ولو لم يجحد بقلبه، ولو استهزأ بالله أو بكتابه أو برسوله أو بدينه: كفر بهذا الاستهزاء، والاستهزاء يكون باللسان، ولو لم يجحد بقلبه، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن قوماً كفروا بعد إيمانهم؛ بالاستهزاء، قال الله ﷻ ﴿وَكَيْفَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِمْ وَآلِهِهِمْ كُنتُمْ تُسْتَهْزَءُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَسْتَرْفِعُوا فَذَكَّرْتُمْ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ﴿٦٦﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦]؛ فأثبت لهم الكفر بعد الإيمان بهذا الاستهزاء الذي هو قول.

النوع الثالث: يكون بالفعل؛ فلو سجد للصنم كفر بهذا السجود، أو داس مصحفاً بقدميه، أو لطمخه بالنجاسة؛ فإنه يكفر بهذا العمل، ولو لم يجحد، ولو لم يعتقد بقلبه، كذلك يكون كافراً؛ إذا دعا غير الله، أو ذبح لغير الله أو نذر لغير الله، أو دعا الأموات وطلب منهم المدد، أو رقع لغير الله، أو سجد لغير الله، أو طاف بغير بيت الله تقريباً للغير، فإنه يكفر بهذه الأعمال ولو لم يجحد.

النوع الرابع: يكون الكفر بالشك، كما لو شك في ربوبية الله، أو شك في اسم من أسماء الله، أو في صفة من صفاته، أو شك في الملائكة، أو في الكتب المنزلة، أو في الرسل، أو في الجنة، أو في النار، أو شك في البعث، أو شك في الصراط، أو في الميزان، أو في

النوع الخامس: يكون بالتروك والإعراض؛ كما لو أعرض عن دين الله، لا يتعلمه، أو أعرض عن عبادة الله؛ فإنه يكثر بهذا الإعراض، ولو لم يجحد قال الله - تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا كُفَرُوا كُفْرًا مَعْرُوضًا﴾ [الاحقاف: ٢٣]

وذلك: إذا جرى على لسانه الكلام الكفري من غير ما قصد؛ فإنه لا يكفر، فقصه الرجل الذي فقد راحلته وعليها طعامه وشرابه، فلما وجدها قال من شدة العشة والفرخة: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»^(١)، يخاطب ربه؛ أخطأ من شدة الفرح، فلم يؤاخذ بقوله هذا. ولو جاء إنسان، ووضع رأسه أمام صنم؛ ليستريح من وجع برأسه، ولم يعلم أنه صنم، فلا يكفر؛ لأنه علمه بذلك، لكن إذا قصد السجود للصنم: كفر بهذا العمل؛ ولو لم يجهذ بـه .

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، لكن هو عند البخاري أيضاً (٦٣٠٩) من حديث أنس، دون قوله: «اللهم أنت عبيدي وأنا ربك».

فالكفر -كما سبق- يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالعمل، ويكون بالشك، ويكون بالترك والإعراض، وهذه مسألة مهمة، ينبغي للطلّاب العلم أنّ يكون على بيئة منها، وهذا الذي تقرّر هو قول الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء وجامعهم أهل العلم، أما القول بأن الكفر لا يكون إلاّ بالجحود، والإيمان لا يكون إلاّ بالقلب فهذا غلط، وغلط عظيم^(١).

(١) راجع: «التوسط والاقتصاد في أن الكفر يكون بالقول والعمل والاعتقاد» للشيخ علوي السلف. راجعه وآؤه الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله. وقد علق الشيخ ابن باز على عبارة الطحاوي قائلًا: (هذا الحصر في نظر، فإن الكافر يدخل في الإسلام بالتهاينين إذا كان لا ينطق بهما) فإن كان ينطق بهما دخل في الإسلام بالتواضع مما أوجب كفره، وقد يخرج من الإسلام بغير الجحود لأسباب كثيرة بينها أهل العلم في آداب حكم المردء، من ذلك: من علم أن الإسلام، أو أي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو استهزأ به أو سخره أو ابتكاه، أو بشي من شره سبحانه؛ لقوله سبحانه: ﴿فَلْيَا أَيْدِيَهُمْ وَيَلْبِسُوهُ كُتُوبَ كُفْرِهِمْ﴾ ﴿١٠٠﴾ لَا تَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مِّمَّا يَكْفُرُ بِمَا دَعَا إِلَى ﴿١٠١﴾ (التوبة: ١٠٠-١٠١)، ومن علم قيامته للأصنام أو الأوثان أو دعوته إلى الأصنام والاستغاثة بها وتعليقهم المذد والعون ونحو ذلك؛ إذا هذا ينقض قول: لا إله إلا الله، لأنها تدل على أن العبادة حق لله وحده، ومنها: الدعاء والاستغاثة والركوع والسجود والذبح والنذر ونحو ذلك، فمن صرف منها شيئاً تغير من الأصنام والأوثان والملائكة والجن وأصحاب القبور وغيرهم والمؤمنين؛ فقد أشرك بالله ولم يحقق قول: لا إله إلا الله، وهذا المسائل كلها يخرجها من الإسلام باجماع أهل العلم، وهي ليست من مسائل الجحود، وأدلتها معلومة من الكتاب والسنة، وهناك مسائل أخرى كثيرة يكفر بها المسلم، وهي لا تسمى جحودًا، وذكرها العلماء في آداب حكم المردء، فراجعها إن شئت، وبالله التوفيق.

الاختلاف فيما يقع عليه اسم الإيمان

◆ قال المؤلف رحمته: (وَإِلْيَمَانٌ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ):

الشرح

قول الطحاوي هذا؛ يُقَرَّرُ مذهب المرجئة؛ فالمرجئة يقولون: الإيمان لا يكون إلا بالتصديق بالجنان والإقرار باللسان، أما أعمال القلوب وأعمال الجوارح فلا تدخل في الإيمان، وهذا هو المشهور عن الإمام أبي حنيفة رحمته، وأول من قال بالإرجاء؛ شيخ أبي حنيفة: حماد بن أبي سليمان^(١) من أهل الكوفة؛ ولهذا: كان هذا الاعتقاد يسمى بقول مرجئة الفقهاء.

(١) حماد بن أبي سليمان العلامة الإمام فقيه العراق، أبو إسماعيل بن مسلم الكوفي مولى الأشعرين، أصله من أصبهان. كان أحد العلماء الأذكياء، والكرام الأسخياء، له ثروة وحشمة وتجل.

قال الذهبي في السير: قال معمر: كنا نأتي أبا إسحاق فيقول: من أين جئتم؟ فنقول: من عند حماد، فيقول: ما قال لكم أخو المرجئة؟ فكنا إذا دخلنا على حماد، قال: من أين جئتم؟ قلنا: من عند أبي إسحاق، قال: الزموا الشيخ فإنه يورثك أن يطفى. قال: فمات حماد قبله.

قال معمر: قلت لحماد: كنت رأساً، وكنت إماماً في أصحابك، فخالفتهم فصرت تابعاً، قال: إني أن أكون تابعاً في الحق خير من أن أكون رأساً في الباطل. قال الذهبي: يشير معمر إلى أنه تحول مرجئاً إرجاء الفقهاء، وهو أنهم لا يعدون الصلاة والزكاة من الإيمان، ويقولون: الإيمان إقرار باللسان، ويقين في القلب، والنزاع على هذا لفظي إن شاء الله، وإنما غلب الإرجاء من قال: «لا يضر مع التوحيد ترك الفرائض». نسأل الله العافية. اهـ

والرواية الثانية عن الإمام أبي حنيفة: أن الإيمان شيء واحد وهو التصديق بالقلب، أما الإقرار باللسان؛ فركن زائد لا يستلزمه مسمى الإيمان.

والناس اختلفوا في مسمى الإيمان اختلافاً كثيراً، وخلاصة الأقوال والمذاهب في هذه المسألة كما يلي^(١):

المذهب الأول: ذهب الأئمة الثلاثة؛ مالك، والشافعي، وأحمد، وجمهور أهل السنة، والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وسائر أهل الحديث، وأهل المدينة، وأهل الظاهر، وجماعة من المتكلمين، وهو قول الصحابة، والتابعين، والأئمة، والعلماء: إلى أن الإيمان تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح؛ أربعة أشياء: ولذلك فاحياناً ما يقولون:

الإيمان: قولٌ وعملٌ؛ فالقول قسمان: قول القلب؛ وهو التصديق، وقول اللسان؛ وهو أن يشهد أن لا إله إلا الله. والعمل قسمان: عمل القلب؛ وهو النية والإخلاص، وعمل الجوارح.

وعملٌ بالجوارح؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ولهذا يقول العلماء: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. هذا هو الحق الذي تدل عليه النصوص من كتاب الله وسنة رسول الله، وهو الذي أجمع

= انظر ترجمته: في «طبقات ابن سعد» (٣٣٢/٦) و«طبقات خليفة» (١٦٢) و«التاريخ الكبير» (١٨/٣) و«الضعفاء للعقيلي» (١٠٧ - ١١٠) و«الجرح والتعديل» (٣ / ١٤٦) و«تهذيب الكمال» (٣٣١) و«تهذيب التهذيب» (٢/١٧٤/١) و«تاريخ الإسلام» (٢٤٣/٥) و«العبر» (١٥١/١) و«سير أعلام النبلاء» (٢٣١/٥) و«تهذيب التهذيب» (١٦/٣) و«طبقات الحفاظ» (٤٨) و«خلاصة تذهب الكمال» (٩٢). (١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩٥-١٩٧)، (٥٠٤/٧) وما بعدها.

عليه الصحابة، والتابعون، والأئمة.

المذهب الثاني: مذهب الإمام أبي حنيفة رحمته وكثير من أصحابه، وحماد بن أبي سليمان: شيخ أبي حنيفة؛ وقد ذهبوا إلى ما ذكره الطحاوي من أن الإيمان شيطان: الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وهذه الرواية عليها جمهور أصحاب الإمام أبي حنيفة.

المذهب الثالث: مذهب بعض أصحاب أبي حنيفة، وهي رواية عن الإمام أبي حنيفة أيضاً، وإليها ذهب أبو منصور الماتريدي: أن الإيمان تصديق بالقلب فقط، والإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، بل هو شرط إجراء أحكام الإسلام في الدنيا، ولو لم يقر بلسانه فهو مؤمن عند الله، وهذا مذهب باطل.

المذهب الرابع: مذهب الكرامية - أتباع محمد بن كرام - وهو أن الإيمان هو: الإقرار باللسان فقط، قالوا: ولو لم يصدق بقلبه فهو مؤمن، لكن إذا لم يصدق بقلبه، فإنه يكون منافقاً، فالمنافقون عند الكرامية مؤمنون كاملو الإيمان، لكن يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله، فعلى مذهب الكرامية؛ إذا نطق بالشهادتين وهو مكذب في الباطن؛ يكون مؤمناً ويخلد في النار، وهذا من أبطل الباطل، وهو ظاهر الفساد؛ لأنه يلزم منه تخليد المؤمن الكامل الإيمان في النار.

المذهب الخامس: مذهب الجهم بن صفوان وأبي الحسين الصالح أحد رؤساء القدرية؛ ذهبوا إلى أن الإيمان هو: معرفة الرب بالقلب، والكفر هو: الجهل بالرب بالقلب، فإذا عرف ربه بقلبه؛ فهو مسلم، وإذا جهل ربه بقلبه؛ فهو كافر، وهذا القول أظهر فساداً مما قبله، بل هو أظهر ما قيل في الفساد في معنى الإيمان، ويلزم على مذهب الجهم هذا: أن

فرعون وقومه كانوا مؤمنين، فإنهم عرفوا ربهم بقلوبهم، وعرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاحِبِهِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] [سورة الإسراء آية: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَا وَبَيْنَهُمْ ظُلُمًا ثُلُمًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، فيكون إذا فرعون على مذهب الجهم مؤمناً؛ لأنه عرف ربه بقلبه!!

وأهل الكتاب اليهود والنصارى مؤمنون على مذهب الجهم؛ لأنهم يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكَ لَدُنْهِمْ أُولَٰئِكَ يَتَرَفَعُونَ آمَنَهُمْ﴾ [التيسر: ١٤٦].

كذلك أبو طالب عم النبي يكون مؤمناً عند الجهم؛ لأنه عرف ربه حيث قال في قصيدته المشهورة:

ولقد علمت بأبى دين محمد من خير أديان البرية ديناً
لسولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذلك مبيناً

بل إن إبليس يكون عند الجهم مؤمناً كامل الإيمان، فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف بربه، قال الله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَقْرَبْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ لَأَخِيَّتَهُمْ أَتُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٨٢].

والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب بالقلب، يقول العلماء:

ولا أحد أجهل منه في الجهل بربه؛ فإنه جعل ربه الوجود المطلق، ومعنى الوجود المطلق الذي لم يُقَدِّد باسم ولا صفة، فلم يُثَبِّت الجهم وجوداً لله إلا في الذهن؛ لأنه سلب عن الله جميع الاسماء والصفات، ولا

جهل أكبر من هذا، فيكون الجهم كافراً بشهادته على نفسه، فنحن نأخذ من تعريفه: أنه كافر؛ لأنه عرف الكفر بأنه هو الجهل بالرب، ولا أحد أجهل منه بربه .

المذهب السادس: مذهب الخوارج يقولون: الإيمان جماع الطاعات كلها، فجميع الطاعات إيمان، لكن من قُصِّرَ في واحد منها كفر، فإذا عَقَّ والديه: كفر، وإذا شهد الزور: كفر، وإذا ترك طاعة من الطاعات. خرج من الإيمان، ودخل في الكفر.

المذهب السابع: مذهب المعتزلة؛ قالوا: الإيمان جماع الطاعات كلها - كما قال الخوارج -، لكن قالوا: من قُصِّرَ في شيء منها: فهو فاسق؛ لا مؤمن ولا كافر.

المذهب الثامن: روى ابن القاسم عن مالك أن الإيمان يزيد، وتوقف في نقصانه، ولكن روى عنه عبدالرازق بن نافع أنه يزيد وينقص، وعلى هذا فمذهبه يوافق مذهب الجماعة من أهل الحديث، والحمد لله. فهذه خلاصة المذاهب في مسئة الإيمان.

وفي هذا الزمن اشتبه الحق على كثير من طلبة العلم حتى صاروا يفتون بمذهب الجهم، أو بمذهب أبي حنيفة - مذهب المرجئة - ويقولون: الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، والكفر لا يكون إلا في القلب.

فلا بد لطالب العلم أن يكون على إلمام وبصيرة بشبه هؤلاء، فمن شبه الإمام أبي حنيفة ومن وافقه التي استدلو بها:

الدليل الأول: أن الإيمان في اللغة هو التصديق، ومنهم من ادعى إجماع أهل اللغة على ذلك؛ قال الله تعالى إخباراً عن إخوة يوسف: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ٢١٧]؛ أي: بمصدق لنا. إذاً لا يكون الإيمان إلا

بالقلب، أما قول اللسان وأعمال الجوارح، فلا تدخل في معنى الإيمان. وأجاب الجمهور عن هذا الدليل بجوابين^(١): أحدهما بالمنع، والثاني بالتسليم.

الجواب الأول: بالمنع، قالوا: نمنع الترادف بين التصديق والإيمان، ولو صح الترادف في موضع، فلا يوجب ذلك الترادف مطلقاً، إذ أن هناك فرقاً بين الإيمان والتصديق من وجوه:

أولاً: التَّعْلِيلِيَّةُ؛ فيقال للمسيخ إذا صدق في خبره: صدقه، وصدق به، ولا يقال: آمنه ولا آمن به، بل يقال آمن له، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتَى لَمْ لَوْلَا﴾ [التكوير: ٢٦].

ثانياً: العموم والخصوص بين الإيمان والتصديق، فإن التصديق أعم من الإيمان، والإيمان أخص منه، فالتصديق يستعمل لغة في الخبر عن الشاهد والغائب، وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب.

ثالثاً: أن لفظ التصديق يقابله التكذيب، وأما لفظ الإيمان فيقابله الكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل هو أعم من ذلك، فيشمل الكفر عن تكذيب، وعن جهالة، وعن عناد.

الجواب الثاني: جواباً بالتسليم؛ قال أهل السنة: نسلم أن التصديق والإيمان مترادفان، لكن نقول:

أولاً: التصديق يكون بالأفعال كما يكون بالأقوال، ودليل ذلك ما ثبت في «الصحيح» عن النبي أنه قال: «فَالْعَيْنَانِ زَنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١١٧، ٢٩٠، ٥٣٠).

زَنَاهُمَا الْإِيمَانُ، وَاللَّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زَنَاهَا الْبَطْنُ، وَالرَّجُلُ زَنَاهَا الْخَطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوِي وَيَتَمَنَّى، وَيَصْدُقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكْذِبُهُ^(١).

وقال الحسن البصري ثقة: (ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في القلب وصدقته الأعمال)^(٢).

ثانياً: سلمنا أن الإيمان والتصديق مترادفان لكن الإيمان تصديق مخصوص، كما أن الصلاة وإن كانت دعاء، فهي دعاء مخصوص.

ثالثاً: سلمنا أن الإيمان التصديق، لكن التصديق التام بالقلب يكون مستلزماً لأعمال القلب والجوارح.

رابعاً: سلمنا أن الإيمان التصديق، لكن لفظ الإيمان باقي على معنى التصديق لغة، لكن الشارع زاد في أحكامه.

خامساً: سلمنا أن الإيمان هو التصديق، لكن الشارع استعمل لفظ الإيمان في معناه المجازي، فهو حقيقة شرعية في معناه الشرعي.

سادساً: سلمنا أن الإيمان التصديق، لكن الشارع نقل لفظ الإيمان عن معناه اللغوي إلى معناه الشرعي.

هذا كل الجواب عن الدليل الأول للأحناف.

الدليل الثاني للأحناف: على أن الإيمان هو التصديق، ولا يكون إلا بالقلب، قالوا: الإيمان ضد الكفر، والكفر هو التكذيب والجحود،

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦٦)، وابن بطّة في الإبانة (١٠٩٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٣٥١)، و(٣٥٢١١)، وابن المبارك في الزهد (١٥٦٥)، وقد روي مرفوعاً، لكن لا يصح. والله أعلم.

والتكذيب والجحود لا يكون إلا بالقلب، فذلك التصديق لا يكون إلا بالقلب، ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [التل: ١٠٦]، فدللت الآية على أن القلب هو موضع الإيمان.

وأجاب الجمهور فقالوا: قولكم: إن الكفر هو التكذيب والجحود ممنوع؛ فإن الكفر لا يختص بالتكذيب والجحود، بل إن الكفر يكون تكذيباً ويكون مخالفةً ومعاداةً بلا تكذيب؛ فلمن أن الإيمان ليس التصديق فقط، ولا الكفر التكذيب والجحود فقط، فلو قال: أنا أعلم أن الرسول صادق ولكن لا أتبعه، بل أعاديه وأبغضه وأخالفه؛ لكان كافراً أعظم الكفر، ولو لم يجحد.

الدليل الثالث: وهو دليل عقلي؛ قال الأحناف: لو كان الإيمان مركباً من قول وعمل -كما تقولون يا جمهور أهل السنة- لزال كله بزوال أجزائه، إذ الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم تبقى عشرة، وكذلك المركب؛ إذا زال أحد جزئيه: زال عنه التركيب، فإذا كان الإيمان مركباً من قول وعمل وتصديق وأعمال ظاهرة وباطنة؛ لزم زواله بزوال بعضها.

وأجاب الجمهور فقالوا: إن أردتم أن الهيئة الاجتماعية لم تبقى مجتمعة كما كانت: فمُسَلَّم، ولكن لا يلزم من زوال بعضها؛ زوال سائر الأجزاء، بل يلزم زوال الكمال، كما أن بدن الإنسان إذا ذهب منه إصبع أو يد أو رجل؛ لم يكن ليخرج عن كونه إنساناً بالاتفاق، وإنما يقال إنسان ناقص، فذلك الإيمان: يبقى بعضه، ويذول بعضه^(١).

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥٢٢-٥١٤/٧).

الدليل الرابع للأحناف: قالوا: إن الله تعالى فرق في كتابه بين الإيمان والعمل الصالح، عطف العمل على الإيمان، والمعطف يقتضي المغايرة، فقال تعالى في غير موضع: ﴿إِنَّ الْبِرَّ مَشَتْراً وَمَعْلُومٌ أَصْلَاحِي﴾ [الكهف: ٣٠]، فدل على أن العمل لا يكون داخلاً في معنى الإيمان.

وأجاب الجمهور: بأن اسم الإيمان ورد في النصوص على ثلاث حالات: تارة يُذكر مطلقاً عن العمل وعن الإسلام، وتارة يُقرن بالعمل الصالح، وتارة يُقرن بالإسلام، فإذا ذكر الإيمان مطلقاً: دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة، كما في حديث شُعْب الإِيمان، وإذا قُرِن الإيمان بالعمل الصالح، وعُطف عليه، فإن عطف الشيء على الشيء في القرآن وسائر الكلام يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، مع اشتراكهما في الحكم، والمغايرة على مراتب: أعلاها: أن يكونا متباينين، الثاني: أن يكون بينهما تلازم، الثالث: عطف بعض الشيء عليه، الرابع: عطف الشيء على الشيء باختلاف الصفتين، فهذا كله إذا قُرِن الإيمان بالعمل الصالح^(١).

الدليل الخامس للأحناف: استدلوا بحديث أبي هريرة قال: «جاء وفدٌ يُقِيب إلى رسول الله فقالوا: يا رسول الله! الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: لا؛ الإيمان مكمل في القلب، زيادته غفر ونقصه شدة^(٢)»، ووجه الدلالة قالوا: هذا يدل على أن إيمان أهل السماوات والأرض سواء، وأن الإيمان

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧٢/٧)، (١٩٨/٧-٢٠٢).

(٢) أخرجه السمرقندي في تفسيره (٢٧٨/٢)، و (٩٩/٢) -تحقيق: محمود مطرجي-، وذكره ابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٨٥)، وقال الألباني: «كثرة في تحقيقه: (موضوع).

الذي في القلوب، لا يتفاضل، وإنما التفاضل بينهم يكون بالعمل فقط. وأجاب الجمهور بأن هذا الحديث لو صح لكان فاصلاً في النزاع، لكن هذا الحديث كما قال الحافظ ابن كثير رحمته من رواية أبي الليث السمرقندي، إلى أبي المطيع، إلى أبي المهزم، وقد سئل عنه الشيخ عماد الدين ابن كثير فأجاب بأن الإسناد من أبي الليث إلى أبي المطيع مجهولون لا يعرفون، وأبو المطيع هو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي^(١)؛ ضعفه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، وأبو حاتم الرازي، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي، والعقيلي، وابن عدي، والدارقطني، وعمر بن علي الفلاس، وأما أبو المهزم فقد ضعفه غير واحد، وتركه شعبة بن الحجاج، وقال النسائي: متروك، وانهزم شعبة بالوضع، حيث قال: لو أعطي فلسين لحدثهم سبعين حديثاً^(٢)، فهذا الحديث باطل، بل هو موضوع.

وأهل السنة استدلوا بأدلة كثيرة تدل على أن الأعمال داخلة في معنى الإيمان، منها:

* قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فجمعهم مؤمنين بهذه الأعمال.

* ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾

(١) هو الحكم بن عبد الله بن مسلم أبو مطيع البلخي الخراساني الفقيه صاحب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. انظر «لسان الميزان» (٣٣٤/٢).

(٢) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٣٨٥/١-٣٨٦).

• [الحُجَرَات: ١٥].

•[النِّسَاء: ٦٥]

* حديث جبريل كذلك ذكر فيه الإيمان والإسلام .

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٣) واللفظ له، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

- ومنها: ومن فقہ العبد أن يعلم أمزداد هو أم منتقص^(٣).

- وكان ابن مسعود يقول في دعائه: اللهم زدنا إيمانًا و يقينًا و فقهاً^(٥).

- (١) أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٧٩)، من حديث ابن عمر، وخُذَّ.
- (٢) أخرجه اللالكاني في "السنن" (١٧١٠)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٧/ ١٢٩).
- (٣) انظر: "الإيمان" لابن بطة (١١٣٤)، واللاكناني في "السنن" (١٧١٠)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٢٩/ ١).
- (٤) أخرجه البخاري في الشريعة (١١٧/ ١)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (٣٣٣٦)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٣٧)، واللاكناني في "السنن" (١٧٠٠).
- (٥) أخرجه عبدالله بن الإمام أحمد في السنة (٧٧٧)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤٦)، وصححه إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٨/ ١).

- وكان معاذ بن جبل يقول لرجل: «اجلس بنا نؤمن ساعة»^(١).
- وكذلك روي مثله عن عبد الله بن رواحة^(٢).
- وصح عن عمار بن ياسر أنه قال: «ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فِيهِ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ». ذكره البخاري في «صحيحه» معلقاً^(٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان قبل حديث (٨) معلقاً بصيغة الجزم، ووصله ابن أبي شيبة في المصنف (٦/١٦٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٣٥)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٢/٢٠-٢١)، وصححه إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٨/١).

(٢) أخرجه أحمد في «المستند» (١٤١٤٨)، عن عبد الصمد حدثنا عمار عن زياد التميمي عن أنس بن مالك قال كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحابه يقول: «تعال نؤمن برتنا ساعة». فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل فجاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة. فقال النبي ﷺ: «يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة عليهم السلام». قال الهيثمي في «المجموع» (١٧/١٠): «إسناده حسن». أ. هـ. وأخرجه ابن عساکر في «تاريخ دمشق» (١١١/٢٨)، وعزاه الألبوسي في تفسيره (٤٣١/٢) للحكيم الترمذي، عن أبي الدرداء قال: «كان ابن رواحة يأخذ بيدي فيقول: تعال نؤمن ساعة».

وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٠) من طريق عطاء بن يسار أن عبد الله بن رواحة قال لصاحب له: «تعال حتى نؤمن ساعة». قال: أولسنا بمؤمنين؟ قال: «بلى، ولكننا نذكر الله فنزداد إيماناً»، مرسلًا، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٤٢٦) من طريق ابن سابط قال: فذكره، ورواه اللالكائي في «السنن» (١٧٠٨) من طريق شريح بن عبيد، عن عبد الله بن رواحة، وقد قال الحافظ ابن كثير في «البدایة والنہایة» (٢٥٨/٤)، عن أثر ابن رواحة من طريق عطاء، وشرحه بن عبيد: «وهذا مرسل من هذين الوجهين...». أ. هـ.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان قبل حديث (٢٨) معلقاً بصيغة الجزم، =

هذه كلها تدل على أن الإيمان يزيد وينقص.

فالصواب أن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، وهذا هو الذي عليه الصحابة والتابعون وأهل السنة والجماعة.

= ووصله ابن أبي شيبة في المصنف (١٧٢/٦) ووصله غيره أيضاً. قال ابن حجر «فتح الباري» (٤٦/١): أخرجه أحمد بن حنبل في كتاب الإيمان من طريق سفيان الثوري، ورواه يعقوب بن شيبة في مسنده من طريق شعبة وزهير بن معاوية وغيرهما كلهم عن أبي إسحاق السبيعي عن صلة بن زفر عن عمار، ولفظ شعبة «ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان» وهو بالمعنى، وهكذا رويناه في جامع معمر عن أبي إسحاق. وكذا حدث به عبد الرزاق في مصنفه عن معمر، وحدث به عبد الرزاق بأخرة فرغعه إلى النبي ﷺ، كذا أخرجه الزبارة في مسنده وابن أبي حاتم في العلل كلاهما عن الحسن بن عبد الله الكوفي، وكذا رواه البغوي في شرح السنة من طريق أحمد بن كعب الواسطي، وكذا أخرجه ابن الأعرابي في معجمه عن محمد بن الصباح الصنعاني ثلاثتهم عن عبد الرزاق مرفوعاً، واستغفريه الزبارة، وقال أبو زرعة: هو خطأ. قلت: وهو معلول من حيث صناعة الإسناد؛ لأن عبد الرزاق تغير بأخرة، وسماع هؤلاء منه في حال تغيره، إلا أن مثله لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع، وقد رويناه مرفوعاً من وجه آخر عن عمار أخرجه الطبراني في الكبير وفي إسناده ضعف، وله شواهد أخرى بينتها في «تغليق التعليق». أ. هـ. وانظر: «تغليق التعليق» (٣١/١)، وقال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١١٤/٢): «صح عن عمار». أ. هـ. وقد استغفينا بكلام الحافظ ابن حجر عن عزوه إلى المصادر التي أخرجه، والله الموفق.

ما صح عن الرسول ﷺ من الشرع والبيان: كُله حق

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ):

الشرح

جميع ما صح من الرسول من الشرع والبيان: كُله حق، نؤمن به، ونصدق به، ونقبله؛ كتحریم كل ذي ناب من السباع، وتحریم كل ذي مخالب من الطير، وتحریم بيع الولاء وهبته، إلخ غير ذلك مما بينه النبي . والناس لهم في تلقي النصوص طريقتان :

- طريقة أهل السنة.

- وطريقة أهل البدع.

فمنهج أهل البدع: - من الجهمية والمعتزلة والرافضة - يقسمون الأخبار قسمين: متواترة، وآحاد؛ فيقولون: إن المتواتر وإن كان قطعي السند، فهو غير قطعي الدلالة؛ لأن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين والعلم، ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات.

وأما الآحاد فقالوا: إنها لا تفيد العلم واليقين، فلا يحتج بها من جهة متنها، كما لا يحتج بها من جهة السند، فتدووا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم أحالوا الناس على قضايا وهمية، ومقدمات خيالية سموها «قواطع عقلية، وبراهين يقينية»^(١).

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (١٤٠١-١٦٤٩).

وأما أهل السنة: فإنهم يتلقون النصوص ويقبلونها، ولا يعدلون عن النص الصحيح، ولا يعارضونه بمعقول من المعقولات ولا يقول فلان؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

وخبر الواحد يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة إذا تلقته الأمة بالقبول؛ عملاً به وتصديقاً، وليس بين سلف الأمة في ذلك نزاع، وهو أحد قسمي المتواتر؛ إذ المتواتر قسمان:

- ما رواه جماعة كثيرون يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب إلى أن ينتهي للمخبر عنه، وأسندوه إلى شيء محسوس -كسماع أو مشاهدة، لا اجتهاد-

- والثاني خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول.

والفصل في هذا يأتي إن شاء الله فيما بعد.

تفاوت الناس في الإيمان

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَالْإِيمَانُ وَاجِدٌ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ):

الشرح

• قوله: (وَالْإِيمَانُ وَاجِدٌ):

هذا باطل؛ فالإيمان ليس واحدًا، وليس الناس فيه سواء كما قال الشيخ، يقول الأحناف فالقول بأن الإيمان سواء، أن الإيمان أهل السماء وأهل الأرض سواء: هذا من أبطل الباطل؛ فمن يقول: إن إيمان جبريل مثل إيماننا؟ أو إيمان أبي بكر مثل إيمان بعض الناس؟ فقد قال النبي في أبي بكر: «لَوْ وَزَنَ إِيْمَانُ أَهْلِ الْأَرْضِ إِيْمَانُ أَبِي بَكْرٍ لَرَجَعَ»^(١)، فكيف يكون إيمان أهل الأرض سواء؟ بل قال بعض الفسقة: إيماني كإيمان جبريل وميكائيل، وإيماني كإيمان أبي بكر، وعمر!! وهذا من أبطل الباطل. والصواب أن الناس يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا في الإيمان، فليس إيمان الأنبياء والمرسلين مثل إيمان سائر الناس، وليس إيمان الملائكة مثل إيمان سائر الناس، وليس إيمان الفاسق السكير العريذ، مثل إيمان الصديق^(٢).

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٦٥٣)، وعبد الله ابن الإمام أحمد في السنة (٨٢١)، وابن راهويه في المسند (٦٦٩/٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦) من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصححه العراقي في «تخريج الإحياء» (٥١/١) - دار القلم، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (٩٠٨) - دار الكتاب العربي. طبعة أولى، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص ٣٣٥)، وقد روي عن النبي ﷺ، ولا يصح.

(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٥٩/٢). وعلق الشيخ ابن باز على عبارة الطحاوي قائلا: (هذا فيه نظر، بل هو باطل، فليس أهل الإيمان فيه سواء؛ بل هم =

التفاضل بالإيمان وأعمال القلوب

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَالْتَفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْخَشْيَةِ وَالْتَقَى، وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى، وَمُلاَزِمَةُ الْأَوَّلَى):

الشرح

يقول الطحاوي: التفاضل بين الناس ليس في الإيمان؛ لأن الإيمان هم متساوون فيه، بل التفاضل بين المؤمنين بأعمال القلوب، وأما التصديق فلا تفاوت فيه، وفي بعض النسخ: (وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ، وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ، وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى، وَمُلاَزِمَةُ الْأَوَّلَى)، يشير إلى أن الكل مشتركون في أصل التصديق، ولكنهم في التصديق يكون بعضهم أفضل من بعض وأثبت، وهذه العبارة في النسخة الثانية.

وهنا قال: (وَالْتَفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْخَشْيَةِ وَالْتَقَى)، يعني: لا تفاضل بين الناس في الإيمان، وإنما التفاضل يكون بينهم بأعمال القلوب، وهذا باطل؛ فليس التفاضل بأعمال القلوب فقط، بل التفاضل يكون في نفس التصديق، وفي أعمال القلوب، وفي أعمال الجوارح.

وعلى هذا؛ فهل لهذا الخلاف بين الجمهور وبين الأحناف ثمرة؟

يقول الشارح ابن أبي العز: الخلاف لفظي؛ ليس له ثمرة، قال: لأن جمهور أهل السنة والأحناف اتفقوا على أن الأعمال واجبة، والواجبات

= متفاوتون تفاوتًا عظيمًا، فليس إيمان الرسل كإيمان غيرهم، كما أنه ليس إيمان الخلفاء الراشدين وبقية الصحابة رضي الله عنهم، وهذا التفاوت بحسب ما في القلب من العلم بالله وأسمائه وصفاته وما شرعه لعباده، وهو قول أهل السنة والجماعة؛ خلافاً للمرجئة ومن قال بقولهم، والله المستعان.

واجبات، والمحرمات محرمات، وأن من فعل الواجبات، فقد أدى ما أوجب الله عليه، وهو مثاب ممدوح، ومن فعل المحرمات، فإنه يستحق الوعيد، ويقام عليه الحد إذا كان ارتكب حداً، وهو مذموم، لكن الخلاف هل هذه الواجبات من الإيمان؟

قال الجمهور: هي من الإيمان، وقال الأحناف: ليست من الإيمان، فالخلاف لفظي؛ هكذا قال شارح الطحاوية، يعني: أنه لا يترتب علي هذا الخلاف فساد في العقيدة.

ونحن نقول: صحيح أن الخلاف لا يترتب عليه فساد في العقيدة، لكن الصواب أن له آثاراً غير لفظية تترتب عليه؛ من هذه الآثار:

أولاً: أن جمهور أهل السنة والجماعة وافقوا الكتاب والسنة في اللفظ والمعنى، فإن نصوصاً كثيرة أدخلت الأعمال في معنى الإيمان، أما الأحناف ومرجئة الفقهاء فوافقوا الكتاب والسنة في المعنى وخالفوهما في اللفظ، وينبغي ألا يخالف الإنسان النصوص حتى في اللفظ، بل يجب على المسلم أن يتأدب مع كتاب الله وسنة رسول الله، فلا يخالف النصوص لا لفظاً ولا معنى؛ فهذه ثمرة معتبرة.

ثانياً: أن هذا يفتح الباب للمرجئة المحضة - وهم الجهمية -؛ حيث يقولون: الإيمان هو المعرفة بالقلب، والأعمال ليست واجبة، والمحرمات ليست محرمات، وهذا إذا صدق بقلبه؛ فلا يضره ترك الواجبات، وفعل المحرمات، وهو مع ذلك مؤمن كامل الإيمان.

الثمرة الثالثة: من آثار الخلاف بين الجمهور والأحناف أن الأحناف والمرجئة المحضة فتحوا باباً للفسقة والعصاة، فدخلوا معهم؛ فلما قال الأحناف: الأعمال ليست من الإيمان؛ قالوا: إن إيمان أهل السماء وأهل

الأرض واحد، وإيمان الأنبياء وإيمان الفساق واحد، فيأتي السكير العريبد، الذي يفعل الفواحش والمنكرات، ويقول: إيماني كإيمان جبريل وميكائيل، وكإيمان أبي بكر وعمر، فإذا قلت له، أبو بكر يعمل الصالحات ويجتنب المحرمات وأنت تفعل ذلك!! قال: الأعمال ليست محلاً للخلاف، فأنا مصدق وأبو بكر مصدق، فإيماننا واحد، أما كوني أفعل المحرمات، وأترك الواجبات، هذا شيء آخر، لا ارتباط له بالإيمان أصلاً!! فالذين فتحوا هذا الباب لهؤلاء الفسقة الفجرة هم مرجئة الفقهاء.

الثمرة الرابعة: - وهي مهمة - مسألة الاستثناء في الإيمان، وهو أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، فمرجئة الفقهاء من الأحناف يقولون: لا يجوز لك أن تستثني؛ لأن استثناءك يعني أنك تشك في إيمانك، وعلى هذا: فمن قال: أنا مؤمن إن شاء الله: فهو شاك في إيمانه؛ وهم من أجل ذلك يسمون أهل السنة «الشكّانة».

أما أهل السنة والجماعة فقالوا: المسألة فيها تفصيل، فيجوز الاستثناء في الإيمان في بعض الأحوال دون بعض، فإذا قال: أنا مؤمن إن شاء الله، وقصده الشك في أصل إيمانه - وهو التصديق -؛ فهذا ممنوع، أما إذا قال: إن شاء الله، وقصده أن الاستثناء راجع إلى الأعمال لا الإيمان، فهو لا يجزم بأنه أدى كل ما عليه وترك كل ما حرم الله عليه، بل هو محل للتقصير والنقص، إن قصد ذلك المعنى فلا بأس أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

كذلك إذا قال: أنا مؤمن إن شاء الله، وقصده تعليق الأمر بمشيئة الله؛ للترك باسم الله؛ فلا حرج.

وكذلك إذا قال: أنا مؤمن إن شاء الله، وأراد عدم علمه بالعاقبة، فلا بأس.

وبهذا يتبين أن الخلاف بين الأحناف والجمهور له ثمره^(١).

كذلك أيضاً مما يتعلق بالإيمان مسألة الإسلام والخلاف في مسماه،

(١) ما ذكره ابن أبي العز بكتلة: من كون الخلاف بين أبي حنيفة والأئمة الباقيين من أهل السنة صورياً، هو ما قرره شيخ الإسلام بكتلة في مواضع، واتفق كلامهما في تصوير هذا الخلاف الصوري اللفظي، وأنه مع من يقر بأن أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب، وأن انتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، لا مع كل مرجئ يخرج العمل عن الإيمان ويراه ثمره، يبقى إيمان القلب بدونها.

وإليك طرفاً من كلام شيخ الإسلام بكتلة:

١- قال بكتلة (٢٠٢/٧): وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن في كتاب «الموجز»؛ وهو أن القرآن نفى الإيمان عن غير هؤلاء كقوله: ﴿إِنَّمَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَرُفِعَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ «الافتاء: ٢» ولم يقل: إن هذه الأعمال من الإيمان. قالوا: فنحن نقول: من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمناً؛ لأن انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه. والجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: أنكم سلمتم أن هذه الأعمال لازمة لإيمان القلب، فإذا انتفت لم يبق في القلب إيمان وهذا هو المطلوب؛ وبعد هذا فكونها لازمة أو جزءاً نزاع لفظي.

الثاني: أن نصوصاً صرحت بأنها جزء كقوله... إلخ.

٢- وقال شيخ الإسلام (٥٧٧/٧): (وقيل لمن قال: دخول الأعمال الظاهرة في اسم الإيمان مجاز: نزاعك لفظي؛ فإنك إذا سلمت أن هذه لوازم الإيمان الواجب، الذي في القلب وموجباته، كان عدم اللازم موجباً لعدم الملزوم؛ فيلزم من عدم هذا الظاهر عدم الباطن، فإذا اعترفت بهذا كان النزاع لفظياً. وإن قلت: ما هو حقيقة قول جهم وأتباعه: أنه يستقر الإيمان التام الواجب في القلب مع إظهار ما هو كفر وترك جميع الواجبات الظاهرة، قيل لك: فهذا يناقض قولك: إن الظاهر لازم له وموجب له بل قيل: حقيقة قولك إن الظاهر يقارن الباطن تارة ويفارقه أخرى فليس يلزم له ولا موجب ومعلول له ولكنه دليل إذا وجد دلل على وجود الباطن وإذا عدم لم يدل عدمه على العلم وهذا حقيقة قولك).

فالناس اختلفوا في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال^(١):

القول الأول: أن الإسلام هو الكلمة، أي الشهادتان، وهذا مروي عن الزهري وبعض أهل السنة.

واحتج هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿مَنْ أُوْتِنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٢)، قالوا: فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان هو الظالم لنفسه، والمقتصد: هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرم، والسابق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه.

ووجهة نظر الزهري هي: أن من أتى بالشهادتين صار مسلماً، فيتميز عن اليهود والنصارى، وتجري عليه أحكام الإسلام التي تجري على المسلمين، والزهري لم يرد أن الإسلام الواجب هو الكلمة وحدها؛ فإنه أجل من أن يخضع لذلك، ولهذا فإن أحمد بكتلة في أحد أجوبته لم يجب بهذا؛ خوفاً من أن يظن أن الإسلام ليس هو إلا الكلمة.

وقد رد محمد بن نصر على من قال بهذا القول، فقال: من زعم أن الإسلام هو الإقرار، وأن العمل ليس منه، فقد خالف الكتاب والسنة، فإن النصوص كلها تدل على أن الأعمال من الإسلام كحديث: «بُني الإسلام على خمس...»^(٢)، وذكر الأعمال الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج. وأما الاستدلال بالآية ﴿مَنْ أُوْتِنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾

(١) انظر: «تعظيم قدر الصلاة» لمحمد بن نصر (٥٢٩/٢) وما بعدها، و«التمهيد» لابن عبد البر (٢٤٧/٩)، و«مجموع الفتاوى» (١٢-٥/٧)، و«فتح الباري» (٥٥/١)، ١١٤، ٧٩.

(٢) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث عبدالله بن عمر ؓ.

[فاطر: ٢٢]؛ فليس فيها ما يدل على أن الإسلام هو مجرد الشهادة، وإنما فيها تقسيم الناس إلى مسلم، ومؤمن، ومحسن، وهذا موافق لحديث جبريل.

القول الثاني: أن الإسلام والإيمان مترادفان، وهذا مروي عن بعض أهل السنة، ويتزعمهم البخاري، وهو أيضاً مذهب الخوارج والمعتزلة.

احتج هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٥] قَا وَمَدَنَّا فِيهَا غَيْرَ بَشَرٍ مِّنَ الْمُنْشِقِينَ﴾ [١٦] (الذاريات: ٣٥-٣٦)، وجه الدلالة أن الله وصفهم بالإيمان والإسلام، وهم أهل بيت واحد، فدل على أنهما مترادفان.

وأجيب بأن الآية لا حجة فيها؛ لأن البيت المخرج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان، ولا يلزم من الانصاف بهما ترادفهما.

وقالوا: إن حديث جبريل لما سأله النبي عن الإسلام قال: «الإسلام أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١)، قالوا: معنى: أن تشهد أن لا إله إلا الله، قالوا: تقدير الكلام: أن تشهد أن شعائر الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، لا مسماء.

لكن يجاب: بأن الأصل عدم التقدير.

ومن أدلته أنهم قالوا: الإسلام والإيمان مترادفان، ثم قالوا: إن لإيمان هو التصديق بالقلب؛ فيكون الإسلام هو التصديق، وهذا لم يقله حد من أهل اللغة.

(١) أخرجه مسلم (٨)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وابن ماجه (٦٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومن شبههم أنهم قالوا: إن الله سمي الإيمان بما سمي به الإسلام، وسمى الإسلام بما سمي به الإيمان؛ كما في حديث جبريل وحديث وفد عبد القيس، فحديث جبريل فسر الإسلام بالأعمال، وفي حديث عبد القيس فسر الإيمان بالأعمال، فإنه سأل ما الإيمان؟ فقال: «الإيمانُ شَهادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَمْرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَخِدَّةُ، أَنْتَدُرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَخِدَّةُ؟ شَهادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ»^(١).

وأجيب بأن الإسلام إذا أطلق وحده؛ دخل فيه الأعمال، والإيمان إذا أطلق وحده؛ دخل فيه الأعمال، أما إذا اجتمعا فبُعد بينهما.

ومما يدل على الفرق بين الإسلام والإيمان قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ: إِنَّا عَلَى قَوْلِ كَثِيرٍ قُلْ فُتُورًا وَلَكِنْ قَوْلًا أَتَتْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] فنفى عنهم الإيمان، وأثبت لهم الإسلام، وأيضاً يشهد للفرق بينهما حديث جبريل؛ فإنه فرَّق بينهما.

وأما اعتراضهم على الاستدلال بآية «الحجرات» فنقول: معنى أسلمنا: أي: اقتدنا ظاهراً؛ فهم منافقون في الحقيقة؛ لأن الله نفى عنهم الإيمان، هذا أحد قولي المفسرين في هذه الآية، وهو جواب البخاري رحمته الله.

لكن أجاب الجمهور بأن القول الآخر في الآية هو أرجح من هذا القول، فهم ليسوا منافقين، بل هم ضعفاء الإيمان، وإنما نفى عنهم الإيمان، كما نفاء عن القاتل والزاني والسارق، ومن لا أمانة له.

ويؤيد هذا القول سياق الآية من وجوه:

(١) تقدم تخريجه.

فإن سورة «الحجرات» من أولها إلى هنا في النهي عن المعاصي وأحكام بعض العصاة ونحو ذلك، وليس فيها ذكر المنافقين.

وكذلك أيضًا ما قبل الآية وما بعدها؛ حيث إن الله - سبحانه وتعالى - أثبت لهم الإيمان والطاعة وقال: ﴿وَإِنْ تُبَيِّنُوا لِلَّهِ دِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٤]؛ والمنافقون ليس لهم طاعة، وليس لهم عمل حتى ينقص ثوابهم، ثم قال في آخر الآيات: ﴿يَسْتَوِ عَلَىٰ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧]؛ فأثبت لهم الإسلام، ولو كانوا منافقين لما أثبت لهم الإسلام.

القول الثالث: أن الإسلام هو العمل، والإيمان هو التصديق والإقرار، فالإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمان الأعمال الباطنة.

واستدلوا بحديث جبريل^(١) حينما أجاب النبي حين سئل عن الإسلام والإيمان؛ حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالآصول الخمسة.

وأجيب بأن هذا عند اقتران الإسلام بالإيمان.

والصواب في المسألة: أن الإيمان والإسلام تختلف دلالتهما بحسب الأفراد والاقتران، فإذا أطلق الإسلام وحده؛ دخل فيه الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، وإذا أطلق الإيمان وحده دخل فيه الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، وإذا اجتمعا فُسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، وفُسر الإيمان بالأعمال الباطنة؛ كما في حديث جبريل، فإن جبريل لما سأل النبي عن الإسلام، فُسر بالأعمال الظاهرة، ولما سأل عن الإيمان، فُسر

(١) سبق تخريجه.

بالأعمال الباطنة، هذا هو التحقيق والصواب، وهو الراجح، ومن فهم هذا انجلت عنه إشكالات كثيرة في كثير من المواضع التي حاد عنها كثير من الطوائف عن الحق.

المؤمنون كلهم أولياء الرحمن

♦ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ):

الشَّيْخُ

هذه المسألة هي مسألة: الولاية، وقول الشيخ: فالمؤمنون كلهم أولياء الرحمن، هذا تقرير مذهب المرجئة؛ لأن الناس عند المرجئة قسمان: مؤمنون؛ وكلهم أولياء الرحمن، وكفار؛ وهم أعداء الله.

وأما جمهور أهل السنة فيقسمون الناس ثلاثة أقسام:

عدو لله كامل العداوة؛ وهو الكافر.

ثانيًا: مؤمن ولي لله كامل الولاية؛ وهو المؤمن المطيع، الذي أدى الواجبات، وانتهى عن المحرمات.

ثالثًا: ولي لله بوجه، وعدو لله بوجه؛ وهو المؤمن العاصي، فهو ولي لله بحسب ما فيه من الإيمان والطاعات، وعدو لله بحسب ما فيه من المعاصي والتقصير في الواجبات.

والذي عليه أهل السنة والجماعة هو الصواب.

(وهل تجتمع الولاية والعداوة في الشخص الواحد؟)

الجواب: نعم، وهذا أصل عظيم عند أهل السنة، وهو اجتماع الولاية والعداوة في الشخص الواحد، فيكون المؤمن وليًا لله من وجه، وعدوًا لله من وجه.

وهذه المسألة فيها نزاع لفظي بين أهل السنة وبين الجمهور، وفيها نزاع معنوي بين أهل السنة وأهل البدع.

فالنزاع اللفظي بين الجمهور والأحناف: الجمهور يقولون: العاصي عدو لله من وجه، وولي لله من وجه.

والأحناف يقولون: هو ولي لله، لكن المعاصي يعاقب عليها ويذم عليها.

أما النزاع المعنوي بينهم وبين أهل البدع؛ فإنه يترتب عليه فساد في الاعتقاد، فأهل السنة يقولون: العاصي وإن كان عدوًا لله من وجه إلا أنه لا يخرج من الإيمان، أما الخوارج فإنهم يقولون: العاصي يخرج من الإيمان، ويدخل في الكفر، والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان، ولا يدخل في الكفر؛ فيكون في منزلة بين المنزلتين، والمرجئة المحضة يقولون: العاصي كامل الإيمان والولاية، حتى لو فعل الكبائر ونواقض الإسلام، إلا إذا جهل ربه بقلبه، والتفصيل في هذا يأتي إن شاء الله.

وقول الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ هنا هو مذهب مرجئة الفقهاء، ولكن خالفهم جمهور أهل السنة في هذا الأصل كما سبق.

فالناس يتفاضلون في ولاية الله بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، والولاية لم يتساو الناس في أصلها، فهي نظير الإيمان في أصله، بل الولاية تزيد وتنقص، وتكون كاملة وناقصة، فالمطيع تزيد ولايته وتقواه، والعاصي تنقص ولايته وتقواه، كما أن الإيمان يزيد وينقص، فالمطيع يزيد إيمانه ويقوى، والعاصي ينقص إيمانه ويضعف، كما أن الناس يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق؛ لأن الإيمان على مراتب؛ إيمان دون إيمان، والكفر على مراتب؛ كفر دون كفر، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، وبحسب إيمان العبد وتقواه، تكون ولايته لله، فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى: كان أكمل ولاية لله.

والأعمال داخلية في مسمى الإيمان، والأعمال داخلية في مسمى الكفر أيضاً، واستدل جمهور أهل السنة على هذا بأدلة كثيرة؛ منها:

قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [يوسف: ١٠٦]؛ فأثبت لهم إيماناً مع الشرك، والمراد بالشرك: الذي لا يخرج من الملة؛ وهو الأصغر، فدل على اجتماعهما في المؤمن.

ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآءٌ هَذَا هَذَا وَإِنَّا لَشَرٌّ﴾ [الحجرات: ١٤]؛ فأثبت لهم إسلاماً وطاعة لله ورسوله مع نفي الإيمان عنهم، فدل على اجتماعهما، والمراد بالإيمان المنفي عنهم الإيمان المطلق، الذي هو الكامل الذي يستحقون به الوعد الكريم؛ من دخول الجنة، والنجاة من النار، وإن كان معهم أصل الإيمان الذي يخرجهم من الكفر.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنْزِلَتْ كَذِبٌ هَذِهِ لَأَيُّكُم مَّا أُنْزِلَ الْكِتَابُ فَأَنزِلُوا آيَاتُكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٢٥]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ الرَّحْمَنُ فَذَكِّرْهُم بِآيَاتِهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَزِيدُكُمُ الْإِيمَانُ إِلَّا حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الإيمان لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ خُلُقًا نَفِيسًا﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فدل على أن الكفر لا يخرج من الملة، بل هو من الملة، فدل على اجتماعهما في الكافر.

الذي هو مبني على تفاضلهم في ولاية الله، وفي تفاضلهم في عداوة الله، وأن الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه، وقسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه.

ومن الأدلة ما في «الصحاحين» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي أنه قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَتْ مُتَأَفِّفًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَطْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَطْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَوْهَا: إِذَا أُوتِيَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ عَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(١)، فدل على أن من الناس من يكون معه إيمان، وفيه شعبة من النفاق.

ومنها: قوله عليه السلام: «يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢)، فدل على أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لا يخلد في النار. وإن كان معه الكثير من النفاق؛ فهو يعذب في النار على قدر ما معه من الكفر، والنفاق، أو الشرك، أما الأكبر من هذه الأنواع؛ فإنه ينافي الإيمان.

ومنها: ما ثبت في «الصحاحين» أنه قال لأبي ذر: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَعَلَى كِبَرٍ سَيِّئٌ؟ قَالَ: نَعَمْ»^(٣)، وأبو ذر من

(١) أخرجه البخاري (٣٤) واللفظ له، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.
(٢) أصله عند البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري. وأما هذا اللفظ فقد أخرجه الترمذي (٢٥٩٨) من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وهو عند عبد الرزاق في «النفيس» (١/١٦٠)، وقد أخرجه عن عبد الرزاق به ابن الإمام أحمد في «السنة» (٧٩٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١)، عن أبي ذر رضي الله عنه، ولفظ البخاري: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ قُلْتَ عَلَى حِينٍ سَاعَتِي هَذِهِ، مِنْ كِبَرٍ سَيِّئٍ؟».

خيار المؤمنين، ومع ذلك صار فيه شيء من الجاهلية.

- ومنها: ما ثبت في «الصحیح» عنه أنه قال: «زَنَعَ فِي أَهْلِي مِنْ أَثَرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَنْزُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَخْسَابِ، وَالظُّنُّ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْأَسْتِشْقَاءُ بِالنَّجْوَى وَالنَّيَاحَةُ»^(١)، فدل على وجود هذه الخصال في المؤمنين من هذه الأمة.

- ومنها: ما ذكره البخاري عن ابن أبي مليكة أنه قال: «أَذْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ يَخَافُ الثَّقَافَ عَلَى نَفْسِهِ»^(٢).

- ومنها ما في «الصحیحین» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي أنه قال: «إِنَّهُ الْمُنَافِقُ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»^(٣)، وفي «صحیح مسلم»: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»^(٤)؛ فدل على أنه يكون في المؤمن نفاق، وأنهما قد يجتمعان في المؤمن؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْكَنْتُمْ يَوْمَ اتَّقَى الْيَمَانُ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) وَلَيْسَ مِنَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَقَالُوا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قَتَلْنَا لَأَكْبَرْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ أَقْرَبُ يَوْمَئِذٍ لِلَّذِينَ لَا لِيَكْفُرَ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾^(٦) فجعَلَ هؤلاء إلى الكفر أقرب منهم للإيمان، وهم مخلطون، وكفرهم أقوى؛ وغيرهم

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً تحت باب: (خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر) قبل حديث (٤٨) بصيغة الجزم، ووصله الخلال في السنة (١٠٨١)، والحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥٢/٢ - ٥٣)، وعزاه أيضاً إلى ابن أبي خيثمة في تاريخه، وإلى محمد بن نصر المروزي، وكذا عزاه إليهما العيني في «عمدة القاري» (٢٧٥/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٤) هي رواية لمسلم (٥٩) للحديث الذي قبله.

يكون مخلطاً، وإيمانه أقوى.

فهذه الأدلة كلها تدل على أنه يجتمع في الشخص الواحد شيء من شعب الإيمان، ومن شعب الكفر، ومن شعب النفاق، فيكون عدواً لله بحسب ما فيه من الشعب، ويكون ولياً لله بحسب ما فيه من الإيمان.

أما النزاع بين أهل السنة - جمهورهم وأحنافهم - مع أهل البدع فنزاع معنوي، لكن أهل البدع اختلفوا:

فذهب الخوارج والمعتزلة إلى أن من ارتكب كبيرة أو قامت فيه شعبة من شعب الكفر؛ حبط إيمانه كله، ويدخل في النار، لكن قال الخوارج: يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، وقالت المعتزلة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، بل هو في منزلة بينهما؛ يسمى فاسقاً، لا مؤمناً ولا كافراً.

وذهبت المرجئة الغلاة إلى أن الكبائر وشعب الكفر لا تضر مع الإيمان ولا تؤثر فيه، بل المؤمن كامل الإيمان والتوحيد، فهو كامل الولاية، ولا يضره ارتكابه للكبائر وشعب الكفر شيئاً، بل الناس قسمان مؤمن كامل الإيمان والولاية، أو كافر كامل الكفر والعداوة.

وأصل شبهة أهل البدع عموماً^(١): أن الإيمان شيء واحد، فلا يزول

(١) قال شيخ الإسلام في «منهاج السنة» (٥٤٣/٤ - ٥٤٤): (ومن سلك طريق الاعتدال؛ عظم من يستحق التعظيم، وأحبه ووالاه، وأعطى الحق حقه؛ فيعظم الحق، ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيُحمد ويُذم، ويُثاب ويُعاقب، ويُحب من وجهه، ويُبغض من وجهه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم، وقد بسط هذا في موضعنا). انتهى. وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠٩/٢٨).

بعضه ويبقى بعضه، ولا يزيد ولا ينقص، بل إذا زال؛ زال جميعه، وإذا ثبت؛ ثبت جميعه؛ لأنه حقيقة مركبة المركبة، والحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها. لكن الخوارج والمعتزلة يقولون: الإيمان يتبعض ويتعدد، لكنه شيء واحد إذا زال بعضه؛ زال جميعه، وهو جماع الطاعات كلها .

وقالت المرجئة المحضة الكرامية والجهمية والماتريدية: الإيمان لا يتبعض ولا يتعدد، بل هو شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، ولا يذهب بعضه ويبقى بعضه؛ لأنه في القلب فقط.

وذهب مرجئة الفقهاء إلى أن الإيمان متعدد ومتبعض، لأنه تصديق وقول، لكنه شيء واحد، لا يزيد ولا ينقص؛ إذ هو في القلب واللسان، وإذا ذهب بعضه ذهب جميعه، وذهب جمهور أهل السنة والسلف: إلى أن الإيمان متعدد، وليس شيئاً واحداً؛ لأنه قول وتصديق وعمل بالجوارح؛ يزيد وينقص، ويؤول بعضه ويبقى بعضه، ويجتمع في القلب إيمان وكفر، وطاعة ومعصية. وبهذا انفصلوا عن جميع الطوائف، وبهذا يتبين أن نزاع أهل البدع عمومًا مع أهل السنة؛ نزاع معنوي، يترتب عليه فساد في الاعتقاد والله أعلم .

فالصواب أن المؤمنين قسمان: قسم ولي لله كامل الولاية، وهو المطيع، وقسم عدو لله من وجه، وولي لله من وجه، وهو المؤمن العاصي، خلافاً لما قاله الطحاوي رحمه الله.

أكرم المؤمنين عند الله

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَطْوَعُهُمْ وَأَتَّبِعُهُمْ لِلْقُرْآنِ):

الشرح

أكرم المؤمنين أطوعهم وأتبعهم للقرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَبِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(١).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤١١/٥)، وابن عساكر في «معجمه» (١٠٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٤٧٤٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٧) وقال: «في إسناده بعض من يجهل»، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠٠/٣). من طريق سعيد الجريدي عن أبي نضرة حدثني من سمع: خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، ثم قال أتى يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، ثم قال: أي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. قال ثم قال: أي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم - قال ولا أدري قال: أو أعراضكم أم - لا كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، قال: ليلعل الشاهد الغائب، وهذا سياق أحمد. وقد سقى الصحابي في رواية أبي نعيم، والبيهقي: جابر رضي الله عنه.

قال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن الجريدي، إلا أبو المنذر الوارق، لا يروى عن أبي سعيد إلا بهذا الإسناد». اهـ.

وقال أبو نعيم: «غريب من حديث أبي نضرة عن جابر لم نكتبه إلا من حديث أبي قلابة عن الجريدي عنه». اهـ.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣٤٣): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». اهـ. وقال الجوزي في «اتحاف الخيرة» (٢٦١٤): «رواه مسدد، ورجاله =

وفي لفظ: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ وَلَا لِأَيُّمَنَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(١)،
أو كما جاء في الحديث، فلا شك أن أكرم الناس عند الله أتقاهم وأكثرهم
إيماناً وأتباعاً للقرآن وللجنة.

أركان الإيمان

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ وَحُلُوهُ وَمُرُّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى):

الشرح

هذه أركان وأصول الإيمان، كما جاء في حديث جبرائيل لما سأل
النبي عن الإيمان، قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ حُلُوهُ وَمُرُّهُ مِنَ اللَّهِ»^(١)، فمن لم يؤمن بهذه

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٥٨١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٤١)
بعد أن عزاه للطبراني في «الكبير»: «... ورجاله موثقون»، وأخرجه ابن حبان
في «الصحيح» (١٦٨)، عن الحسن بن سفيان، عن محمد بن المنهال الضريير،
حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا كهس بن الحسن، عن عبدالله بن بريدة، عن يحيى بن
يُثَمَّرَ، قال: خرجت أنا وحفيد بن عبدالرحمن الجُمَيْري، فذكر قصة لقيتهما ابن
عمر، وفيه موضع الشاهد. وهذا إسناد صحيح. وقد أخرجه المروزي في «تعظيم
قدر الصلاة» (٣٧٠)، عن الحسين بن عيسى البسطامي، ومحمد بن يحيى، كلاهما
عن يزيد بن هارون، عن شريك، عن الركين بن الربيع، عن يحيى بن يعمر، وعن
عطاء بن السائب، عن ابن بريدة، عن يحيى بن يعمر، فذكر القصة. ورواه بحشل
في «تاريخ واسط» (ص ١٢٣-١٢٤)، ثنا زكريا بن يحيى قال ثنا شريك، عن
حسين، عن حسن الكندي، عن ابن بريدة قال حجبت أنا ويحيى بن يعمر،
فذكره.
وأخرجه اللالكائي في «السنن» (١٠٣٨)، من طريق محمد بن هارون الروياني، ثنا
أبو سعيد الأشج قال ثنا محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن محارب بن
دثار، عن ابن بريدة قال: «قدمنا المدينة فأتينا عبدالله بن عمر» فذكر القصة، وفيها
موضع الشاهد.

= ثقات، وأحمد بن حنبل، والحاثر. اهـ.
وقال الهيثمي (٤٠١/٧): وعن أبي سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم
واحد وأباكُم واحد، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا أحمر على أسود إلا
بالتقوى». اهـ.
رواه الطبراني في «الأوسط»، والبخاري بنحوه إلا أنه قال: «إن أباكم واحد وإن
دينكم واحد، أبوكُم آدم، وأدم خلق من تراب». ورجال البزار رجال الصحيح. اهـ.
وصححه ابن تيمية في «افتضاء الصراط المستقيم» (١/١٤٤). وكذا الألباني تثلثة،
في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٠٠).
(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/١٨)، وضعف إسناده الهيثمي في المجمع (٣/٥٩٥).

الأصول، أو ترك واحدًا منها، أو من جحد واحدًا منها؛ خرج من دائرة الإيمان، ودخل في دائرة الكافرين. ويتبع هذه الأصول جميع شرائع الإسلام، فكل ما جاء به الكتاب والسنة، لا بد من العمل.

وجوب الإيمان بجميع الرسل

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، لَا نَقْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ):

الشرح

هكذا شأن المؤمن؛ يؤمن بجميع ما جاء في الشرع، وبجميع الرسل، وبجميع الكتب، وبجميع الملائكة: ﴿لَا نَقْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ويؤمن أن البعث والنشور حق، والجنة والنار حق، وأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة حق، ومحمد حق.

= وأخرجه ابن تيمية في «الإيمان» (٧)، عن محمد بن محمد بن يونس، ثنا أحمد بن مهدي، ثنا محمد بن المنهال القنبري، ثنا يزيد بن زريع، ثنا كههم بن الحسن، عن عبدالله بن بريدة، عن يحيى بن يعمر. ورواه أيضاً عن أحمد بن إسحاق بن أيوب، ثنا أبو المثنى معاذ بن المثنى، ثنا محمد بن المنهال به. وأخرجه الأجرى في «الشريعة» (٢٠٨) من طريق الحسن الزعفراني، ثنا يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب، عن محارب بن ثثار، عن ابن عمر. وأخرجه السبكي في «طبقات الشافعية» (١/١٠٣-١٠٤)، من طريق محمد بن مسلمة الواسطي، عن يزيد بن هارون، أخبرنا شريك، عن الركين بن الربيع، عن يحيى بن يعمر، وعن عطاء بن السائب، عن ابن بريدة قال: «حَجَّجْتُ...» فذكره، وفيه موضع الشاهد. والحديث أصله في «مسلم» (٨)، وقد أسنده عن أبي خيثمة: زهير بن حرب، عن وكيع، عن كههم، عن عبدالله بن بريدة، عن يحيى بن يعمر، وأسنده أيضاً عن عبيدالله بن معاذ العنبري، عن أبيه، عن كههم، بالإسناد السابق، وساق الرواية من هذا الوجه، لكن قال: «وتؤمن بالقدر خيره وشره». وساقه عن يحيى بن يعمر بأسانيد أخرى، ولم يسق ألفاظها.

التصديق بكل ما جاءت به الرسل

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَتُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ عَلَىٰ مَا جَاءُوا بِهِ):

الشرح

الإيمان يدعو صاحبه إلى أن يصدق ما جاء به الرسل، فلا بد من الإيمان بذلك كله.

أهل الكبائر إذا ماتوا على التوحيد لا يخلدون في النار

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَأَهْلُ الْكِبَايِرِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُؤَحَّدُونَ):

الشرح

هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة؛ أن أهل الكبائر إذا ماتوا لا يخلدون في النار، بل هم تحت مشيئة الله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَذَكَّرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَتَذَكَّرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لَعَلَّ يَتَذَكَّرُ﴾ [النساء: ٤٨]، فأخبر الله سبحانه وتعالى أن الشرك غير مغفور، وما دون الشرك فهو تحت المشيئة، ومحل النزاع في هذا هو الكبيرة التي مات عليها صاحبها من غير توبة، أما الكبيرة التي تاب منها فليست محل نزاع؛ فمن تاب: تاب الله عليه، والتوبة تجب ما قبلها، فمن تاب قبل الموت توبة صدوقاً نصوحاً قبل الله توبته عامة. ولا بد في التوبة من أداء حقوق الناس.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَبَايِعُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْضُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ أجمع العلماء على أن هذه الآية في التائبين، أما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذه في غير التائبين، لأن الله - سبحانه وتعالى - خص الشرك بعدم المغفرة، وعلق ما دونه بالمشيئة، أما الآية السابقة في سورة «الزمر»، فإن الله أطلق وعمم؛ فدل على أنها في التائبين.

والمسلم إذا اجتنب الكبائر، وأدى الفرائض: غفر الله عنه الصغائر؛ فضلاً منه وإحساناً، قال سبحانه: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَايِرَ مَا ذُكِّرُوا عَنْهُ لَتَكُونَنَّ

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» [النساء: ٣١] يعني: الصغائر، «وَلَذَلَّكُمْ مُذَكَّلًا كَرِيمًا» [النساء: ٣١]، أما الكبيرة فإذا مات عليها من غير توبة، فهو تحت مشيئة الله، قد يغفر له وقد لا يغفر.

(لكن ما هي الكبيرة التي إذا مات الإنسان عليها من غير توبة صار مُتَوَعِّدًا بالنار؟)

اختلف العلماء في تحديد الكبيرة، فقال بعض العلماء: الكبائر سبع، وقال بعضهم: سبعة عشر، وقال بعضهم: الكبائر سبعون، وقيل: سبعائة، وقيل: لا تُعلم الكبيرة أصلاً، وقيل: إنها أخفيت كليلة القدر، وقيل: سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها، وقيل: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وقيل: الكبيرة ما اتفقت الشرائع على تحريمه، وقيل: الكبيرة هي ما يسد باب المعرفة بالله، وقيل: الكبيرة ما فيه ذهاب الأموال والأبدان، وقيل - وهذا هو الصواب -: الكبيرة هي ما يترتب عليها حدّ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو اللعنة، أو الغضب، والحق بعضهم نَقِيّ الإيمان، أو ما قيل فيه: ليس متناً^(١)، أو يرى منه النبي.

وأما الصغيرة، فقيل: ما دون حدّ الدنيا وحدّ الآخرة، وقيل: الصغيرة كل ذنب لم يُختم بلعنة، أو غضب، أو نار، وقيل: الصغيرة ما ليس فيه حدّ في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة، وهذا أرجح الأقوال.

الدليل على أنه هو الراجح:

أولاً: أن هذا التعريف هو المأثور عن السلف؛ كابن عباس^(٢)، وابن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥١١/٧).

(٢) أخرج ابن أبي حاتم (٥٢١٥)، عن ابن عباس قال: «كل ما وعد الله عليه =

عينة، وأحمد بن حنبل، وغيرهم.

ثانياً: أن الله تعالى قال: «إِنْ تَحِبَبْتُمْ كَبَائِرَ مَا لَمْ يَكُنْ عَنْهُ تُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَذَلَّكُمْ مُذَكَّلًا كَرِيمًا» [النساء: ٣١]، ولا يستحق هذا الوعد الكريم من أُوعد بغضب الله، ولعته، وناره، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد؛ لم تكن سيئاته مُكْفَرَةً باجتناب الكبائر.

ثالثاً: أن هذا التعريف متلقّى من خطاب الشارع، فهو ضابط مرده إلى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب.

رابعاً: أن هذا الضابط يمكن التفريق به بين الكبائر والصغائر.

خامساً: أن هذا الضابط يسلم من القوادر الواردة على غيره، فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص^(١) أنه كبيرة؛ كالشرك، والقتل، والزنا، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات؛ مما فيه حد في الدنيا،

= النار كبيرة.

وأخرج ابن جرير (٤١/٥)، عن ابن عباس قال: «الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب». وذكر الحافظ في «الفتح» (١٨٤/١٢) أن إسماعيل القاضي روى عن أبي سعيد مرفوعاً: «الكبائر كل ذنب أدخل صاحبه النار»، لكن في سنده ابن لهيعة. وأشار إلى أن إسماعيل القاضي أخرجه عن الحسن البصري بسند صحيح أنه قال: «كل ذنب نسيه الله تعالى إلى النار؛ فهو كبيرة».

(١) من أدلة ذلك: ما رواه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموفيات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

وأخرج البخاري (٢٦٥٣) واللفظ له، ومسلم (٨٨) عن أنس رضي الله عنه قال سئل النبي ﷺ عن الكبائر قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور».

ونحو ذلك، كالفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشهادة الزور، وغير ذلك مما فيه وعيد في الآخرة .

أما التعريفات السابقة، فكلها مُتَّفَقَةٌ:

- فمن قال: إن الكبائر سبع، أو سبعة عشر، أو سبعمائة، أو سبعون، نقول: هذا مجرد دعوى وتحكم لا دليل عليه.

- ومن قال: إن الكبيرة لا تعلم أصلاً، أو إنها مبهمة، أو إنها أخفيت كليلة القدر، نقول: إنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها، فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره.

- ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، فإنه يقتضي أن الذنوب في نفسها لا تنقسم إلى صغائر وكبائر، وهذا فاسد؛ لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر.

- ومن قال: الكبيرة هي ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت، يقتضي أن شرب الخمر، والفرار من الزحف، والتزويج ببعض المحارم، والمُحَرَّم بالرضاعة والصهرية، ونحو ذلك؛ ليس من الكبائر، مع أنها من الكبائر؛ لأن الشرائع لم تنفق على تحريمها، وأن سرقة الحبة من مال اليتيم، والكذبة الواحدة الخفيفة ونحو ذلك من الكبائر باتفاق الشرائع على تحريمها؛ مع أنها من الصغائر، وهذا فاسد .

- ومن قال: الكبيرة ما سد باب المعرفة بالله، أو قال: الكبيرة ذهاب الأموال والأبدان، فإنه يقتضي أن شرب الخمر، وأكل الخنزير والميتة، والدم، وقذف المحصنات؛ ليس من الكبائر مع أنها من الكبائر.

وقد يقتزن بالكبيرة من الحياء والخوف والاستعظام لها، ما يُلْجِئُهَا بالصغيرة، وقد يقتزن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها، ما يُلْجِئُهَا بالكبيرة، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه.

● وقول الطحاوي: (وَأَهْلُ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّلَةٍ فِي النَّارِ لَا يَخْلُدُونَ):

ناقشه ابن أبي العز^(١) فقال: قوله: (مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّلَةٍ) يدل على أن أهل الكبائر قبل أمة محمد يعذبون في النار، وهذا ليس عليه دليل، بل النصوص دلت على أن أهل الكبائر من هذه الأمة، وغير هذه الأمة؛ لا يخلدون في النار.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/٦٥٠-٦٥٥)، وفتح الباري» (١٠/٤١٠)، (١٢/١٨٢)، وشرح الطحاوية» (٢/٥٢٥).

الموت على التوحيد شرط لعدم خلود أهل الكبائر في النار

◆ قال المؤلف رحمه الله: (إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ):

الشرح

هذا قيد لا بد منه؛ فلا بد أن يكون صاحب الكبيرة قد مات على التوحيد، أما من مات على الشرك، فهذا قد سُدَّ في وجهه باب الرحمة قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، والجنة عليه حرام كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ يَأْتِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [النساء: ٧٢].

لكن من مات على التوحيد؛ غير مشرك، لكن مات على كبيرة من غير توبة؛ كمن مات على الزنا ولم يتب، أو مات على السرقة ولم يتب، أو مات وهو يتعامل بالربا ولم يتب، أو مات على عقوق الوالدين، أو مات على قطيعة الرحم، أو مات على الغيبة والتميمة ولم يتب من كل ذلك؛ فهذا هو الذي تحت المشيئة، بشرط ألا يستحل شيئاً من تلك المحرمات، يعني يعلم أن الزنا حرام، لكن غلبته الشهوة، ويعلم أن الربا حرام لكنه فعل الربا حيا للمال، أما من استحل الربا، أو الزنا، أو عقوق الوالدين؛ فهذا كافر؛ لأنه مكذب لله ولرسوله في تحريم هذه الأشياء.

المعرفة الكاملة لله المستلزمة للاهتمام

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللَّهَ عَارِفِينَ مُؤْمِنِينَ):

الشرح

كلمة «مؤمنين» الصواب أنها ليست موجودة في قول الطحاوي، وقوله: «بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللَّهَ عَارِفِينَ»، انتقد فيها ابن أبي العز^(١) الطحاوي، قال: لأن معناه أن المعرفة تكفي في هذا المقام، ولكن المعرفة لا تكفي وحدها، لأن من عرف الله ولم يؤمن به؛ فهو كافر. وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها؛ الجهم. فالصواب أنه: لا بد من المعرفة مع الإيمان، ولو قال الماتن: (بعد أن لقوا الله مؤمنين) لكان أصح.

ولكن أجاب الشارح عن هذا الاعتراض؛ قال: لعله يريد المعرفة التامة التي تستلزم الهداية.

(١) انظر: «شرح الطحاوي» (٢/٥٢٤).

أهل الكبائر من أهل الإيمان والتوحيد تحت مشيئة الله

♦ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهُمْ فِي مَنِيَّتِي وَحُكْمِي، إِنْ شَاءَ عَفَرَ لَهُمْ وَعَافَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيَتَوَرَّأُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]:

الشرح

لا شك أن من مات على كبيرة من غير توبة وكان من أهل الإيمان والتوحيد؛ فهو تحت مشيئة الله؛ إن شاء الله غفر له بتوحيده وإيمانه وإسلامه، وأدخله الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَتَوَرَّأُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، وإن شاء ربنا سبحانه عذبه في النار على قدر جرائمه. وقد تواترت النصوص بأنه يدخل النار جملة من أهل الكبائر يعذبون فيها، وهم من أهل الصلاة، وأن النار لا تأكل موضع السجود من جباههم، ويمكنوا فيها ما شاء الله، وبعضهم يطول مكثه بسبب شدة جرائمه وكثرتها، ويخرجون منها بشفاعة الشافعين .

وقد ثبت أن نبينا يشفع أربع مرات، في كل مرة يحدد الله له حداً فيخرجهم من النار، وثبت أن بقية الأنبياء يشفعون، والملائكة يشفعون، والشهداء يشفعون، وسائر المؤمنين يشفعون، والأفراد يشفعون، وتبقى بقية لا تنالهم الشفاعة، فيخرجهم رب العالمين برحمته، يقول الرب تعالى: «سَقَمَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَقَّ النَّبِيُّونَ، وَشَقَّ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يفعلوا خيراً قطاً»^(١)؛

(١) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ.

يعني: زيادة عن التوحيد والإيمان، ولا يبقى في النار أحد من المؤمنين، لكن بعضهم قد يطول مكثه، مثل القاتل، فقد أخبر الله أنه مخلص؛ فخلود العصاة له نهاية، أما خلود الكفرة فلا نهاية له، فإذا تكامل خروجُ عصاة الموحدين من النار؛ أطبقت النارُ على الكفرة بجميع أصنافهم، فلا يُخرجون منها أبد الأبد؛ بجميع أصنافهم؛ اليهود، والنصارى، والوثنيون، والملاحدة، والزنادقة، والمنافقون؛ كلهم في الدركات السفلى من النار، ولا يخرجون منها أبد الأبد، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ وَيَتَّوَلَّوْا لَهَا عَذَابٌ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَةَ وَيُنَظِّفَ لَكُمْ لُحُومَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿لَيْتَنِي فِيهَا مُقَدَّمًا﴾ [البقرة: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَا جَزَّتْ رَحْمَةُ سَورِكَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وأما عصاة الموحدين، فإنهم إذا خرجوا يكونون فحماً قد امتحشوا، فيلقون في نهر الحياة، فينبئون كما تنبت الجبّة - يعني البذرة في حميل السيل -، فإذا هُذبوا وتُفوا أذن لهم في دخول الجنة^(١)،

(١) هذا معنى الحديث الذي أخرجه البخاري (٨٠٦) ومسلم (١٨٢) عن أبي هريرة أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تمارون في القبر ليلة البدر ليس دونه سحب قالوا: لا يا رسول الله. قال: فهل تمارون في الشمس ليس دونه سحب. قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة. فيقول: من كان يعبد شيئاً؛ فليتبّع؛ فمنهم: من يتبع الشمس ومنهم: من يتبع القمر، ومنهم: من يتبع الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها؛ فيأتهم الله فيقول: أنا ربكم. فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا؛ فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتهم الله فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا بالرسول، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم. قال: فإنها مثل شوك السعدان؛ غير أنه =

ويكتب في جباههم «الجهنميون عتقاء الله من النار»^(١)، ثم بعد مدة تمحى هذه الكتابة.

= لا يعلم قدر عظمتها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم؛ فمنهم: من يوبق بعمله، ومنهم: من يخرول، ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله؛ فيخرجونهم ويعرفونهم بأثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود؛ فيخرجون من النار، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا؛ فيصب عليهم ماء الحياة؛ فينبون كما تثبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيقول: يا رب اصرف وجهي عن النار قد قشني ريحها، وأحرقني ذكاؤها فيقول: هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك فيعطي الله ما يشاء من عهد وميثاق؛ فيصرف الله وجهه عن النار؛ فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكنت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا رب قدمني عند باب الجنة؛ فيقول الله له: أليس قد أعطيت اليهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت؟ فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره، فيقول: لا وعزتك لا أسأل غير ذلك، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب أدخلني الجنة، فيقول الله: ويحك يا ابن آدم ما أغفرك، أليس قد أعطيت اليهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت، فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فيضحك الله -عز وجل- منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، فيقول: تمنّ، فيتمنى حتى إذا انقطع أمّيته، قال الله -عز وجل- من كذا وكذا أقبل يذكّره ربه، حتى إذا انتهت به الأماني، قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه، قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: قال الله لك ذلك وعشرة أمثاله، قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله لك ذلك ومثله معه. قال أبو سعيد: إني سمعته يقول ذلك لك وعشرة أمثاله. ١ هـ.

(١) أصله في الصحيحين، ولفظ أحمد (١٤٤/٣): «ويكتب بين أعينهم هؤلاء عتقاء الله -عز وجل- فيذهب بهم فيدخلون الجنة فيقول لهم أهل الجنة هؤلاء =

أهل الكبائر بين فضل الله تعالى وعدله

◆ قال المؤلف رحمته: (وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ بِعَذْلِهِ):

الشرح

إن شاء الله سبحانه وتعالى غفر لهم بتوحيدهم وإيمانهم؛ فضلاً منه وإحساناً، وإن شاء عذبهم بعدله وحكمته، ولكن إذا عذبهم وماتوا على التوحيد لا يخلدون، بل لا بد أن يخرجوا ولو طال مكثهم.

= الجهنميون فيقول الجبار بل هؤلاء عتقاء الجبار - عز وجل - ٥. وصحح إسناده الألباني في «ظلال الجنة» (ص ٣٩٣).

خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة وبرحمة الله

◆ قال المؤلف رحمه الله: (ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ):

الشرح

الشافعون: هم الأنبياء، والملائكة، والشهداء، وسائر المؤمنين، وتبقى بقية لا تنالهم الشفاعة، يُخْرِجُهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِرَحْمَتِهِ.

دخول أهل الكبائر الجنة

◆ قال المؤلف رحمه الله: (ثُمَّ يَدْخُلُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ):

الشرح

يَدْخُلُهُمْ اللَّهُ إِلَى الْجَنَّةِ بَعْدَ أَنْ يَنْتَوُوا، وَيَهْذَبُوا، وَيَتَّقُوا.

الله تولى أهل الإيمان به

◆ قال المؤلف رحمه الله: (وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِ):

الشرح

وفي نسخة: (وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِفَتِهِ)؛ وهذا منتقذ كما سبق؛ فالجهنم هو الذي اكتفى بالمعرفة وَخَذَهَا وَلَوْ قَالَ: (وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَوَلَّى أَهْلَ الْإِيمَانِ بِهِ) لَكَانَ أَحْسَنَ؛ لِأَنَّ إِبْلِيسَ عَارِفَ بَرِيهِ، وَفِرْعَوْنَ عَارِفَ بَرِيهِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَا كَافِرَيْنِ؛ فَلَا تَكْفِي الْمَعْرِفَةَ. وَلَكِنْ قَدْ يَجَابُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَعَلَّهُ يَرِيدُ الْمَعْرِفَةَ التَّامَةَ.

الله تعالى ما جعل المؤمنين كأهل الجاهل به

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلٍ نَكْرَتِهِ):

الشرح

يعني: ما جعل الله المؤمنين كأهل الجاهل به، وكذلك قوله: (كأهل) - نكرة - منتقذ، ولو قال: (كأهل الكفر به) أو: (كأهل الشرك به)؛ لكان أحسن؛ لأن الكفر ليس هو الجاهل فقط، كما يقوله الجاهل، فالكفر يكون بالجاهل، وبغير الجاهل، كما سبق تفصيله.

أعداء الله خابوا من هدايته

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلٍ نَكْرَتِهِ الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ):

الشرح

وهؤلاء لم يهدهم سبحانه وتعالى؛ لحكمة بالغة، وهو الحكيم العليم سبحانه.

خذلان أعداء الله بعدم نيل ولايته

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَمْ يَتَأَلَّوْا مِنْ وَلَايَتِهِ):

الشرح

أعداء الله ليسوا أوليائه، بل هم أعداؤه، إن أولياؤه إلا المتقون، وأما أولئك فقد خابوا من هدايته، ولم يتألوا ولايته، فخذلهم - سبحانه وتعالى - لحكمة بالغة؛ لما يعلمه فيهم، من أنهم ليسوا أهلاً للاهتمام، وليسوا محللاً لغرس الكرامة.

الدعاء بالثبات على الإسلام

♦ قال المؤلف رحمه الله: (اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ ثَبِّتْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى نُلْقَاكَ بِهِ):

الشرح

هذا الدعاء قال بعضهم: إنه ثابت، وقال بعضهم: إنه موضوع، ولكن الصواب أن له أصلاً^(١).

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٦١) - تحقيق طارق عوض الله، ومن طريقه الضياء في «المختارة» (٢٢٩٠)، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٢٩٦٥) - المطالب العالية، وزاد الألباني في «الصحيحة» (١٨٢٣)، ينسب إلى «الفوائد المنتقاة من أصول سماعات الرئيس أبي عبدالله الشافعي» (١/١٦٥/٢)، والحديث من رواية أنس، وقد قال الهيثمي بعد أن عزاه إلى «الأوسط»: «ورجاله ثقات» [مجمع الزوائد] (١٧٦/١٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٢٣).

الصلاة خلف البر والفاجر

قال الإمام الطحاوي رحمته (وَتَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ):

الشرح

قبل بيان حكم الصلاة خلف البر والفاجر، نبه على مسألة مرت من قبل، وهي تتعلق بمن أتى ناقضاً من نواقض الإسلام؛ وذلك أننا قلنا: إن المرجئة يقولون: لا يكفر إلا الجاحد بالقلب، وقلنا: إن هذا خطأ، وإن الكفر يتنوع، فيكون بالقلب والاعتقاد، ويكون بالقول، ويكون بالفعل، ويكون بالشك، ويكون بالترك، ولكن لا بد من توفر شروط، وانتفاء موانع، لمن يفعل الكفر، حتى يحكم عليه بالكفر وهي كما يلي:

الشرط الأول: العلم أن يكون عالماً بما يقول، فإن كان جاهلاً أو مثله يجهل، فلا يكفر حتى تقوم عليه الحجة، ولا بد أيضاً أن يكون مختاراً وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن كان مكرهاً فلا يكفر، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (النمل: ١٥٦).

الشرط الثاني: القصد؛ فإن لم يقصد الفعل، فإنه لا يكون كافراً، فإذا قصد السجود لصنم - مثلاً -، أو قصد التكلم بكلمة الكفر فإنه يكفر، ولا يشترط أن يعتقد ذلك بقلبه، لكن لا بد من اعتبار القصد، فإن فعل، أو قال من غير قصد؛ فلا يكفر.

فالمجنون ليس عنده قصد؛ فلو تكلم بكلمة الكفر: لا يكفر، وكذلك السكران، والصغير، فاقد العقل، والذي سبق لسانه، وهو لم يقصد

الكلمة، كالشخص الذي قال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»^(١).

فلا بد من توفر هذه الشروط وانتفاء الموانع حتى يحكم على الإنسان بالكفر.

والمرجئة عمدتهم في هذا الباب على الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (النمل: ١٥٦)، فجعلوا الجاهل، والمتكلم بكلمة الكفر من غير إكراه؛ في هذا الباب؛ كالمكره، فاشتروا اطمئنان وانشراح الصدر والقلب؛ للحكم بكفرهما، وهذا خطأ؛ على التفصيل السابق الذي شرحناه.

أما مسألة الصلاة خلف الفاسق، فهذه المسألة - الصلاة خلف كل بر وفاجر - من أصول أهل السنة والجماعة، خلافاً لأهل البدع؛ فإن أهل البدع لا يَزَوُّنَ الصلاة خلف أئمة الجور، ولا خلف الفاسق؛ لأن الفاسق كافر عند الخوارج، وعند المعتزلة: خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر، والرافضة لا يرون إلا الصلاة خلف المعصوم.

أما أهل السنة: فيرون الصلاة خلف الولاة، وإن كانوا فاسقاً أو جائريين، فتصلى خلفهم الجمعة والجماعة والعيد، خصوصاً إذا لم يكن هناك إمام غيرهم، فإمامة الجمعة في البلد الذي ليس فيه إلا جمعة واحدة، وإمامة العيد، وإمامة الحج بعرفة؛ إذا لم يكن هناك إلا فاسق: صححت الصلاة خلفه، بل تجب الصلاة خلفه، ومن صلى وحده وترك الصلاة خلف الفاسق في هذه الحال؛ فهو مبتدع عند أهل السنة والجماعة.

وهذا من أصول أهل السنة والجماعة، التي خالفوا بها أهل البدع، ولذلك أدخلها العلماء في كتب العقائد - وإن كانت هذه مسألة في الأصل

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

فرعية - وذلك للرد على أهل البدع .

أما إذا لم يكن الإمام إمام الجمعة، أو إمام العيد، بل كان إماماً مُرْتَبّاً من الدولة، أم لم يكن؛ وهو فاسق، فهل تصلى خلفه الصلوات؟

الجواب: يصلى خلف الفاسق في حالين:

الحال الأولى: إذا كان إمام المسلمين وليس للناس إمام، ومن صلى وحده وترك الصلاة خلفه؛ فهو مبتدع عند أهل السنة.

الحال الثاني: إذا لم يترتب على ترك الصلاة خلفه مفسدة، كأن يحصل انشقاق بين المسلمين وتُخَصَّل فتن وإحـن.

أما إذا كان هناك إمام غيره، ولم تُحصل مفسدة، وصليت خلفه، وتركت الصلاة خلف العدل؛ فاختلف العلماء في صحة الصلاة وعدمها؛ فالحنابلة والمالكية، يرون أن الصلاة غير صحيحة، وتجب الإعادة.

وذهب الشافعية والأحناف إلى أن الصلاة صحيحة مع الكراهة، وهذا هو الصواب، والدليل على هذا ما ثبت في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي قال: «يُضَلُّونَ لَكُمْ - يعني أئمة لكم - فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ»^(١)، فهذا الحديث نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه على نفسه، وأما المأموم فليس عليه شيء من ذلك.

وكذلك أيضاً: ثبت عن الصحابة أنهم كانوا يصلون خلف الحجاج بن يوسف، وكان فاسقاً ظالماً^(٢)، وصلى الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤).

(٢) انظر المصنف لابن أبي شيبة (٧٥٦٥، ٧٥٧٣، ١٣٩٨٣).

أبي معيط وكان أميراً للكوفة من قِبَل عثمان رضي الله عنه، وكان فاسقاً يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم مرة الفجر وهو سكران، فصلى بهم الصلاة أربعاً، ثم التفت إليهم، فقال: هل تريدون أن أزيدكم؟ فقال عبدالله بن مسعود ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة أعاد الصلاة، ورفع أمره إلى الخليفة، فجلبه وعزله^(١).

وكذلك أيضاً ثبت في «صحيح البخاري»: «أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان محصوراً، وقد أحاط الثوار ببنيته لقتله -وهم فساق-، ثم حضرت الصلاة فتقدم رجل من الثوار يريد أن يصلي بالناس، فجاء شخص وسأل أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له: يا خليفة رسول الله؛ إن الصلاة تقام الآن وسيصلي بنا رجل من الثوار، وهو فاسق فهل نصلي خلفه؟ فقال يابن أخي: إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإن أحسنوا فأحسن معهم، وإن أساءوا فاجتنب إساءتهم»^(٢).

هذه النصوص تدل على أن الصلاة خلف الفاسق صحيحة ولا تعاد، ولكن لا شك أن الصلاة خلف العدل أولى.

وأما الذين قالوا: لا تصح؛ فحجتهم في هذا أنهم قالوا: إن من صلى خلف الفاسق فقد أقره على المنكر الذي هو متلبس به، فتكون صلاته منهياً

(١) انظر ما أخرجه مسلم (١٧٠٧)، لكن قول ابن مسعود له: «ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة» أخرجه شُعْرَبُ بْنُ شَيْبَةَ، عن هارون بن معروف، عن ضمرة بن ربيعة، عن ابن شاذب -كما نقله ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١٥٥٤/٤)، عن عمر بن شبة، لكنه منقطع بين ابن شاذب: عبدالله بن شاذب الخراساني، وابن مسعود رضي الله عنه؛ لأن ابن شاذب مولده سنة: ٨٦هـ -كما في «تهذيب الكمال» (٩٦/١٥)- وابن مسعود وفاته سنة: ٣٢هـ أو ٣٣هـ -كما في «التقريب» (٣٦١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥) من حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار، عن عثمان رضي الله عنه.

عنها؛ فلا تصح.

ولكن هذه المسألة - وهي كونه متلبساً بمنكر - مسألة مهمة تحتاج إلى تعقيد، وهي قاعدة إذا عرفها طالب العلم استفاد بمعرفتها فائدة عظيمة، وهي: هل النهي متعلق بذات المنهي، أو بشيء خارج عنه؟ فإذا كان النهي متعلقاً بذات المنهي، دل على فساد هذا المنهي عنه، وأما إذا كان النهي متعلقاً بشيء خارج عن المنهي عنه فلا يدل على فساد، وعلى هذا: فإن الصلاة صحيحة؛ هذا هو الحق الذي عليه الجمهور.

ومثال آخر: لو فرض أن شخصاً دخل في دار مغصوبة، وصلى فيها، فهل تصح الصلاة؟

الجواب: نعم تصح؟

مثال آخر أيضاً: شخص غصب ثوباً ولبسه وصلى فيه، أو شخص لبس ثوب حرير وصلى فيه، أو شخص حمل صورة وصلى فيها، هل تصح أو لا تصح؟

المسألة فيها خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: مذهب الحنابلة والمالكية يرون بطلان الصلاة؛ لأن الإنسان إذا صلى في ثوب مغصوب، أو في دار مغصوبة، أو في ثوب عليه صورة بطلت صلاته؛ لأنه متلبس بشيء منهي عنه.

يقول صاحب «الروض المربع»^(١): لا تصح الصلاة خلف الفاسق مطلقاً، سواء كان فسقه من جهة الأفعال أو من جهة الاعتقاد إلا في جمعة وعيد تعدوا خلف غيره؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «لَا تُؤْمِنُ امْرَأَةٌ

(١) (١٨٥/٣) ط. دار الوطن.

رَجُلًا، وَلَا يُؤْمُّ أَعْرَابِيٌّ مُهَاجِرًا، وَلَا يُؤْمُّ فَاجِرٌ مُؤْمِنًا، إِلَّا أَنْ يَتَّهَرَهُ سُلْطَانِي يَخَافُ سَيْفَهُ وَسَوْطَهُ»^(١)، كما لا تصح خلف كافر، سواء علم بكفره في الصلاة أو بعد الفراغ منها، وتصح خلف المخالف في الفروع.

قال صاحب الحاشية - العنقري بكثرة: ولا تصح الصلاة خلف فاسق - أي مطلقاً -، واختار الموفق، والمجدد، اختصاصاً بطلان بظاهر الفسق^(٢).

وقال في «الفروع»^(٣): لا تصح إمامة فاسق مطلقاً وفقاً لمالك، وعنه: تُكره، وتصح وفقاً لأبي حنيفة والشافعي، كما تصح مع فسق المأموم. ومنه تعلم اتفاق العلماء على الكراهة، وإنما الخلاف في الصحة.

والقول الثاني: أن الصلاة صحيحة مع الإثم؛ فعليه إثم الغصب؛ فإذا صلى في دار مغصوبة نقول: لك ثواب الصلاة، وعليك إثم الغصب، وإذا صلى في ثوب حرير، فله ثواب الصلاة، وعليه إثم الحرير، وإذا صلى في

(١) أخرجه ابن ماجه (١٠٨١) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال الحافظ ابن حجر في «الخلاصة الحبير» (٣٢/٢-٣٣): «... وفيه عبدالله بن محمد العدوي، عن علي بن زيد بن جندعان، والعدوي اتهمه وكبح بوضع الحديث، وشيخه ضعيف. ورواه عبدالله بن حبيب في «الواضحة» من وجه آخر، قال: ثنا أسد بن موسى، وعلي بن معبد قال: ثنا فضيل بن عياض، عن علي بن زيد. وعبدالله بن حبيب بسرقه الأحاديث، وتخليط الأسانيد. قاله ابن القرضي. قال عبدالله بن حبيب في «الأحكام»: رأيته في كتاب عبدالله بن حبيب: أفسد عبدالله بن حبيب إسناده؛ وإنما رواه أسد بن موسى، عن الفضيل بن مرزوق، عن الوليد بن بكير، عن عبدالله بن محمد العدوي، عن علي بن زيد؛ فجعل عبدالله بن فضال بدل فضيل بن مرزوق، وأسقط من الإسناد رجلين».

(٢) انظر: «المحرر في الفقه» (١٠٤/١)، و«المغني» (٢٢/٣-٢٣).

(٣) (٢٠/٣) ط. مؤسسة الرسالة.

ثوب فيه صورة فله ثواب الصلاة، وعليه إثم الصورة

لكن لو كان النهي متعلقًا بذات المنهي عنه، كما لو صلى في ثوب نجس؛ فلا تصح الصلاة؛ لأن الصلاة في الثوب النجس منهي عنها؛ ولأنه يشترط لصحة الصلاة أن يكون الثوب طاهرًا، والبغية طاهرة، والجسم طاهرًا.

أما في مسألة هذه وهي: الصلاة خلف الفاسق؛ فالذين قالوا: لا تصح، قالوا؛ لأنه لم ينكر المنكر عليه، وأصحاب القول الثاني: يقولون: صحيح أنه أقره على المنكر لكن إنكار المنكر لا يتعلق بالصلاة، وعلى ذلك: فله ثواب الصلاة، وعليه إثم ترك إنكار المنكر.

وبهذا يتبين أن الصواب في هذه المسألة: صحة الصلاة خلف الفاسق، مع الإثم في ترك إنكار المنكر؛ إذا كنت تستطيع ذلك، أما إذا لم يوجد إلا هذا الإمام؛ فإنك تصلي خلفه، ولا كراهة باتفاق أهل السنة، ومن صلى وحده وترك الصلاة خلف الفاسق في هذه الحالة، فهو مبتدع مخالف لأهل السنة والجماعة، أما إذا وجد جماعة أخرى وأمكنه فعل الصلاة خلف البر، ولم يترتب على ترك الصلاة خلف الفاسق مفسدة؛ فصلى خلفه من غير عذر، فهذا هو محل الخلاف بين العلماء، منهم من قال: يُعید، ومنهم من قال: لا يُعید.

والأئمة أقسام:

فمنهم: الإمام مستور الحال:

وهو الذي لا يعلم منه بدعة وفجور، فالصلاة خلفه جائزة باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتصاص أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه، ولا أن

يتمتع فيقول: ماذا تعتقد؟

ومنهم: المبتدع الداعي إلى بدعته، والفاسق ظاهر الفسق:

فمن العلماء من فضل: فقال: إذا كان يدعو إلى بدعته، فلا يُصلى خلفه، وإذا كان لا يدعو صُلِّيَ خلفه، وكذلك الفاسق، إذا كان ظاهر الفسق، فلا يُصلى خلفه، وإذا لم يكن ظاهر الفسق، يُصلى خلفه، والصواب: أن الصلاة خلفه صحيحة، بشرط أن تكون البدعة لا توصله إلى الكفر، وبشرط أن يكون الفسق لا يوصله إلى الكفر أيضًا.

ومنهم: الإمام الكافر:

فلا تصح الصلاة خلفه بالاتفاق؛ كالقبوري الذي يدعو غير الله، ويذبح للأولياء، أو يطوف بالقبور، أو ينذر للموتى، فإذا صلى خلفه؛ فإنه يُعید الصلاة، سواء علمت كفره في حال الصلاة، أو قبلها، أو بعدها، ولو بعد حين، حتى لو طالت المدة^(١).

أما إذا كانت بدعته وفسقه لا يوصلانه إلى الكفر، فهذا محل الخلاف؛ والصواب أن الصلاة خلفه صحيحة لحديث البخاري: «يُصَلُّونَ لَكُمْ؛ فَإِنْ أَصَابُوا، فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَأُوا، فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ»^(٢)، وهناك أحاديث ضعيفة - أيضًا - في هذا الباب؛ كحديث: «صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَكَافِرٍ»^(٣)، وحديث: «الصَّلَاةُ وَاجِبَةٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ مُسْلِمٍ، بَرًّا كَانَ أَوْ

(١) انظر: «المغني» (٢٠/٣) وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٤)، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يصلون لكم فإن أصابوا فلكم وإن أخطأوا فلكم وعليهم». وقد تقدّم.

(٣) أخرجه الدارقطني (٥٧/٢)، والبيهقي (١٩/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الدارقطني: وليس فيها شيء يثبت.

فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِرِ، وَالْجِهَادِ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ؛ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِرِ...^(١)، وحديث: «الْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ؛ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِرِ»^(٢)، وحديث: «صَلُّوا خَلْفَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وحديث: «صَلُّوا عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣)، هذه أحاديث ضعيفة، لكن العمدة على ما في «صحيح البخاري».

= وقال الحافظ في «التلخيص» (٥٧٨): «رواه أبو داود، والدارقطني واللفظ له، والبيهقي من حديث مكحول، عن أبي هريرة، وزاد: (وجاهدوا مع كل بر وفاجر). وهو منقطع، وله طريق أخرى عند ابن حبان في الضعفاء، من حديث عبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة، عن هشام، عن أبي صالح عنه، وعبد الله متروك، ورواه الدارقطني من حديث الحارث، عن علي، ومن حديث علقمة والأسود، عن عبد الله، ومن حديث مكحول أيضا، عن والدة، ومن حديث أبي الدرداء من طرق كلها وأهية جدا، قال المعلي: ليس في هذا المتن إسناد يثبت. ونقل ابن الجوزي عن أحمد أنه سئل عنه فقال: ما سمعنا بهذا.

وقال الدارقطني: ليس فيها شيء يثبت. وللبيهقي في هذا الباب أحاديث كلها ضعيفة غاية الضعف، وأصح ما فيه حديث مكحول، عن أبي هريرة على إرساله، وقال أبو أحمد الحاكم: هذا حديث منكر. اهـ. كلام الحافظ في «التلخيص».

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٥٦/٢) بهذا السياق، وأخرجه أبو داود (٥٩٤) بلفظ: «الصلوة المكتوبة واجبة خلف كل مسلم برًّا كان أو فاجرًا، وإن عمل الكبائر»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي انقطاع. وقال أبو أحمد الحاكم: هذا حديث منكر، وتقدم كلام الحافظ في «التلخيص» والإشارة إلى انقطاعه. ورواية أبي داود هنا، من طريق العللاء بن الحارث، عن مكحول، عن أبي هريرة، وقد رواه بالسند نفسه، بأنهم من الأول، بنحو رواية الدارقطني. وأما رواية الدارقطني فمن طريق يزيد بن يزيد بن جابر، عن مكحول، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو منقطع الإسناد بين مكحول وأبي هريرة، وانظر كلام الزيلعي في «نصب الراية» (٢٦/٢).

(٣) قال الحافظ في «التلخيص» (٣٥/٢): «صلوا خلف من قال: لا إله إلا الله، =

ومن الآثار عن الصحابة في هذا، ما في «صحيح البخاري» أن عبد الله بن عمر كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف^(١)، وكذلك أنس بن مالك، والحجاج كان فاسقًا ظالمًا، وكذلك عبد الله بن مسعود. وغيره كانوا يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وأيضًا: فمن المعلوم أن الفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة، ومن صحت صلاته؛ صحت الصلاة خلفه؛ ولأن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتبطل المفساد وتقليلها؛ بحسب الإمكان، فإذا لم يمكن صرف الإمام الفاسق، أو المبتدع عن الإمامة إلا بشر أعظم من ضرر ما أظهر من منكر، فلا يجوز شرعًا دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما.

= وصلوا على من قال: لا إله إلا الله.

الدارقطني من طريق عثمان بن عبد الرحمن، عن عطاء، عن ابن عمر. عثمان كذبه يحيى بن معين، ومن حديث نافع عنه، وفيه خالد بن إسماعيل، عن العمري به، وخالد متروك، ووقع في الطريق عن أبي الوليد المخزومي، فخفي حاله على الضياء المقدسي، وتابعه أبو البخري وهب وهو كذاب، ومن طريق مجاهد، عن ابن عمر، وفيه محمد بن الفضل، وهو متروك، وهو في الطبراني أيضًا، وله طريق أخرى من رواية عثمان بن عبد الله العثماني، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، وعثمان رماه ابن عدي بالوضع. اهـ. وانظر: «تنقيح تحقيق أحاديث التعليق» (٢/٢٠-٢١)، و«البدر المنير» (٤٦٣/٤-٤٦٥).

(١) أخرج البخاري (١٦٦٠) عن سالم قال: «كتب عبد الملك إلى الحجاج أن لا يخالف ابن عمر في الحج، فجاء ابن عمر رضي الله عنه وأنا م. يوم عرفة حين زالت الشمس فصاح عند سرايق الحجاج فخرج وعليه ملحفة ميسرة، فقال: ما لك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: الرواح إن كنت تريد الشفة، قال: هذه الساعة! قال: نعم، قال: فأنظرنني حتى أفيض على رأسي ثم أخرج. فنزل حتى خرج الحجاج فسار بيني وبين أبي فقلت: إن كنت تريد الشفة فاقصر الخطبة، وعجل الوقوف. فجعل ينظر إلى عبد الله فلما رأى ذلك عبد الله قال: صدق.

وأما الصلاة على من مات من الفسقة والفاجر:

فالصواب أنه يصلى خلفهم، وما جاء من النصوص في ترك الصلاة على بعض الفساق كقاتل نفسه، وقاطع الطريق، والغال، ومن عليه دين؛ فهذا إنما يترك الصلاة خلفه الأعيان والوجهاء والعلماء، ردعاً للأحياء حتى لا يفعلوا مثل ذلك، وأما عامة الناس؛ فإنهم يصلون عليه^(١).

وكذلك الشهيد الصواب أنه لا يصلى على الشهيد؛ لما ثبت عن النبي أنه دفن شهيداً أحد بدمائهم وثيابهم ولم يصل عليهم^(٢)؛ لأن الشهيد له أجر عظيم، ولأنه يأمن الفتنة، كما جاء في الحديث: «كفى ببارقة السيوف على رأيه فتنة»^(٣)، ويأمن من الفتان^(٤)، ويأمن من فتنة القبر، ولا يصلى عليه.

لكن ما عدا ذلك؛ فإنه يصلى على كل مسلم، إلا إذا علم أنه كافر، أو علم أنه منافق نفاقاً أكبر.

الصلاة خلف البر والفاجر

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ، وَعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ):

الشرح

هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة، خلافاً لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة والرافضة.

الشهادة للإنسان بالجنة أو بالنار

♦ قال المؤلف رحمه الله: (وَلَا تُنَزَّلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً، وَلَا نَارًا):

الشرح

هذا معتقد أهل السنة والجماعة: أنه لا يُحكم على الشخص المعين بجنة ولا نار إلا من شهدت له النصوص، مثل الأنبياء، ومثل العشرة المبشرين بالجنة، ومثل الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، ومثل بلال، ومثل عكاشة بن محصن، وغيرهم ممن ثبت له بالنصوص الشهادة بالجنة؛ فهؤلاء هم الذين نشهد لهم بالجنة.

وكذلك: مَنْ شُهِدَ لَهُم بالنار؛ كأبي جهل، وأبي لهب، أما ما عداهم؛ فإننا نشهد للمؤمنين بالجنة على العموم، فنقول: كل مؤمن في الجنة، ونشهد للكفار بالنار على العموم، فنقول: كل كافر في النار، وكل يهودي في النار، وكل نصراني، وكل منافق في النار، وكل وثني في النار،

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١٨-٢١٧/٢٨)، «موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع» (٤٣٦-٤١٩/١).

(٢) انظر ما أخرجه البخاري (١٣٤٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه السنائي (٢٠٥٣) من طريق ليث بن سعد عن معاوية بن صالح أن صفوان بن عمرو حدثه عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فذكره. وأخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢٣٠)، عن ابن مصطفئ، حدثنا بقرية، عن صفوان بن عمرو به، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٣٥٩)، وحسنه ابن القطان القاسي في «بيان الوهم والإيهام» (٧٤٣/٥).

(٤) انظر ما أخرجه مسلم (١٩١٣) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

وكذلك الشخص المعين الكافر، لا تشهد له بالنار إلا إذا علمنا أنه مات على الكفر وقامت عليه الحجة، وليس له شبهة كمن مات وهو يعبد الأصنام، وقد علم أن هذا وثن فأصر على عبادته؛ فهذا كافر، هذا معتقد أهل السنة في هذه المسألة.

وأهل السنة بهذا يخالفون أهل البدع؛ فإن الخوارج؛ يشهدون بالنار لكل فاسق، وكذلك أيضاً المعتزلة؛ يشهدون لمن مات على الكبيرة أنه في النار؛ لأنه خرج من الإيمان ودخل في الكفر^(١)، ولذلك فهذا هو الغرض من إدخال هذه المسألة في كتب العقائد.

فالخلاصة: أن منج أهل السنة والجماعة في هذا الباب: أنهم يقفون في الشخص المعين، فلا يشهدون له بجنة أو نار إلا عن علم - وهم الذين شهدتهم لهم النصوص-؛ لأن الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء.

والقاعدة في هذا: أن كل من رأيناه يعمل الصالحات، ورأيناه مستقيماً على طاعة الله؛ نرجو له الخير من غير شهادة له بالجنة، ومن رأيناه يعمل السيئات والكبائر نخاف عليه من النار، ولا تشهد له بها، هذا معتقد أهل السنة والجماعة.

وأقوال السلف في الشهادة بالجنة -كما سبق- ثلاثة أقوال^(٢):

نقول الأول: أنه لا يشهد لأحد بالجنة إلا الأنبياء، وهذا مروي عن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٧٢/١٠)، (٥٠١-٥٠٠/٢٨)، و«فتاوى اللجنة الدائمة» (١٣٩، ٤٤/٢)، (٣/ ٢٠٩).

(٢) انظر: «منهاج السنة» (٢٩٥/٥) وما بعدها.

الأوزاعي، ومحمد بن الحنفية، ودليل هذا القول أن الأنبياء معصومون، وأما المؤمن المشهود له بالجنة من غيرهم، فهو غير معصوم؛ لأنه يمكن ارتداده وكفره، فالشهادة له بالجنة معلقة بعدم ارتداده وكفره.

القول الثاني: أنه يُشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث، وهذا هو الصحيح؛ لأنه ورد عن المعصوم، وأما ما لم يرد، فلا يجوز له الشهادة؛ لأنه غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله.

الثالث: أنه يُشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، ولمن شهد له المؤمنون.

واستدل هؤلاء بما في «الصحيحين»: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «مَرَّ بِجَنَازَةٍ فَأَتْنَاهَا عَلَيْهِمْ خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مَرُّوا بِالْخُرَى فَأَتْنَاهَا عَلَيْهِمْ شَرًّا، فَقَالَ: وَجَبَتْ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: هَذَا أَتَيْنَهُمْ عَلَيْهِمْ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَتَيْنَهُمْ عَلَيْهِمْ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ^(١)»، وقال: «يُوشِكُ أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قَالُوا: يَمْ ذَاكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بِالنَّاءِ الْحَسَنِ، وَالنَّاءِ السَّيِّئِ...»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧) واللفظ له، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي رواية مسلم أنه كَرَّرَ قوله: (وجبت) ثلاث مرّات.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢١) واللفظ له، وأخرجه الحاكم (٢٠٧/١) -تحقيق: مصطفى عبد القادر، وصححه، وابن حبان (٧٣٨٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٩٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٣٨٢)، وأحمد في «المسنند» (٤١٦/٣)، و (٤٦٦/٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (٤٤٢)، وغيرهم، من حديث أبي زهير الشافعي رضي الله عنه وفي «الزوائد» (٢٤١/٤): «إسناده صحيح =

فأخبر النبي أن الثناء الحسن والسيئ مما يُعَلَّمُ به أهل الجنة من أهل النار، وأصحابُ هذا القول قالوا: من شهد له عدلان بالخير، وأنه من أهل الجنة فهذا دليل كونه من أهلها، وجواز الشهادة له بها؛ لأن الله ما أنطق أهل الخير والصلاح بالشهادة له بكونه من أهل الجنة إلا؛ لأنه من أهلها، لكن الصواب أنه لا يُشهد إلا لمن شهدت له النصوص، وأن هذا خاص بالصحابة الذين زكاهم النبي ﷺ.

= رجاله ثقات». وحسنة الألباني رحمه الله، وأورده ابن حجر في «الإصابة» (١٥٥/٧) في ترجمة أبي زهير الثقفي، وعزاه لأحمد، وابن ماجه، والدارقطني في «الأفراد»، ثم قال: «يستل حسن غريب»، والحديث الذي قبله يشهد لصحة معناه.